سوعة التاريخية الحديثة  الموسوعة التاريخية الحديثة

تاريخ
عصر النهضة الأوربية

الدكتور نور الدين حاطوم
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر في جامعة الكويت



دار الفكر

تاريخ
عصر النهضة الأوربية

تأليف

الدكتور نور الدين حاطوم

دار الفكر



تصوير ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م
عن ط - ١٩٦٨ م



طبع بالأوفست في دار الفكر هاتف (٢١١١١٦٦/٢١١٠٤١) ، برقياً (فكر)
ص.ب (٩٦٢) دمشق - سورية Tx FKRMGS 411745 Sy

المقدمة

عصر النهضة

ان عصر النهضة الأوربية أو القرن السادس عشر ، الذى ندرس تاريخه في هذا الكتاب ، هو العصر الذي يبتدىء برحلة كريستوف كولومب الاولى في العالم الجديد عام ١٤٩٢ وحروب ايطاليا ١٤٩٤ ، وينتهي بين وفاة اليزابت ملكة انكلترا ١٦٠٣ وموت هنري الرابع ملك فرنسا ١٦١٠ .

لقد حدثت في هذا العصر حوادث عظيمة وتبدلات عميقة في أنظمة الدول الداخلية ، وفي سياء اوربة العامة ، وفي علاقات هذه القارة مع القارات الاخرى . ولذا تختلف حوادث القرن السادس عشر اختلافاً كلياً عما نعرفه في العصر الوسيط الذي انهى في السنوات الاخيرة من القرن الخامس عشر .

واذا انتهى العصر الوسيط كما تنتهي الاشياء في التاريخ ، لأن هذه الاشياء لاتزول تماماً بل تبقى مع الزمن ، فاننا نجد في حياة رجـــال القرن السادس عشر وافكارهم واعمالهم كثيراً من معالم العصر الوسيط الراحل . وليس في سياق التاريخ واستمراره انقطاع للحوادث البشرية ، بل ان هذه الحوادث تجري في تطور بطيء مستمر . وقد يقع أن يحدث مايؤخر سيرها ، غير انها لاتلبث ان تعاود الكرة وتستأنف تقدمها ولو ببطء وخجل . واذا حدث في العصر الوسيط ماأخر ركب الحضارة ،

فما عتمت هذه أن اغذت السير في عصر النهضة ، ولفتحت عن حضارة زاهية وانسانية جديدة ، لأن تاريخ القرن السادس عشر حافل بالقوى الثورية الجديدة التي تغلبت على القوى التقليدية المحافظة . وفي الحقيقة ان في تاريخ القرن السادس عشر حداثة وتجديداً في اوربة ، او على الأقل في اوربة الغربية .

تتجلى مظاهر التجديد في اوربة عصر النهضة بحوادث كبرى وتطورات عظيمة اشبه ماتكون بثورات ، الثورة الفكرية والدينية والاخلاقية والسياسة الجديدة والاقتصاد الجديد .

الثورة الفكرية . — اذا درسنا آثار المؤلفين في هذا العصر الذي ننعته بالعصر الحديث وجدنا أن لاجديد لديهم بالمعنى المطلق ، لان العصر الوسيط مازال يعيش بين ظهرانيهم ، وكثيراً مايذكرنا نمط تفكيرهم بتفكير اسلافهم . حتى أن الفلسفة المدرسية (السكولاستيكية) مازالت مستحكمة عند من كان ينادي منهم أنه عدو السكولاستيكية ؛ ولنذكر على سبيل المثال أن فرانسوا رابلية أكبر اعداء الرهبان كان راهباً أيضاً .

واذا تأملنا هذه الثورة الفكرية في مظهرها الخارجي وجدناها عوداً على القديم « وبدا لنا القرن السادس عشر وكأنه التفاتة نحو الماضي اكثر منها نحو المستقبل ، او رجعة نحو ماضيين يجملها معاً ، وهما القديم الوثني والقديم العبري — المسيحي ، أو نحو الالياذة والكتاب المقدس . وما النهضة والاصلاح الديني في البدء الا حركتان متوازيتان وباتجاه واحد لتتعرف أحداهما بحقيقة الحركة الانسانية في العصر القديم « ولتعيد الاخرى الدين المسيحي إلى نقاوته القديمة الاولى . فحيث نحاول أن نجد ثورة ، لانجد في الحقيقة إلا رجعية .

ولكن يجب الا نؤخذ بالظواهر فننكر على القرن السادس عشر كل تجديد . ان روح أي عصر من العصور لايتمثل بعقلية الكتل والدهماء والجماهير ، بل بعقلية الصفوة المختارة من أبنائه ، فئة من الابطال ، كما يقول كارليل ، حملة المشاعل الذين ينيرون للناس طريق المستقبل خلال ديجور الحاضر . واذا درسنا رجال الفكر في هذا العصر ، رأينا عندهم مفهوماً جديداً للعلم والطبيعة والدين والاخلاق الفردية والاجتماعية ومما يجدر ذكره ان هؤلاء الابطال يشعرون بأنهم في عصر حديث ، وان القرن السادس عشر يعرف نفسه بأنه عصر حديث ويصرح بحداثته ويبشر بالاكتشاف وبحلول عالم جديد .

ولكن المجددين كثيراً مايتقدمون عصرهم ويكونون عرضة لاضطهاد معاصريهم ممن لايفهمون آراءهم : مثال ذلك كوبرنيك (١٤٧٣ — ١٥٤٣) ، فقد برهن على حركة الكواكب حول نفسها وحول الشمس ، فحكم البابا بان نظريته مخالفة للكتاب المقدس . وبالرغم من أن كوبرنيك نفسه كان من أبناء القرن السادس عشر ، فقد كانت الفكرة الثورية الجديدة ، التي اتى بها ، متقدمة على القرن الذي عاش فيه .

ومثله ليؤنار دو فانتشي ، فقد قرأ القديم كثيراً ، وأخذ عنه كثيراً ، ولم يرزح تحت ثقل هذه الكثرة ؛ واعتمد على التجربة ، وعلى هذه التجربة وحدها اسس الميكانيك ، وبفضل التجربة كان يبدو سلفاً لنيوتن . فقد عرف نظرية الامواج وهوية الصوت والنور والحركة ، وأوجد علم طبقات الارض (الجيؤلوجيا) ولم يأخذه عن أريسطو أو بلين الشيخ أو عن سفر التكوين . وقام بالتشريح ، وكان لديه فكرة عن الجنين والاحوال التي يمر فيها ، وعن التشريح المقارن ، وتنبأ بالطيارة .

وكان الجراح الفرنسي آمبرواز باريه (١٥١٧ — ١٥٩٠) يقول : « يجب أن يكون الاقدمون بمثابة مرصد لنا ننظر منه إلى بعيد » . وهو « كلؤناردو » لايعتقد إلا بالتجربة . وقد استطاع بتجاربه الخاصة ان يستعيض عن الكي بعصب الشرايين منعاً للنزف ، فقضى بعمله هذا على التقاليد الموروثة .

ان امثال هذه الحالات ليست في الحقيقة إلا اثباتاً لشخصية الفرد وثورة للضمير البشري الحي على القسر الجماعي وعما تعارف الناس عليه والفوه .

هذا وان كلمة العلم قد تبدل معناها في هذا العصر . فبعد أن كانت تدل على التقليد أو الكنز المتوارث عن القدامى . أصبحت تدل على معرفة الكائن . وهذه المعرفة يكتسبها الانسان بتأمله في الكائنات . ومثل هذا التفكير هو الثورة بعينها .

الثورة الدينية . — والى جانب هذا المفهوم الجديد للعلم ، أتى القرن السادس عشر بمفهوم جديد للعقيدة ، وهو حرية الضمير أو الوجدان ، وبعد أن كان الدين ولم يزل حادثاً اجتماعياً ، لأنه يوجد بين معتنقيه طائفة أو جماعة واحدة ، اصبح حادثاً فردياً وكنزاً للمؤمن خاصاً به دون سواه .

لم يشك بهذه الثورة ابناؤها الذين اذكوا نارها ، وهم ، كرجال النهضة ، لايعتقدون بأنهم ابدعوا قيماً جديدة بل ارجعوا قيما قديمة عفى عليها النسيان ، وجددوا بناء الكنيسة القديمة بعد أن اثقلته مع العصور ابنية اخرى ، ويقولون ان البشرية المسيحية ضلت سواء السبيل منذ الف سنة ، ولذا يجب السير بها في طريق الهداية والرشاد .

لقد بدأت حركة الادب الانساني بالرجوع إلى النصوص القديمة . وأول عمل لهذه الحركة هو اقصاء الشراح والمفسرين والذهاب ، في طريق مستقيم ، إلى كلام الله ، إلى الكتاب المقدس ، لا كما نقله الينا منسقو الفلغاطة « أي النص اللاتيني الأول للكتاب المقدس ، لان هذا النص يبقى عرضة للنقد العلمي ، بل إلى الكتاب القديم بنصه الاصلي كما خرج من بين يدي موسى والانبياء . غير أن الحادث الحاسم في هذا العصر هو نشر الانجيل باللغة القومية ووضعه تحت تصرف من يقرأ او من يسمع من يقرأ . ولم يكن كل هذا ممكننا لولا اختراع الطباعة . لقد ترجم المصلح مارتن لوثر ، وهو في سجنه في فارتبورغ ، الكتاب المقدس إلى اللغة الالمانية فجعل بترجمته هذه لغة مشتركة للشعب الالماني . وكذلك تم نشر الكتاب المقدس باللغة المحلية في انكلترا والبلاد الاسكاندينافية .

وبعد هذا قامت الحروب الدينية ، واضطهد البروتستانتيون في فرنسا خاصة وفي البلاد المنخفضة ، وعانى هؤلاء ما عانوا في سبيل إيمانهم . إلا أنهم عرفوا أن حرية الروح انما هي شيء ثمين جداً لايشتري بالذهب ، وانما يقتضي التضحية . ومع الزمن لم يستطيعوا أن يرفضوا لغيرهم الحرية التي استماتوا في سبيلها . ومن هذه الحروب خرجت حقيقة ، وهي أن ليس في إمكان ابناء دين ما أن ينزعوا دين غيرهم أو إيمانهم . وآل الامر اخيراً إلى حل وسط او حلول متوسطة اشهرها « مرسوم نانت ١٥٩٨ » . ولم يكن هذا المرسوم كاملاً ، إلا أنه يعترف ، ولو بصورة جزئية ، بحرية الوجدان .

وهنالك شيء آخر يتعدى النزاع بين الكنيسة الرومانية والكنائس البروتستانتية المختلفة ، وهو موقف الديانة المسيحية نفسها أمـــام جرأة التفكير . فقد لوحظ أن اكاديمية افلاطون في فلورنسا تقترح صهر الفكر

الوثني القديم مع الفكر المسيحي . وذلك لأن معرفة القديم بصورة مباشرة قوضت دعائم المذهب البسيط الذي يقسم تاريخ النفس البشرية إلى دورين . دور الخطيئة والضلال قبل مجيء المسيح ، ودور الايمان الحقيقي والفضائل بعده . حتى أن رجال الاصلاح البروتستانتي ، بالرغم من تمسكهم بالكتاب المقدس ، لم يستطيعوا أن يبقوا في معزل عن هذا التفكير العريض . وفي العام ١٥٢٤ كان يبشر بأن « خلاص الوثني يتوقف على نيته باتباع العقل ولو لم يكن معمداً » . ولكن أتى هذا التفكير العريض ذهب إلى أبعد من ذلك وتصدى للاسس المسيحية نفسها . لأن الحركة الانسانية في فلورنسا قامت تناهض المذهب القائل بأن الارض « وادي دمع » . وهكذا نشأت في عقل فئة مختارة الفكرة القائلة بأن « العالم المرئي خلقه إله الحب ، ومن هذا الإله يستمد دوماً الحركة والحياة » . ولذا فإن فردية النهضة تعتبر ، من بعض الوجوه ، احتجاجاً على النسك والزهد ، وتعظيماً للحياة الارضية التي تستحق ان تحيا بذاتها ، بآلامها وافراحها . وكم في هذا التفكير الجريء من خطر على الايمان التقليدي .

الثورة الاخلاقية . — وقد يستحيل ، اذا سيطر الدين ، في عصر من العصور ، على كل شيء ، ان تحدث الثورة الدينية دون أن تبدل قواعد الاخلاق ، ومما لاشك فيه أن الحركة الانسانية لم تكن ثورة فكرية خالصة . فاذا وجد في ايطاليا اناس أخذوا بسحر الجمال القديم ورضوا بوثنية بعيدة عن الاخلاق ، أو لادخل للاخلاق فيها ، فقد وجد أيضاً في فرنسا خاصة وفي المانيا والبلاد المنخفضة وانكلترا والبرتغال ، بين جماعة الحركة الانسانية ، من كان يعبد الشكل لذاته أو ، كما يقال ، من كان يعشق الفن للفن ، بل ان هؤلاء كانوا لايبحثون في آثار

افلاطون وشيشرون عن درس في الجمال أو طلاوة في الاسلوب فحسب ، بل عن قاعدة للحياة ومنهج للسلوك . فالحركة الانسانية عند رابليه وكوليت مثلا كانت اخلاقاً وعلم وجمال في آن واحد ، لان « العلم بلا وجدان ليس سوى دمـار للنفس » . فأمام الابيقورية والانانية ، اللتين ينادي بهما بعض الايطاليين ، كان آخرون يضعون الفضيلة ويدعون لها .

وهذه الاخلاق التي يعنونها اخلاق بشرية ، والفكرة الاساسية فيها هي أن الانسان صالح بصورة طبيعية ، وعليه أن يسلك قوانين طبيعته ليعمل خيراً .

ولقد ساعد المصلحون أنفسهم على جعل هذه الاخلاق بشرية ، حتى أن لوثر جعل الفضيلة كالايمان الكل في الكل ، ونصب ، امام المثل الاعلى القديم لفضيلة النسك ، مثلا أعلى آخر وهو قداسة المنزل والفضائل العائلية المتواضعة .

وذهب كالفن الى ابعد منه ، وفصل بين ماهو من الله وماهو من الانسان وبين أن المسيحي « مخلص » بعمله شريطة أن يقوم به على قدر وسعه مستعملاً في ذلك مامنحه الله من هبات ، ويبدو أنه لم يلاحظ أنه أقرب بهذا الى الحكمة القديمة من حرفية الانجيل التي تحتفظ بملكوت الله للفقراء . ولكن دخول هذا الملكوت لايكون محظوراً على الاغنياء اذا احسنوا استعمال ثرواتهم .

هذا وتظهر فكرتان جديدتان في أخلاق القرن السادس عشر :

الاولى ، وحدة الجنس البشري . فقد كان الاعتقاد السائد طويلاً أنـه لايوجد سوى بشرية واحدة من أعقاب أولاد نوح . وتنقسم هذه البشرية الى قسمين ، المسيحية والوثنية . إلا أن الحروب الصليبية

والرحلات عبر آسيا بدلت هذا المفهوم . وكذا اكتشاف العالم الجديد عرف أوربة ببشريات مجهولة سابقاً ، وجعل الأوربيين يتساءلون ما إذا كان الهنود بشراً مثلهم . ولكن قبل أخيراً أن يعتبروا في عداد البشر لأنه لوحظ أنهم يشعرون بالألم كغيرهم من الناس .

الثانية ، فكرة التقدم . وقد خرجت هذه الفكرة من الاختلاف بين المعرفة القديمة والاكتشافات التي أصبحت ممكنة بفضل التقدم العلمي . ففي عام ١٥٩٩ قـــام أحد مؤرخي الحروب الدينية واسمه لابوبولينيير واحتج على الاعجاب المفرط بالماضي الذي ينادي به : « الكثيرون ممن يحبون القديم أكثر من حبهم للعقل » وأخذ يرد على من يقول : « لقد جئنا متأخرين بعد أن صنع كل شيء » بقوله : « إن الطبيعة لاتكلّ من العمل ، وان اختراعات المحدثين تتمم اختراعات الاقدمين . ألم يرتكب الاقدمون اخطاء في الفلك وعـــلم حركات الكواكب ؟ ومن منا لم يضحك من الآلات التي كان يستعملها الأقدمون في تهديم الحصون . وإذا كان من الجد أن تحسن أدوات الموت أو تخترع ، فهنالك اختراع واحد ، على الأقل ، يفوق الاختراعات الاخرى ، ألا وهو الطباعة » . ومثل ذلك اختراع الابرة المغناطيسية وما إلى ذلك من نتائج في معرفة الأرض . وهذه النتائج أخلاقية بقدر ما هي جغرافية ، لأن « شعوب العالم تتعارف ويألف بعضها بعضاً وتتحاب وتتعاون وتتحادث وكأنها في مدينة واحدة » . وعلى هذا النحو تنضم نظرية التقدم إلى فكرة وحدة الجنس البشري ، وتنتهي بنداء إلى التقدم في المستقبل .

السياسة الجديدة . — هنالك أربع وقائع كبرى تسجل ، في آخر القرن الخامس عشر وأول القرن السادس عشر ، بدء عهد جديد في السياسة الاوربية وهي :

١ — تشكل الدول الحديثة وفكرة القومية .

٢ — تهيئة الفكرة الديموقراطية .

٣ — تعصير السياسة .

٤ — تبدل العلاقات الدولية .

إن الجمهورية المسيحية ، التي سادت العصر الوسيط ، لم تعد في حيز الوجود في هذا العصر ، بعد أن انقسمت إلى عدة دول . والفكرة الجديدة هي أن سيادة الدولة قامت مقام فكرة السيادة الاقطاعية ، وان الملك ليس زعيم طبقة الاقطاعيين بل هو الأمير ، وليس له تابعون فحسب بل رعية . وقد أخذ مؤلفو الكتب السياسية هذه الفكرة عن الحقوق الرومانية ، وكان يدرسها فقهاء القانون في ايطاليا وفي اقليم لانغدوك ، في فرنسا ، منذ القرن الثالث عشر . ولقد شهد القرن السادس عشر غزواً جديداً للحقوق الرومانية في الجامعات الأوربية .

وفي الحقيقة ، ان ما جعل لهذه النظرية قيمة عالمية هو أنها خرجت من الوقائع التاريخية مثل حرب المائة عام وحروب ايطاليا التي رفعت اسم الملوك واظهرت اسم الأمة وفكرة الحدود والحدود الطبيعية والعاطفة القومية واللغة المحلية التي قامت مقام اللاتينية . وأدت الحروب الدينية إلى تعصير السياسة الداخلية بعد أن تبين ضرر الحرب الأهلية واستحالة الوحدة الدينية في الدولة . وكان لتعصير السياسة الداخلية نتيجة وهي تعصير السياسة الخارجية . والمسؤول عن هذا التبدل هو البابوية نفسها التي استحالت إلى دولة زمنية . فقد كانت دولة البابا في عهد بورجيا دولة كسائر الدول تشن الحروب ، وتعقد المعاهدات ، ولها أعداؤها ، ولها حلفاؤها .

أما نزاع الدول فيما بينها فقد أدى بها إلى التوازن الأوربي ، وهذا يعني الا تترك دولة من الدول تكبر لدرجة تصبح فيها خطراً على غيرها ؛ ومن ثم إلى تسوية السلام الأوربي .

الثورة الاقتصادية . — غير أن الحادث الهام ، الذي يميز القرن السادس عشر ويشمل سائر المظاهر الجديدة بما فيها الاصلاح الديني ايضاً ، هو التبدل العميق الذي جرى في اقتصاد أوربة الغربية اثر الاكتشافات البحرية الكبرى التي ساعدت على نمو النشاط التجاري . يضاف إلى ذلك تذوق حياة الأبهة الناجم عن ضعف الرادع الديني ، واحتكاك أوربة بالحضارة الايطالية ، وتدفق المعادن الثمينة من أمريكا وانتشارها في السوق الأوربية عن طريق اسبانيا ؛ وأخيراً الأزمة العامة التي نجمت عن انخفاض قيمة النقد وارتفاع سعر الحياة .

كل هذه الأسباب جعلت لتداول النقد أهمية عظمى ، وحدت بالكثيرين إلى البحث عن الذهب وحب الكسب الذي يربط ثروة الدولة بازدياد اكداس النقد عندها ، ويجعل الحكومة تبادل غيرها وتبيع كثيراً . وقد بولغ باتباع هذا المذهب حتى نتجت عنه أعمال القرصنة ، وخاصة في انكلترا ، والبحث عن المستعمرات واستثمارها على انفراد دون أي منافس .

وهكذا نرى في تاريخ القرن السادس عشر رسماً أولياً وصورة سابقة لبعض صفات التاريخ الحديث والمعاصر .

★ ★ ★

القسم الأول

النهضة الاوربية

الفصل الأول

اوربة والعالم في آخر العصر الوسيط

يجدر بنا ، قبل البدء في دراسة تاريخ القرن السادس عشر ، ان نبين كيف كانت خارطة العالم السياسية في آخر العصر الوسيط ، أي في السنوات الاخيرة من القرن الخامس عشر .

اوربة

بعد أن تداعت الامبراطورية الكارولنجية في الغرب الأوربي انحلت قوى الدولة ، حتى ان فكرة الدولة فقدت معناها ، وشيد المجتمع بشكل جديد التف فيه الضعيف حول القوي ، ونما النظام الاقطاعي على هذا النحو ، وخضع في ظله سكان المقاطعة أو الاقليم لحكم السيد وادارته . ولم يكن ساكن الاقطاع خاضعاً للملك بصورة مباشرة بل تابعاً له عن طريق وسيط .

وفي الحقيقة ، ان الملكية ما زالت قائمة وتحتفظ مبدئياً بكل صلاحياتها وامتيازاتها ، ولكنها لا تملك من السلطة الحقيقية شيئاً ، لأنها كانت مشلولة اليد أمام الامراء الاقطاعيين . غير ان مذهب السلطة الملكية عاد للظهور ، منذ القرن الثالث عشر حتى آخر القرن السادس عشر ، بفضل رجال القانون الذين استخلصوه من الحقوق الرومانية وأخذوا

يصرحون بأن السيادة يجب أن تكون واحدة ومطلقة ، وان الملك وحده يملك سلطة التشريع .

وكانت هذه الملكية المطلقة آخذة بالتشكل في آخر القرن الخامس عشر ، عند بعض الدول على الاقل ، وكان الملك يسعى لنزع السلطة السياسية من أيدي الأمراء ، أي حق ادارة اقطاعاتهم . ولكن هذه النزعة كانت تختلف من بلد لآخر .

أ ــ أوربة الغربية

لقد كانت دول أوربة الغربية منظمة تنظيماً قوياً ، وكانت الدول الهامة ، فرنسا ، انكلترا ، اسبانيا ، مرشحة لان تلعب دورها في التفوق الاوربي خلال العصور الثلاثة الآتية في المستقبل .

فرنسا . ــ كانت فرنسا بلداً متقدماً على غيره في طريق الوحدة القومية . وكانت نفوسها ١٥ مليون تقريباً ، وتضم أرضها اقطاعات كبرى . وكان ملك فرنسا يتمتع بمكانة خاصة بين سادة اوربه ، لأن السلطة الملكية رسخت قدمها امام طبقة النبلاء في عهد لويس الحادي عشر (١٤٦١ - ١٤٨٣) ، ولأن الملكية كانت ذات سياسة اقتصادية تشجع حركة المبادلة ، وعندها فكرة واضحة عن ضرورة وجود التضامن بين رفاه الدولة والثروة الفردية .

انكلترا . ــ كانت بلداً زراعياً بدأ بالصناعة ، وخاصة بصناعة الصوف . ولم تكن قوة بحرية بعد ، فقد كانت تجارتها الخارجية بأيدي الاجانب من البنادقة والماني بلاد الهانس . وتقدر نفوسها بأربعة ملايين نسمة . وقد تشكلت وحدتها المعنوية ببطء ، كما في فرنسا ، خلال حرب المائة عام . ولكن الجزر البريطانية لم تكن كلها خاضعة لحكم واحد .

وفي عـام ١٤٨٥ اعتلى عرش انكلترا الملك هنري السابع من اسرة تيو دور ، وكان يتمتع بسلطة عظيمة ، كذلك فرنسا ، لأن طبقة النبلاء ضعفت منذ ١٤٥٠ بسبب الحروب الاهلية التي عرفت بحروب الوردتين . وقد جعل همه زيادة المؤسسات الملكية . ولكننا نرى ، من جهة ثانية ، أن لانكلترا برلماناً أي مجلساً مؤلفاً من مجلس اللوردات (ويضم كبار الأمراء العلمانيين والكنسيين) ، ومجلس العموم (ويضم الممثلين المنتخبين من قبل ملاكي الاراضي التي لهـا ايراد معين) . ولم يكن باستطاعـة الملك فرض ضريبة أو سن أي قانون دون مساعدة البرلمان . والواقع ان هنري السابع تيو دور لم يدع برلمانه الا قليلا .

اسبانيا . — كانت نفوسها ٨ ملايين نسمة تقريبـــاً . وقد ظلت حتى هذا التاريخ مجزأة الى عدة دول . ولكن بعـد أن تزوج فرديناند آراغونه بايزابيل قشتاله أصبح لها سياسة مشتركة ، وحاول الملكان خلق الوحـدة المعنوية في المملكة باجلاء العرب في ١٤٩٢ ودعوة اليهود إلى اعتناق الديانة الـكاثوليكية . كما وطدت الملكية الاسبانية النظام الداخلي ووضعت حداً للحروب بين النبلاء .

ب — اوربة الوسطى

في هذا القسم من اوربه ، الذي يمتد من اسكانديناڤيا إلى ايطاليا ، نجد التجزأة السياسية بالغة اقصاهـا . فمن شعب برينيو إلى بحـر الشمال وبحر البالطيك ، وعلى أرض يبلغ سكانها تقريباً ٢٠ مليوناً ، نجد دولتين هامتين فقط : دولة آل هابسبورغ الوراثية (وتشمل النمسا ، ستيريا ، كارنيول ، تيرول) والدولة الفلاماندية البورغونيـة (البلاد المنخفضـة وبورغونيا) . وفيما عدا هاتين الدولتين نجد فسيفساء من الدول الثانوية ، وبعض الامارات الصغرى من كنسية وعلمانية واقطاعات ومدناً .

لقد وجد بين هذه الدول رابط نظري وهو الامبراطورية الجرمانية المقدسة ، التي تضم جميع البلاد الممتدة من بوميرانيا إلى البلاد المنخفضة فالورين والكانتونات السويسرية فدول هابسبورغ وبوهيميا ، ولم يوجد بينها ، في الواقع ، أثر للوحدة السياسية وكان على رأس هذه الامبراطورية المقدسة عاهل منتخب لا يتمتع بأي سلطة ولا يحصل من المجلس العام (الدياط) على المعونة إلا في الاحوال الاستثنائية .

غير أن النشاط الاقتصادي كان يتجلى في بعض أقسام أوربة الوسطى ، لأن بعض المدن ، مثل موانى هامبورغ وبريم ولوبيك خاصة ، قد تشاركت في سبيل التجارة الخارجية وتجهيز الاسطول وألفت كتلة عرفت باسم رابطة أو « عصبة الهانس » التي بلغت نقطة الذروة في رفاهها ، في القرن الخامس عشر ، وأصبحت تؤلف في اوربة قوة يحسب حسابها .

ايطاليا . — كانت نفوسها ١٢ مليون نسمة تقريباً ، وتتألف من عدة امارات ، خمس منها هامة وهي : دوقية بيمونت — سافوا ، دوقية لومبارديا ، الدول البابوية ، جمهورية البندقية ، مملكة نابولي .

وكانت الحرب دائمة بين هذه الامارات ، ولم يتردد امراؤها في البحث عن سند اجنبي . ولكننا نلمس في وسط هذه الفوضى الايطالية خاصتين تتواجدان معاً ، رغم تعارضهما من حيث المبدأ ، وهما :

١ — اهمية المدن ، لان المدن تلعب في الحضارة دوراً اساسياً . ولقد كانت الحياة الحضارية نشيطة في المدن الايطالية .

٢ — قوة العاطفة الايطالية ، لان التجزئة السياسية لم تمنع وجود عواطف نحو الوحدة اللغوية وحب التفوق الناجم عن نشاط الحياة الفكرية وذكرى التراث الروماني القديم .

بيد أن ايطاليا كانت تشكو عدم الاستقرار في حياتها الداخلية ، وهذا ما جعلها عرضة لطمع الدول المجاورة .

البلاد الاسكاندينافية . — نجد فيها ثلاث دول : الدانيمرك ، السويد ، النورفيج ، متحدة مبدئياً منذ ١٣٩٧ باتحاد كالمار . ولكن الواقع هو ان الملكية الدانيمركية اخذت تحاول ، منذ اول القرن السادس عشر ، بسط سيادتها على السويد والنورفيج .

ج — اوربة الشرقية

تزينا الخارطة السياسية في اوربه الشرقية ثلاث دول كبرى : بولونيا ، موسكوفيا ، الامبراطورية العثمانية .

بولونيا . — كانت تضم ، في القرن الخامس عشر ، في عهد آل جاجيللون ، عدا عن البلاد البولونية الصرفة ، بروسيا الغربية وبوهيميا وهونغاريا وليتوانيا . غير أن هذه الامبراطورية أخذت تتداعى بموت كازيمير جاجيللون عام ١٤٩٢ وزاد انحطاطها في آخر القرن السادس عشر .

ولكن بولونيا بقيت موطن حياة فكرية نشيطة ، كما هي الحال في جامعة كراكوفيا ، وعاملاً قوياً للحضارة على أطراف الدول اللاتينية .

موسكوفيا . — كان ايفان الثالث دوق موسكو الاكبر (١٤٦٢ - ١٥٠٣) جامعاً للاراضي الروسية . فقد ضم الامارات المجاورة لدوقية موسكو ، وأنشأ الدولة الروسية ، وأخضع طبقة النبلاء ، ولم يترك لها حرية التصرف بأراضيها إلا بصورة امتيازات قابلة النقض . كما دان له الاكليروس ، وغدت اسقفية موسكو تابعة للسلطة الزمنية . ولكن موسكوفيا كانت بلداً زراعياً ولا توجد الحياة فيه الا نادراً .

الامبراطورية العثمانية . ـ أتى الاتراك العثمانيون من شبه جزيرة الاناضول واستوطنوا اوربه ، في النصف الثاني من القرن الرابع عشر ، وفتحوا القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، واخضعوا مسيحيي شبه جزيرة البلقان .

ولقد كانت الامبراطورية العثمانية ، بفضل ضرائبها الباهظة ، تتمتع بموارد عظيمة تساعدها على تعبئة جيش هام وتؤهلها لان تلعب دوراً هاماً في السياسة الاوربية .

وفي الواقع لم يكن « العالم الاوربي » ليشمل جميع دول القارة ، لأن البلاد الموسكوفية الارثوذكسية ، التي مازالت نصف بربرية ، والبلاد الاسلامية الخاضعة للعثمانيين ، لاتؤلف قسماً من أوربه . يضاف إلى ذلك ان دول اوربه الغربية والوسطى كانت ، في آخر القرن الخامس عشر ، قليلة الاتصال بالامبراطورية العثمانية ، ولا يوجد أقل تماس بينها وبين موسكوفيا ، التي كانت عملياً مغلقة على أوربة . بيد أننا في هذا العالم الاوربي ، الذي نحدده على هذا الشكل ، نرى وجود صفات مشتركة وهي :

١ ــ ان الحضارة قبل كل شيء مسيحية ، لأن الاختلاف الديني لايوجد ، أو على الاقل لايعترف بـه ، ولأن الدين يجمع بين الحياة الفردية والجماعية . والكنيسة قادرة على أن تقول كلمتها الحاسمة انى ومتى شاءت .

٢ ــ ان المجتمع كان مرتباً على طبقات . ففي كل دولة من الدول الأوربية كانت الطبقات الاجتماعية منفصلة متميزاً بعضها عن بعض بالترتيب : النبلاء ، الاكليروس ، الطبقة الوسطى .

القارات الاخرى

أ ــ اسيا

كان في آسيا ، في آخر القرن الخامس عشر ، اربع دول هامة : الصين ، اليابان ، الهند ، ايران .

الصين . ــ لقد خضعت الصين للمغول في القرن الثالث عشر . غير ان ثورة وطنية صينية قامت في الصين وطردت المغول عام ١٣٦٨ ، واسس زعيم الحركة الوطنية سلالة جديدة ، وهي سلالة آل منغ التي دامت حتى عام ١٦٤٤ .

وكانت الصين ، في آخر القرن الخامس عشر ، امبراطورية كبرى ، وربما بلغ عدد نفوسها ٥٠ مليوناً ، بيد انها كانت امبراطورية مسالمة . ولا شك في ان آل منغ سلكوا ، في اول القرن الخامس عشر ، سياسة توسع ، في الهند الصينية وجاوا وسيلان ، ولكنهم عدلوا عن هذه السياسة ، فيما بعد ، وانطوت الصين على نفسها .

تمتاز الصين بالصفات الآتية :

١ ــ بحضارتها الدقيقة الناعمة من حيث الثقافة الفكرية والفن الصناعي .

١ ــ بحياتها الاقتصادية النشيطة ، حتى أن نشاط الموانئ النهرية وثروة جمعيات التجار الصينيين أخذ بلب الاوربيين الاوائل الذين اتصلوا بهم .

٣ ــ بنظامها الاداري المتين ، ولو ظاهراً على الاقل . فمن ذلك ان الموظفين لايستلمون مهام عملهم الا بعد اجتياز فحص . وكانوا على مراتب ، ولم يكن في الصين ، خلافاً لما كانت عليه الدول الاوربية ، طبقة نبيلة تلعب دورها في شؤون الادارة .

ولكن بدأت ، منذ ذلك الحين ، ظاهرة أساسية في حياة الصين ، وهي احترام الطقوس والتقاليد المتعلقة بالاعتقادات الدينية وعبادة الاسلاف القدماء ، ولم يعد للصيني رغبة في التقدم فغلبت عليه المحافظة .

اليابان . — لقد طبعت اليابان بطابع الحضارة الصينية ، غير أن وضعها السياسي كان مخالفاً تماماً . ولم يكن للامبراطور سلطة حقيقية ، بل كانت السلطة الفعلية ، من حيث المبدأ ، بيد الشوغون ، أي الزعماء العسكريين . وكثيراً ما كانت الامر الكبرى تتنازع منصب الشوغون حتى أن الحرب كانت دائمة تقريباً بين الاقطاعيين . وفي مثل هذه الحالة كانت السلطة الحقيقية بيد هؤلاء الامراء الاقطاعيين أي « الدايميو » المحاطين بتابعيهم « الساموراي » . وكانت الحرب الاقطاعية ، في آخر القرن الخامس عشر ، حالة طبيعية في اليابان .

الهند . — عالم مركب ومعقد ومزيج من العروق والاديان والحضارات . وكان السكان الهنود خاشعين نوعاً ما إلى حكم المسلمين ، من الاتراك والافغانيين ، الذين أنشأوا في القرن الثاني عشر والثالث عشر امبراطورية هندية — اسلامية في منطقة دلهي . وستفتح هذه الامبراطورية الاسلامية عام ١٥٢٦ على يد المغولي العظيم بابر وتتأثر بالحضارة الفارسية . وكان هذا الفتح بداية لتشكيل امبراطورية دامت حتى القرن التاسع عشر ، واحتوت السهل الهندي الغانجي كله .

ايران . — كانت آسيا الوسطى ، حتى فاتحه القرن الخامس عشر ، تحكم من قبل سلاطين اتراك يحارب بعضهم بعضاً . غير ان حركة قومية دينية قامت في ايران وآلت في عام ١٥٠٢ إلى تشكيل دولة دائمة وهي امبراطورية الصفويين ، التي امتدت ، في زمن ما ، حتى بغداد .

وكانت لهذه الامبراطورية حضارة زاهرة وكان لاشعاعها تأثير كبير في بلاد الشرق .

كانت هذه الدول الآسيوية دون اتصال بأوربه تقريباً ، ولكن هذا لم يمنع من أن تعلم اوربه بوجودها من رحلة ماركوبولو (١٢٧١ — ١٢٩٥) في القرن الثالث عشر ، ومن بعثات الفرنسيسكان في بلاد المغول والصين في القرن الرابع عشر . ولكن منذ أن تقدم الفتح التركي في بلاد آسيا الغربية واوربة الشرقية انقطعت العلاقات المباشرة بين هذه البلاد الآسيوية واوربة .

ب — افريقية

لقد كانت افريقية السوداء ، التي هي افريقية الحقيقية ، تخفى على اوربة . وكانت هذه تجهل تمام الجهل تقريباً حالة السكان الزنوج ، في القرن الخامس عشر ، ولكنها تعلم تاريخ سكان افريقية الشمالية الذين ينتمون إلى العرق الابيض من مصريين وبربر وعرب .

وقد اخضع الفتح العربي ، منذ القرن السابع ، مناطق واسعة في افريقية . ولم يتوطد الحكم العربي في افريقية الشمالية فحسب ، بل ان تأثير العرب انتشر ، بالتجارة والدعوة الدينية ، في افريقية الشرقية في شاطيء المحيط الهندي وافريقية الغربية ونفذ إلى قلب افريقية السوداء . وكانت التجارة العربية نشيطة بواسطة القوافل بين افريقية الداخلية والبحر المتوسط وخاصة في المحيط الهندي .

وكان الوضع في افريقية في آخر القرن الخامس عشر تقريباً مايلي :

البلاد الاسلامية . — وتؤلف مايقارب نصف افريقية الشمالي . ولكن لم يكن بينها وحدة سياسية جامعة .

بلاد **الحضارة السوداء** . — ويوجد فيها قبائل تتجمع احياناً بشكل اتحادات . وتؤلف هذه الاتحادات نوعاً من ممالك ، وخاصة في منطقة الكونغو وزامبيزيا العليا .

الحبشة . — وقد دانت بالديانة المسيحية على أيدي التجار السوريين في القرن الرابع وظلت مسيحية . الا انها اعتنقت الهرطقة القائلة بطبيعة المسيح الواحدة وكان لنجاشي الحبشة سلطة مطلقة على عدد من الممالك ، وكانت هذه الممالك بمثابة ولايات تابعة له .

وفي افريقية هذه لم يحاول الاوربيون أن يتوغلوا بعد ، إلا ان الاسبانيين اسسوا ، منذ القرن الخامس عشر ، بعض المراكز على شاطىء افريقية الشمالية ، وعرف الملاحون البرتغاليون شاطىء افريقية حتى مصب الكونغو .

ج — امريكا

كان استيطان هذه القارة متبايناً جداً ، فالى جانب الصحارى أو أراضي المراعي الحالية نجد مناطق كثيفة السكان نسبياً .

ولم تكن طباع السكان أقل اختلافاً . وكان معظمهم يعيش عيشة بدائية . وقد وجد فيها ثلاثة مراكز حضارية .

١ — حضارة الماياس في القسم الجنوبي من المكسيك الحالية .

٢ — حضارة الآزتيك في القسم الاوسط من المكسيك .

٣ — حضارة الانكا في هضاب بيرو العليا وبوليفيا الحالية . وأهم هذه الحضارات ، على مايظهر ، هي حضارة الانكا . فقد نظموا دولة ذات طابع أصيل ، ووجدت الحياة الاقتصادية فيها منظمة بصورة دقيقة

يوزع فيها السيد الاراضي والاعمدة بين السكان ويأمر بأعمال الطرق والجسور وبنـــاء السدود . كما يأمر بصنـع الملابس في مشاغل الدولة ويوزعها عليهم .

وهذا التنظيم في الحياة الاقتصادية يفرض وجود ملاك منظم للدولة . فقد كان الموظفون يجتازون الفحص قبل توظفهم ، ويؤمنون مراقبة الانتاج والمبادلات ومصالح الارتباط .

وكانت طرق المواصلات ، من طرق برية وادراج في الجبال ، معتنى بها ، حتى أن بعض علمـــاء الاقتصاد يرون ، في دولة الانـكا هذه ، اقتصاداً من النوع الاشتراكي .

ان هذا الوضع العام ، الذي اتينا على ذكره ، تبدل في السنوات الاخيرة من القرن الخامس عشر والنصف الاول من القرن السادس عشر ، وذلك بتأثير حوادث ذات أهمية عظيمة لا بالنسبة لاوربة فحسب ، بل لمعظم العالم .

والحادث الرئيسي هو الاتصال المباشر بين أوربة والقارات الاخرى بعد الاكتشافات الكبرى التي كانت نقطة الانطلاق في التوسع الاوربي .

وفي الوقت نفسه تبدلت سماء اوربة ، وخـــاصة اوربة الغربية ، بتأثير القوى الجديدة من نهضة فكرية واقتصادية ودينية .

ونرى اخيراً ، في بعض البلاد الاوربية ، وخاصة في فرنسا ، أن النظم السياسية تبدلت ، وان الدول اخذت طابعاً جديداً وهو تطور الملكية الوراثية ونزوعها نحو الحكم المطلق .

★ ★ ★

الفصل الثاني

حروب ايطاليا

من ١٤٩٤ إلى ١٥٥٩

كان القرن السادس عشر مسرحية تاريخية كبرى تتألف من عدة فصول . وأول هذه الفصول حروب ايطاليا . واذا بحثنا في هذه الحروب وجدنا أنها ترجع في أصلها إلى العصر الوسيط . غير أنها مالبثت أن أخذت شكلاً جديداً وأدت إلى مفاهيم حديثة لم تكن معروفة من قبل . ولذا تعتبر من هذه الناحية همزة وصل في التاريخ العام .

وعندما نقول « حروب ايطاليا » نعني بها هذه الحملات التي وجهتها كل من الدول الكبرى الأوربية ، فرنسا ، اسبانيا ، الامبراطورية المقدسة ، إلى شبه جزيرة ايطاليا ، وتابعت ارسالها من ١٤٩٤ إلى ١٥٥٩ . هذا ويعتبر عبور شارل الثامن ملك فرنسا في العام ١٤٩٤ لجبال الالب . نقطة انطلاق لهذه الحروب أو رفعاً للستار عن المسرح الذي تمثل عليه هذه المسرحية ، كما يعتبر الانتخاب الامبراطوري في عام ١٥١٩ نقطة الوصول ، لأن اعتلاء شارل الخامس الملقب بشارلكان الهابسبورغي عرش الامبراطورية المقدسة ، وما علق به من نزاع في قضية بورغونيا ، أثار أول حرب كبرى عرفتها العصور الحديثة في سبيل الهيمنة على الغرب الأوربي .

اسباب حروب ايطاليا

في العـام ١٤٩٤ عبر ملك فرنسا شارل الثامن جبال الالب وانحدر منها على رأس جيش كبير إلى ايطاليا ، ثم تلت هذه الحملة عدة حملات. وتعتبر هذه الحملة الأولى انحرافاً في السياسة الفرنسية المتبعة ، وخروجاً على تقاليدها المألوفة ، لأن ملوك فرنسا ، حتى ذلك الحين ، كانوا يسلكون باستمرار سياسة فطنة ودراية ، ويحاولون جهدهم ألا يلقوا بأنفسهم وبجنودهم في مغامرات بعيدة لا طائل تحتها ، بل انهم ، على العكس ، كانوا يبحثون عن المنافع القريبة منهم ويسعون في توسيع رقعة أرضهم على حساب الاقطاعات الكبرى ، ودون أن يصرفوا اهتمامهم عن الحدود الشرقية ، لأن المنطقة ، التي كانت وراءها وتمتد من الراين إلى الالب ، كانت داخلة في الامبراطورية المقدسة ، ويبدو أنها تستطيع في هذه الحال الانضمام إلى الجانب الأقوى . ولم يأل جهداً ملوك فرنسا في أن يمتدوا بنفوذهم اليها كلما سنحت الفرصة . فمن ذلك أن فيليب الرابع ، الجميل ، كسب ليون وكونتية بار ؛ وفيليب فالوا أو فيليب السادس الملقب بالجريء كسب الدوفينة ؛ وشارل السابع تدخل في اللورين ؛ ولويس الحادي عشر احتل مقاطعة فرنش — كونته وبروفانس مستفيداً من قضايا وراثية .

غير أن قضية بورغونيا لم تحل نهائياً . فقد كانت تابعة للدوق شارل المتهور الذي حاربه لويس الحادي عشر فلقي حتفه تاركاً وارثة في العشرين من العمر تسمى ماريا بورغونيا . وقد قرر لويس الحادي عشر أن يستولي على ارثها ، فوضع يده على بورغونيا وفرانش — كونته وبيكارديا وآرتوا ، باستثناء الفلاندر التي بقيت محافظة على ولائها لماريا

بورغونيا . وقد أخذت هذه تبحث عن سند لها تحتمي به من هذا الملك الذى جردها من اموالها ، فتزوجت بالأرشيدوق مكسمليان النمسا . وكانت النتيجة المباشرة لهذا الزواج ضياع الفلاندو من المملكة الفرنسية ، والتنافس الطويل بين الأسرة الفرنسية والاسرة النمساوية .

قامت الحرب بين ماريا بورغونيا ولويس الحادي عشر وبقيت دون نتائج حاسمة ، وتوفيت على اثرها ماريا بورغونيا . وعقدت بعدها معاهدة آرّاس (١٤٨٢) بين لويس الحادي عشر ومكسمليان على أن تبقى الأمور على حالها ، وأن تتزوج مارغريت النمسا ، بنت ماريا ومكسمليان ، ولي عهد فرنسا ، شارل ؛ وان تقدم فرانش — كونته وآرتوا مهراً له . غير أن هذه المعاهدة لم تنه شيئاً ، لأن لويس الحادي عشر أضاع كونتيه الفلاندر الغنية وأخذها آل هابسبورغ ، ولم يحتفظ بآرتوا وفرانش — كونته إلا كمهر لمارغريت النمسا خطيبة ابنه ولي العهد شارل . وعندما أصبح هذا الأخير ملكاً باسم شارل الثامن ، حاصر آنا بروتانيا ثم تزوجها في العام ١٤٩١ ، وانضمت هذه المقاطعة أخيراً الى المملكة الفرنسية .

ثم تأزمت القضية البورغونية وبلغت درجة عظيمة من الخطورة غير ان الملك الشاب ، شارل الثامن ، لم يكن ليفكر الا بايطاليا ، بلد المغامرة الكبرى . وليجعل هذه المغامرة سهلة الامكان رأى أن ينهي السياسة ، التي اتبعها ابوه لويس الحادي عشر ، ويمنح جيرانه عدداً من الامتيازات لتكون حدود المملكة ، مدة غياب الحملة ، في امان من أي تهديد أو خطر من قبل اعدائه . ولذا فسخ عقد التآلب الذي أبرمه مع مكسمليان . وقد أصيب هذا بصدمتين : الاولى : ضياعه آنا بروتانيا

وكانت ترغب الزواج به ، فقد كان منهمكاً في حربه مع الفلاماندين ، ولم يكن لديه متسع من الوقت للتدخل ، عندما أمرع شارل الثامن وحاصر آنا في مدينة رين إلى أن رضيت بزواجه بها . والثانية : فسخ خطبة ابنته مارغريت مع شارل الثامن .

أما شارل الثامن فقد سوى المسائل كما يلي :

١) **عقد معاهدة سانليس (٢٣ أيار ١٤٩٣)** مع مكسمليان النمسا وبموجبها تخلى له عن آرتوا وفرانش — كونته .

٢) وعقد في هذه السنة ايضاً **معاهدة بارشلونة** ، وبها أعاد روسّيونْ إلى فردیناند آراغونه .

وهذه الأقاليم الثلاثة : آرتوا ، فرانش — كونته ، روسيون ، التي كسبها لويس الحادي عشر وتخلى عنها شارل الثامن ، لم ترجع إلى فرنسا إلا بعد عدة حروب في القرن السابع عشر . أما الفلاندر ، فقد فقدتها فرنسا نهائياً ، باستثناء جزء منها ، ولبث ملوك فرنسا ، خلال ثلاثين عاماً ، وهم في منأى عن السياسة التقليدية ، يبذرون مواردهم ويبددون قواهم في مشاريع خيالية وهمية ، وكما قيل ، في « حروب الفخر والعظمة » .

إن السبب الاول لهذه الحروب ، التي قامت في ايطاليا ، يرجع إلى مزاعم ملك فرنسا في مملكة نابولي ، التي كانت قديماً داخلة في ملكية الأمراء الآنجوفيين أي آل آنجو . وتشمل هذه المملكة الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة أي ما يقارب نصف إيطاليا . وقد عرفت في القرنين الرابع عشر والخامس عشر تاريخاً مضطرباً جداً . وضع آل آراغونه ، وكانوا سادة صقلية ، يدهم عليها عام ١٤٤٣ ، ثم قام الأمراء الآنجوفيون بمحاولات عديدة لاسترداد نابولي ، غير أن مساعيهم باءت بالخيبة . وقد

نقل آخرهم الملك رونيه مزاعمه عليها في العام ١٤٨٠ إلى لويس الحادي عشر ، فلم يعلق هـذا الأخير كبير اهمية على هذا الارث . أما ابنه شارل الثـامن ، وهو آخر أحفاد بولاندا آنجـو ، فـكان ، على عكس ابيه ، فكراً روائياً يحب الخيال ويحلم بمغـامرات شارلومان وفتح نابولي ليذهب منها بآماله إلى قبرص والقدس والقسطنطينية وليزيح عنهـا « الكافرين » ويردهم على أعقابهم خاسرين ، ويسترجع الامبراطورية الشرقية لصالحه الخاص .

والسبب الثاني يرجع الى الدسائس التي يحيكها دوق ميلانو ، لودوفيك لومور من آل سفورزا ، لدعوة الفرنسيين لمساعدته ضد ملك نابولي .

وأخيراً المزاعم التي قام بها لويس الثاني عشر ، خليفة شارل الثامن ، على ميلانيا أي منطقة ميلانو ، وكان لويس الثاني عشر حفيد فالانتين فيسكونتي بنت دوق ميلانو الأول جان غاليا . ولذا كان يرى بأن له حقوقاً على دوقية ميلانيـا التي وضع آل سفورزا يدهم عليها ، حوالي منتصف القرن الخامس عشر ، وجعلوها ملكاً من أملاكهم .

وطال النزاع على هذه الممتلكات . وبينما كان قائماً بين ملوك فرنسا وآل آراغونه على مملكة نابولي ، اذا به يصل إلى نزاع بين هؤلاء الملوك والامبراطور مكسمليان على ميلانيـا التي يعتبرهـا اقطاعاً من اقطاعات الامبراطورية المقدسة .

اشترك في حـروب ايطاليا ، في أول الأمر ، ثلاث أسر كبرى مالكة : فرنسا ، النمسا ، اسبانيا . غير أن الموقف تطور ابتداء من ١٥١٩ ، بسبب انضمام الأسرة النمساوية إلى الاسرة الاسبانيـة ، عندما اعتلى عرش الامبراطورية المقدسة شارلكان ملك اسبانيا . وهددت فرنسا من جهة الشمال والشرق والجنوب فقامت تناضل للدفاع عن بيضتهـا

وسلامة أرضها . وتدخلت على اثر ذلك دول اوربية أخرى مثل انكلترا والامراء الألمانيين ، وتركيا ، ولم يعد النزاع بعدها قاصراً على ايطاليا فحسب بل توسع وعم أوربه .

أدوار الحرب . — دامت حروب ايطاليا من ١٤٩٤ إلى ١٥٥٩ ويقسمها المؤرخون إلى عدة أدوار . على أننا نكتفي بتقسيمها إلى دورين كبيرين .

الأول : من ١٤٩٤ إلى ١٥١٦ ، ويتفق هذا الدور مع حكم شارل الثامن ولويس الثاني عشر وبداية حكم فرنسوا الاول من ملوك فرنسا .

الثاني : ١٥١٩ إلى ١٥٥٩ ، ويطابق حكم فرنسوا الاول (١٥١٥ — ١٥٤٧) وحكم هنري الثاني (١٥٤٧ — ١٥٥٩) ويمتاز باتساع شقة الخلاف بين الملكية الفرنسية والامبراطورية النمساوية . وقد تجلت في حروب ايطاليا أهمية العلاقات الدبلوماسية ، وشدة العناية بالسياسة الخارجية ، والبحث عن احلاف ، وانقلاب هذه الاحلاف على بعضها بين حين وآخر تبعاً لمصالحها الخاصة . وظهر فيها تحول وتجديد في طرق الحرب ووسائلها ، مما دل على ان هذه الحروب كانت بمثابة حروب انتقالية بين الحرب في العصر الوسيط حيث يستعمل السيف والترس والدرع وغيرها ، وبين الحرب في العصر الحديث حيث يستعمل المسدس والبندقية والمدفع وتغلب عدد الجنود المشاة على الفرسان .

ايطاليا قبيل الحروب

كانت ايطاليا ، في آخر القرن الخامس عشر ، بالنسبة الى اوربة ، بلداً جميلاً ساحراً يشع بالنور فيستهوي جميع الشعوب . إن تقاليد روما

والعواطف التي تجذب الحجاج إلى « المدينة الخالدة » ، والجاه الذي يتمتع به الكرمي البابوي ، والرغبة الملحة في مشاهدة البلاد العذبة بما فيها من حياة مترفة وحضارة زاهية ؛ إن كل هذه المشاعر والأحاسيس كانت تبعث في النفس الحنين والشوق إلى ايطاليا وتملك « البرابرة » فيما وراء الجبال . لقد بدت ايطاليا لهؤلاء الأوربيين بلداً متقدماً على غيره من البلاد الاخرى . وكان الواقع يؤيد ذلك ، نظراً لحياتها الاقتصادية وتركيبها الاجتماعي وحياتها الفكرية النامية الصافية الحرة وانظمتها السياسية المتنوعة . غير انها كانت في هذا المعنى متأخرة بالنسبة لغيرها ، لأنها لم تعرف كيف تبدع النظم التي تستطيع بها تنمية نشاطها بسلام . فمن هذا التناقض الذي نراه بين حضارة متقدمة وعجز عن تأسيس دولة أو دول متماسكة وقوية ، ومن هذا التباين بين ايطاليا الغنية وجيرانها الجشعين ، خرجت المأساة الايطالية فكانت انقلاباً عظيماً في تاريخ العصر .

وإذا كانت ايطاليا تستحق أن يطلق عليها اسم « تعبير جغرافي » فهي تستحقه جيداً في آخر القرن الخامس عشر . ولم يكن هذا التعبير محدداً جيداً في بعض الجهات : ففي الشمال الغربي لم تكن جبال الالب حداً فاصلاً ، لأن امرة سافوا كانت تقبض على معابر الجبال ولها رعايا سافوردية وبيمونتية . وهي إذا لامست البحر المتوسط عند نيس فلقد كانت تتجاوز ، في شمال بحيرة ليمان ، الاراضي الفرنسية : فود وبريس وبوجي . وكانت ماركيزية سالوس تابعة لفرنسا . كما أن جنوه أصبحت فرنسية مرتين خلال القرن .

وفي الشمال يرى أن كثيراً من امارات ايطاليا الشمالية مثل : ميلانو ، مانتو ، مودينا ، بارما ، كانت اقطاعات للامبراطورية المقدسة ، وان

امراءها سرعان ما يبادرون إلى الامبراطور للاعتراف بسلطتهم على المدن التي يخضعونها لادارتهم . يضاف إلى ذلك أن الاباطرة الجرمانيين ، منذ آل شتاوفن ، خلفوا مستعمرات جرمانية عند اقدام هـــذه الشعاب الجبلية . فمدينة ترانت ، مثلا ، كانت مدينة المانية في منطقة ايطالية .

وفي الشرق ، كانت ايطاليا على اتصال بالشعوب السلافية ، كالسلوفيين في شبه جزيرة ايستريا ، والدالماسيين على الشاطىء الشرقي للبحر الادرياتيك . وكانت الجزر والمدن التي في هذا البحر خاضعة لنفوذ البندقية وسيطرتها ، ولكن هذه الاخيرة غلبت على امرها تحت طغيان المد السلافي .

وبالرغم من التباين في اللهجـات والاختلافات السياسية فقـد وجد في ايطاليا ما نسميه « الايطالية » ، وهي هـــذه العاطفة ، التي تتملك الايطاليين في وحدتهم اللغوية ، وتراث روما المشترك ، وشعورهم بتفوقهم الفكري ، وثقافتهم الصافية ، فتجعلهم أبناء امرة واحدة ، وبامكانها أن تحتقر « البرابرة » أي سكان اوربه الذين يأتون اليهـا من وراء جبـال الالب . ولكن إذا وجد في ايطاليا ، لحد ما ، روح ايطالية ، فليس فيها ما يشبه دولة ايطالية أو اتحاداً أو جامعة دول ايطالية . لقد كان مصور ايطاليا فسيفساء حقيقية متبدلة الحواشي والاطراف ، وكان التنافس يولد حروباً دائمة ، ويزيد هذه الحروب تعقيداً وتركيباً المنازعات الاهلية بين الاحزاب والطبقـــات في داخل كل دولة ، كنزاع البورجوازيين والنبلاء ؛ والشعب « النحيل » والشعب « الطري » . وقد قامت هذه المنازعات مقام المنازعات التقليدية المـألوفة في العصر الوسيط بين أنصـار البابوات (الغلفيين) وانصار اباطرة جرمانيا (الغيبيليين) ، التي قسمت ايطاليا على نفسها من القرن الثاني عشر إلى القرن الخامس عشر . ولذا

كان العدو بجد ، في كل مدينة ، حلفاء يدعونه لنصرتهم ، وكانت الحروب تؤدي إلى الثورات .

غير أن الاشتراك في الحرب ، بالنسبة للبورجوازية المتمولة في الحواضر الكبرى ، كان معناه التخلي عن أرباح الصناعة والتجارة ، ولذا كانت ترجح استئجار رجال ، من محترفي الحرب ، وزعماء يأخذون على عاتقهم سوق العصابات والقيام بالعمليات الحربية . ولا شك في أن مثل هذه الحال كان يؤدي إلى نتائج لا سبيل إلى اجتنابها . وهي أن الزعيم المأجور كان بعيداً عن أي روح مدنية ، همه أن يقوم بالحرب كفنان ، ولم يكن لديه أي رغبة في ابادة الخصم والقضاء عليه ، حرصاً منه على سلامة رجاله ودفعاً لخسائره ، حتى أن الحروب البسيطة كانت تقرر مصير الدول . وكان الزعيم يحاول الاستمرار في وضعه معتمداً على قوته . ولهذا السبب كانت الجمهوريات في المدن تستحيل إلى امارات ، في الاسم أو في الواقع ، لصالح بعض الاسر ولو كانت هذه الاسر متحدرة من ارومة متواضعة . فكان يسود آل بانتيفوليي في بولونيا ، وآل باليوني في فيروزة ، وآل ايستْ في فراره ، وآل غوانزاغ في مانتو ، وآل مالاتيستا في ريميني ، وآل سفورزا في ميلانو .

وعلى هذا النحو نشأ في ايطاليا نموذج سياسي جديد يسمى « الامير » . ويختلف هذا الامير كثيراً عن الامير الاقطاعي القديم ، واكثر من ذلك عن الملك . ولم يكن لهؤلاء الامراء أي ميزة من الميزات الصوفية التي استفاد منها آل فالوا في فرنسا ، وآل تيودور في انكلترا ، و « الملكان الكاثوليكيان » في اسبانيا ، لأنهم لم يوقظوا في نفس رعاياهم أي عاطفة تشبه العاطفة القومية ولو من بعيد . لقد توصل هؤلاء الامراء إلى السلطة بالقوة والخداع ، ولذا كانوا يرجعون دوماً إلى القوة والخداع للمحافظة

على كيانهم ضد محاولات منافسيهم وضد الاحزاب المناوئة المستاءة . وما قيمة الدول التي يحكمونها إلا بمقدار قيمتهم الشخصية .

هذا وتستطيع القوة الاقتصادية أن يكون لها من النفوذ ما للقوة العسكرية . فيمكن لصاحب المصرف الغني مثلا أن يكون « اميراً » كزعيم العصابة . ولا شك في أن ماكيافيلي ، مؤلف كتاب « الأمير » ، بدأ هذا الكتاب وهو يفكر برجل حرب ، ولكنه أهداه إلى ابن رجل مال . وفي القسم الفلورنسي من كتابه نجد أن كل شيء يحوم حول المصرف ووظائفه الاساسية التي ترمي إلى ادارة المصالح المالية في البلاط البابوي وتأمين استيراد الصوف وتصدير المنتجات التوسكانية . ومن امر أصحاب البنوك ، امرة آل ميدتشي التي استطاعت ، بفضل كوزم وبطرس ولوران ، ان تحصل على نفوذ وقوة غير منازعين . وفي ١٤٩٢ خلف بطرس الثاني أباه لوران دون أي تبديل في سير النظم الفلورنسية . غير أن عجزه الشخصي وعدم كفاءته والغزو الفرنسي أجلت تحويل هذه الامارة إلى دولة ملكية .

وكانت الحروب بين المدن تؤدي غالباً إلى توطيد نفوذ الاقوياء على جيرانهم وفي المدن ، التي تردى فيها الوضع إلى حالة التبعية ، كان أمراء الجمهوريات المتبوعة يضعون نائباً عنهم يمارس جميع السلطات باسمهم ولذا نرى ، في هذه التجزئة الايطالية ، اتجاهاً نحو المركزية ، وفي كتل المدن عواصم ودواوين وبلاطات . غير أن هذه المركزيات كانت مركبة ومحدودة وموضعية وينافس بعضها بعضاً ، وان ما يفهمه الايطاليون من الوحدة انما هو استيعاب الدول الضعيفة وابتلاعها وامتداد الدولة القوية . فمن ذلك أن فلورنسا حذفت منذ تسعين عاماً حرية بيزا لتستطيع الاحتفاظ

بالطريق مفتوحة إلى البحر ، ونصبت على جسر نهر الآرنو أسدها الحجري « مارزوكو »¹. وكذا آل سفورزا ، ســـادة ميلانو ، خلفوا آل فيسكونتي على رأس الدولة اللومباردية التي تضم بافيا وبرغام .

وأقوى هذه الدول ، وهي جمهورية البندقية ، كانت استثناء لنظام الامارة الذي يكاد يكون عاماً في ايطاليا . وتتألف هذه الجمهورية من جماعة ارستقراطية من اصحاب السفن ، ولا تجد ، في أحواضها المائية ، الحنطة الضرورية لتغذية سكانها والمواد اللازمة لمصانعها . وكانت في ممتلكاتها على الارض اليابسة تمارس سلطة تنزع إلى المركزية الملكية ، ولا تخلو هذه المركزية من فائدة ، لأنها تحمي البورجوازية والطبقات الشعبية من طغيان النبلاء .

ولم تكن هذه الجمهورية دولة ايطالية بالمعنى الصحيح ، لأن منافعها في اوربه . فقد كانت تقبض على طرق البلقان بممتلكاتهـا على الشاطىء الشرقي للبحر الادرياتيك ، وعلى قبرص منـذ عـام ١٤٨٥ ، وتسيطر باساطيلها في الاسكندرية على تجـارة البحر المتوسط الشرقي . وبفضل موقعها عند اقدام معابر الالب الشرقية كانت أبنيتها مستودعات للتجـارة بين بلاد شرق المتوسط والشرق الأقصى من جهة ، ومدن المانيا الصناعية ومدن الهانس وبوهيميا وقسم من هونغاريا وبولونيـا من جهـة أخرى . وكانت طريق القطن وطريق التوابل تمران دوماً من البندقية ، كما كانت ترساناتها تستورد المعادن ، وخاصة النحاس ، من مناجم اوربه الوسطى . يضاف إلى ذلك أن استيلاء الاتراك ، على الامبراطورية البيزنطية الهرمة ، لم يزعزع قوة هذه الجمهورية . غير أن البندقية كانت بحاجة لتأمين غذائها ، وهذا ما جعلها تضيف ، إلى منتجات أرضها اليابسة ، منتجات البلاد التي أصبحت عثمانيـة . وكانت مضطرة ، بحكم هـذه الضرورة ، لأن تبقى

محافظة على علاقتها السلمية مع الباب العالي ، ولذا كان أفقها السياسي يشمل ، على هذا النحو ، فيّنا والقسطنطينية ، أي يتجاوز حدود ايطاليا .

وكانت تلعب دورها في ايطاليا بهذه القوة التي تأتيها من الخارج . ففي أراضيها من اليابسة كانت تؤلف عقبة أمام توسع الدولة اللومباردية ، وتهدد مواصلات فلورنسا ، وتمنع الدولة الحبرية من أن تمتد بنفوذها إلى الأمارات الرومانيولية . وأدى الضعف بملوك نابولي إلى التخلي عام ١٤٥٦ عن خمسة موانيء « نقاط الاستناد الخمس » لأساطيلها على شاطىء بوي الشرقي . وفي هذا مايساعدها على اغلاق البحر الأدرياتيك متى تشاء .

في الحقيقة ، كانت البندقية ، في نظر جمهرة الايطاليين ، عدواً ودولة تسعى وراء التوسع والتسلط .

أما الدولة الحبرية فتمتد في وسط ايطاليا . ويعتبر العام ١٤٩٢ تقويماً أساسياً في تاريخها . ففي ١١ آب من هذا العام تم انتخاب البابا الكسندر السادس ، وهو ثاني بابا من امرة بورجا الاسبانية ، التي يسميها الايطاليون بورجيا ، وسيلعب دوراً حاسماً في تحويل الكنيسة الرومانية إلى اكبر دولة زمنية في ايطاليا . كان هذا البابا سيمونياً فاسقاً وأباً لأمرة عديدة جشعة . طبق سياسة المقربين والمحاسيب دون خجل أو حياء ، حتى أن أشد المؤرخين ، رغبة في محاباة الكنيسة الرومانية والاحتجاج على اسطورة آل بورجيا ، لايخفون شيئاً من هذه المعايب . ومهما قيل في أعمال الكسندر وابنه « قيصر » ، من الوجهة الاخلاقية فقد أدت إلى نتائج سياسية عظيمة : من ذلك أن حبه لأقربائه بلغ به مبلغاً عظيماً ، حتى ان من يمتون اليه بصلة القربى البعيدة غادروا اسبانيا اثر انتخابه لينقضوا على الغنيمة الرومانية . وقد قال فيه رسول فيراره في تشرين الثاني ١٤٩٢ : « ان عشر بابويات لاتكفي هذه الذرية السيئة » .

يحث الكسندر السادس في أول الأمر عن أحلاف لأبنائه يضاعفون سطلته الزمنية : فقد تزوجت ابنته لوكريس أميراً من آل سفورزا ثم ابناً طبيعياً لملك نابولي قبل أن تصبح دوقة فيراره . وخلع ابنه قيصر الأرجوان ، لبـــاس الكردينال ، ليتزوج شارلوت البريت . وحارب البابا آل اورسيني واعطى إلى ابنـــه العزيز ، دوق غانديا ، بينيفين وتيراسين ، وجعل ابنه قيصر دوق رومانيو سنة ١٤٩٩ حاماً للكنيسة وحاملاً رايتها . حتى أن الدولة الحبرية بدت في العـــام ١٥٠٠ ملكاً لأمرة واحدة . وكانت الامر ، التي تثور في هذه الدولة ، مثل أمرة اورسيني وسافيللي وكولونا ، نجد من يمثلها في « هيئة الكرادلة » التي ترى فيها جميع المؤثرات الايطالية والأوربية . وكان الكرادلة يلعبون كالبابا دوراً زمنياً : فمن ذلك أن اسكانيو سفورزا كان يدافع عن السياسة الميلانية ؛ وجوليان دولاروفير « الجنوي الاصل » كان خصماً خطراً لآل بورجيا ودخل في خدمة فرنسا التي وضعت يدها على اوستي ميناء روما .

وفي جنوب الدولة الرومانية تمتد ملكة نابولي . وكانت هذه المملكة تابعة منذ عام ١٤٥٨ لفرع طبيعي من امرة آراغونه . أمـــا الفرع الشرعي فقد احتفظ بصقلية . فضلاً عن ان آل آنجو لم يتخلوا عن مزاعمهم في نابولي . وقد ساءت علاقات ملكها فرديناند مع البابا وكرهه بارونات المدينة لفظاعته وسوء امانته ، فالتفوا حول امير ساليرن وبحثوا عن حلفاء لهم في الخارج .

كانت العلاقات بين هذه الدول الايطالية ودية حيناً ، وعدائية حيناً آخر ، وكانت كل دولة تمثل نفسها لدى الاخرى بسفراء أو « اوراتوري » دائمين أو موقتين .

وكانت ايطاليا ، في ذلك الحين ، ارضاً للتجارب يظهر فيها نشاط اوربه الحربي والدبلومامي ، وتعقد فيها الدول التآلبات والاحلاف . ففي ١٤٤٨ وجد حلف فلورانسي — ميلاني ضد البندقية وقبيل حروب ايطاليا ابرمت فلورنسا وروما ونابولي حلفاً للمحافظة على الحالة الراهنة . وكان لودوفيك سفورزا سيد ميلانو ، ولكنه لم يكن دوقها بل دوق باري . وكان ابن أخيه جان غالياً ضعيفاً مريضاً لا حول له ولا قوة . وقد تزوج غالياً بايزابل بنت الفونس كالابري أي بحفيدة ملك نابولي ، وفي العام ١٤٩٠ أتت منه بغلام ، وبدا الخطر عظيماً على لودوفيك فانحاز إلى معسكر أعداء نابولي .

ومن هنا تبدو صورة سياسة التوازن ضد النزعات ، التي ترمي إلى السيطرة والهيمنة ، وفكرة المناداة بحكم أجنبي . ولما كانت الدول أو حكومات الدول لاتستطيع أن يستولي بعضها على الآخر ، وكانت جيوش زعماء العصابات تتحاب على الدوام دون نصر حاسم ، فقد اصبح من الممكن أن تدخل إلى العالم الايطالي قوة خارجية ترجح كفة الميزان . ويبدو أن الفكرة الغيبيلية القديمة ، التي كانت تنزل من جبال الالب الملك الذي يبعث السلام ويقوم الاخطاء ، قد ظهرت بشكل جديد ، وأخذت ايطاليا تنتظر وتدعو وتطالب بالمنقذ الذي يفصل في القضايا المعلقة . وتجاوز النشاط الدبلومامي الايطالي حدود الجبال . وكان للدول الايطالية الهامة في البلاطات الاوربية عمال ينازع بعضهم بعضاً ، ومنفيون يؤملون بقوى جديدة لخدمة احزابهم المغلوبة . فنشأ عن ذلك لعب دائم في الدسائس والمكايد والمساومات والوعود . ولاغرابة في أن يشرى بالذهب مستشار لملك من الملوك ، أو يلمح أمام آخر بمنصب أو بعقبة

الكردينال . وفي الغالب كانت الدول التي يطلب تدخلها : فرنسا ، اسبانيا ، الدولة النمساوية — البورغونية .

كان المتنافسون يقيمون الممثلين الدائمين في فرنسا خاصة ، لأن فرنسا شارل الثامن ، وقد توحدت سياسياً وقويت عسكرياً ، كان تتمثل فيها الدولة الممتازة . ويتمتع ملكها ، سليل القديس لويس ، بجاه عظيم في جنوب جبال الالب ، واليه تتجه انظار الضحايا ويلجأ المنفيون . ويبدو أن ايطاليا ، الحلوة من التقاليد الملكية ، كانت تعمل فيها اسطورة ملوك فرنسا .

ولا شك في أن من كانوا ينادون بشارل الثامن لم يفكروا باستعمال الراية الفرنسية ، في بعض الاحيان ، الا « كبعبع » يخيفون به منافسيهم ، وكانوا يعتقدون في قرارة نفوسهم أن هذا التدخل من وراء الالب ، الذي يعلن عنه دوماً ، لايمكن أن يكون حقيقة أبداً ، حتى ولو اتخذ الملك دعوتهم جدية وانحدر إلى ايطاليا ، لأن لهم ، من « دقة أفكارهم ، كما يزعمون ، مايجعلهم يتغلبون على عقلية رجال ماوراء الالب « الغليظة » .

هذه هي العناصر السياسية للقضية الايطالية . ويضاف لها عنصر اخلاقي وديني ، وهو هذه الاصوات التي تعالت صارخة على فساد الكنيسة الرومانية ووثنية النهضة الاولى واطماع الزعماء الطغاة الذين يضطهدون ايطاليا ويمزقونها ويوردونها موارد الهلاك . ولقد امد انتخاب البابا السيموني عام ١٤٩٢ هذه اللهجة الحارة بغذاء جديد . وقام الراهب الدومينيكي سافونارولا في فلورنسا ينادي بالمحرر الذي يطهر ايطاليا من اداراتها ويرجع ملكوت المسيح . وكانت الوف المستمعين اليه تنفجر بالنحيب

والزفرات . وقد دل سافونارولا بكلامه وتنبؤاته قبل عيد الميلاد عام ١٤٩٢ على العذاب الذي سيحل بـ « سدومـات » شبه الجزيرة ، أي بالمدن الايطالية التي تشبه سدوم وعـامورة . ونظر في السحاب فوصف « سيف السيد الذي سيهبط على الأرض عاجلاً » ، وسيرى هذا السيف اليد التي تقبض عليه ، يد سيروس جديد . وبعد قليل على شارل الثامن إلا أن يعبر الالب وينحدر إلى ايطاليا .

الحوادث الاساسية

الدور الاول (١٤٩٤ – ١٥١٦) . – كان جيش شارل الثامن عظيماً في عصره بالرغم من أنه لم يكن ليتجاوز الثلاثين الفاً . واكثر من نصفه فرسان . ويشتمل على جنود اجـانب من البلقـان وسويسرا والمانيا ، وجنود فرنسيين من مقاطعات غاسكونيا ودوفينة ، وبيكارديا ونورمانديا . وكانت المدافع التي معهم ثقيلة خشيها الايطاليون . وقـد أعد الملك كل مااستطاع في سبيل النصر .

وما انحدرت الحملة من جبال الألب الا وانهارت ايطاليا كالبنـــاء المتوهن . ففي بافيا قدم لودوفيك لتحية الملك في ١٥ تشرين الاول . وفي ٢١ منه توفي جـــان غاليا دوق ميلانو الاسمي ، وقيل أنه مات مسموماً ، واستقر الامر للودوفيك ونودي به دوق ميلانو . أما في فلورنسا فقد أخذ وعظ سافونارولا شكل نداء للحرية ، وطرد الفلورانسيون آل ميدتشي ، وفر بطرس واخواته ، وجاء سافونارولا إلى المارشال الثامن « المسيحي جداً » ليخفف من غضبه ويطلب منه وعداً بالمرور من فلورنسا التي أصبحت مملكة المسيح واحرقت الاوثان التي عبدتها الوثنية الجديدة . ولكن سرعان ما تبدل هذا الامل الباسم بيأس مرير ، ورأت ايطاليا نفسها قد خدعت ، لأن الفرنسيين ، بعد استقبلوا منقذين ومقومين للأخطاء ،

انقلب الايطاليون عليهم وكرهوهم لفظاظتهم ، ومعاقرتهم الراح ، واعتدائهم على النساء ، وتدخلهم في المنازعات الايطالية . وكاد النزاع يحتدم بين جماعة الملك ورجال فلورنسا .

واصعب من هذا كان مرور الجيش من « الدولة الرومانية » وذلك لأن الارهاب كان عظيماً في روما حيث وصلت الاخبار عن فظاظة الفرنسيين في الحرب . وكان آل كولونّا ، حلفاء شارل الثامن ، قد استولوا على اوستي وهددوا الرومانيين بالمجاعة . وابلغ شارل عن عزمه بقضاء عيد الميلاد في المدينة المقدسة ، ولم يدخلها إلا بعد مفاوضات طويلة جرت بينه وبين البابا الكسندر السادس بورجيا . وقد وصف المؤرخ ميشله دخول الجيش الفرنسي وصفاً رائعاً ، وفيه يحدثنا أن العرض العسكري دام ساعتين ، وأن الملك طلب إلى البابا تسليم قصر سنت آنج وجم (زيزيم) مرشح العرش العثماني ، وكان لاجئاً عند البابا ، وتسليم ابنه قيصر بورجيا رهينة ليرافقا الجيش إلى نابولي . ورأى الكرادلة ، الذين كانوا في حاشية الملك ، ان يخلع هذا البابا السيموني وان يدعوا إلى مجمع ديني لاصلاح الكنيسة . غير أن شارل لم يذهب بعيداً . وفي ١٥ كانون الثاني انتهى الطرفان إلى اتفاق . وفي ٢٨ منه ذهب الملك مع جم إلى نابولي ومات هذا الاخير فيها موتاً طبيعياً أو مفتعلاً ، كما قيل ، منذ وصوله اليها . ثم فر قيصر بورجيا بعد ذلك . وترك شارل الثامن البابا وأعاد اليه مفاتيح المدينة . وقدم الملك بين يدي البابا يمين الولاء والطاعة ولكنه لم يحظ منه بتقليده عرش نابولي حسب المراسيم المتعارف عليها في العصر الوسيط .

كانت في الطريق من روما إلى نابولي نزهة عسكرية قضاها الفرنسيون في التأمل بمحاسن الطبيعة واكتشاف الثروة في كامبانيا وغاييت ، وكابو ،

وبوزول ، وفيزوف . وقد قال البابا الكسندر السادس و لقد جاءوا بسيوف من خشب ولاهم لهم الا أن يسجلوا بالحوار أبواب منازلهم » . ومضت خمسة اشهر على بداية الحملة ولم تحدث حرب تذكر .

استولى شارل على نابولي ، وتنازل الفونسو عن العرش ، ورأى الملك الفرنسي في دخول نابولي بداية للحرب الصليبية وفاتحة بشر لتحقيق الآمال التي عقدت على هذه الحملة . وبانتظار هذه الحرب أخذ ينعم ورجاله بلذائذ ايطاليا الجنوبية وبهذه المملكة التي فتحوها في سبعة أيام .

غير أن العقاب حل بهم على عجل ، وانتشر بينهم داء الزهري ، وكان الفرنسيون يسمونه « داء نابولي » . ولم يكن هذا الداء ، كما كتب فولتير ، بعد الكثيرين ممن تقدمه ، دخيلاً من العالم الجديد ، بل انه داء قديم جداً . وعلى مايظهر أنه انتشر بفظاعة ، وكان جيش شارل الثامن اداة انتقال له . وقد كتب في ذلك رواية يقول : « لقد أصاب هذا الداء كل انسان وخاصة الفاسقين اكثر من غيرهم » .

وقد أثار الفتح امتعاض بارونات نابولي والمنتمين إلى الحزب الآنجفي ، لأن الفرنسيين تقاسموا الوظائف الكبرى فيما بينهم واحتكروها دون غيرهم . وإذا وضعنا جانباً بعض الاستثناءات النادرة وجدنا أن الشعب كان يرزح تحت فداحة الضرائب . واكتشفت مؤامرة لقتل الملك . حتى أن شارل الثامن اضطر إلى مغادرة المدينة بعد ثلاثة أشهر خشية من الحصار . وبدأ القلق يساور لودوفيك والبندقية من هذا النجاح الذي لاقاه الفرنسيون .

اغتنم فرديناند آراغوانه الفرصة فبعث بسفير إلى البندقية . وتفاوض البابا الكسندر السادس مع الدوج في تدبير مؤامرة دبلوماسية كبرى

ضد الفرنسيين . وفي ٣١ آذار ١٤٩٥ وقعت البندقية ، مع « الملكين الكاثوليكيين » الاسبانيين فرديناند وايزابيلا ، والامبراطور ماكسمليان ، ولومور ، والبابا ، حلفاً مقدساً لمدة خمس وعشرين عاماً « للدفاع عن الدول المسيحية ضد الاتراك وتوطيد مقـــام الكرسي الأقدس وحقوق الامبراطورية الرومانية » .

اما شارل الثامن ، امبراطور الشرق المزعوم ، فقد وجد نفسه في مصيدة وسط هذا الحلف ، ولم يجد بدأ من العودة ، فقفل راجعاً ويمم وجهه شطر الشمال واجتاز بمدفعيته شعاب الآبنين . وعلى ضفـاف نهر تارو ، بالقرب من فورنو جرت بينه وبين أعدائه واقعة ، في ٦ تموز ١٤٩٥ ، لم تكن حـاسمة ، ولكنهـا اعتبرت ظفراً للحلف المقدس . وهكذا انهار البناء الذي شاده شارل الثامن .

ولم يكتف فرديناند بهذا النجـاح بل أراد أن يتم تطويق فرنسا ، فضم انكلترا إلى الحلف بزواج ابنته كاترينا من هنري الثـامن ، وزواج ابنته خوانة اميرة قشتالة من فيليب الجميل بن مكسمليان النمسا . وحاول الاستيلاء على بروتانيا فـــلم يفلـح ، واكتفى أخيراً بتوقيـع هدنة مع شارل الثـامن ومباحثته قبل موته بتقسيم مملكة نابولي بين فرنسا وآل آراغونـه .

قضية ميلانو ، لويس الثاني عشر وانقلاب الاحلاف . — ثم تبدل وضع القضية الايطالية وأصبح بالتدريج اوربياً على يد خاف شارل الثامن وهو لويس الثاني عشر . وذلـك لأن هـذا الملك لم ينس مزاعم دوق اورلئان ، وارث فالانتين فيسكونتي على ميلانيا . ومن جهة ثانية كان يرى في المغتصب سفورزا تابعاً وحليفاً لمكسمليان . وبذا فان ميكانيكية الأحلاف قربت من فرنسا البندقية والبابا الكسندر بورجيا الذي كان

روح الحلف المقدس . وكان من انقلاب الاحلاف ، كما قيل : « تبدل تام في سياسة الدول الايطالية وثورات عميقة في التاريخ الداخلي لكل منها » . فقد انقسمت إلى معسكرين ونال كلاً من هذين المعسكرين نصيب مما نال أحد التألبين المتخاصمين .

وكان لويس الثاني عشر ، ملك فرنسا ، يعتبر نفسه أيضاً ملك نابولي ودوق ميلانو ، ولذا اتجهت أفكاره صوب ايطاليا ، وانقاد في هذا الاتجاه بتأثير مطران روان ، جورج امبواز . وكان هذا الاخير يطمع في قبعة الكردينالية ويأمل أن يصل يوماً ما إلى التاج البابوي . لذا تقرب من آل بورجيا ، وحصل من البابا على السماح بفسخ عقد زواج الملك لويس الثاني عشر بجان فرنسا ، ابنة لويس الحادي عشر ، التي كانت واسطة للمحافظة على بروتانيا ، وزواجه بآنا أرملة شارل الثامن للغرض نفسه . وانتقل الكسندر السادس إلى المعسكر الفرنسي . وتخلى ابنه المفضل « قيصر » عن ارجوان الكردينالية ليدخل حياة العصر . وكان يطمع أن يكون « أميراً » كالأمير النموذجي الذي حلم به ماكيافيللي . وكان برنامج البابا السياسي أن يزوج ابنه قيصر بأميرة ويحصل له على مهر (دوطا) أرضي وحليف قوي . غير أن قيصر وسع هذا البرنامج بكفاحه ضد امراء رومانيو وطغاتها ، وجعل قسماً عظيماً من ملك الكنيسة ملكاً لأسرته وهي دولة آل بوروجيا . وعدل عن مشروع زواج من نابولي وسافر إلى فرنسا وتزوج شارلوت آلبريت فاصبح بذلك أميراً فرنسياً ، أميراً من امرة فالانتين . واستقبل في فرنسا من قبل هيئة التشريفات الملكية وحمل معه إلى شينون مرسوم البابا الذي يسمح فيه للملك بزواج أرملة شارل الثامن آنا « الدوقة الصالحة » وقبعة الكردينال آمبواز . وقبل أن يتزوج قيصر شارلوت آلبريت (١٠ أيار ١٤٩٩)

وارثة الأسرة التي كان فرديناند آراغونه ينافسها على نافار ، قطع البابا علاقاته مع آل سفورزا . وساءت علاقات هذا البابا الاسباني مع « الملكين الكاثوليكيين » واعتبرهما غاصبين بينا كانا يتهمانه بالسيمونية . ووقعت روما والبندقية مع لويس الثاني عشر معاهدة لتقسيم لومبارديا ، وشكلتا مع فلورنسا حزباً فرنسياً في ايطاليا .

عبر لويس الثاني عشر جبال الالب في تموز ١٤٩٩ وكان في خدمته كثير من السويسريين والكوندوتييرو اللومباردي تريفولتشه الذي دخل ميلانو . وفي ربيع ١٥٠٠ كانت ايطاليا تحت النفوذ الفرنسي .

ولكن هذا النصر كان موقتاً بسبب سوء ادارة لويس الثاني عشر ، فقد امتنع عن دفع المرتبات لاعوانه السويسريين كما يرغبون ولم يترك لتجارهم امتيازاتهم التي يتمتعون بها في لومبارديا ، وحرم سكان اوري من بللنزونا التي يعتبرونها بمثابة باب لهم . كل ذلك هيأ عودة لودوفيك في بدء عام ١٥٠٠ وتوصل هذا الاخير إلى استرداد ميلانو . واضطر الملك إلى القيام ثانية لتخليصها وأسر لودوفيك في نوفار (١٠ نيسان ١٥٠٠) .

وساد الاعتقاد أن منطقة ميلانو أصبحت أرضاً فرنسية ، لأن النظم التي بديء بها منذ الاحتلال الأول قد توطدت . وكان مجلس الشيوخ في ميلانو يتألف من فرنسيين ولومبارديين ، ويراقب ادارة الدوقية ويترأس التنظيم القضائي . واقيم نائب عام ومستشار يمثلان الملك وكان يعتبر فيها دوقاً . وخضعت جميع ايطاليا للنفوذ الفرنسي باستثناء نابولي .

وأفادت المعاهدة الفرنسية — الحبرية قيصر بورجيا . فقد أمده الفرنسيون بالجنود ضد كاترينا سفورزا كونتة فورلي . وكان منها أن

ختمت بتسمية الكردينال آمبواز مندوباً بابوياً في فرنسا . غير أن سياسة آل بورجيا كانت طموحة جداً وتعمل لصالحهـــا الشخصي . ولم تكن لتكتفي بدور التابـع . وعاد قيصر إلى روما واحتفل بظفره على الطريقة الرومانية وتناول راية الكنيسه والوردة الذهبية ، وقتل زوج لوكريس ، ووقعت بيزارو وريميني وفانزا في يدية ، واصبـح البابا الكسندر السادس يتصرف بأموال القديس بطرس لصالح ابنه الذى صار يسمى دوق رومانيو .

وكان ثمن هذه المساعدة الفرنسية لآل بورجيا بمملكة نابولي . لأن لويس الثاني عشر عاود حلم شارل الثامن . وحاول أن يتلاعب بالأحلاف ، وتعاهد مـع فرديناند . ولم يتردد ملك آراغوانه بتضحية الآراغونيين في نابولي . فقد أبرم سراً **معاهدة غورناطة** (في ١١ تشرين الثاني ١٥٠٠) وتقاسم بموجبها المملكة مع لويس الثاني عشر تاركاً له التاج وتيرلابور والآبروز ، وأبقى لنفسه بوي وكالابر . وصادقت الكنيسة الرومانية ، التي تعتبر سيدة نابولي ، على هذه المعاهدة بمرسوم حبري في ٢٥ حزيران ١٥٠١ بحجة أن فريديريك نابولي تحالف مع الاتراك المسلمين . وذلك لأن البابا ، بنتيجة الانكسار الذي منيت به جيوش البندقية في نافان وليبانت (آب ١٤٩٩) وغزو الأرض اليابسة حتى أبواب فيسانس ، أخذ يدعو إلى الحرب الصليبية وإلى مؤتمر يعقد في روما . غير أن الأمراء لبثوا دون حراك ، وتركوا بقايا الارستقراطية البندقية تنهار . وبتأثير من آنا بروتانيا ودعوة من سيد رودس الاكبر ، أرسل لويس الثاني عشر اسطولين إلى الارخبيل اليوناني إلا أنهما أخفقا أمام ميتيلين . ولم يوقف الاتراك هجومهم لولا أن خطر الفرس جعلهم الين قنـــاة من قبل .

ووقعت البندقية وبعدهـا هونغاريا الصلح في ١٥٠٢ – ١٥٠٣ وانتهت بذلك الحرب الصليبية .

أما قيصر فقد أصبح سيد ايطاليا الوسطى . وربما كان يطمع بلقب « الملك » ويفكر باخضـــاع فلورنسا وطوسكانا معتمداً على مساعدة الفرنسيين ، حتى إذا تحقق مايصبو اليه طرد هؤلاء من ايطاليـا وبقي فيها سيداً وحكما . و « كل من يفكر بمحاربته يخاطر بروحه أو يكن يوماً ما جثة مطروحة في مياه التيبر .

وترك لويس الثاني عشر قيصر يعمل مايريد ، لأنه كان بحاجة لمساعدته في الحفـاظ على نابولي ، وأنقذه من مؤامرة آل اورسيني التي كادت تؤدي بحياته .

ولم يصبـح قيصر ملك ايطاليا الوسطى ، غير أنه كان سعيداً بعد أن تخلص من أعدائه بحماية جيش لويس الثاني عشر قبل أن يقضي نحبه بخدمة حميه جان البريت . غير أن هذه الحياة الآثمة ، التي قضاها قيصر ، لاتمنـع من أن نعترف بأهمية الاثر الذي بناه . لقد كان قيصر طموحاً إلا أن طموحه الشخصي أفاد ، عن غير وعي منه ، مقدرات ايطاليا . وقد قيل « إذا باع يهوذا المسيح بثلاثين دانقاً فان الكسندر السادس يبيعه بتسع وعشرين » وإذا كان هذا البابا سيمونياً فاجراً جشعاً وابنه زعيم عصابة لا إيمـان له ولا وازع ، فـلا نكران بأنها أوجدا ، على الاقل ، الاطار الذي سيلعب فيه نشاط عدوهما القديم ووسيط تفاهمها مع فرنسا وهو الكردينال جوليان دولاروفير الذي أصبح فيما بعد بابا باسم جول الثاني .

وفي الواقع ، اننا نجد جزءاً من الحقيقة في هذا المديح الذي قيل

في قيصر : لقد أزال قيصر الطغـاة فاستحق بأن يدعى مؤسس الحرية الايطالية » .

النصر الاسباني (١٥٤٤) ، — وبينا كان نفوذ آل بورجيا ينهار كانت فرنسا تخسر نابولي . وانا لنتساءل ما إذا كان فرديناند المحاتل بتوقيعه معاهدة التقسيم قد هيـــأ الفخ الذي يصطاد به غونزالف قرطبة الفرنسيين ؟ لقد كان كل شيء عذراً للحرب . فقد بدأت بنزاع الرعيان على الاراضي الواقعة بين ابروز وبوي . وكانت هذه الأراضي منقسمة إلى قسمين حسب الحدود الجديدة وكان على الرعاة أن يدفعوا رسوم المرور إلى كل من التاجين . واطمأن الفرنسيون لروما واعتمدوا على جنوه التي أصبحت فرنسية منذ ١٤٩٩ . أمـا الاسبانيون فقد اعتمدوا على صقلية وجرت بين الفرنسيين والاسبانيين عدة مواقع دافع فيها القادة الفرنسيون دفاع الأبطال . ولم ينجم عن ذلك سوى تأجيل النهاية المحتومة . وبالرغم من ارسال الاسطول الفرنسي فقد كان الاسبانيون يحتفظون بسيادة البحر منذ الحروب الصليبية . وبعد ثلاثة أشهر من العمليات العسكرية استسلمت غاييت في (١ كانون الثاني ١٥٠٣) وانتهى الحلم الفرنسي في نابولي ، ووقعت الهدنة بين الطرفين ، وستظل مملكة الصقليتين خلال قرنين أيضاً اسبانية . وهكذا اعاد فرديناند تأسيس ملك الفونس النبيل .

صودق على هدنة الثلاث سنوات هذه في ليون ٣١ آذار ١٥٠٤ ، وستفتتح دوراً جديداً في التاريخ الاوربي . وستتلو الحروب في ايطاليا سياسة الدسائس والصلات العائلية والزوجية . وقد لعبت « السيدات » في هذه المؤامرات دوراً حاسمـاً . ونخص بالذكر : مارغريت النمسا بنت مكسمليان ، خطيبة شارل الثامن المهجورة وأرملة دون جوان . وقد اصبحت وصية على اراضي بورغونيا ومشاورة وامينة صندوق لوالدها ؛

والملكة آنا التي بقيت بروتانية أكثر منها فرنسية وسيطرت على زوجها ، ولم يأتها منه غلام فتملكها الذعر ، وكانت تنظر بعين الحسد إلى لويز سافوا الطموحة ابنة دوق سافوا ومارغريت بورغونيا ، التي تزوجت شارل فالوا ، واتاها منه فرنسوا آنغوليم حفيد لويس اورلئان والوارث لعرش آل فالوا . وبفضل سيطرة آنا على زوجها لويس الثاني عشر ، وقع هذا الأخير **معاهدات بلوا** (في ٢٢ ايلول ١٥٠٤) وبموجبها تتزوج ابنته كلود بشارل لو كسمبورغ بن فيليب الجميل — وهو الذي سيصبح شارلكان — وتقدم له مهراً : بروتانيا وبورغونيا وكونتية بلوا ، ويأخذ الزوجان دوقية ميلانو التي هي اقطاع من اقطاعات الامبراطورية . ولاشك ان هذا القبول في منتهى الخفة ، لان لويس الثاني عشر وجورج آمبواز هدما بناء لويس الحادي عشر وماتابعته الملكية الفرنسية منذ القرن الثالث عشر ، وضحيا بنتائج الزواج البروتاني المزدوج . يضاف إلى ذلك أن هذه المعاهدات تتضمن بنوداً سرية تقضي بقلب السياسة الفرنسية في ايطاليا . فقد كان مكسمليان يريد التخلص من جمهورية البندقية عدوته ، فأفاد من احقاد لويس الثاني عشر عليها ليشركه في حلف دفاعي تحت رعاية البابا (٢٢ ايلول ١٥٠٤) .

كان هذا الحلف اثراً من آثار السياسة البورغونية . وفي الحقيقة ، كان لويس الثاني عشر يحذر ضعفه الخاص فاحتج منذ ١٥٠٠ ، على كل زواج لابنته من امير لايكون وارثاً للعرش إذا لم يأته هو نفسه غلام . ومالبث أن تحلل من يمينه على يد آمبواز وأمر بزواج كلود بفرانسوا آنغوليم ، فغضبت الملكة آنا واعتزلت بعض الوقت في بروتانيا . وعقد مجلس في تور واعلن المحافظة على سلامة المملكة واحتفل بالخطبة في ٢١ آذار ١٥٠٥ .

حبرية جول الثاني (١٥٠٣ – ١٥١٣) . – غير أن لويس الثاني عشر عاد مرة ثانية وانهمك في القضايا الايطالية ، وذلك بفضل الخلف الثاني لآلكسندر بورجيا وهو جوليان دولا روفير الجندي الذي اصبح بابا باسم جول الثاني وكان هذا الحبر سياسياً ، شغفاً بالسياسة ، ذا عزم ثابت لايتزعزع ، همه أن يجعل من دولة البابا دولة كبرى . ففي الدور الاول من حبريتـــه (١٥٠٣ – ١٥٠٩) وطد سلطته في دول الكنيسة ، واجبر قيصر بورجيا على اعادة الحصون التي أخذها بغير حق ، واضطره إلى الالتجاء إلى فرنسا حيث مات في خدمة حميه جان آلبريت ، وانتزع فيروزه من آل باليوني ، وبولون من آل بانتيفوليو ، وأراد منذ العـام ١٥٠٩ أن يجعل من الكرسي الأقدس سلطة من السلطات المسيطرة على ايطاليـا الجديدة . وانضم إلى الحلف الذي تشكل ضـد البندقية من لويس الثاني عشر ومكسمليان وفرديناند آراغونه ، ونشر في ٢٧ نيسان ١٥٠٩ مرسوماً أعلن فيه الحكم عليها بالحرمان والطرد من الجماعة ، وقد ظفر الفرنسيون على البنادقة في آنيادبل (١٤ آيار ١٥٠٩) .

غير أن البابا مالبث أن قلق من تقدم الفرنسيين ، ورأى أن يطردهم من ايطاليا ، فأعلن عفوه عن البندقية في شباط ١٥١٠ بعد أن اعادت اليه فانزا ورافين ، ووجد حليفاً ممتازاً في شخص ماتياس شينر ، وكان هذا اسقفاً ثم كاردينالا في سيون وعدواً للفرنسيين وله تأثير عظيم على الكانتونات السويسرية . وما وسع لويس الثاني عشر أن بادر إلى النضال ضد جول الثاني ، واثار عليه عاصفة من السخط ، ولم يأل جهداً في أن يذهب بها إلى الحقل الروحي . واخذ يتكلم بالانفصال عن الكنيسة وخلع البابا . وفي مجمع عقد في بيزا (١ تشرين الاول ١٥١١) تم

انتقل إلى ميلانو ثم إلى آستي قرر خلع البابا في (٤ كانون الثاني ١٥١٢). وقابل البابا هذا العمل بتشكيل « حلف مقدس » من البندقية وفرديناند آراغونه ، وانضم اليه هنري الثامن ملك انكلترا في (٤ تشرين الاول ١٥١١) . ولحسن حظ لويس الثاني عشر كان تحت تصرفه رئيس من خيرة الضباط وهو ابن أخيه غاستون دوفوا . فقد استطاع هذا أن يستولي على بولون وبريشيا وينتصر على الحلف في رافين (في يوم الفصح ١٥١٢) وحاول أن يهدد روما لولا أنه اودى في هذه الواقعة .

ولم يوات حسن الحظ لويس الثاني عشر . فقد انفصل مكسمليان وانضم إلى أعدائه وسحق السويسريون الجيش الفرنسي في نوفار (حزيران ١٥١٣) . وخسرت فرنسا منطقة ميلانو وأصبحت مهددة بعد أن اجتاحها هنري الثامن من جهة الشمال ، ومكسمليان والسويسريون من جهة الشرق في منطقة ديجون . غير أن لويس الثاني عشر توصل الى ايقافهم بالمال وتوقيع هدنة معهم ، ثم توفي في ١ كانون الثاني ١٥١٥ .

وانتقل تاج فرنسا بعد وفاته الى صهره وابن عمه كونت آنغوليم الذي اصبح ملكا باسم فرنسوا الاول . وكان هذا الملك الجديد في العشرين من العمر ، طويلا ، قوي البأس ، متحمساً ، مندفعاً ، يحب الفروسية ، ويود أن يشتهر ولو بحادث من الحوادث الحربية . ، وقد استهوته ايطاليا كغيره ممن تقدمه ، ووطد العزم على فتح ميلانو ، وتحالف مع البندقية .

انحدرت الجنود الفرنسية ، الى ايطاليا الشمالية ، والتقت بخصومها في مارينيان . وكانت الواقعة شديدة استبسل فيها كل من الطرفين ، ودامت يومين (١٣ و ١٤ ايلول ١٥١٥) ، وكان النصر حليفاً للفرنسيين بعد أن وصلتهم نجدات البنادقة .

كان لهذا النصر نتائج هامة : فقد جعل فرنسوا الاول سيد ميلانيا واضطر اعداءه إلى التعاقد معه ، وكان البابا في طليعتهم . وانتهى الامر فيما بعد إلى عقد **كونكوردات** (١٨ آب ١٥١٦) . ووقع السويسريون في فريبورغ « **الصلح الدائم** » (٢٩ تشرين الثاني ١٥١٦) وتعهدوا بموجبه بأن لا يقدموا جنوداً لاعداء ملك فرنسا . وبالمقابل يستطيع ملك فرنسا أن يأخذ من الكانتونات السويسرية ما يشاء من الرجال مقابل مبلغ معين من المال .

وقد احترمت هذه المعاهدة من الطرفين ودامت إلى سقوط الملكية الفرنسية عام ١٧٩٢ . وأخيراً عقد فرنسوا الاول مع شارل الشاب ملك اسبانيا معاهدة **نويّون** (١٣ آب ١٥١٦) . وبموجبها احتفظت فرنسا بميلانيا ، وملك اسبانيا بمملكة نابولي . وبدا أن حروب ايطاليا انتهت ، وان اوربه أخذت تنعم بالسلام ، لولا أن هذا السلام لم يدم أكثر من خمس سنوات ، وعادت الحرب ثانية في العام ١٥٢١ وبصورة أوسع مما كانت عليه في السابق . ولم تكن في هذه المرة ايطاليا سببها الوحيد ، بل إنها ترجع في أسبابها إلى تكوين امبراطورية كبرى لصالح الملك شارل اسبانيا أو شارل الخامس (شارلكان) .

الدور الثاني (١٥١٩ — ١٥٥٩) : النزاع بين البيت الفرنسي والبيت النمساوي وانتخاب عام ١٥١٩ . — في ١٢ كانون الثاني ١٥١٩ توفي مكسمليان النمسا فشغر عرش الامبراطورية المقدسة وأدى ذلك إلى حدوث تنافس عظيم بين المطالبين بهذا العرش . وكانت القاعدة أن ينتخب الخلف « ملك الرومانيين » قبل أن يتوجه البابا امبراطوراً . وكان الانتخاب يجري حسب مرسوم شارل الرابع المسمى « المرسوم الذهبي ١٣٥٦ » . وكان هذا الانتخاب امتيازاً من امتيازات « امراء الامبراطورية »

وهم امراء الناخبيات العلمانيـــة والكنسية وعددهم سبعة أمراء : دوق ساكس ، ملك بوهيميا ، مارغراف براندبورغ ، كونت بالاتينا الراين ، مطران ماينس ، مطران كولونيا ، مطران تريف .

وقد عمل مكسمليان ، وهو على قيد الحيـاة ، ما في وسعه ليحصر التاج الامبراطوري في أسرته ويؤمن إلى حفيده شارل ملك اسبانيا عرش الامبراطورية من بعـده « تجاه هـذا المرشح « الملك الكاثوليكي » كان بعضهم يفضلون دوق ساكس ، فريديريك العاقل ، حامي لوثر ابان الأزمة الدينية في المانيا .

وفي مثل هـذه الحال كان من الواجب على ملك فرنسا ، فرنسوا الأول ، أن يدعم فريديريك ويقسم المانيا إلى قسمين فيجعلها بذلك غير قادرة على الدفـاع ، غير أنه ، على العكس ، رأى أن يرشح نفسه للامبراطورية ووقف وشارل وجهاً لوجه متنافسين .

كانت الدعاية واسعة من الطرفين . وكان فرنسوا ينكر على شارل صفته الالمانية ويقول عن نفسه ، باعتباره « فرنجيا » ، أنه أهل كشارلومان لتأمين سعادة جرمانيا . وكان شارل ، باعتبـاره من آل هابسبورغ ، يصرح بأنه من الأرومة الحقيقية للأسرة النمساوية ، ولذا يرى بأن ينظر اليه مرشحاً قومياً . ويبدو أن الناخبين قد ترددوا بين المتنافسين . ولكن يجب ألا نغش بعواطفهم . وإذا صح أنهم ترددوا فليس لأن « الأمراء » بحثوا عن ضمائرهم وعملوا بما توحيه اليهم ، بل إن القضية كانت قضية مساومة مالية . ولقـد أوضح ذلك المؤرخ ميشله ، منذ ١٨٥٥ ، وبين أن الانتخاب الامبراطوري عام ١٥١٩ كان مسألة مالية لا أكثر ولا أقل . يضاف إلى ذلك أن الوثائق الحسابية ، التي نبشت بكثرة وتناولتها أيدي

النقـد ، دلت على ذلك دلالة واضحة وأتت بأدلة ثابتـة ومقنعة . قام بالرشوة كل من الطرفين المتنافسين . ولم يقص فرنسوا إلا لسبب واحد وهو أن مارغريت النمسا وأصحاب المصارف الالمانيين ، وخاصة آل فوغر وآل فيلزر . أخذوا على عاتقهم هـذه المهمة بكل ما أوتوا من جرأة وخداع . وبلغت حذاقتهم الفنية درجة عالية من المهارة . فقـد قطعوا عن ملك فرنسا كل اعتماد ، ومنعوا انتقال الأموال الضرورية إلى المانيا . واضطر الملك أن يصدر قطع النقود الذهبية والفضية بكثرة ويدفعها نقداً . وملأ الناخبون جيوبهم ، إلا أنهم ، في آخر الأمر ، أعطوا صوتهم لشارل ، لأن أصحاب المصارف الموالين له كانوا يسلمونهـم اسناداً لتدفع لهم بعد الانتخاب . وانتخب شارل في ٢٨ حزيران ١٥١٩ .

ولا شك في أن اعتلاء شارل عرش الامبراطورية كان يعتبر تهديداً خطيراً موجهاً لفرنسا ، لأن شارل كان ملك اسبانيا وسيد البلاد المنخفضة وآرتوا وفرانش — كونته وملك نابولي وسيد ميلانو . فهو بهذه الممتلكات المترامية الاطراف يطوق فرنسا من جميع جهاتهـا . وكانت له مزاعم في بورغونيا أيضـاً . واعادة تأسيس دولة بورغونيا لصالحه يرجع فرنسا إلى دور « الدولة الصغرى » ، وفي ذلك ما يمهد السبيل لتوحيد الغرب على يده كما كانت الحالة في الماضي على يد شارلومان .

ولد شارل في غاند ، في بلجيكا ، في ٢٤ شباط ١٥٠٩ وتربى في الفلاندر . وكان يجهل الالمانية والاسبانيـة . كان أشقر اللون ، قوي الحيوية ، كثير التفكير ، حيسوباً ، ثابتـاً لا يتزعزع . وتعتبر هـذه الصفة من صفاته الأساسية ، مع ما يمازجها من شدة الايمـــان العميق والارادة القوية .

كان شارلكان سياسياً ومسيحياً مؤمناً مندفعاً في ميله للحرب والحياة العسكرية . وكانت له نفسية قيصر ، ويرى نفسه وارث روما ، ويفكر بما يسميه الوحدة المسيحية الأوربية ، ويريد أن يحقق هذه الوحدة على يده وتحت إدارته . وكانت فرنسا العقبة الوحيدة أمام هذا المخطط العظيم الذي تجدد مراراً على يد الرومانيين وشارلومان واوتون الكبير .

وسنرى في هذا النزاع ، بين فرنسوا الأول وشارلكان ، أن التوسعية من جهة آل هابسبورغ ، وأن حق الامم بالاستقلال من جهة آل فالوا ، وان فرانسوا الأول من آل فالوا سيكون بطل هذا التوازن السياسي الذي بدأ بتشكيل الحلف المقدس عام ١٤٩٣ ضد شارل الثامن .

توازن القوى . — ويبدو لأول وهلة أن القوتين غير متعادلتين عند هذين الخصمين ، وان الشروط غير مواتية بالنسبة إلى الجانب الفرنسي : لقد كانت اسبانيا في أوج عظمتها وخصبها ورفاهها . ويعتبر عصرها بحق « العصر الذهبي » . وكانت الفلاندر والبلاد المنخفضة ، كما في العصر السابق ، في عهد أدواق بورغونيا العظام ، المنطقة الممتازة من الناحية الاقتصادية والبلد النشيط والغني في الغرب الأوربي لا سيما وأن حروب ايطاليا سببت الدمار والخراب وابتلت الجمهوريات الايطالية ، وخفضت من شأنها . وكانت المانيا على أشد ما تكون في نزعتها الحربية . ولا شك في أن الاصلاح الديني الناشىء قد عكر صفوها بما أثاره من اضطراب اجتماعي ، إلا أنها كانت قوية بروحها الحربي المعروف عنها . وألفت النمسا واسبانيا مملكة واحدة . وأصبحت هذه المملكة بممتلكاتها الايطالية وامتدادها فيما وراء البحار ، في تحفز واندفاع واستعداد لسحق فرنسا ، غير أنه لم يكن لديها من الوسائل المالية الضرورية ، بعد شراء التاج الامبراطوري ، ما يجعلها تقوم باعباء مثل هذا الجهد العظيم لكسب الحرب .

وكانت فرنسا تمتاز بكثافة سكانها ووضعها الاقتصادي والمالي وقوة عاطفتها القومية التي تبلورت وتجمعت حول ملكية آل فالوا التي ربحت حرب المائة عام وأصبحت بحالة تتحدى معها كل هجوم . وستمر بها ظروف حرجة وتجتاح أرضها مراراً ، ولكنها ستتماسك ، وأخيراً يسعدها الحظ وتنتهي الحرب لصالحها .

ولم يكن كل من الخصمين المتنازعين أعزل ومنعزلاً . وذلك لأن الدول ، التي كانت تحيط بها ، لم تقف ازاء هذا النزاع موقف المتفرج ، بل كان لها شأنها وكلمتها . ونخص بالذكر هنا موقف بريطانيا العظمى التي تملك كاليه . وهي ، بهذا الموقع الممتاز ، الذي لها علاقة على القارة ، مستعدة في أي وقت لأن تنزل جنودها وتلعب دور الحكم بين المتنافسين .

وقبل أن تشتعل الحرب كان كل من الطرفين المتخاصمين يبحث عن حلف مع المليك الانكليزي هنرى الثامن . وقد دعاه فرنسوا الأول واستقبله بكل حفاوة وتكريم بين مدينتي « آرد » و « غين » . وعرفت المقابلة بينهما بمقابلة « **معسكر القماش الذهبي** » في ٧ تموز ١٥٢٠ والأيام التي تليه ، لما شوهد فيها من مظاهر البذخ والكرم وكثرة الموائد والحفلات والأعياد في الخيام الانكليزية والفرنسية .

قام بالمفاوضات عن الجانب البريطاني الكاردينال ولزي ، وعن الجانب الفرنسي المستشار آنطوان دوبرا ، وتكرر عناق المليكين ، وأظهر كل منهما للآخر مهارته في الصداقة الاخوية . ولكن مثل هذه المظاهر الخلابة لم تكن لتخدع رجال العصر . وقد وقعت معاهدة بين الطرفين ، غير أن هذه المعاهدة اقتصرت على نسخ المعاهدات السابقة دون أن تضيف اليها الضمانات الكافية .

وأخطر من ذلك أن هنري الثامن ، قبل أن يبحر إلى انكلترا ، استقبل شارلكان في « غرافولين » بعد عودته من اسبانيا . وكانت هذه المقابلة أقل مسرحية من مقابلة معسكر القماش الذهبي التي سبق ذكرها ، إلا أنها اعمق منها أثراً . ويبدو أن هنري الثامن قد استمزج شارل أكثر من فرنسوا الأول ، وتم بينهما اتفاق سري ضد فرنسا في « بروج » ووقعه بالنيابة عن هنري الثامن ولزي الذي أمله الامبراطور بالتاج البابوي . ويرمي هذا الاتفاق إلى تطويق فرنسا .

بدأت الحرب في نافار واللوكسمبورغ . ففي ١٥٢١ حاول هنري البريت ملك نافار الاستيلاء على مملكة البيرينيه ، إلا أنه رد على أعقابه واضطر إلى التخلي عن أرضه . وفي اللوكسمبورغ شن الكونت روبرت دولا مارك ، حليف فرنسوا الأول ، هجوماً فاخفق اخفاقاً ذريعاً . وحاولت انكلترا الوساطة بالصلح ، وعلى ما يظهر أن هذه الوساطة كانت بناء على طلب من ملك فرنسا فوسعت شقة الخلاف . وفي المؤتمر الذي عقد في كاليه (آب ١٥٢١) تعرض مندوبو الامبراطور ، وعلى رأسهم غاتينارا ، لبورغونيا وبينوا أن هذه الدوقية « قد احتلها ملك فرنسا ظلماً وعدواناً وبدون حق » .

ثم جدد شارلكان معاهدته مع انكلترا وهجم على فرنسا واذاع بياناً شديداً باللغة اللاتينية أوضح فيه كل ما يشكوه من اغتصاب الفرنسيين لبورغونيا . وفي هذه الاثناء استولى رجال الامبراطورية على موزون في جبال الآردين ، وحاصروا ميزيير ، ودافع عنها القائد بايار دفاع الابطال واستحق لذلك تهاني الملك ، ولقب لشجاعته بـ « الفارس دون خوف ودون لوم » . وبعد أن قطع ملك فرنسا المفاوضات ، تحالف هنري الثامن مع البابا ليون العاشر . وكسرت الجيوش الفرنسية في ايطاليا ،

وفقدت بنتيجة ذلك ميلانيا كلها ، وتبع ذلك ، في العام ١٥٢٣ ، خيانة أكبر أمير في المملكة ، وهو القائد دوبوربون ، وانضمامه إلى صف شارلكان . واجتاح دوبوربون بروفانس ووصل إلى مارسيليا إلا أنها قاومت . وبدا أن كل شيء قد قلب ظهر المجن لملك فرنسا . غير أن فرنسوا الأول عاود الهجوم وانحدر إلى لومبارديا في العام ١٥٢٤ وفتح ميلانيا ، ولكنه غلب على أمره وأخذ أسيراً في بافيا في ٢٤ شباط ١٥٢٥ ، ثم نقل إلى حصن « بيزيغتون » ومنه أرسل إلى امه لويز سافوا كتاباً شهيراً يقول فيه : « لقد خسرت كل شيء ولم يبق لي إلا الشرف والحياة » . ثم نقل فرنسوا الأول إلى اسبانيا وسجن في حصن القصر في مدريد . وكان يؤمل أن يعامل كملك إلا أنه عومل كرجل عادي وبقي أسيراً مدة سنة أشهر وقع خلالها مريضاً . وفي غيابه قامت أمه لويز سافوا وصية على العرش وساعدها في مهمتها المستشار دوبرا على تقوية المملكة وتضميد جروحها من هذه الصدمة التي تلقتها .

كان ظفر الامبراطور تاماً ، إلا أنه أثار مقابل ذلك رد الفعل . وفي ذلك الحين كان البابا كليمان السابع يخشى على ايطاليا والكنيسة فجنح إلا ما يناهض الاطماع الامبراطورية ، وخشي هنري الثامن ، من جهة أخرى ، قوة آل هابسبورغ ، فدشن عن وعي منه أو عن عدم وعي سياسة جديدة ، وستصبح هذه السياسة في المستقبل سياسة بريطانيا العظمى التقليدية : وهي أن تسوى الامور بصورة لا تستطيع فيها أي دولة قارية أن تسيطر على الغرب الأوربي . وأرسلت الملكة لويز سافوا بمندوبين عنها ليوقعوا معاهدة مع ولزي . وفي قصر مور ، بالقرب من هيرتفورد ، تعهدت الدولتان ، فرنسا وانكلترا ، بالعون المتبادل ، ووعد هنري

الثامن بالتوسط لاطلاق سراح فرنسوا الأول ، وباع هنري الثامن تحالفه على أن يأخذ مرتباً سنوياً طوال الحياة .

ولكن شارلكان تردد كثيراً في التضحيات التي يجب فرضها على فرنسا ، ولم يفد من ظفره ليضربها الضربة القاضية ، بل على العكس ، ترك لها الوقت الكافي لاستجماع قواها . وفي مدريد وقع فرنسوا الأول معاهدة الصلح الذي عرف باسم صلح مدريد (١٤ كانون الثاني ١٥٢٦) . وتعتبر هذه المعاهدة التي وقعها استسلاماً حقيقياً . فقد أقسم اليمين على أن يتخلى عن جميع مزاعمه في نابولي وميلانيا وعن كل سيادة في آرتوا والفلاندر ، وعلى أن يعيد بورغونيا إلى شارلكان . وأخذ ابناه رهينة ، وكان أحدهما ولياً للعهد .

غير أن هذه المعاهدة لم تنفذ . وكان حجر العثرة في سبيلها بورغونيا . فقد قدم ممثلو هذه المقاطعة في شهر أيار إلى « كونياك » ، واحتجوا على الملك اثر تخليه عن الدوقية وأعربوا له عن ارادتهم في البقاء فرنسيين . وعقد حلف ضم الملك الفرنسي مع البابا ومعظم امراء وجمهوريات ايطاليا ولأول مرة يقوم حلف في وجه الريخ الألماني . ولم يدخل هنري الثامن في الحلف ولكنه شجعه ، وذلك لأنه اضطر بعد طلاق زوجته كاترينا آراغونه واشتغاله في القضايا الدينية أن يجنح إلى الجانب الفرنسي . ومن جهة اخرى ، ظهرت فكرة جديدة في مجلس « الملك المسيحي جداً » ، فرنسوا الأول ، وتهدف إلى محاربة آل هابسبورغ من الحلف وحصرهم بين ضربات الشرق والغرب . وفي ١٥٢٢ عقدت علاقات فرنسية مع هونغاريا وبوهيميا وبولونيا ومنها امتدت إلى تركيا . وقد بدأت بهذه الفكرة الملكة الوصية لويز سافوا . وعندما عاد الملك من أسره اندفع في هـــذا الاتجاه بجرأة . وجرى تفاهم بين « الملك المسيحي جداً »

والسلطان سليمان القانوني الملقب بالفاخر أو العظيم . وتعتبر هذه المحاولة في ذلك الحين جرأة عظمى ، لأن « الملك المسيحي جداً » يتفاهم مع سلطان المسلمين . غير أن هذه السياسة كان لها ما يبررها في الواقع ، لا سيما وأن فرنسا كانت في ذلك الحين رهن يد القضاء .

وهذه السياسة الواقعية ، التي ترمي قبل كل شيء إلى السلام القومي ، كان منها أن بدلت الوضع ، وحاولت إنقاذ الظواهر لئلا تثير الوساوس الدينيـة فغطت الحلف الفرنسي - العثماني بشيء من الشكليات والصيغ العـامة . ويمكن القول ان التحالف جرى منـذ ١٥٢٨ عندما اجتمع رنكون المندوب الفرنسي مع الصدر الأعظم إبراهيم باشا وجدد وإياه الاتفاقات التجارية القديمة التي عقدها ملوك « الفرنجة » وهذه الاتفاقات ، التي تسمى « **الامتيازات الاجنبية** » ، والتي نشطت تجارة فرنسا مع بلاد الشرق ، إنما تعتبر بمثابة صدى اقتصادي لهذا التقارب السياسي الذي تم بين الدولتين . لقد كان السلطان العثماني في ذلك الوقت في أوج عظمته وقوته . ففي آب ١٥٢٦ انتصر على الهونغاريين في واقعة موهاكز حيث قتل ملك الهونغاريين واستلمت العاصمة بودا ، ووالى العثمانيون هجومهم وتقدمهم ، ولم يستطع فرديناند أخو شارلكان أن يوقفهم في العام ١٥٢٩ على أبواب فينا إلا بشق الأنفس .

غير أن صداقة فرنسوا الأول وكليمان السابع قد غطت إلى حد ما هذه السياسة المتناقضة التي من شأنها اثارة الشكوك عند بعض الضمائر . وكان نزول جيوش الامبراطورية إلى ايطاليا تحت قيادة دوبوربون لهـــا فدىً . ودارت الأمور على غير ما كان يؤمله الامبراطور ، لأن جنوده أخذوا يعملون السلب والنهب والفظاعة في روما خلال ثمانية أيام ابتدأت في ٦ أيار ١٥٢٧ ، بينما كان البابا ، خليفـة السيد المسيح ، يرتجف

وينتحب ويسأل الله الرحمة في ملاذه الفخم في قصر سانتانج . ولذا فان اعلان الحرب ، في كانون الثاني ١٥٢٨ ، من قبل فرنسا وانكلترا على الامبراطور ، وجد ، على العكس ، في هذا الجو العكر ، الذي اغطش سماء المدينة الخالدة ، ما يبرره في الواقع .

حزت حوادث أيار المؤلمة في نفس شارلكان ، وزعزعته عودة المنازعات الدينية التي مزقت المانيا ، فرأى الضرورة التي تمليها الظروف وهي أن يكون قوياً من جهة الشرق لصد الخطر العثماني ، فتفاهم مع البابا بمعاهدة بارشلونة (٢٥ حزيران ١٥٢٩) . ومن جهة اخرى ، قام تجار لندن وأظهروا استياءهم لما تحملوه من نتائج وخيمة بسبب قطع العلاقات التجارية مع هولندا . فاستفاد شارلكان من هذا الوضع وتصالح مع هنري الثامن . وتوسطت مارغريت النمسا باسم شارلكان ، ولويز سافوا باسم فرنسوا الأول لعقد الصلح وتم ذلك في كامبريه في ٥ آب ١٥٢٩ . وعرف هذا الصلح باسم « صلح السيدات » نظراً لتدخل السيدتين الآنفتي الذكر . وبموجب هذا الصلح يتخلى شارلكان عن المطالبة ببورغونيا ، هدف السياسة الفرنسية ، ويعيد إلى فرنسوا الأول ولديه مقابل مبلغ عظيم من المال يدفع لانكلترا سداً لديون الامبراطور ، وأخيراً يتزوج فرنسوا الأول بآلينور شقيقة شارلكان . وفي ٤ شباط ١٥٣٠ تم تتويج الامبراطور في روما ، وسمى أخاه فرديناند حامي فينا ملك الرومانيين ، وسيكون هذا فيما بعد خلفاً لأخيه على عرش الامبراطورية .

وأعقب هذا الاندفاع اعياءٌ في فرنسا ، ولا سيما بعد أن تزوج الملك فرنسوا الأول بآلينور وشاخ المستشار دوبرا وترك مكانه إلى مونمورانسي . وكان هذا يمتدح سياسة التقارب مع الامبراطور ، واعتمد في ذلك على الملكة آلينور ، بعد وفاة الملكة الأم لويز سافوا . غير أن مستشارين

آخرين ، وهما الاخوان غليوم والكاردينال جان من اسرة بلليه ، كانا يعارضان هذه السياسة ويقولان بسياسة التفاهم مع الامراء البروتستانتيين في المانيا ضد آل هابسبورغ . وللوصول إلى غايتها ، شجعا على طلاق ملك انكلترا وتحالفا معه بمعاهدة **بولون** في ٢٠ تشرين الأول ١٥٣٣ ، ثم اتبعاها باتفاق مع السلطان العثماني في شباط ١٥٣٦ .

وعلى هذا النحو بدا شارلكان مطوقاً من جميع الجهات . فرد على ذلك بهجوم عنيف في بروفانس وفي الشمال . ولكنه ما لبث أن رأى الاعداء يحيطون به من كل جانب فجنح إلى التفاهم وجرت مقابلة بينه وبين فرانسوا في **ايغمورت** في ١٤ تموز ١٥٣٨ ، وأسفرت عن عقد هدنة لمدة عشرة أعوام . ولم تحل فيها قضية من القضايا . ولكنها ، على كل حال ، دلت على أن السياسة التوسعية عند آل هابسبورغ كانت عاجزة عن الوصول إلى غايتها . وفي غضون ذلك أفاد شارلكان من هذه التسوية وزار فرنسا مستجيباً لدعوة فرانسوا الاول ودخل باريس واعجب بجمالها ، غير أن هذه الظواهر من المودة ظلت دون غد .

معاهدة كريبي وآردر . — لم تصل هدنة ١٥٣٨ إلى غايتها ، لأن فرنسوا الأول عاد إلى المفاوضات من جديد ليحصل على تسوية ترمي إلى تأمين ميلانيا لصالح ابنه الثالث دوق اورليان . إلا أن الفرنسيين كانوا غير شعبيين في البيمونت والسافوا ، فانتهزت الدبلوماسية الامبراطورية هذه الفرصة وضاعفت نشاطها ، وأثارت على فرنسا كثيراً من حلفائها البروتستانتيين ، وتحالفت مع هنري الثامن ضد فرنسا وهاجمتها من كل الجهات ، وساد باريس جو من الرعب والذعر . غير أن شارلكان كان سيء الظن بحليفه الانكليزي ، ورأى المال ينقصه لاتمام الحرب والاجهاز

على الخصم فتفاوض مع فرنسا وعقد معها معـــاهدة كريبي (في ١٨ ايلول ١٥٤٤) ، وبعـد بضعة أشهر رأى هنري الثامن نفسه منعزلا ففاوض الصلح في آردر (١٥٤٧) .

غطى صلح كريبي الصعوبات بين الملكين بزواج شارل دوق اورلئان بأميرة نمساوية على أن تكون ميلانيا مهراً له . وسوى صلح آردر الخلاف بين انكلترا وفرنسا بدفع مبلغ من المال إلى الانكليز مقابل ارجاع برلون .

غير أن موت شارل اورلئان المفاجيء ، في ٨ ايلول ١٥٤٥ ، ابطل مفعول معاهدة كريبي وسادت في المانيـا الحروب الاهلية ، وكانت سنة ١٥٤٦ سنة قاسية في جرمانيا لما رأته من حروب دينية . وكان شارلكان يحلم بالصلح مع البروتستانتيين ليجعل من المانيا وحدة ضد فرنسا ، لولا أن الانقسام الديني أفسد عليه احلامه ، فعزم على مجابهـة البروتستانتيين ورأى أن يتفاهم مع الأتراك لينصرف إلى الاهتمام بالقضـايا الداخلية . ولكن البروتستانتيين لم يرغبوا في هذه الوحدة التي يريد أن يفرضهـــا الكاثوليكيون عليهم بقوة السلاح . يضـاف إلى ذلك أن فرنسوا الأول رأى حراجة الموقف الذي كان عليه شارلكان فحاول التحالف مع ادوار السابع خليفة هنري الثامن بعـد أن توفي في ٢٠ كانون الثاني ١٥٤٧ . ولكن اضطراب الحالة الداخلية في فرنسا ، على أثر المصادرات والضرائب ، التي فرضتهـا الحروب المستمرة ، عكرت آخـر أيامه ، ومات في ٣١ آذار ١٥٤٧ .

نهاية النزاع (١٥٤٧ - ١٥٥٩) - وهذا النزاع ، الذي بدأ في عهد فرنسوا الأول ، استمر في عهد ابنه وخليفته هنري الثاني (١٥٤٧ - ١٥٥٩) . كان هـــذا الملك أميراً مغلقاً حزينـاً ولكن شجاعاً يحب

المبارزة . ولم تكن له صفات أبيه ، فقد كان ينقصه النظر الثاقب وحس الانتهازية اللذان يميزان الرجل السياسي ، وبالمقابل كان دؤوباً في مقاومة الخطر الخارجي والعمل على عقـد الصداقات التي تساعده في الوصول إلى التوازن ليخفف من ضغط هذا الخطر . كان متيناً كجلمود صخر ، جريئاً يتحدى أشد الهجوم . وبالجملة فقد أدى هذا الملك رسالته التاريخية وانهى في الحقل السياسي العمل الذي لم يتم في عهد والده .

كان هنري الثاني كسلفه يعتمد على مساعدة الاتراك . وقد ظهرت صلته بهم عندما أخذ البابا جول الثاني يتكلم عن حرب صليبية ضد فرنسا . ولكن هنري الثـاني حاول أن يخفي جهده هـذا التحالف الضروري مع الاتراك لئلا يفسد علاقاته مع الكنيسة . ومن جهة أخرى ، كان حريصاً على صداقة حلفائه البروتستانتيين الالمانيين بعد أن أخـذ هؤلاء يثورون تبـــاعاً على شارلكان لشدة تعصبه للكاثوليكيين مع تقدم السن وميوله الاسبانيـة التي أصبحت خطرة على « الحريات الجرمانية » وخاصـة من الناحية الدينية .

ولم ينس هنري الثاني ايطاليا بل استهوته كأسلافه ، فقد سبق أن تزوج بكاترينا ميدتشي في ٢٨ تشرين الاول ١٥٣١ فكان اذن على صلة بها . ولكن هذه الجاذبية الايطالية لا تخلو من خطر . لقد جذبته ميلانيا كثيراً ، وحاول أن يعمل شيئاً في المانيا فعقد مع موريس ساكس والامراء الذين معه معاهدة شامبور في ١٥ كانون الثاني ١٥٥٢ . ثم ترك الوصاية إلى كاترينا وقام بـ « رحلة المانيا » ويقصد بذلك الحملة التي أراد أن يضرب بها الامبراطور الهابسبورغي الضربة الحاسمة . دخل ميتز في ١٠ نيسان واحتلها . ومن اللورين ذهب إلى الالزاس واندفع الفرنسيون حتى

هاغينو ، وكان مرورهم عظيما ، بعد أن استطاعوا ، كما يقول رونسار ، « أن يرووا خيولهم من مياه الراين » .

ويبدو أن هـذا الاندفاع الفرنسي في الارض الامبراطورية قد أثار رد فعل شديداً من العاطفة القومية الالمانية ، وبدل زينة ما كان يؤمله الملك الفرنسي ، وذلك لأن البروتستانتيين نسوا أحقادهم على الامبراطورية ووقفوا جبهة واحدة ضد الفرنسيين ؛ الامر الذي اضطر هؤلاء إلى القتال متراجعين والانطواء في فردن .

ولم تضرب « رحلة ١٥٥٢ » البيت النمساوي الضربة القاضية . إلا أنها ، على الأقل ، كشفت عن ما نسميه « سياسة الحدود » . وكان لزاماً على هنري الثاني أمام هذا الخذلان أن ينطوي على نفسه ، ولكنه ، على العكس ، القى بجنده في مغـامرة غريبة وهي مغامرة توسكانا التي باءت باخفاق ذريع . وتبين أخيراً أن ايطاليا لا ترغب به . أما شارلكان فقد وقع مريضاً ، بعد أن يئس من نتيجة هـذه الحروب ، ورأى أن يعتزل العالم . وكان همه أن يؤمن لابنه فيليب الثاني مالم يستطع تأمينه لنفسه . زوّجه ماريا تيودور ملكة انكلترا الكاثوليكية بعد وفاة زوجها أدوار السادس (١٥٥٣) ومن ثم تنـازل شارلكان عن العرش على مراحل : ففي ١٥ تشرين الاول ١٥٥٥ تخلى في بروكسل لابنه فيليب عن املاك بورغونيا بما فيهـا البلاد المنخفضـة . ثم تصالح والبروتستانتيين وأعاد إلى المانيا السلام الديني بمعاهدة اوسبورغ (٣ تشرين الاول ١٥٥٥) . وتخلى لفيليب في بروكسل عن المملكة الاسبانية ومستعمراتها (في ١٦ كانون الثـــاني ١٥٥٦) . وعقب ذلك عقد مع فرنسا هدنة فوسيل (في ١٥ شباط ١٥٥٦) . أما فرديناند أخو الامبراطور شارلكان

فكان من قبل ملك الرومانيين ولم يصبح امبراطوراً إلا في العام ١٥٥٨ . واعتزل شارلكان في خريف عام ١٥٥٦ حيـــاة العصر وعاش في دير سان – جوست في ايستراماادور في اسبانيـا حيث كان يصل اليه صدى الحوادث حتى وفاته في ٢٦ ايلول ١٥٥٨ .

وهكذا انقضت احلام شارلكان الواسعة ولم يستطع تحقيقها إلا جزئياً ومالبثت أن تبددت أمام مقاومة فرنسا من جهة ، وأمام انقسام المانيا إلى قسمين بسبب انتشار الديانة اللوثرية من جهة اخرى . ولذا لم تستطع المانيا أن تقف صفاً واحداً أمـــام الغرب في الساعة الحرجة ، وأخيراً بسبب الوفاق الفرنسي – التركي ، الذي اضطر الريخ الالماني إلى الحرب على جبهتين . وكان انقسام هذه القوى الالمانية قاضياً على الاحلام .

سياسة الحدود . – إن انقسام امبراطورية شارلكان إلى قسمين : نمساوي واسباني لم يضعف ، كما قد يظن ، قوة آل هابسبورغ ، بل انه زادها . ولهذا السبب نفسه كان شارلكان يؤمل أن يرى نجاح ابنه في الحقل الذي اخفق فيه . ففي عدة مناسبات كانت جهود النمسا واسبانيا تنضم إلى بعض . وكان توزيع التبعات يخفف عن كاهل الامبراطور بعض الضغط ويجعل هذه التبعات سهلة على ورثته . إلا أن نقص الموارد المالية ظل فادحاً كما في السابق . وهذا ما اصطدم به فيليب الثـاني ، كابيه ، ونجت منه فرنسا في أحرج ساعـــاتها في عهد فرنسوا الأول وهنري الثاني .

اما هنري الثاني ، على ما عرف عنه من جلد في أيام الشدائد وميوعة في الاوقات العادية ، فقد تجمعت حوله المؤثرات والدسائس وانقاد لها : فمن ذلك أن زوجته كاترينا ميدتشي كانت عدوة إلى كوزم ميدتشي الذي

يحكم فلورنسا ، وكان يساورها القلق الايطالي . وكانت خليلته ديانا بوالتية توحي اليه بكثير من الامور وتملي عليه نصائحها الثمينة حيناً والسيئة حيناً آخر ، وكذلك مونمورانسي ، بطل فكرة السلام التي لم يتخل عنها ابداً ، كان يحاول الحفاظ على ثقة الملك به بجميع الوسائل . ولم يكن آل غيز أقل طمعاً من مونمورانسي ، بل كانوا ينازعونه تسيير المصالح ويرغبون بالحرب بقدر مايرغب منافسهم بالسلام . وكان البابا بولس الرابع نابولي القلب والاصل ولذا كان خصماً لدوداً لاسبانيا . وكان ابن أخ البابا كارلو كاردينالا طموحاً جشعاً لايقل عن قيصر بورجيا . واخيراً عمانوئيل فيليبر دوق سافوا كان رجل حرب ، وقد عزّ عليه أن يرى بلاده محور نزاع بين الدول المجاورة فأراد أن يحافظ على سلامتها الصالحة .

وكان غرانفيل مستشار شارلكان ، الذي يصغي اليه ويعمل بنصحه ، يوجه سياسة فيليب الثاني في البلاد المنخفضة . وكانت ماريا تيودور ملكة انكلترا وزوجة فيليب الثاني تساند تعصب زوجها للكاثوليكية . ولذا لم يعملا شيئاً من جهة فرنسا وفكرا أن تبقى بسلام . وقد عمل مونمورانسي كل ماقي وسعه لصيانة هدنة فوسيل .

غير أن البابا وابن أخيه فكرا بما يخالف ذلك . فقد وجدا بغيتهما في فرنسوا دوق غيز ، فلمحا له بنابولي ، وفي هذه المرة نرى البابا بشخصه يشعل نار الحرب في ايطاليا . أما هنري الثاني فكان حائراً ، ثم انقاد إلى حليفه الحبري . وبينما كان غيز مندفعاً في طريقه إلى نابولي اجتاح الاسبانيون فرنسا من الشمال ، وانتصروا على الفرنسيين في واقعه سان كانتان ، وبدا طريق باريس مفتوحاً أمامهم . غير أنهم لم يعرفوا كيف يستفيدون من هذا النصر ، لأن دوق غيز رجع في هذه الاثناء ،

بعد أن أمر مونمورانسي ، وغسل عار الاخفاق بحصار كاليه وفتحها عنوة (١ - ٦ كانون الثاني ١٥٥٨) .

معـــاهدة كاتو - كامبري (٣ نيسان ١٥٥٩) . -

ويبدو أخيراً أن كلاً من الطرفين سئم الحرب واعوزه المال . ومن جهة اخرى ، كان هنري الثاني قلقاً من تقدم الاصلاح الديني في دوله ، فرغب في السلام على أي حال ليتفرغ لمقاومة الاصلاح وجرت مفاوضات بين فرنسا واسبانيا ثم انكلترا اسفرت عن معـاهدة كاتو - كامبريزي (٣ نيسان ١٥٥٩) . وبموجبهـا يتخلى ملك فرنسا عن جميـع مزاعمه في ايطاليا ويعيد إلى دوق سافوا جميع ممتلكاته : بيمونت ، سافوا ، بريس ، بوجي . وبالمقابل يحتفظ بكاليه . أما ملك اسبانيا فيبقى سيداً على مملكة نابولي وميلانيا .

وتنص هذه المعاهدة أيضــاً على زواج فيليب الثاني ، أرمل ماريا تيودور ، بابنة هنري الثاني اليزابيت لضمان الصلح . وقامت بمناسبة الزواج أعياد كبيرة في باريس واشترك هنري الثاني في احدى المبارزات فاصابه سهم في عينه ومات من جرحه في تموز ١٥٥٩ .

ان معاهدة كاتو - كامبريزي ، التي تتخلى فرنسا بموجبها عن الاراضي الايطالية وتوطد سيطرتها على الاسقفيات الثلاث : ميتز ، تول ، فردن ، في اللورين ، تسجل كما يقال بداية سياسة الحدود الطبيعية . ولكن هذا الحكم العـام لاينطبق والحقيقة الواقعية تماماً . ولا شك في أن فرنسا تخلت عن مزاعمها في نابولي وميلانيا بعد أن حاربت من أجلها منذ ١٤٩٤ ، ولكنها أنهت بهذه المعاهدة المغامرات الايطالية العميقة . وبهذا المعنى يمكن أن يقال أن صلح كاتو - كامبريزي افاد المصالح الفرنسية .

ومن جهة أخرى ، نجد أن فرنسا احتفظت فعلاً بكاليه وميتز وتول .

وهذا هو كل ما أفادته من هذه الحروب . ولكن ليس في ذلك مايدل على اتباع سياسة جديدة ، بل الاصح هو العودة إلى سياسة قديمة يرجع عهدها إلى ماضي فرنسا القومي .

ومن الصعب أن نرى في هذه المعاهدة ، التي تنص على ارجاع السافوا وبريس وبوجي وبيمونت ، تطبيقاً لسياسة الحدود الطبيعية ، وذلك لأن مناطق الجوار والالب تشكل ، أكثر من الرين ، حدوداً طبيعية لفرنسا . غير أن هذه الاراضي الفرنسية منذ عام ١٥٣٦ لن تعود الى فرنسا إلا آجلاً . فقد عادت اليها بريس وبوجي عام ١٦٠١ في زمن هنري الرابع ؛ والسافوا فقط في ١٨٦١ في زمن نابوليون الثالث .

وهكذا انتهى دور طويل من تاريخ الغرب الاوربي عرفه بعضهم باسم دور حرب ايطاليا . وكانت اسبانيا الدولة الوحيدة ، من بين الدول القومية الكبرى ، التي خرجت من هذه الحروب باكبر فائدة ولو لم تلعب الدور الأول . بسطت نفوذها وسيطرتها على القسم الأعظم من ايطاليا ، ووضعت يدها على نافار ، وورثت البلاد المنخفضة بعد أن تحررت من كل حق اجنبي عليها . واستطاعت ، بعد أن انفصلت عن الامبراطورية ، أن تنصرف بكليتها إلى الدفاع عن منافعها الخاصة وتركيز قواها في الأماكن التي تريدها وتفيد منها في أعمال أخرى غير مكافحة المراطقة والألمانيين المتمردين . لقد كانت قوية حقاً بوحدتها الروحية التي لم تنلها أيدي الانقسام ، وبالثروات الضخمة التي تأتيها من أمريكا ، وبقوة جنودها المشاة . وسيلعب التفوق الاسباني دوره في النصف الثاني من القرن .

أما فرنسا ، وهي الدولة الاساسية المعنية في النزاع ، فقد خرجت

من حروب ايطاليا خاسرة رابحة . ولكن فتح كاليه واحتلال ميتزوتول وفردن لايعوض إلا قليلاً جداً العزف عن ايطاليا والتخلي عن الفلاندر والآرتوا .

ومهما يكن من أمر حروب ايطاليا فان نتائجها كانت عظيمة في اوربه ولاسيما من وجهة نظر النهضة التي تناولت مختلف نواحي الأدب والفن والعلم . فلقد تأثرت أوربه بنهضة ايطاليا التي سبقت نهضتها بقرن من الزمان وكانت لها استاذاً ورائداً .

• • •

الفصل الثالث

النهضة

الصفات العامة

انتهى « العصر الوسيط » في السنوات الاخيرة من القرن الخامس عشر وبدأ عصر أطلق عليه المؤرخون اسم « العصر الحديث » . وإذا صرفنا النظر عن دقائق الحوادث وتفاصيلها وجدنا في هذا العصر نزعتين تختلفان ، من حيث التأثير ، قوة وضعفاً ، ومن حيث الظهور ، سرعة وبطءاً ، فقد تظهران في مكان مبكرين ، وفي غيره متأخرين . وهما في الوقت ذاته ثورتان : ثورة في التفكير والجمال ، وثورة في العقيدة الاخلاقية والدينية . هاتان الثورتان هما النهضة والاصلاح الديني .

ان كلمة « النهضة » تعبير حديث النشأة بدأ استعماله منذ العام ١٨٣٠ ، ولكن المعنى الحقيقي مازال موضع نقاش وجدل وربما استمر ذلك زمناً طويلاً . على أن « النهضة » وان اتفقت من الوجهة الزمنية مع بدء العصر الحديث ، فمن المؤكد أن لا انقطاع بين « العصر الوسيط » والعصر الذي يليه ، وما تقسيم التاريخ إلى عصور تاريخية إلا نوع من اصطناع ، وإذا وجد شيء من ذلك فلتسهيل عرض التاريخ وتعليمه . وهذا التقسيم لاينطبق مع الواقع إلا من بعيد ، لأن تاريخ البشرية كالماء الجاري الدائم الجريان لايقف عند حد بل هو سائر في طريقه يحقق

قدره . وليست النهضة بعد هذا إلا مفهوماً مجرداً وحالة فكرية عامة .

والنتيجة التي نريد أن نتوصل اليها هي أن مامن أحد يفكر الآن ان العصر الوسيط والنهضة عالمان متباينان تماماً . ولا شك في أن أحدهما يختلف عن الآخر ولكن « كتوازن قائم من تركيب قوى معقدة يعاكس توازناً آخر من نفس النوع » وبين التوازنين عناصر مشتركة ولكن بنسب متفاوتة . هذا فضلاً عن أن المرور من توازن لآخر جرى بصورة مستمرة وهيأ فيها العصر الوسيط النهضة .

« النهضة » تفتح عجيب للحياة بأشكالها المختلفة ، بلغت مظاهره الكبرى بين ١٤٩٠ و ١٥٦٠ ، ولكن دون أن يبقى مقيداً في هذه الحدود . وهي بالمعنى العام الواسع تدفق من الحيوية أثار البشرية الاوربية فتبدلت على أثره حضارة اوربه بكاملها . وهي بالمعنى الضيق نزوة حياتيه في أعمال الفكر . انها ضمة تطلع وتوق وهواية وسمو أكثر منها مذهب أو نظام . انها دفع داخلي جدد حياة العقل والحواس والمعرفة والفن . لقد أراد المعاصرون حقاً أن يدشنوا عهداً جديداً فنحتوا اسطورة تاريخية وقالوا : لقد هدم العصر الوسيط البربري العالم القديم ولذا يجب تهديمه بدوره . وهذا الانطباع ، في بناء معرفة جديدة وقطع الصلة بالعصر الوسيط العاجز عن فهم القدامى ، نجم ولا شك عن أفول المدرسيين (السكولاستيك) الذين هجروا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الآداب الانسانية الكبرى في سبيل منطق صوري جاف وصوفية فقيرة لاترى ، بالتقليد ، في الادب الانساني ، أكثر من ألهية مجرمة ، كما نجم عن انسانية العصر الوسيط التي هي انسانية حقيقية ولكنها تختلف عن انسانية النهضة . لقد استعمل الانسانيون التعبير « العصر الوسيط » منذ النصف الثاني للقرن الخامس عشر وأصبح شائعاً في القرن السادس عشر

للدلالة على القسم الثاني من تاريخ البشرية المقسم إلى ثلاثة أقسام : التاريخ القديم ، التاريخ الوسيط ، التاريخ الحديث ، أي للدلالة على العصر الذي ينتهي تقريباً عند فتح القسطنطينية واكتشاف امريكا ويرى فيه الانسانيون عصر بربرية وجهل وظلمات يتلوها النور .

مجتمع النهضة ، — النهضة صنيعة نمو البورجوازية والرأسمالية والملكية المطلقة . ظهرت بادىء بدء في العصر الوسيط في المدن التي تشكل بناؤها الاقتصادي والاجتماعي على أساس رأسمالي ، ونمت ظواهرها الادبية والفنية والعلمية في اوساط المتمولين الذين أثروا بالتجارة والصناعة والمصارف ، وفي ظل الملوك المستبدين الذين استطاعوا فرض مجتمع جديد وهو في عز توسعه الاقتصادي ، وجلبوا المال بالضرائب والقروض واقاموا الحاشية ؛ وحول كبار الموظفين المدنيين والكنسيين . فهي اذن ثمرة البلاطات والاكاديميات والحلقات و « الصالونات » .

لقد اعطت ايطاليا اوربه لون هذه النهضة . ففي مدنها التجارية الكبرى تفتحت ونمت : في فلورنسا حيث انطلقت الحركة منذ القرن الرابع عشر حول اسرة آل ميدتشي وغيرها من اسر اصحاب البنوك والتجار التي كانت تنافسها الجاه وتعقد الاجتماعات الادبية وتنشىء الاكاديميات ؛ وفي البندقية بلد الارستقراطية التجارية ؛ واخيراً ظفرت النهضة في البلاط الحبري حيث كان البابوات حماة للفنون والآداب ، مثل ليون العاشر (١٥١٣ — ١٥٢١) الذي يجسد النهضة عند قول بعضهم ؛ وفي ميلانو عند ادواق آل سفورزا ؛ وفي فيراره عند آل ايست ؛ وفي منتو عند آل غونزاغ ؛ وفي اوربينو عند آل مونتفيلتره . لقد كان الامراء في هذه المدن يحاولون أن يخلعوا على حياة البلاط كل رونق وابهة وجمال .

ومـا ذلك منهم إلا لاسباب سياسية أو في سبيل الجاه وضرورة تأمين الانصار والرغبة في كسب الاعداء ومراقبة الخصوم .

ففي هذه البلاطات الايطالية نما المثل الاعلى للحياة في المجتمع ، وفيها تجلى البذخ والذوق والرفـاه ، وفيها كانت اللذة هدفاً وغـاية ، وفيهـا يقضى الوقت بالاعياد والمآدب والحفلات والرقص والموسيقى والالعـاب والمساجلات والاحاديث الخاصة والمطارحات الودية وتبادل العواطف بين الفارس والسيدة .

لقد فرض هـذا المفهوم على اوربه ، ولم يكن مجهولاً قبل حروب ايطاليا ، ولكنه انتشر في القـارة على يد الاشراف ، الذين حاربوا في شبه الجزيرة ، والسفراء وتابعيهم وامناء سرهم ، وكان هؤلاء على الغالب انسانيين مولعين بالقديم وكان منهم شعراء وعلماء وأطباء .

في اسبانيا كان « الملـكان الـكاثوليكيان » فرديناند وايزابل يدوسان اللاتينية ، وابنتها خوانه ترتجل خطباً باللاتينية أمام رسل البلاد المنخفضة . وكانت كاترينا آراغونه مثقفة واسعة الاطلاع .

وفي فرنسـا ، أخذ الفرنسيون ، الذين نزلوا ايطاليـا في ١٤٩٤ مع شارل الثامن ، وفي ١٤٩٨ في عهد لويس الثاني عشر ، وفي ١٥١٥ مع فرنسوا الاول ، بجمال ايطاليا وشدهوا بحياة بلاطاتهـا ، كما فتنوا بسحر المرأة الايطالية ، وتأثروا بالايطاليين ونقلوا معهـم إلى بلادهم كثيراً من معالم الحضارة في شبه الجزيرة .

وفي انكلترا ، كان هنري الثـامن (١٥٠٩ — ١٥٤٧) محبـاً للاتينية ، فقيهاً في الدين ، موسيقياً ، مؤلفاً . وكان ولداه ادوارد وماريا يكتبان باللاتينية والفرنسية ، واليزابت بالاغريقيـة والايطالية . وكانت

الاعياد الميثولوجية والمبارزات والمساخر ودخول المدن والاستعراضات لا تنقطع . وقد أحدث الملك في كامبودج كرامي استاذية لتعليم الاغريقية والعبرية . وكان أفراد الحاشية يقلدون الملك ، والبورجوازيون يقلدون الحاشية .

وفي المانيا كان الامبراطور ماكسمليان يضرب المثل بنفسه ويتبعه في ذلك أصحاب مصارف المانيا الجنوبية وخاصة آل فوغر والامراء . وعلى هذا النحو انتقل تذوق المعرفة ، الذي يسود البلاط ، إلى جميع طبقات المجتمع .

أما بلاد الشمال فكانت أقل فناً ، وتحول فيها المثل الاعلى الايطالي .

وهكذا أضرمت ايطاليا نار النهضة فاحترق بها مجتمع غربي اوربه .

انسان النهضة . — هذا وتمتاز النهضة بوجود انسان من نوع خاص تغلي في عروقه حياة حيوانية قوية ترتجف منها جميع حواسه . وهذه الحياة أقوى عند رجل الحرب والفن منها عند القاضي أو التاجر ، وعند الايطالي اكثر منها عند الفلاماندي ، ولكنها كانت عند الجميع في هذا العصر أكثر منها عند الفئات المماثلة لها في عصر آخر . وتتجلى هذه الحياة العارمة بصخب الحواس وكثرة الصور الجامحة . كان انسان النهضة يتصور العالم الخارجي بفترات وقتية لا يحللها وتظل مؤثرة على شعوره حتى هيجان آخر . انه رجل شديد ، فجائي ، متطرف ، متحرك ، لا يلبث على حال ، متناقض ، معاكس ، مشاكس ، سريع الهيجان والغضب ، يستل سيفه لاقل حادث ، ثم لا يلبث بعد برهة أن يجب من كره قبل هنيهة . ولنظرة أو التفاتة أو للاشيء ، ينبري الخنجر ، وهو موال الآن وخائن بعد قليل . انه بطل من نوع غريب ، يبكي كالطفل ويموت والابتسامة على ثغره . والقتل عنده امر تافه لا أهمية له ، وصراع الدبب والثيران والاعدام والتقطيع والتمثيل والدم المتدفق بركة من الله .

لقد كانت حياة انسان عصر النهضة كثيفة وعضلاته متشنجة وأعصابه متوترة ، لأن شظف العيش والاخطـار التي تحدق به كانت تتطلب منه دوماً حواس ساهرة ورد فعل سريعـاً ، في عصر كانت الشرطـة نادرة والامن مضطرباً والشوارع ضيقة والغابات كثيفة . لذا كان عليه أن يبقى مستعداً لكل مفاجأة متهيئاً لكل حادث ، ليأخذ حقه بنفسه .

ولكن هذه الحياة التي تنمي الحواس صنعت رجالاً أكفاء لجميع الفنون يتحسسون بالالوان والروائح والاصوات . وهم بهذه الصفات الجامعة يتميزون عن انسان القرن العشرين الذي هـو بصري غالباً . ان جميع الحواس تهتز عند رجل النهضة ولذا كان شغفاً بجميع أشكال الجمال .

الادب الانساني . — لقد ظهرت النهضة بمظهر الرجعة إلى القديم . والانسانيون ، بالمعنى الواسع ، هم كل من تبنـوا المثل الاعلى للنهضـة وشغفوا بالآداب والفنون القديمـة ؛ وفي المعنى الضيق ، اناس مثقفون ممتهنون منبثقون عن البورجوازية ، كنسيون ، اساتذة جامعات ، اطباء موظفون ، وأحياناً مؤلفون وناشرون في خدمة دار للنشر ، يعبرون عن نزعـة المجتمع ويجهزونه بأدواته الفكرية ، ويدخلون في حماية الامراء ويتقاضون رواتبهم منهم ويقومون لهم بالدعاية .

كان الانسانيون رسل العالم القديم ، ويزعمون احياءه ، ويحاولون أن يبعثوه كعلماء ومؤرخين ، ويفهموه بذاته ، ويتذوقوا جماله الاغريقي ، وينفذوا منه إلى أسباب وجوده . لقد كان القديم وسيلة بالنسبة إلى هؤلاء الانسانيين ، لأنهم يريدون حياة أخرى غير حياة العصر الوسيط ، حياة يشعرون بها ، وتغلي في عروقهم . وإذا أحبوا القـديم فلأنهم الفوا فيه بغيتهم ، ولكنهم مع هذا ظلوا رجال عصرهم وفهموا العصر القديم أكثر

مما فهمه رجال العصر الوسيط . ومن الثابت أن معنى التاريخ كان نامياً عندهم . فقد فهموا العصر القديم حقيقة مخالفة لحقيقة العالم الحديث ، حقيقة زالت من الوجود ، وأرادوا أن يحيوا معالمها وأوصافها دون أن يعلموا حقاً ما إذا كان بالامكان احياؤها فعلاً .

مراكز الانسانية . — كانت ايطاليا وطناً للانسانية . ومنها انتشرت في كل أوربة . غير أن عصر كبار العلماء والفقهاء من مكتشفي النصوص القديمة قد انتهى في شبه الجزيرة الايطالية مع انتهاء القرن الخامس عشر . ولكن ايطاليا بقيت مركز الانسانية . وكان المثقفون في ذلك الحين يملكون جميع النصوص الاغريقية واللاتينية التي هي في متناول يدنا اليوم . إلا أن عمل النقد والتفسير والترجمة ما زال مستمراً . وكان الانسانيون يلتفون حول « الطباعين » وأهمهم آلد مانوتشه في البندقية ، فقد احتكر هذا في زمن ما المنشورات الاغريقية ، وشغل ارزموس البلاد المنخفضة ولينا كر انكلترا ولاسكاريس وآليئاندرو ، وأسس الاكاديمية الآلدية لدراسة الاغريقية والتكلم بها . ويأتي بعده جوس باد في ليون ثم في باريس حيث نشر المؤلفين اللاتينيين كلهم ، وهنري ايستين في باريس ؛ وتييري مارتنس في لوفان ، وانطوان كوبيرغر في نورامبرغ ، وفروبن في بازبل . وكانت هذه الحلقات على صلة مع بعضها ومع صالونات الامراء وكبار البورجوازيين . وتشكلت على هذا النحو في أوربة جمهورية كبرى للآداب ، وكانت قاعدتها ، خلال فترة من الزمن ، في البندقية حول آلدمانوتشه . وقد أثرت ايطاليا أيضاً باساتذتها وعلمائها وفقهائها وخاصة بجامعاتها التي استهوت الاشراف والنبلاء والاساتذة والشعراء والاطباء والقانونيين . وكانت بولونيا ، وبيزا ، وبافيا ، وفراره ، وبادوا بخاصة ، مواطن أوربية . ومع هذا فان الاعمال العلمية الكبرى الموسعة جرت في

خارج ايطاليا . ففي فرنسا جدد غليوم بوديه دراسة الحقوق القديمة باشارات على « مجموعة فتاوى جوستنيان » (١٥٠٨) ، وأحيا الحضارة الرومانية في كتابه « دوآس » ١٥١٥ ، عندما أراد أن يوضح نظام النقد . وتفوقت فرنسا في الحقوق على يد كوجاس مؤسس المدرسة التاريخية ، وفي نشر النصوص بفضل تورنيب . وفي المانيا جدد روبخلن الدراسات العبرية (١٥٠٦ – ١٥١٨) . وفي هولاندا ظل ارزموس روتردام ملك الانسانيين حتى وفاته عام ١٥٣٦ .

صفات الانسانية . — لقد كانت انسانية عصر النهضة نوعاً من الانسانية الكبرى الخالدة . وكان الانساني يمثل صوفية النبل البشري ، ويشيد بعظمة الانسان ، ويطلب اليه جهداً دائماً لتحقيق الكمال الاعلى في العلاقات البشرية ، ويقبل بصلاح الطبيعة والعالم ، ويرى نفسه فيها براحة وغبطة وفرح ، ويثق ثقة لا تتزعزع بالتقدم اللامتناهي للعمل البشري والعقل البشري والفرد والجماعة .

وإذا كانت هذه صفات انسانية النهضة ، فعلى ما يبدو أن انساني هذا العصر ، ولا يستثنى أحد منهم ، كانوا يهتمون اهتماماً بالغاً بالجمال ويبحثون ، خلال النصوص القديمة ، عن شكل سام يتصف بدقة الملاحظة وانتقاء المادة الحية واظهار الصفة البارزة ، وترتيب الأفكار ، والتسلسل الطبيعي ، وحذف التفاصيل غير المفيدة ، ونقاوة التعابير ، وغنى الصور ، وصحة الاستعارة ، واستمرار اجرائها ، مع ما في ذلك من انسجام وكمال . وكان شيشيرون إلهاً عند كثير منهم . ولم يكن كل الانسانيين أهلاً لتقليد القدامى ، غير أنهم كانوا يتذوقونهم بعمق . أما الذين لا يهتمون بالشكل الادبي ، كاؤناردو فانتشي ، فقد الفوا لباناتهم في الفنون التشكيلية . وفي الحقيقة ، ان انسانية النهضة كانت علم جمال قبل كل شيء .

وبعد أن بحث هؤلاء الانسانيون عن الجمال وتذوقوه أرادوا أن يحققوا في أنفسهم المثل الأعلى للانسان ، مَثَلَ افلاطون . بيد أنهم ، من جهة اخرى ، كانوا يؤخذون بحب اللذائذ والاستمتاع على الارض . وإذا كنا لا نرى وثنيين في انساني النهضة ، باستثناء بعض الأفراد ، فيجب أن نعترف بوجود وثنية عند الجميع . وقد دفعتهم لفظيتهم وشكهم إلى هجر المنطق الصوري والفلسفة المدرسية وسلاسل القياس المزيل التي خيل للعصر الوسيط انه وجد بها نظام الكون وبلوغ المطلق . وتركوا القضايا التي لا حل لها وانصرفوا إلى علم الانسان ، وأرادوا أن يجدوا عند الأقدمين الانسان ككائن عام ، غير شخصي ، كلي ، هو نفسه في كل مكان وزمان ؛ وافكاراً ازلية بسيطة يجدها كل انسان في ذاته ويفهم بسرعة الله والروح والخير ؛ وأوصافاً دقيقة للعواطف والأفكار تسمح بالتنبؤ والعمل . لقد كانت الانسانية فن لباقة بالنسبة للحياة اليومية .

كان يغلب على انساني النهضة ، وخاصة في ايطاليا ، الكبرياء ، واثبات الانا وامتداد الفرد ، الذي يرغب كل الرغبة أن يعيش كل أنواع الحياة التي يمكن تصورها . كان يريد نفسه ملك الكون ، تقريباً ويقول : يجب أن يصبح كل انسان كلياً « جامعاً » . وعلى الانساني أن يكون فصيحاً ، شاعراً ، فناناً ، فيلسوفاً ، اخلاقياً ، سياسياً ، بطلاً ، عاشقاً ، عالماً ، وعليه « ان يثقف نفسه كالوردة وأن يروضها كخيل السباق » . ان العالم في متناول اطلاعه وقريب منه وامام رغبته وطموحه . واخلاق الانسان عظمة . وهو حر يقضي العمر ارستقراطيا منيراً ، يبحث عن سعادته في الجمال والخلق والابداع والظفر والمجد . ان انسانية النهضة خارجة عن الذات .

وفي ايطاليا ، أصبحت الصفة المميزة للانسان ارادة القوة ، وجميع الاعمال ، التي تحمل طابع العظمة ، تدعو إلى الاعجاب . ومن لا يستطيعون أن يتميزوا بالخير كانوا يبحثون عن الشهرة بالشر .

وأخيراً كانت الانسانية دينية ، فقد كان الانسانيون يتذوقون المغيبات وتستهويهم ديانات الاسرار ، وكانوا اجمالاً مسيحيين ، وعلى الاقل رسمياً ، ولكنهم اتخذوا وجهتين مختلفتين : فمن جهة تأثروا بالبادوية أي بمدرسة بادوا ومن جهة اخرى بالافلاطونية والمسيحية .

أمـا مدرسة بادوا فقد أطالت بقاء فلسفة ابن رشد التي سادت في العصر الوسيط . وكانت تعمل على نصوص خلت من شوائب التغيير ودرس الناسخين ؛ وفسرت ارسطو كما فسره العرب ، وخاصة ابن رشد ، لا كما فسره القديس توماس الاكويني ، وكان فيلسوفها بومبونازي (١٤٦٢ — — ١٥٢٥) . بدأ بالتعليم عام ١٤٩٦ ونشر كتاب « الروح » ١٥١٦ وكتاب « القدر » عام ١٥٢٠ .

كان ابن رشد يرى أن هنالك روحاً واحدة عاقلة مشتركة بين سائر الناس ، خالدة في ذاتهـا ، ولكنها لاتمنح الخلود الشخصي لكل فرد . ويرى الكسندر افروديزياس أن في الفرد روحين متميزتين منفصلتين ولكنهما ليستا سوى ظاهرتين للقوى الجسدية . إذن هما فانيتان .

أمـا بومبونازي فيرى أن القضية لا حل لهـا ويفسر العـالم كتسلسل ضروري من العلل والمعلولات ، وان كل شيء يخضع لقدر محتوم . فهو اذن ينكر الحرية التي هي شرط لمسؤولية الانسان والعقاب في الحيـاة الآخرة ، وينكر أيضـاً الحكمة الإلهيّة « عمل الله الدائم في العـالم » ويدخل فكرة الاخلاق بغير فريضة أو جزاء . ويقول ان أفكار الثواب

والعقاب غير عقلية ، وان الفضيلة تحمل في ذاتها ثوابها الخاص . ويفصل بين الايمان والعقل . ولا يعتقد بومبونازي الفيلسوف بخلود الروح ، ولكن بومبو نازي المسيحي يعتقد به . وفي الحقيقة ، كان بومبو نازي يعتقد خاصة بآله محايث ممتزج مع العالم ، هذا الكائن الكبير الحي ، بجميع اجزائه ومخلوقاته المتحدة مع بعضها اتحاداً سرياً . وقد نجحت هذه الآراء . ولكن البابا ليون العاشر شجب عام ١٥١٣ هذه العبارات : الروح العاقلة فانية . وليس للبشرية إلا روح واحدة . وهذا الرأي صحيح فلسفياً على الأقل . وهذا المذهب العقلي البادوي انتشر في اوربه كلها ومنه خرج مونتين وخلعاء القرن السابع عشر وفلاسفة القرن الثامن عشر والعلمانية الحديثة .

كان اكثر الانسانيين يتعلقون بالانساني المسيحي . وهذا الأخير قديم قدم المسيحيه . وقد ادخل آباء الكنيسة إلى المسيحية انسانية العصر القديم . وكان القديس برنارد والقديس توماس انسانيين في العصر الوسيط ، وقد شغف انسانيو هذا العصر بالقدامى وعاشوا على صلة بأوفيد وتأسيت وتيت — ليف والشعراء واقتنعوا بطيب الانسان ، وجه الله . ولذا وضعوا الانسانية في خدمة المسيحية ، وكان مثلهم الاعلى التواضع والحياة الباطنية والفقر والرأفة والحنان ، واعتبروا انفسهم في منفى على الارض . أما الانسانيون المسيحيون فيبدو في نظرهم أن الانسانية ، التي هي في جوهرها فهم واستيعاب لكل أشكال الحياة ، أدخلت بعض أشكال المسيحية في الحد الذي يقبل فيه علم الدين واللاهوت جوهر المذهب العقلي القديم ، وفي الحد الذي تتفق فيه الروحانية المسيحية مع التطلع الخالد للانسان نحو المطلق . ويظهر أنهم وضعوا المسيحية في خدمة الانسانية . وإذ كان الراهب القديس برنارد انسانياً في ذاته ، فان الانساني ارزموس ترك الرهبانية .

ويؤكد الانسانيون على وحدة الثقافة البشرية والانسجام العميق بين الكشف المسيحي والتقليد القديم ، ويصنعون من القديم اسطورة شعرية ويقولون لقد وجد في أصل البشرية ، وقبل موسى وابراهيم ، في زمن فرعون الاول ، إله الفصاحة والتجارة واللصوص ، وكان هذا أول لاهوتي تبعه أورفه وفيثاغوروس و « الآلهي » افلاطون . ثم أن باقي الجنس البشري يصل الله بالناس . وهكذا يحمل العصر القديم حقائق الكشف البدائي وينبىء بالعصور المسيحية .

وبعث مارسيل فيتشينو (١٤٣٣ – ١٤٠٩) واعضاء الاكاديمية الفلورنسية فلسفة افلاطون وقالوا : ان الكائنات والاشياء التي تحيط بنا ليست إلا نسخاً غير كاملة لنماذج غير مرئية هي الجواهر او الافكار ذات الجمال الكامل التي هي في الله الكمال الاعلى والجمال الاسمى ، وان جمال الله يشع في الكائنات ويهبها جمالها ، وان أرواحنا ، قديماً ، كانت ترى مباشرة جمال الافكار والجمـــال الإلهـي . وهي الآن سجينة الجسد ، ولكنها تتذكر الافكار في تماسها مع العالم المحسوس ، وتجد الجمال الالهـي في تماسها مع الاشياء الجميلة ، وتسمو بالفكرة إلى بارئها منتظرة الخلاص بالموت . ان الحب نبيل ومشروع وكمال بشري وشرط لاغنى عنه لحب الله ، لان الانسان يجد جمال الخالق بحب المخلوق الجميل . وان الشاعر والفنان يبشران بالجمال لأنهما رسولا الله يحملان ارادته والهامها أثر خاص منه . لقد كان جميع الشعراء والانسانيين المسيحيين افلاطونيين تقريباً .

لقد رأى الانسانيون المسيحيون اذن في إرجاع الآداب الصالحة أي القديمه تهيئة إلهـية لارجـاع حياة يعتبرونها مسيحية . فقد نشر الفرنسي لوفيفر ديتابل ، من ١٤٩٢ إلى ١٥٠٧ ، ارسطو وفسره حسب تفكير القديس توماس الاكويني ، ثم تدرب على افلاطون ، وانصرف منذ

١٥٠٩ إلى نشر « الاسفار الالهية » في ١٥١٢ . و « رسائل القديس بولس » واختتم بنشر « الكتاب المقدس » بالفرنسية عام ١٥٣٠ .

وابدع الهولندي ارزموس مذهباً جديداً ، وهو التجديد الارزمومي ، وعرضه في « مجموعة الامثال » (١٥٠٠) وهو شرح الامثال اللاتينية ، وكتاب « الفارس المسيحي » (١٥٠٣) ، و « مدح الجنون » (١٥٠٩) وهو هجاء لجميع شروط الحياة الدنيا ، و « الاحاديث » (١٥١٦) وهو خطب في الحياة الاخلاقية والاجتماعية ، ومنشورات العهد الجديد (١٥١٦) ، والقديس اغسطينوس والقديس يوحنا فم الذهب وغيرها . وكانت لهذا الأخير مكانة فكرية هامة بكتبه ورسائله مع الانسانيين من ملوك وبابوات .

يرى هؤلاء الانسانيون المسيحيون أن القديم ليس سوى تهيئة وتحضير للمسيحية . فقد عرضت فيه أفكارها الأساسية : وحدة الله ، وخلود الروح ، وكرامة الانسان ، والحرية المعنوية واثنينية الانسان بين الخير والشر ؛ وبينت الاخلاق البشرية المؤسسة على الوجدان والعقل . والمسيح ختام لكل تقدم بشري . والهدف هو الاتحاد المباشر مع الله بالصلاة الروحية والتفكير بالمسيح ، ووحدة الروح مع المسيح والدين الباطني . ولذا يجب تجنب الشكليات وعدم الاكتفاء بالعبادة والطقوس والأسرار ، بل يجب أن تزكى الروح من كل رجس بالقيام بالأعمال الحسنة ، وأن يكون صليب المسيح في القلب ، وأن يحيا الانسان في المسيح ، ويموت مع المسيح . ولم يكن هؤلاء الانسانيون مصلحين أي بروتستانتيين ، لأنهم يقبلون إجمالاً بالخطوط الكبرى للعقيدة الكاثوليكية وبالكنيسة . انهم انسانيون همهم قراءة نص الكتاب المقدس الصحيح الموضوع حسب قواعد الفقه والمفهوم بفضل بعث الوسط اليهودي . وهم مقتنعون بأن

الانسان غير سيء ، ومن الممكن اصلاحه ، فهو يستطيع بقواه وحدها أن يسمو إلى الخير والعظمة والبطولة ، لان في النفس العاقلة شعاعاً من الوجه الالهي . وهم انسانيون انجيليون يؤخذون بالنصوص ، ويحترمون مؤلفيها « فكراً وحقيقة » كالقديس يوحنا والقديس بولس ، ويريدون أن يعطوها للجميع ويحبوها بالجميع وان كانوا في الواقع لايحفظون من هذه النصوص إلا ما يتفق مع نزعاتهم العديدة كانسانيي النهضة .

وسواء أكانت النهضة بادوية أم افلاطونية فقد انتهت بالصوفية أي بالبحث عن كل ما يتجاوز الانسان والمطلق والالهي والاتحاد مع الله المحايث والمتعالي . وليس بالسهل أن يعرف ما إذا كان الانسانيون المسيحيون ، عندما بحثوا عن المسيح ، الذي مثله الفنانون بطلاً قديماً وظافراً ، انما يعنون به الله المتجسد به أو الانسان المؤله ليحققه بذاته . وعلى مايبدو أن صوفية النهضة تنتهي غالباً بعلم الجمال ، وان علم الجمال يحقق الوحدة الداخلية لرغبات الانسان العديدة .

أدب الانسانيين اللاتيني . — كان الانسانيون يعبرون عن أفكارهم بأدب لاتيني غني ، ولم تكن اللغات القومية بعد صالحة عندهم للتعبير عن الافكار الدقيقة أو العميقة ، بل إن الشرف الاول للانساني أن يعبر عن أفكاره بجمل لاتينية عذبة . لقد كانوا يرون في الله شكلاً أكيداً إلهياً للاسلوب الكامل والنموذج الكامل ويقولون يجب أن نحاول جهدنا أن نتقرب من هذه الصورة للجمال . وقد وجدوا هذه الصورة في شيشيرون ، ورفضوا استعمال كلام غير كلامه . ومن ايطاليا دخلت الشيشيرونية أوربة .

وليس لاختيار الموضوع أهمية ، بل الاهمية كلها للاسلوب . وقد كتب الانسانيون كثيراً في التاريخ ونظموه ووزعوه بانتظام والفوا

التواريخ على طريقة ليت — ليف وجعلو اشخاصها ابطالاً رومانيين ، ونظموا القصائد اللاتينية وقلدوا كاتول وفيرجيل واوفيد ، وعبروا فيها عن عواطف حقيقية ، كما عنوا بالشكل وانتقاء الالفاظ وحسن اختيارها وتمييز الفروق واعتبار قيمة الكلمات وجرسها في الاذن . واشتهر منهم بيكاديلّي وبونتاس في نابولي ، وبوليسين في فلورنسا ، وماروك ونافاجيرو في البندقيه ، وقلد هؤلاء جميعاً في أوربة . وقد أثرت هذه الآداب اللاتينية على تعليم البلاغة والفصاحة في المدارس ، وتعلم بها الكتاب فن الكتابة ، وبدأ الشعراء القوميون شعرهم باللاتينية .

اثر الانسانية في التعليم : — وبدأ أثر الانسانين في التعلم الجديد ايضاً . فقد كان التعليم في العصر الوسيط يهدف إلى معرفة نظام الكون وجوهر الاشياء . وعندما يتخرج الطالب من مدرسة النحو يقضي عامين في كلية الفنون الحرة ، ويدرس فيها الثالوث : النحو والفصاحة والمنطق الصوري ؛ والرابوع : الحساب والهندسة والفلك والموسيقى . وعندما يصبح « استاذاً في الفنون » يذهب إلى كليات التخصص في الطب والحقوق واللاهوت . وكانت طرق التعليم واحدة عند الجميع ، ولا يرجع الاساتذة والطلاب إلى المصادر بل كان الاستاذ يقرأ الكتاب ويفسره ويتعلق الاساتذة والطلاب بالمنطق الصوري والجدل والتدليل بالقياس . وفي آخر العصر الوسيط تغير الثالوث والرابوع ، واحتكر المنطق كل شيء .

أما في عصر النهضة فقد أراد الانسانيون ارجاع القديم وقراءته وتفسيره وتقليد شعرائه ومؤرخيه وخطبائه . لذا اسسوا التعليم على العلوم الطبيعية : النحو والبلاغة والمنطق . واستخلصت البلاغة قوانين الاقناع من دراسة المؤلفين الكبار ، واستخرج المنطق الصوري قوانين الحكم والمحاكمة من

آثار العقل البشري الكبرى ، ووضع كلاهما القوانين بتعاليم ، وامتد كل منها ، ككل علم ، بفن أو تقانة .

وأصبح القدامى على هذا النحو أساساً للتعليم . فلتعيم اللاتينية يدرس تيرانس ، شيشيرون ، سالوست ، قيصر كوانتيلين و فيرجيل ، هوارس اوفيد ، تيبول ، كاتول ، بروبيرس ، جوفينال ، بيرس ولتعليم الاغريقية يدرس : هوميروس ، هيزيود ، تيوكريت ، افلاطون ، ديموستين ، توسيديد ، بندار . وكان التعليم باللغة اللاتينية قراءةً وكتابةً كلغة حية . وقامت أسئلة الاساتذة مقام التدليل بين الطلاب . وطرق الانشاء ، نثراً وشعراً ، مختلف الموضوعات . وناب مدح مريم والقديسين والظفر الملكي عن التمارين الشفهية . أما في الفلسفة فقد بقي النقاش بالقياس .

وسهل اصلاح الدراسات باصلاح النظام . فقد كانت الدروس في كليات الفنون عامة ، والطلاب احراراً . وكانت المدارس الثانوية دوراً لضيافة الطلاب الفقراء . ونظمت الدراسة بشكل تمنح فيه كلية الفنون شهادة الدراسة بعد أن يكون الطالب قد أنهى الدراسة الثانوية . وأخذت المدارس الثانوية تعطي كل الدروس . وجعلت مدة الدراسة الجديدة فيها خمس سنوات للدراسات المدرسية وسنتين للفلسفة . وقسمت المدارس على صفوف حسب السن . وساد هذا النظام في كل أوربة تقريباً .

أما الكليات العليا ، الحقوق واللاهوت ، فقد حافظت على نظامها في التعليم ، وظهر إلى جانبها كليات كبرى انسانية . ففي اسبانيا أسس الكاردينال كزيمينيس عام ١٤٩٨ جامعة القالا وتضم ٤٢ كرسيا خصص

منها عدة كرامي للاتينية والاغريقية والعبرية . ومنها خرج الكتاب المقدس بعدة لغات . وفي العام ١٥١٧ فتحت في لوفَن ، في بلجيكا ، كلية اللغات الثلاث : اللاتينية ، والاغريقية ، والعبرية . وأحدثت في البلاد الرينانية كرامي للاغريقية والعبرية في هايدلبرغ ، كولمار ، ماينس ، توبنغين . وفي العام ١٥١٥ أنشأ البابا ليون العاشر « دار الحكمة » للدراسات الهلنية . وفي فرنسا استطاع غليوم بوديه أن ينتزع من فرنسوا الأول عـــام ١٥٤٠ تعيين « مقرئين ملكيين » ، يندبهم الملك ويدفع لهم رواتبهم ، ليكونوا اساتذة أحراراً لتدريس الاغريقية والعبرية واللاتينية واللغات الشرقية والفلسفة . وقد أصبحت هذه المؤسسة فيما بعد « كلية فرنسا » .

ونجح التعليم الجديد ، وكان يقبل على هـذه الكليات الاشراف والبورجوازيون والفقراء ممن دخلوا في خدمة اولئك واستطاعوا على هذا النحو أن يتابعوا دروسهم . وكان الاساتذة يضربون المثل لطلابهم في العمل والدرس . وقد بلغ الاندفاع في الدراسة حداً عظيماً . فكان الطلاب من مختلف الاعمار ، حتى التلاميذ من سن ١٢ عاماً ، يشتغلون شغلاً عقلياً عشر ساعات فعلية في اليوم ، ويعتبر هذ الحد عادياً .

وبعد أن يقضي الطلاب ثلاثة أعوام ، عليهم أن يقوموا بالتدريس ثلاثة أعوام في المدارس الكبرى ، ويساهموا في المناقشات العامة ويجربوا أنفسهم بهـــا . وفي نهـاية هـذه الستة أعوام يؤلفون رسالة لنيـل الدكتوراه .

النهضة الادبية والفنية والعلمية

النهضة ، بالمعنى الضيق ، حركة أدبية وفنية كانت على صلة بالانسانيين من جهة ، وبالبلاطات والاكاديميات والحلقات والصالونات من جهة أخرى ، وتحت هذا التأثير المزدوج . وكان الانسانيون بورجوازيين . أما الادباء، وخاصة الشعراء ، فكانوا في الاغلب نبلاء .

النهضة الادبية — لقد تمت النهضة الأدبية على ثلاث مراحل :

١ — مرحلة التهيئة والتحضير . وهي مرحلة التجديد ، وقد امتزجت فيها روح التمتع الوثنية بالروح المسيحية ، ووجدت فيها بقايا كثيرة من عناصر العصر الوسيط . وكان الكتاب في هذه المرحلة مفعمين بالقوة والابتكار ، ولكن عملهم كان محاولة وتحسساً وتلمساً دون أن يكون لديهم بعد معنى كاف للشكل .

٢ — مرحلة الاوج . وهي مرحلة الوثنية العميقة . وفيها كان التمتع بالحيـــاة هدفاً أعلى ، والاهتمام بالفن وقيمة الاسلوب يفوق كل شيء . وكان الاتجـاه منصرفاً إلى البحث الواعي عن الكمال المستمر . وفيها اتحدت العناصر القديمة بالعناصر القومية في كل منسجم .

٣ — مرحلة افول النهضة . وفيها جنى المبدآن الأساسيان ، الفردية وحق البحث الحر ، ثمارهما وتفوقت العبقرية القومية على الروح القديم .

بلغت إيطاليا بين ١٥٠٠ و١٥٤٠ قمة الأوج ، وفيها مارس الادب الايطالي نوعاً من ملكية وأثر في جميع الآداب الأخرى وأعطاها الأنواع الشعرية كالقصائد الثمانيه والاثني عشرية والمسرح ومفهوم الفن والالهام . أثر أولاً في اسبانيا ، ثم انتقل تأثير هذين البلدين المتوسطين إلى الشمال .

ففي فرنسا ، كانت اللغتان الاسبانية والايطالية مرموقتين ، وترجمت لهما ترجمات عديدة . وبعد دور من التحضير يتفق مع عصر مارو وبداية رابليه بلغت فرنسا اوجها في عهد هنري الثاني عام ١٥٥٠ على يد رونسار و « السابوع الأدبي » . وأخيراً تفتح الادب الانكليزي بدوره على تقليد الايطاليين ، الذين عرفهم عن طريق الترجمة الفرنسية وتقليد الفرنسيين والاسبانيين ، وبلغت النهضة الانكليزية نقطة الذروة في عهد اليزابث بعد عام ١٥٧٥ . ولاشك في أن نهوض هذه الحركة الأدبية كان يساير نمو القوى السياسية والاقتصادية في كل دولة .

كانت هذه الآداب باللغة العامية ، لأن الشيشيرونية . مذهب شيشيرون ، جعلت اللغة اللاتينية غير اهل للتعبير عن الافكار والعواطف الجديدة ؛ ولأن الكاتب كان عليه أن يعجب رجال البلاط (ولأن العاطفة القومية كانت تعمل عملها ايضاً . غير ان العمل الادبي كان بحاجة لتوافر لغة ثابتة الاركان وغنية . وقد سادت في هذا الحقل ، في كل بلد ، لغة اقليمية خاصة ، وزادها ثباتاً عمل النحويين واحياء المؤلفين لها بما أعطوها من قيمة باستعمال تعابيرها ونحت كلماتها ، أي بما صنعوا لها من لغة أدبية . ففي إيطاليا سادت الفلورنسية ؛ وفي اسبانيا القشتاليه ؛ وفي انكلترا ، لغة لندن التي تمت على يد سبنسر وشكسبير والكتاب المقدس الانكليزي ؛ وفي المانيا لغة ديوان الامير ناخب ساكس . ثم استعمل النحويون التصانيف القديمة وضبطوا اللغة ووضعوا قواعدها .

قلدت هذه الآداب القدامى واخذت عنهم الانواع الادبية والقصائد الغنائية والرسائل والمراثي والذم والقدح والهجاء والملاحم والمآسي والملاهي والتاريخ وقواعد الفصاحة والاهتمام بالاسلوب والموضوعات . وبالرغم من كثرة التلميحات الميثولوجية والتعابير المأخوذة عن اللاتينية والاغريقية فلم

يكن هذا التقليد عبودية . لقد كان الاقدمون نماذج للتعبير عن العواطف الشخصية التي هي عواطف رجـال القرن السادس عشر ، وكانوا يؤدون القواعد لاستعمال المادة التي يعطيها العصر الحديث وتقاليد العصر الوسيط .

كانت هـذه الآداب تكتب لتسر وتعجب وتسلي وتهيج وتستهوي عطف القـارىء اكثر من أن تعلم . وكانت الأنواع الأدبية الكبرى الشعر الغنائي ، وفيه نجد ، إلى جانب الأنواع القديمة ، الثمانيات والاثنى عشريات الايطالية والقصائد الحماسية لـ (آريوستو ، لوتاسو ، ادموند سبنسر) والرواية الفروسية (مونتالفو) والرواية العاطفية ، والرواية المجونية (رابلية ، سرفانتيس) والدراما الريفية (لوتاسو) ، والقصة ، والحكاية . أما الأنواع الأخرى فهي نسبياً أقل أهمية . وكان المسرح غنياً ، وفيه أخذت الملهاة والمأساة تقومان مقـام المسرحيات الدينيـــة ودرامات الجنون التي سادت في اواخر العصر الوسيط . ولم يبلغ المسرح شأوه العظيم إلا في انكلترا منذ ١٥٧٥ على يد شكسبير . وكان الخيال فياضاً ، حياً ، شاباً ، مندفعاً عند الكتاب . فقد هجروا ، بما تعلموه عن الاقدمين ، وبمـا هم عليه من فلسفة لفظية ، الرموز والتجريدات المشخصة كالايمان والعدل والفطنة والشراهة والبخل ، وعبروا مباشرة عما يشعرون ومايرون . ولم يبدعوا شخصيات اسطورية وشياطين أو ملائكة مع حركات القلب ، بل عبروا عما يشعرون به من حركات داخلية في أعماقهم فحصل تقدم نحو الفكر الايجابي .

وكان الأدب بترار كياً . فقد أخذت قصائد الشاعر الايطالي بترارك وحللت وشرحت ووضعت في صيـغ عامة وقلدت . وقد خامر الشعراء مثل بترارك الأعلى وبلاطات الحب في العصر الوسيط ، وأصبح الحب النقي لامرأة وحيدة مثالية قاعدة تحتذى على نمط لورا بترارك . وكثرت

لونا ، وديليا ، وكاساندر ، وماريا ، وسمت البتراركية حتى الافلاطونية ، وغدا جمال المرأة صورة عن جمال الاله ، والحب الكلي الطاهر للمخلوق يجيء لحب الخالق ، والشاعر المحب بتماس سري مع ماوراء الطبيعة ، والتماثل موجوداً بين الحالة الشعرية والحالة الصوفية ، والالهام نفحة من الله ، والشاعر كليمه ورسوله رسالة إلهية على الأرض . وكانت هذه الكائنات الحساسة والمتأثرة عديدة ومختلفة . وتتفق افلاطونيتهم مع الشهوانية . فهم يصفون العري والملاطفات والتمتع والهيجان السار ويعبرون عن انطباعاتهم القوية الشهوانية بتعابير لذيذة مفعمة بالحياة والجلاء واللون وجمال الاسلوب .

لقد كان هؤلاء الادباء فنانين يهتمون بالاسلوب .

وكان الشعر تصويراً يبحث فيه الشاعر عن اللون والاشراق . وكان على الشعر أن يغنى أو يرافق بالعود ويلحن ويكون له ايقاع ونغم ، ويحكم عليه بالاذن . ومع هذا فلم يضاه الاقدمين في هذا المضمار إلا الايطاليون . أما في البلاد الاخرى فان الكتاب ، الذين برزوا في اللاتينية ونسجوا على منوال الاقدمين بتفوق ، لم يستطيعوا أن يسيطروا على مادتهم بلغتهم ، ولم يكن لديهم بعد حس كاف بالشكل . وقلما يعملون مخططاً لبحثهم بل كانوا يتبعون مزاجهم ويشردون ويسترسلون . وكانت انطباعاتهم حية وخيالهم فياضاً فلم يستطيعوا ضبط أنفسهم . ولذا كانت الصور والأوصاف تفوتهم ، حتى أن القصص تتلو القصص حسب ذاكرتهم والهامهم . ومن الخير قراءتهم في مقتطفات ومقطوعات .

كان هؤلاء الادباء فرديين وآثارهم مفعمة بالأخبار عن حياة الكاتب وطباعه . وكانوا في جميع البلدان يتغنون بفضائل لغتهم القومية : مثل

فالديس باللغة الاسبانية ، وسيبروني بالايطالية ، ودوبلليه بالفرنسية . وكانوا كلهم يريدون أن تكون لهم قصائدهم الحماسية مثل لوتريسن في « ايطاليا المحررة من القوط » ؛ ولوب «وفيغا في لادريغونتيا » ؛ ورونسار في « لافرانسياد » ، وسبنسر في « ملكة الجن » .

وكان الباحثون يدرسون القوميات القديمة ويصفون بلادهم بحب وهوى . وكثيراً ما كان الكتاب يقومون بالمقارنات بين بلادهم والبلاد الأخرى ، وينتهون إلى الضحك والاستهزاء والطعن بجيرانهم ، حتى ان قطعاً مسرحية كانت وحدها آثاراً وطنية مثل « تومانسيا » سيرفانتس ودرامات شكسبير التاريخية ، التي يظهر فيها الفرنسيون والايكوسيون والغاليون جبناء وخونة وحمقى ، وجان‌دارك بغياً ، والفرنسيون خنازير يرجفون من زقاء ديكهم الخاص .

واخيراً كانت هذه الآداب قومية يعبر كل منها عن شخصية . وإذا تذكرنا أن الصفة السائدة لاتمنع الصفات الاخرى امكننا القول إن عاطفة الفن والبحث عن الجمال ولذة الفن ، في الأدب الايطالي ، تفوق كل شيء ، مثل قصيدة « اورلاندو الثائر » لآريوستو . وفي المرحلة الأخيرة من النهضة الايطالية ، أي عندما ذهب الغزو الاجنبي والنفوذ الاسباني وزاد البحث الاناني عن المنفعة الفردية والتمتع المباشر ، فاضت الشهوانية في درامة لوتاسو الريفية « آمينتا » وملحمته « خلاص القدس » .

في اسبانيا ، سادت عواطف الفروسية والمثل الأعلى لحياة الفارس كما في « آماديس غاليا » ؛ والحب المثالي ، الطاهر ، الحار ، المفجع ، المفرط كما في « سيليستينا » ، والروايات العاطفية : سان بدرو ، سجن الحب . وقد جددت اسبانيا هذا الذوق عند جيرانها .

في فرنسا ، كانت مدارس الشعر كبيرة ، إلا أن الفرنسيين أجادو خاصة في النثر : في القصص ، والهجاء ، والمذكرات ، والتحليل الخلقي والنفسي : مثل ، رابليه ومارغريت نافار وبرانتوم ومونلوك . وكانت المرحلة الثالثة للنهضة عندهم حرجة كما تبدو في مونتين .

وفي انكلترا ، ساد الشعر الافلاطوني والمسرح المتنوع المليء بالمفاجآت والمغامرات وتفاصيل الحياة اليومية والأفراد الأشداء ، ورواية الاخلاق والطباع مثل « اوفوس » جوهن ليلي ؛ و « آركاديا » السير فيليب سيدنى التي أدرجت في الموضـــة لغة ثمينة وادخلت الشهوانية الجشعة والنظرات النفعية للعاطفة القومية الحادة .

النهضة الفنية . — مرت النهضة الفنية ، كالنهضة الادبية ، بثلاث مراحل : النهضة الأولى ، النهضة الاتباعية ، وأخيراً الافول الذي انتهى بالاسلوب الباروكي .

لقد تفوقت ايطاليا في الفن كما في الادب . وكانت نهضتها الاولى في القرن الخامس عشر ، وبلغت عصرها الاتباعي (الكلاسيكي) في الثلث الأول من القرن السادس عشر ، واليها يرجع الفضل في تثقيف الفنانين الاجانب ان على أرضها أو بمن ترسل من فنانيها إلى الخارج لادارة العمل الفني وتوجيهه .

فن هذا العصر علماني ممتزج بالحياة اليومية ، أبدع فيه الفنانون اطار اللذائذ فسحروا جميع الحواس وعودت الأعياد الدائمة الانظار على المنشآت وجموع الاشخاص والألوان فظهرت على أيدي الفنانين قصوراً ومنحوتات ولوحات تصويرية . ودرجت الموضة على الظفر الدنيوي الذي يقلد الظفر الروماني .

كان الفنانون كالصناع يلتفون حول أساتذتهم في أصناف ، ويتلقون ثقافتهم الفنية في « المشاغل » . وأخلاقهم أخلاق عمـــال فرحين جذلين يتخذون من حياتهم البسيطة وغذائهم ومزاحهم فرصة للابداع الفني .

وكانوا يشتغلون للبلاطات والبورجوازيين الأغنياء . ولذا كانوا على صلة بالانسانيين . اهتموا بعـلم الآثار ، ونسخوا النماذج القديمة وأخذوا عنهـا ، ودرسوا النظري والمهندس المعمار الروماني فيتروف ، وأقاموا العمود عوضـاً عن الدعامة وتوجوه بتاج قديم ، والقوس ، على شكل نصف دائرة بدلاً عن القوس العقدي . واستعملو التزيينات من أوراق شوكة اليهود والسعف والبيوض والحلزون ، والألبسة القديمة ، والعري الوثني ، عري الأبطال . وكانوا كالأدباء ، لم يستعبدهم القديم ليصبحو له ارقـاء ، بل كانوا يبحثون في الآثار القديمة عن انطباعاتهم الشخصية ، و « يحافظون خلال اقتباسهم على مفهوم أصيل للفن » .

كان هؤلاء الفنانون فرديين يريدون قبل كل شيء أن يعبروا عن عواطفهم الشخصية . وبعد أن كانوا يحاولون ، حتى ذلك التاريخ ، أن يمحوا أنفسهم في نظام المدرسة التي انتسبوا اليها ، اخذوا يضعون تواقيعهم على الآثار الفنية ، وغدا هذا التجديد امراً مألوفاً وأحياناً مدعاة للفخر . ولم يخضعوا للمهندس المعمار بل ان كلا منهم كان يتطلع إلى الاستقلال ، وازداد على هذا النحو عدد التماثيل المنعزلة في الساحات العامة والاضرحة والقصور ، وأصبح التصوير غالبـاً تصويراً قائماً على مسند ، وطغى هذا الفن الفردي على غيره من الفنون الأخرى .

أخذ هذا الفن طابعاً جديداً وهو الطابع الاتباعي . وهذا الطابع يأتي من رؤية فن جديد ، ومن عاطفة جديدة نحو الشكل الخالص

مستلهمة من وثبة النهضة وتطلعها نحو تحقيق الكمال البشري والتمتع به .

إن الموضوع الامامي ، في هذا الفن ، هو الانسان ، وفي الانسان الجسم البشري الجميل . وهذا الفن وثني ولو عالج موضوعات دينية : فقديسوه أبطـال ، ومسيحوه ظافرون في الألعاب الأولمبية ، وعذاراه لهم ينتظر المداعبة . والجسم البشري الذي يريده عظيم بابعاده ، كبير في حجمه ، ولم تكن الأشجار والأرياف والأبنية التي ترافقه الا متممات وتوابع جميلة . ان هدف هذا الفن الشكل ، والكيان الجسماني المؤله أو البطلي السامي الكامل . أما العظمة والكرامة البشرية فيظهران في الهيئه القوية والهوى العميق وذوق الأبهة . لقد أناب العصر الاتبـاعي الأجسام العبلة وسعة الاشكال والاعنـاق المستديرة والأوراك العريضة والصدور العميقة مناب الاجسام الهزيلة . واستعاض عن الألبسة القصيرة والمشدودة بالألبسة القديمة الثقيلة السابغة الساحبة الشفافة التي تظهر قسمات الجسم ؛ وعن الحركات السريعة والتوتر المفرط بالرصانة القديمة والتحفظ والرشاقة وفقدان كل جهد ظاهر والنبل والخط المرن وراحة الحركات ؛ وعن الهوى المرسل والطيش المطلق بالرجاحة والحصافة والقياس .

ولم يظهر الحس بجمال الجسم البشري في كل مكان فحسـب ، بل ان اللذة الشهوانية نفذت إلى البناء فقد استعيض ، عن الأ شكال ذات الزوايا والتخاريم الطائشة والحنايا الرشيقة والأعمدة الممشوقة ، بالأشكال المستديرة التي توقظ الاحساسات المفرطة ، وبالفواكـه العذبة الناضجة ، وباللحم الجميل المكتنز المرتجف باليد : كقوس نصف الدائرة والعمود والقبة والبناء المستدير والاكاليل وتزيينات الفواكه والازهـــار والايقونات والنقوش المدورة والحلزونية . وكثرت في كل مكان الأشكال القوية والممتلئة التي تذكرنا بتكوين الجسم البشري .

وقلب هذا المفهوم موضوعات علم الصور وقام مقام المسيح المتطاول . المنحني ، المتعب ، المرهق ، نصف آله قديم . وسادت فكرة البطولة الاغريقية فظهر المسيح بطلًا ظافراً وامبراطوراً مؤلهاً . وبدت العذراء ظافرة تحيط بها الفتيات الجميلات العاريات . وفقدت المسيحية معناها في هذا الفن ، الذي يبحث عن جمـال الجسم البشري وظفر الرجل بقوته المشعة والخوف من الألم والرأفـة والاستسلام ، ويتفجر بالكبرياء واللذة والعظمة .

وهذا الفن إنساني في أساسه ، وإنساني بسيادة العقل البشري والانسجام في الإبداع . ففيه كان الفنانون يبحثون عن العلاقات ، التي تساعد على اعطاء انطباع بوجود توافق بين الأثر ومنطقه وحساسيته ، ويحاولون أن يجدوا قواعد النسب في البناء ، والنسب المثالية للجسم البشري في التصوير ، وهذا يعني أن الفن أصبح عندهم علماً .

لقد أنشأ الفن الاتباعي أبنية وتماثيل ولوحات حسب المنطق البشري . وفي هذه الآيات الفنية توجد دوماً فكرة غالبة تلحق التفاصيل بالمجموع ، ونقطة واحدة مركزية يحوم حولهـا التركيب الفني ، ولايمكن لجزء منه أن يتغير دون أن يفسد منظر الكل ، وقد تم ذلك في نهوض العمران المدني .

وكان هذا الفن يبحث عن النظام والتناظر والضبط ، ويريد أن يجعل المكان متعلقاً بالانسان وخاضعاً له . ويرى ذلك في كثرة الخطوط الأفقيه ، وفي المنظر القوي المتين الذي تعطيه الخطوط المنتظمة في النوافذ والجباه والأعمدة والأقواس والأطناف عند مشاهدة قصور هذا العصر . ففي أي أثر من آثاره نجد سيطرة الانسان ، والاهتمام بقوة الانسان ، وتمتع الانسان على الأرض .

وإذا ثبت هذا الفن على شواطىء المتوسط فتحت ظل الغيوم الشمالية ، وخــاصة في فرنسا ، فهم ومثل خير تمثيل ، وهيأت فيه الآثار الجميلة الاتباعية . أمـا في البلاد المنخفضة وألمانيا فقد وقفت الواقعية والخيـال عثرة في طريق الاتبـاعية . وإذا استثنينا دورير فقد نجح المصورون ، مثل هاولبيَيْن ، في تصوير الأشخاص وبروغيل الشيخ في رسم البلاد ، وحضر الابداعيون فيها فن الباروك .

عباقرة الفن . — لقد كانت إيطاليا استاذة اوربة في القرن الخامس عشر الذي يسميه الايطاليون « كواتروشنتو » ويمتاز في تاريخ النهضة الايطالية بصفات تميزه عن غيره ، أهمها اقبـاله على العمل وحب اطلاعه العلمي وتحسين وسائله الفنية وأبحاثه العديدة في مختلف النواحي التي يدل عليها تنوع القرائح الفنية وتعدد الآثار . لقد انتـاب كل فنان في هذا الدور تياران مختلفان ، أحدهما آخذ بالتناقض وهو تقليد العصر الوسيط ، والآخر عـامل في الازدياد والنمو وهو الاقبال على القديم . وقد بلغت هذه النزعة أشدها في القرن السادس عشر . وإذا كان من شيء ثمين تقوله ايطاليا للعـالم في القرن السادس عشر فهو ما ظهر على أيدي فنانيها من بنائين ومصورين ونحاتين . لقد بقيت ايطاليا مهد النهضة الحقيقي وأرضها المدرسية ، واحتفظ فنانوها بتفوق مواهبهم ، وفرضوا هذا التفوق شيئاً فشيئاً على البلاد الأجنبية .

وقد لعبت المدن دورها في هذا العصر ، وكانت مراكز للحيـــاة الفنية . ومن الطبيعي أن يظفر الفن في مدينة روما التي لها من مجدها الغابر وآثارها وحفرياتها وأبنيتها ما يجعلها مدينة فن عظيمة . يضاف إلى ذلك الدور الذي لعبه الباباوات في تشجيع الفن والحث على الانتاج الفني .

وأشهر هؤلاء الباباوات جول الثاني (١٥٠٣ - ١٥١٣)، فقد كان يحب العظمة في الفنون كما في السياسة . جمع حوله كبار رجال الفن من برامانته البناء (١٤٤٤ - ١٥١٤)، الذي بنى كنيسة القديس بطرس حسب مخطط على شكل الصليب الاغريقي وحاول أن يوفق بين الأصول القديم في وضع الاعمدة والحاجات الجديدة . وعند موته عقبه رافائيل وأخيراً ميكيل آنجيلو . وكذلك كان البابا ليؤن العاشر (١٥١٣ - ١٥٢١) ابن لوران الفاخر من امرة الميديتشي . ففي عهد هذين البابوين كان هم الفنانين تزيين قصر الفاتيكان وبناء كنيسة القديس بطرس ، هذين الاثرين الذين بذل لها رجال الفن أحسن ماعندهم من عبقرية ونبوغ .

ولم تلعب روما وحدها دور تنشيط الفن بل كانت ميلانو تماثلها في دورها على يد لودوفيك لومور وابنه فرنسوا سفورزا . وكذلك البندقية ، فقد اشتهرت بمدرسة التصوير التي دامت حتى نهاية القرن السادس عشر .

وإذا أردنا أن نذكر رجال الفن في إيطاليا عصر النهضة فهم أكثر من أن يعدوا . لذا نقتصر على ذكر من طبقت شهرتهم الآفاق وهم لؤناردو فانتشي ، ميكيل آنجيلو ، رافائيل ، تيسيان .

لؤناردو فانتشي (١٤٥٢ - ١٥١٩) - كان لؤناردو ابناً غير شرعي لكاتب عدل في مدينة سان ميניاتو التدسكو الصغيرة . ولد عام ١٤٥٢ في قرية فانتشي الواقعة في أسفل وادي نهر الآرنو ، واليها ينتسب . التحق منذ حداثته بصنف المصورين ، وابدى استاذية عالمية جامعة في التصوير والنحت والبناء والشعر والموسيقى والفلسفة والعلم ، وظهر وكأنه يحقق بعبقريته العالمية نموذج الانسانية الكاملة التي كان يحلم بها زعيم الأدب الانساني بترارك ولا يتلمس ظلالها إلا في الماضي الاغريقي - الروماني

لقد صور لؤناردو لوحة « عبادة الرعاة » المحفوظة في متحف الاوفيس في فلورنسا ، و « عذراء الصخور » في متحف اللوفر في باريس ثم استدعـاه الدوق لودوفيك لومور عام ١٤٨٣ من فلورنسا إلى ميلانو . وفيها صنع تمثال ابنه فرنسوا سفورزا ، وهو يمتط صهوة الجواد ، وقد تهدم هذا التمثال في حروب إيطاليـا . ولكن لؤناردو كان يتابـع في الوقت ذاته دراسة العلوم المختلفة من رياضيـات وفلك وفيزياء وطب ونبات وجيؤلوجيا . وقد بدأ منذ عام ١٤٨٩ ، كما يتبين ذلك من مخطوطـاته التي توالت من عام ١٤٨٩ إلى ١٥١٨ ، يعين لنفسه طرق العلوم وغاياتها المختلفة ، ويفسر قوانين الطبيعة ، ويظهرها كفنان ، ويطبق الطرق التجريبية بذكاء واضح وفهم دقيق ، ويتنبأ بمستقبلها وقوتها . ولكن لؤناردو بقي مراً دون أن يكون له تأثير يذكر على معاصريه .

آثار لؤناردو فانتشي . — تظهر قوة التفكير في إيطاليـا في آخر القرن الخامس عشر وأول القرن السادس عشر بصورة جلية في أثر لؤناردو فانتشي العلمي . ولا شك في أن لؤناردو لم يؤلف أي كتاب ولم ينشر شيئاً ، ولم يكتب إلا لنفسه . وبينما كان يعمل كرجل فن ، كان يقضي فراغه بالكتابة ، وقد بدأ بها عام ١٤٨٩ وله من العمر ٣٨ سنة . ويبدو أنه كان يعيش منذ ١٤٨٣ في ميلانو حيث صور أعظم أثر له في التصوير وهو « العشاء الرباني » في كنيسة القديسة مريم ، الذي انهاه عام ١٤٨٧ . وكان يكتب بلا انقطاع ويجمع في دفاتره نتائج تفكيره ودراسته . وكتب أيضاً في فلورنسا من ١٥٠٠ — ١٥٠٢ بينما كان يصور « القديسة آنا » المحفوظة في متحف اللوفر « وكذا الجوكندا » وكتب أثنـاء اقامته القصيرة في روما عام ١٥٠٦ « وفي ميلانو بين ١٥٠٦ و١٥١٣ . ثم عـاد إلى روما عام ١٥١٣ وشغلته فيها تأملاته

كعالم وفيلسوف ، حتى أن البابا ليون العاشر يئس منه لأنه لم يعمل شيئاً في تزيين كنيسة الفاتيكان . وبعد واقعة مارينيان ، عام ١٥١٥ ، أخذه الملك فرنسوا الاول معه إلى فرنسا ، بعد أن رأى عبقريته الجامعة ، وأحله في قصر كلو بالقرب من آمبواز . وهنا صور « يوحنا المعمدان » . وفي العام ١٥١٨ انقطع عن الكتابة ومات في ٢ أيار ١٥١٩ .

وإذا نظرنا إلى صوره القليلة وكتلة كتاباته الضخمة استطعنا أن نستنتج . على الرغم من عبقريته الفائقة التي تظهر في فرسكة ميلانو ولوحات اللوفر ، أن لؤناردو لم يقف للفن إلا شطراً صغيراً من نشاطه . فقد كان قبل كل شيء مفكراً وعالماً عبقرياً يتخذ الفن وسيلة لايضاح علمه وأبحاثه ، وألهية شريفة يتلهى بها في أوقات فراغه .

ميكيل آنجيلو (١٤٧٥ - ١٥٦٤) . - ولد ميكيل آنجيلو بوبوناروتي في ٦ آذار ١٤٧٥ في وادي نهر الآرنو الأعلى بالقرب من فلورنسا ، ونشأ في أسرة عريقة كان يفخر بنبلها . عاش في البدء في فلورنسا ، في حمص لوران الفاخر ، وتعلم التصوير في مشغل غيرلاندايو عندما كان ينتج أجمل أثر له وهو تزيين خورس كنيسة القديسة ماريا الجديدة (١٤٨٥ - ١٥٩٠) . وفي الوقت نفسه كان ميكيل آنجيلو يدرس صور مزاكتشيو على جدران كنيسة الكرمليين . وقد علمته هذه الدراسة كيف يجل ويتمم التعليم الذي يتلقاه في مشغل غيرلاندايو . وبينما كان يدرس التصوير ، كان يتعلم النحت الفلورنسي المتعارف عليه في القرن الخامس عشر وهو التقليد الواقعي الذي عرف به دوناتللو .

درس ميكيل آنجيلو الرخام القديم المحفوظ في قصر آل الميديتشي . وهذه الدراسة وجهته نحو الاشكال القديمة والجمال القديم . وكان ميكيل آنجيلو يحب الآداب والعلوم ، إلا أن حبه لهذه الاخيرة كان أقل من

حب لؤناردو فانتشي الذي كان عبقرية علمية قبل كل شيء . كان ميكيل آنجيلو ، على عكس لؤناردو ، شاعراً ، كلفاً بالفكر الانساني . وكان على صلة بالاساتذة الانسانيين مثل مارسيل فيتشينو ، وبيك دولاميراندول ، وآنج بوليسين ، ومدرسة فلورنسا الافلاطونية . وقد أخذ العبادة الافلاطونية للجمال الصرف عن هذه المدرسة ، وتأثر بالميشرين ، وأقبل على أدب دانتي والكتاب المقدس وظل لهما أميناً مخلصاً ،

وبعد هذه التربية الاولى لعبقريته ، ذهب ميكيل آنجيلو إلى روما عام ١٤٨٦ وتعرف فيها باشياء قديمة وخاصة تمثال آبولون بيلفيدير الذي عثر عليه حديثاً بعد الحفر في الحدائق البابوية . وهذا الأثر كشف له عن الجمال القديم بأشكاله الهادئة والمنسجمة . ثم عاد إلى فلورنسا وبقي فيها بضع سنين .

أما آثاره في النحت وهو في فلورنسا فكان لهـا طابع مزدوج : نلاحظ فيها البحث عن الجمال الوثني الصرف كما في تمثال « إلـه الحب النائم » و باخوس الثمل » ؛ وكذلك الجهد في التعبير عن العاطفة الدينية المسيحية التي تظهر « الشفقة » في تمثال العـذراء مع المسيح الميت في كنيسة القديس بطرس في روما و « داود العظيم » المنحوت من الرخام الذي نصب في فلورنسا عام ١٥٠٤ أمام قصر الامارة .

وفي العـام ١٥٠٥ استدعاه البابا جول الثاني إلى رومـا وظل حتى وفاته ١٥٦٤ يشتغل لحساب الباباوات . وفي روما يبدأ عهد جديد في تاريخ آثاره وعبقريته . وكان أول عهده فيها مليئاً بالجهد الواسع ووضع التصميات وتحقيقهـا في النحت . فمن ذلك أنه باشر بنحت ضريح جول الثاني إلا أن هذا الاثر لم يتم ، وذلك لأن البابا جول الثاني كان غريب

الطباع متقلباً . فقد أجبر ميكيل آنجيلو على تصوير جدران القابلة الستينية وسقفها . ولبث يعمل في السقف مدة أربع سنوات من (١٥٠٨ — ١٥١٢) . وأصبح ميكيل آنجيلو ، وهو في روما ، أقوى مصور في إيطاليا . إلا أنه عاد إلى فنه الاول ، وهو فن النحت ، فنحت تمثال « موسى والأسيرين » . ثم اشتغل لحساب كليمان السابع ضريحي لوران وجوليان الميديتشي في فلورنسا . وطلب اليه البابا بولس الثالث أن يتم تزيين القابلة الستينية فصور على الجدار الداخلي للقبلة الفرسكة الواسعة التي موضوعها « **يوم الحساب** » وبقي يشتغل فيها من ١٥٣٦ — ١٥٤١ . ثم أتم بناء كنيسة القديس بطرس ، التي وضع مخططها الاول المهندس المعمار برامانته ، وبنى فوقهـا القبة العظيمة التي يبلغ عرضها ٤٢ م وارتفاعها ١٢٣ م .

كان ميكيل آنجيلو نحاتاً قبل كل شيء ، نحاتاً ينحت الرخام . وإذا فكر ، فكر في الرخام ، وخاصة في رخـام مقلع كراره ، الذي رفع فيه عبقرية النحت إلى الدرجة العليـا . اما فنه فلا يعرف في الطبيعة إلا الوجه البشري والعري وتمثيل الثياب . وقد مرت به أدوار هجر فيهـا النحت وعكف على التصوير ، إلا أنه بقي نحـاتاً في فكره وعبقريته ، يخرج نماذجه ويلقي بها بارزة في الهواء دون يحررها من كل شيء تلتصق به .

أما مصادر فنه فستوحاة عن القديم والعصر الوسيط . درس ميكيل آنجيلو آثار الاقدمين الرومانيين وتأثر بهم ونسخ عنهم وقلدهم . وإذا كان هم الفن القديم البحث عن الجمال الطبيعي فالنماذج ، التي أبدعهـا ميكيل آنجيلو ، تتمثل فيها القوة والرشاقة . وأشخاصه رياضيون ، مفتولو السواعد ، ضخام العضلات .

وورث ميكيل آنجيلو عن العصر الوسيط المسيحي اهتمامه بالبحث عن التعبير المعنوي والاخلاقي .

وجمع ميكيل آنجيلو بين هذين الفنين ، بين عبادة الشكل الجميل وقوة الجسم المرن ، وبين القلق العاطفي والهيجان الديني الذي يكبر الالم ويؤلمه ، وعبر عن فنه بسيماء الوجه ويتنوع المواقف وأوضاع الجسم وحركاته .

قضى ميكيل آنجيلو حياة مريرة اليمة . وكان يمازج علاقاته مع حماته الباباوات ومع تلاميذه المعجبين به ، كثير من النزاع والحسد والدسائس . ومرت به ظروف كان يشعر فيها بالخيبة واليأس وانحطاط المعنويات ، وأحوال كان يتليء فيها بالحماسة والشجاعة فيضع الخطط الكبرى والمشاريع العظيمة لدرجة تفوق قوة البشر . وكثيراً ما يتألم عندما يرى التباين بين ما حلم به وماحققه . انه كان ينظر دوماً إلى أعلى .

وعبقرية ميكيل آنجيلو عبقرية فنان يحب العزلة ويكره البشر وينفر من المجتمع . ولكن يجب الا نبحث عن تفسير آثاره في حياته اليومية المريرة ، فما اشخاصه الجبابرة الغارقة في وهاد اليأس أو المتشجنة من شدة الالم أو الغضب الا تعبير للعواطف المثالية العلوية التي كان يتطلع اليها ميكيل آنجيلو .

رافائيل (١٤٨٣ — ١٥٢٠) . — ولد رافائيل في ٦ آب ١٤٨٣ في أربينو . وكان أبوه جيوفاني سانتي مصوراً ضئيل العبقرية . أما هو . فقد تعلم التصوير على يد مصور من فيروزه اسمه فانوكتشي واسم بلده غلب عليه فعرف بالفيروزي أو الفيروجي . وتدل آثاره الاولى على ماانطوت عليه نفس التلميذ من رقة وعذوبة . كما تدل على تقليد وتكرار لآثار استاذه . درس ، في فلورنسا من ١٥٠٤ — ١٥٠٨ م ، مازا كتشيو

وغيرلانداير ودوناتللو وغيبرتي . وفي العام ١٥٠٨ ، أي عندما كان في الخامسة والعشرين من عمره ، استدعاه البابا جول الثاني إلى روما وعهد اليه بتزيين قاعات الفاتيكان . وقد استطاع بسهولة مدهشة أن يصور في ستة أشهر فريسكتين تدلان على ما كان عليه من نبوغ وعبقرية : الأولى « مدرسة أثينة » وتدل على خلاصة تاريخ الفلسفة . والثانية « نقاش السر المقدس » او « علم اللاهوت » التي تلخص تاريخ الكنيسة . وتألق نجم رافائيل بعد ذلك وبسم له الحظ وصار يلقب بـ « الالهي » ، وغدا وزيراً أعلى للفنون الجميلة في بلاط البابا ، وكثر عليه الطلب ، وأقبل عليه التلاميذ حتى لم يعد باستطاعته انجاز مايطلب منه . وكثيراً ما كان يعهد إلى تلاميذه باتمام مابدأ من آثار .

واشتهر أيضاً بفرسكاته الكبرى مثل « جبل بارناس » و « نجـاه القديس بطرس » و « تجلي الرب » التي لم يتممها بنفسه ، نظراً لوفاته ، بل أتمها من بعده تلميذه جول رومان . ويضاف اليها لوحات عديدة ذات موضوعات مختلفة ومشاهد دينية أو ميثولوجية .

ومات رافائيل عام ١٥٢٠ وهو في أوج مجده على أثر حمى شديدة داهمته ولم تمهله كثيراً .

يشغل رافائيل مكاناً ممتازاً في تاريخ الفن . وهذه المكانة التي يحتلها تتضح بالزمن الذي عاش فيه الفنـان وبطبيعة عبقريته . فقد تفتقت عبقريته عندما بلغت النهضة درجة النضج ، فكان رافائيل أكثر تمثيلاً لعصره . وفي آثاره تشاهد ثمرة ثقافة القرن الخامس عشر . فقد استطاع بسهولة عظيمة ان يمثل علم اسلافه ومعاصريه ، حتى أنه عرف بشدة مرونته وقابليته للتأثر بسرعة . ولم يكتف بأن يكون تلميذاً مقلداً . بل انه استفاد من نتـائج متقدميه وأظهر آثاره بابداع أصيل . وبالرغم

من حياته القصيرة جداً فقد كانت آثاره تدل على حذاقته الفنيه وتكامله المستمر . لقد كان رافائيل يتبدل ويتطور من سنة لأخرى . وترك أثراً عظيماً ، ومات ومعين عبقريته لم يستنفذ جميع امكانياته .

كان جهد رافائيل يوفق بين العالم القديم والمسيحية وان كان في مره يفضل بهاء الحكمة الاغريقية وانسجامها على جلال الحكمة المسيحية المهيب . ولذا فانا نرى في آثاره الفنية تأليفاً منسجماً لجميع نزعات عصر النهضة ، هذا التـأليف الذي تحدوه الرغبة المستمرة في التحسين والتكامل . ولعل أكثر مايستهوي المتـأمل هو هذا الانطباع الهـــادىء والصفاء المطمئن والعذوبة والسعادة التي نلمسها في روائعه . ورافائيل ، على عكس الواقعيين ، الذين يعملون في اظهار نماذجهم كما هي في الطبيعة ، كان مصدراً مثالياً يزين صوره طبقاً للفكرة التي في رأسه . . ومع هذا لم يعرف كيف ينظم اشخـاصه في كل منطقي منسجم ويفسح المجال وراءهم . ولذا ففنه ينقصه عمق التفكير،إلا أنه يدل دلالة واضحة على رقة الجمال وعذوبة العاطفة وصفاء الحواشي .

تيسيان (١٤٧٧ – ١٥٧٦) . – إذا كان فنانو رومـا وفلورنسا يتحسسون بجمال الشكل فان فناني البندقية يتأثرون بتلاعب النور وانسجام الألوان . ولذا فهم مصورون وملونون ، وحبهم للون حدا بهم إلى الاهتمام بالمناظر . وأصـالة البندقية تأتي عن اهتمامها بالتصوير . وأشهر أساتذتها تيسيان الذي كان متعلقاً بحكومة البندقية . جاء إلى روما عام ١٥٤٦ ، بعد أن استدعاه البابا بولس الثالث ، وفكر فيهـا بمنافسة ميكيل آنجيلو وكان يختلف عنه تمامـاً . وفي روما صور البابا بولس الثالث وبير فارنز واوكتاف فارنز . ثم قام بزيارة إلى فلورنسا . وفي مانتو صور إلى آل غونزاغ لوحة « المسيح وحجـاج عمواس » المحفوظة في متحف اللوفر .

والتحق بشارلكان في اوغسبورغ وأصبح له مصوراً . صور الامبراطور وهو على الحصان تحت سماء غائمة ، ثم عاد إلى البندقية وبقي محافظاً على ولائه لآل هابسبورغ حتى أن فيليب الثاني شمله بعطفه كوالده شارلكان وبقي في البندقية يعمل حتى وفاته .

كان تيسيان عبقرية خصبة ، طرق في تصويره جميع الانواع ومختلف الموضوعات . وآثاره الفنية كثيرة جداً . اهتم منذ حداثة سنه برسم المناظر وبقي محتفظاً بذكرياته لجبال الالب في كادور التي تأملها وتمتع بمناظرها في طفولته . ولذا يلمس المتأمل في آثار تيسيان شعراً ينم عن جمال الموقع ، الذي أخذ منه المنظر ، وحقيقة النور .

واهتم تيسيان بتصوير الاشخاص . وقيمة فنه في هذه الناحية تظهر في نشاط الحياة الطبيعية التي يمنحها لاشخاصه . فقد كان مصوراً لكبار الشخصيات في عصره من امراء وباباوات واباطرة .

ونفذ تيسيان ببصيرته وباصرته إلى روح الشعر الوثني وعبادة الجمال وحب الطبيعة والحياة فصور الميثولوجيا وابدع فيها وبعث ديانة فينوس وجددها .

وكان في الوقت نفسه مصوراً مسيحياً استوحى عن الانجيل مشاهده وتركيبه . ولم يمنح مصور مثله ما منح وجه العذراء من جمال وحنان . وهو يعتبر من أشد العبقريات تمثيلاً لعصره ، عصر النهضة ، كما يعد ، مع فيلاسكيز المصور الاسباني ، (١٥٩٩ - ١٦٦٠) أكبر مصور ملون في جميع العصور . ولكن يجب الا نبحث في أثره العذب الهادىء المنير عن الهيجان العميق المؤلم الذي نلمسه في آثار ميكيل آنجيلو

الفن في آخر القرن السادس عشر — فقد الفن الايطالي في أواخر

القرن السادس عشر قوته الابداعية . ولايعني هذا أن إيطاليا فقدت رجال الفن ، بل مازلت أرضاً خصبة لكثير من الفنانين الموهوبين . ولكن أكثرهم أتموا ثقافتهم الفنية في الاكاديميات أي المدارس الفنية التي كانت تستوحي آثارها الفنية من الأساتذة ، الذين مر ذكرهم ، وممن كان على شاكلتهم . ولذا كان طابع الانتاج مدرسياً ذا جمال تقليدي لايحرك العواطف ، ولا يهيج النفوس ، وتنقصه روح الابداع الحقيقي التي تميز رجل الفن ، ويعوزه الاخلاص الذي يعبر عن فكرة . ويسمى هذا النوع من الفن بالاكاديمي المدرسي .

غير أن البندقية شذت عن هذه القاعدة وبقيت وضاءة حتى نهاية القرن السادس عشر وذلك بفضل اساتذة الفن فيها من أمثال : تنتورة (١٥١٢ — ١٥٩٤) وفيرونز (١٥٢٨ — ١٥٨٨) .

البحوث الموسيقية الجديدة . — لقد نمت في عصر النهضة الأنواع الموسيقية التي أحدثت في العصر الوسيط ، ولم تظهر التأثيرات الجديدة إلا ببطء . وعلى هـذا النحو ارتفع الموسيقي الايطـــالي باليسترينا (١٥٢٣ — ١٥٩٤) بالحـانة المتعددة إلى درجة الكمال العظيم في خدمة الالهام الديني ؛ وكذلك امم الموسيقي الاسباني فيتّوريا (١٥٤٠ — ١٦٠٨) .

وهذا النوع من الموسيقى المتعددة الاصوات في الالحان وجه الموسيقى الدنيوية فظهر فيهـــا الاهتمام بمتابعة التعبير الشعري كما هي الحال في « المادريغال » . وفي هذا المعنى اشتهر في اوربة المؤلف الموسيقي الفرنسي كليمان جانكان في « زقزقة العصافير » و « واقعة مارينيان » ،

أما الغناء الديني فهو من الهام لوثري وفيه يبحث عن الصفاء البدائي .

وقـد اهتم الشاعر الفرنسي كليمان مـارو بـ « مزامير » كالفن الغنية بالتعبير الأدبي .

وبصورة عـامة لقد تبوأت الموسيقى مكانها في الحيـاة الفنية في هذا العصر اكثر من أي وقت مضى . حتى أن كثيراً من المصورين والمهندسين المعماريين كانوا يتخذونها نموذجاً لكل شكل من أشكال الجمال . وأخذت الآلات الحديثة ، الأرغن والعود ذي الخمسة أوتار والكمان ، تغني الموسيقى بثروات فنية جديدة .

النهضة العلمية . — النهضة العلمية هي اكتشاف الطبيعة والانسان وترجع مصادرها إلى ما يأتي :

١ — حب الاطلاع على العالم الأرضي ، وقد أوحت به فردية العصر .

٢ — النشر وطبع المؤلفات العلمية القديمة . وقد جهزت هذه المؤلفات علماء العصر بالمعارف والمعلومات والأخبـــار العلمية الضرورية لانطلاق علمي جديد .

٣ — بعث وجهة نظر الجمـال التي كانت عند القدامى . وقد أدى ذلك إلى انقاذ جمال مفاهيم فيثاغوروس وأرسطو .

أمـا من حيث وجهة النظر العلمية فقد لعب الاهتمام بالمنفعة دوراً واقعياً ، ولكن هذا الدور كان ثانوياً لا أساسياً . ولقد كانت لايطاليـا الأولية في ميدان العلم كما كانت لها الاولية في الحركة الانسانية والآداب والفنون . وكان أهم الاكتشافات العلمية من عمل الايطاليين أو طلاب الجامعات الايطالية .

كانت الحياة العلمية في العصر الوسيط على درجة لا يمكن اهمالهـــا ، ولكن الكشوف العلمية فيها كانت نادرة . وكان المشتغلون بالعلم ، أمام حادث من حوادث الطبيعة ، يرجعون إلى ارسطو عوضاً عن أن يلاحظوا

بأنفسهم . ولا نكران في أن أوربه شهدت ، منذ النصف الاول للقرن الحادي عشر ، نهضة علمية بلغت أوجها ، في القرن الثالث عشر ، تحت تأثير انتشار المعارف الاغريقية والعربية في الغرب الاوربي . وهذه النهضة ، وان كانت تبدو نقطة انطلاق وبداية لظهور الفكر العلمي الحقيقي ، إلا أنهـــا لم تكن ممكنه لولا الاتصال الوثيق بمعين الحياة الثقافية الأمامي وتزويد بذلـك التراث الاغريقي ، الذي نقـله العلمـــاء العرب وصححوه وأضافوا اليه كثيراً من كشوفهم وأبحاثهم وتجاربهم . ولكن النهضة العلمية الحقيقية ، التي شهدتها أوربة بتقدم المنهج التجريبي ، لم تبدأ قبل القرن السابع عشر .

وهذا التقدم الذي نحا منحى الفكر العلمي الايجـابي ما كان ليتناول سوى نفر محدود من العلماء . أما الكثرة الكثيرة من النـاس فقد ظلت تؤخذ بالضلال والاباطيل وتعتقد بالخوارق وتأثير النجوم والقبلة والعرافة والسحر وعمل الشيطان والمغيبات ومـا إلى ذلك من جنون جماهي ناشيء عن فقدان الفيزياء .

وكان الايضـاح العلمي يقتضي ، أمام الاشياء الموضوعة ، أن يبحث عن الجنس أو النوع الذي تنسب اليه ، وأن يعرف ما إذا كان الشيء الموضوع عينياً . وفي الحالة التي لايقع فيها تحت حواسنا أن يعرف مـا إذا كان ممكناً أو مستحيلاً ، ومـا هو أسامي فيه أو عرضي ، وماهو مستديم أو زائل ، علته ومعلوله ، وماهي غايته ، أي لماذا وجد ، وما هو جوهره ومادته ، ماهو فيه بالفعل وبالقوة وبالصيرورة الخ . . وعندما يعرف النموذج الخالد للشيء يوجد الايضاح : ليكن الحديد والمغناطيس ، ففي وجود المغناطيس يكتسب جوهر الحديد خاصة غيبية وهي الخـاصة المغناطيسية ، وطبيعة هذه الخاصة أن تجذب الحديد نحو المغناطيس . إذن

فالخاصة المغناطيسية علة خاصة وقصوى للحوادث الملاحظة . وهكذا نصل إلى العلم ابتداءً من ملاحظة الواقع .

وهذه المنظومة المنطقية لمفاهيم الفيزياء تعتمد على فكرة النهاية أي أن العالم منته في المكان ، وهو يتألف بصورة تبقي الأجناس فيها ثابتة مع تبدل الافراد . وهذا العدد الثابت للأجناس المؤلفة من أنواع ومن ختلافات معينة العدد يعني أن الكون منته ومغلق ومحدود . وقد ساد هذا النموذج من الايضاح في القرن السادس عشر في الكليات الجامعية ودام حتى القرن السابع عشر .

وإذا لم يكن ثمة سوى حوادث تحدث فايضاح الحادث لايمكن أن يكون إلا بصلته بحوادث أخرى معينة . وقد نشأت فكرة العلم التجريبي في القرن الرابع عشر ، عندما أبدى الانكليزي غليوم أوكام بأنه عندما نجد أن حادثاً من الحوادث لايمكن أن يحدث دون حدوث حادث معين آخر ، فان هذا الحادث الثاني يمكن أن يسمى علة للأول : فاذا وضع الجليد في الشمس أو في النار ، أو في الفرن ، أو بتماس مع اليدين ، لوجد أن الانصهار لايمكن أن يحدث عن النور أو اللون أو المادة بل عن الحرارة وهي الحادث الذي يرافق الانصهار دوماً . ولكن العلة في هذه الحالة تكون علاقة حادث بسيطة دون أي تأثير غيبي ، أي ميكانيكية بسيطة لاتعلمنا شيئاً عن الطبيعة الخاصة بالاشياء وهدفها ، وفائدة هذا الايضاح هي أنه أكثر إيجابية من الوجهة العلمية ، وهذا مالم يفعله الايضاح الواقعي .

وإذا وجد الاوكاميون الباريسيون في القرن الرابع عشر صورة أولية لعلم التشريح والفيزياء الحديثة فان حرب المائة عام وشقاق الكنيسة

الاكبر (الحيدة الكبرى) هدما جهدهم ، وضاع القرن الخامس عشر في منطق ، صوري بيزنطي . وفي آخر القرن أفسدت فكرة العلم التجريبي قوة الايضاح الارسطاطاليسي للعـــالم دون أن تعرضه بايضاح آخر . ومن هنا ظهر اضطراب الافكار وعدم يقينها .

مصادر النهضة العلمية . ــ لقد تابر المجهود العلمي الذي بدىء به في العصر الوسيط على سيره المعتاد ، ولكن حركة الانسانية امدته باندفاع جديد . وكان جميع علماء النهضة انسانيين حتى العمليين منهم كالجراح امبروازبارية . فقد عرف هذا الاخير العلم القديم ، عن طريق الترجمة على الاقل ، واستشهد بجـــالينوس ٥٤٣ مرة وهيبو قراط ٤٢٦ مرة . وجهزت مؤلفات القدامى ، مثل فيزياء ارسطو الذي طبـع عام ١٤٩٥ ، وعلم حركات الكواكب لبطليموس (١٤٠٨) ، وكتاب بلين في التاريخ الطبيعي ، وكتاب تيوفراست في علم النبات (١٤٦٩) ، وطب جالينوس وهيبو قراط (١٥٢٦) ، وفيزياء ارخميدس (١٥٤٤) ، العلماء بكتلة من المواد كانت تنقصهم ، وخاصة بوجهات نظر جديدة فيثاغورية وافلاطونية وجمالية وهندسية : وذلك بأن يوصف الكون بتعابير العلاقات الرياضية ؛ فاذ وجدت نظريتان متعادلتان هندسياً فأكثرهما انسجاماً وتناظراً وجمالاً هي الاصح . وهكذا كانت النهضة العلمية ، كالانسانية ، علم جمال اتباعي (كلاسيكي) .

غير أن اكتشاف الكون يتطلب روح الملاحظة . وقد أتت هذه الاخيرة عن الطب . وحاول هذا العلم عبثاً أن يتقيد بطب جـالينوس . فقد بدأ الاطباء بملاحظة المريض بانتباه . وكانوا يعرفون النظر والوصف وإيجاد العلاقات بين الأشياء التي رأوها . وساعدهم على ذلك أن القرن السادس عشر كان عصر تنقل للاساطيل والجيوش ، عصر الأوبئة الناشئة

عن أمراض لم يعرفها القدامى . ولما لم يقل هؤلاء شيئاً ، وجبت الملاحظة وإيجـــاد شيء ضدهـا . وتبين أن الاطباء ملاحظون صالحون وانهم عقول حرة وجريئة . وكان على من يريد التعمق في العلوم ، بعد كلية الفنون ، أن يذهب إلى كلية الطب . وكان العلماء من كوبرنيك الفلكي ، وكاردان الرياضي ، واغريْبا الجيولوجي ، وباراسيلس الكيماوي وغيسنر وروندوليت وغاليليه كلهم اطباء .

هذا ويمكننا أن نتصور سير العلم كما يلي : تصور تحققه الملاحظات ووصف الظواهر . ومن هذه يرتقي العقل البشري إلى الحركات الواقعية ، إلى الميكانيكية الخفية ، فيجد قوانين هذه الحركات ، ومن القوانين يرتفع إلى المبدأ الذي يوضحها . على أنه من الممكن أن تقطع هذه المراحل المختلفة دون أن يكون هنالك اكتشاف للعلاقات الرياضية : اي ان العلم كيفي بصورة محضة . وهذا العلم لايكون علماً حقاً إلا عندما تفسر الميكانيكية والقوانين والمبدأ بعلاقات رياضية ، لان هذه العلاقات وحدها تساعد على الايضاح الدقيق والتنبوء المحكم . وهكذا أحيا الفكر الرياضي العلوم الفلكية والفيزيائية في القرن السادس عشر .

علم الفلك . — كانت أعمـال الفلكي كوبرنيك نهضة للفكر العلمي القديم ، ولذا تعتبر ثورة حديثة . فقد قبل العرف العام بالبديهة المباشرة القائلة بثبات الارض ودوران الشمس والكواكب حولها . وكفل تعليم العلماء والفلاسفة والكنيسة بقـــاء هذه البديهية . ومن هنا نرى « جرأة الفكر الكوبرنيكي ، التي لاتصدق وتنزع الارض من أساسها وتلقي بها في السماء » .

ولد كوبرنيك في ثورن في بوميرانيا في ١٩ شباط ١٤٧٣ وكان أبوه من كراكوفيا وامه من ثورن .

درس كوبرنيك في جامعة كراكوفيا ، ومن ١٤٧٧ إلى ١٥٠٧ حتى الثانية والثلاثين من عمره ، في الجامعات الايطالية في بولون وبادوا وفيراره ودرس الحقوق والطب وافلاطون . وفي بولون درس الفلك ، وعمل كاهنا قانونياً في كاتدرائية فراونبورغ . وكان يقضي اوقات فراغه في الفلك . وفي ١٥٤٣ أي سنة وفاته نشر كتابه « دوران الافلاك السماوية » وأهداه إلى البابا بولس الثالث .

ولكن ماهي القوانين الهندسية التي تسود حركات الكواكب السيارة وتسمح بايضاح الحركات الظاهرية ، التي لوحظت في القديم وتنبيء بكيفية حركة الكواكب في المستقبل . لقد وجدت منظومتان : الاولى منظومة اودكس تلميذ افلاطون وهي أن السيارات معلقة بكرات وحيدة المركز ، وتتحرك بحركات منتظمة ، ولها مركز واحد وهو الارض . والثانية منظومة بطليموس وهي أن الارض مركز الكون ، أن كرات السيارات تنتخب مراكزها في السماء انتخاباً مطلقاً .

أما كوبرنيك فكان يفهم الشكل الهندسي ، ويطبق على الكون وجهة نظر الجمال ، ويقول أن التكوير هندسياً هو الشكل الاكمل ، وجميع الاجسام تبحث عنه . اذن فالارض مدورة . والتكوير يؤدي بصورة طبيعية إلى الحركة والحركة الدائرية أكمل حركة . اذن فللأرض حركة دائرية كسائر الكواكب .

وكان يشجع كوبرنيك في نظراته تلك النظريات المسبقة لحركات الارض ، التي وجدها عند القدامى مثل نيسيتاس وفيلولوس وهيراكليت بونت . وبعد أن تأمل وحسب كل حياته انتهى إلى منظومته الشهيرة وهي أن الكون منته ، محدود ، وأن الشمس في المركز منيرة وحولها الافلاك صلبة شفافة تحمل السيارات والارض . وهذه الافلاك كروية .

وتدور حسب شكلها لانها مدورة . وحركة الكواكب لها مركز واحد وهو مركز حركات الارض . وهكذا أوجد كوبرنيك هندسة منيرة ، كونية ، ضوئية ، حقيقية بالنسبة اليه ، وتوضح حركات السماء ، وذلك لأنها تمثيل رياضي رشيق ومنسجم لحركات الكواكب السيارة ، ولأنها أجمل من غيرها .

لاقى كتاب كوبرنيك ترحيباً ، وساعدت منظومته على حساب جداول عديدة صحيحة ، كالجداول المؤسسة على فرضية مركزية الارض ، بل وكاملة . ولم يحدث بادىء بدء أثراً لثورة عندما أهداه إلى البابا بولس الثالث حتى أن « الراعي » اللوثري اوزياندر ، صديق كوبرنيك ، قدمه بمقدمة بين فيها منظومة كوبرنيك كفرضية بسيطة تساعد على الحسابات . هي الحال في منظومة بطليموس . غير أن كوبرنيك كان مراقباً ضعيف الملاحظة ، ضعيف النقد ، فقد استخدم الملاحظات التي سبقته دون أن يضيف لها أو يحققها . ولكن « الراعي » اللوثري ميلانكتون عرف أهمية هذه الاكتشافات وكافحها في كتابه « الفيزياء » عام ١٥٥٢ . وبالتدريج رأى الفلكيون خصب مركزية الشمس ، وعرفوا أن كوبرنيك ضرب فرضيات مركزية الارض ومركزية الانسان الضربة القاضية ، وانه جرح مذهب ارسطو فأدماه من حيث أراد انقاذه ، وأن أثره يسجل إنهيار عالم وولادة عالم جديد ، وان الانسان ليس مركز الكون ، وان الكون لايدور حوله ، وان النتائج الميتافيزيائية والدينية خرجت منه مع عداوة اللوثريين والكاثوليكيين واعدام غاليليه وأثر باسكال ؛ وكذا النتائج العلمية مع قوانين كبلر ، ومبدأ نيوتن وفرضية لابلاس في التكوين .

وحوالي آخر القرن كان جيوردانو برونو (١٥٤٠ — ١٦٠٠) يرى بأن النجوم شموس منثورة في الفضاء ، وان كل واحد منها مركز لمنظومة سيارات كمنظومتنا ، وان الشيء الوحيد الخالد في العالم الدائم التحول هو الطاقة الخالقة الكامنة في كل شيء . ولكن هذا الرأي في حالة الملاحظات والحسابات ليس سوى مجرد تنبؤ وليس علماً .

غير أن جداول السيارات عند كوبرنيك لاتعطي تمثيلاً صحيحاً لحركات السيارات الحقيقية ، ولذا وجد من الضروري القيام بملاحظات أصولية منظمة . وكان ذلك من عمل تيكبراهيه (١٥٤٦ — ١٦٠١) وهو شريف دانيمركي اشتغل في المرصد الملكي الدانيمركي في اورانيبورغ (١٥٩٦ — ١٥٩٧) . وفي المرصد الامبراطوري في براغ ، ونشر فهرساً للنجوم عام ١٦٠٢ . ولم يستطع أن يوسع النظرية الكوكبية العددية على أساس النتائج التي توصل اليها فعهد بهذا العمل ، وهو على فرش الموت ، إلى كبلر .

ومع هذا فان التقويم الجولياني المستعمل كان مؤسساً على سنة شمسية أطول بـ ١١ دقيقة و ١٤ ثانية . وقد وجد أن هذا الحساب في ١٢٨ عاماً يسبق بيوم كامل السنة الشمسية الواقعية ، وان عيد الفصح ، الذي وقع في ختام مجمع نيقية واحتفل به في أول أحد بعد بدر الربيع كان يبتعد عنه دون انقطاع . غير أن « مجمع ترانت » عهد إلى الكرسي البابوي أمر الاصلاح ، ونشر غريغوريوس الثالث عشر الاصلاح في عام ١٥٨٢ ، ثم اضيف له عشرة أيام فأصبح يوم ٥ تشرين الاول ١٥٨٢ يوم ١٥ تشرين الاول . ثم عمل جدول جديد واتفق في ذلك التاريخ الكنسي مع التاريخ الشمسي . ونشر الامبراطور عام ١٥٨٣ الاصلاح وتبعه الكاثوليكيون . أما اللوثريون فصرحوا بان الشيطان يختبىء في هذا التقويم ، وان قبول تقويم البابا إنما هو الالتحاق بعدو المسيح . ثم ان

بطـارقة الشرق المنشقين حرموا رومـا . وبعد ١٧٠٠ تبنت الدانيمارك والقسم الاعظم من سويسرا البروتستانتية و « الاقاليم المتحدة » التقويم الغريغوري ، وشايعته انكلترا عــام ١٧٥٢ ؛ والسويد في ١٧٥٣ ؛ وبروسيا في ١٧٧٥ . أمـــا الروس والاغريق فقد ابقوا على التقويم الجوليـاني الذي كان في أول آذار ١٩٠٠ متأخراً بـ ١٣ يومـاً عن تقويم الغرب .

الفيزياء . — لقد شهد القرن السادس عشر نهضة النقاش في الحركة ، أساس فيزياء أرسطو ، وكان هذا عالماً بالحياة ، اجتماعياً يعتمد دوماً على ملاحظة الحياة اليومية والنظر إلى الكليات ، وخـاصة بمجموع الكون . وهذا الكون لابد له من نظام ليصبح كل شيء ثابتاً ، وذلك لأن التجربة تعلمنا بأن كل متحرك على الارض لايلبث أن يتباطـأ ويقف . وترينا الملاحظة حركة الكواكب السرمدية المنظمة . وهي وحدها تستطيع أن تنقل الاجسام الارضية لان هذه الاجسام تنزع إلى الثبـات وعدم الحركة ، وتتحرك لتستعيد حالتها الاولى . وترينا التجربة اليومية أن نقل الحركة يقتضي تماساً أو احتكاكاً أو ضغطاً أو سحباً ، وأن التأثير لايكون عن بعد . فكيف نوضح اذن دوام حركة في متحرك منفصل عن المحرك ؟ كحجر ملقى أو كرة أو سهم أو جسم يسقط « ان هذا لايمكن الا بوجود دوار خلقته الحركة في الوسط الذي يحيط بالمتحرك ويدفعه أو يسحبه . اذن لايوجد فراغ ، والطبيعة تخشى الفراغ . ولو كان هنـالك فراغ لاصبحت السرعة لامتناهية وهي ليست كذلك .

أمـا تلاميذ مدرسة غليوم اوكام ، أمثال جـان بوريدان ، نيقولا أوريسم ، فقد بدلوا في القرن الرابـع عشر بناء ارسطو حسب الاتجاه

العام الذي يعمل على مسلمات التجربة اليومية . لاحظو المسافة التي يقطعها حجر أو رصاصة في الهواء ، والاثر الذي تتركه القذيفة برهة خلفها عندما تكون الشمس ، في منتصف المسافة بين الافق وسمت الرأس ، وتضيء الاثر بصورة مائلة ، وصرحوا بأن القذيفة تترك وراءها فراغاً ، والهواء لايتحمل هذا الفراغ فينفذ فيه ويسحب المتحرك اليه إلى الوراء ليملأه ، وعليه فرد فعل الوسط لايمكن إلا أن يعيق الحركة . ولشرح بقاء الحركة فرضوا « امبيتوس » أي انطباع الحركة وهو خاصة يكتسبها المتحرك ويستطيع بها ، إذا انفصل عن المحرك ، أن يستمر في حركته من تلقاء نفسه خلال مدة معينة .

لقد عرض مذهب ارسطو والمذهب الباريسي ونوقشا بشغف في القرن السادس عشر . وكان غاليليه في أول أمره « باريسياً » غير أن « الامبيتوس » لايؤدي إلى مخرج ، فاذا اكتسبت المتحركات الخاصة وجب أن تسقط بسرعات ثابتة ومتناسبة مع أوزانها النسبية . الا ان غاليليه القى في العام ١٥٩٢ من البرج المائل في بيزا ثلاثة أجسام مختلفة الوزن فوصلت الارض معاً . وبدا أن مذهب « انطباع الحركة » غير صحيح .

وحدثت في ذلك الحين نهضة فكر أرخميدس ، واخذ مجد العالم الاغريقي وتأثيره يعظمان . وأولى تارتاليا وكاردان وغاليليه اهتمامهم أرخميدس ووضعوه في الصف الاول فوق أرسطو . وأفهمهم أرخميدس فيزياء مغايرة . أفهمهم أن الوقائع التي نشاهدها كل يوم ليست وقائع بسيطة وابتدائية . وأن سير السفينة المسحوبة ، وجري العجلة المقطورة على الطريق وغيرهما إنما هي حركات غاية في التعقيد وانه يجب أن نضع أنفسنا خارجاً عن الواقع ونستعمل مفاهيم مجردة تناقض التجربة ، ونحن نعتبر بالتجريد

مستوياً مصقولاً بصورة مطلقة ، وكرة كروية إطلاقاً ، وكلاهما قاس اطلاقاً ، فنرى أن الكرة تتحرك بتأثير واحد في الفراغ ، في المكان المندمي المجرد ، أي في شرائط لاتتحقق أبداً ولا تقع ، أي وهمية ومضادة التجربة . ولكن غاليليه يستنتج من هذا المفهوم أسس الفيزياء الحديثة في القرن السابع عشر .

الرياضيات . — وفي ذلك الحين ، الذي حصل فيه هذا التبدل الفكري ، كان الجهاز الرياضي آخذاً بالتكامل . فقد اكتشف الايطالي تارتاليا (١٥١٠ — ١٥٣٧) حل المعادلات المكعبية التي عرف بها كاردان عام ١٥٤٥ ، وحسّن الحساب التجاري . ووضع كاردان (١٥٠١ — ١٥٧٦ —) نظرية المعادلات وفكرة عن حساب الاحتمالات وأناب الفلامانديي ستيفن الكسور العشرية عوضاً عن الستينية عام ١٥٨٥ ونشر جداول لحساب الفوائد البسيطة والمركبة . وكانت لديه فكرة عن تحليل القوى وتوازي القوى . وألف القاضي الفرنسي فيت (١٥٤٠ ١٦٠٣ الجبر بلغة دولية باستعمال الحروف ، وطبق الجبر على علم المثلثات . وظهر فكر حساب اللانهايات .

الطب والعلوم الطبيعية . — لقد نمت علوم الكائنات الحية على يد الاطباء وظل جالينوس الاستاذ الاكبر ، ويذكر دوماً ، ويعتبر بالنسبة للكثيرين معصوماً . وذلك لأن مبدأه ، وهو أن الطبيعة التي تعمل بحكمة تامة دليل على صلاح الله وعلمه الكلي ، كان على اتفاق مع العقيدة المسيحية . غير أن روح الملاحظة الحرة والتفسير الحر نما في ذلك الحين . وفي الواقع ظهرت ترجمة جالينوس اللاتينية عام ١٤٩٠ . ثم طبعت نصوص جالينوس وهيبو قراط الاغريقية عام ١٥٢٦ و ١٥٣٦ فوجد فيها جالينوس الحقيقي يعلن بأنه لم يشرح إلا الحيوانات ، وأن امتداد

النتائج إلى الانسان إنما هو فرضية كبرى تحتــاج إلى تحقيق ، وميبو قراط الحقيقي الشغف بالتقدم والابحاث والتجارب . وأخيراً أن الأوبئة الكبري ، التي انتشرت في القرن السادس عشر ، دعت إلى الملاحظة الشخصية دون الاعتماد على الاساتذة . وأصبح الايمان بالمعارف ، التي تكتسب بملاحظة الاشيـاء ، ينتقل من الاطباء إلى الجراح البسيط مثل امبراوزبارية ، إلى الصانع البسيط مثل برنارد باليسّي . وقــد كتب امبراوزبارية : « المعرفة شيء عظيم ولكن الروح في التجربة » . وصرح برنارد باليسّي : لو أمعن الزائر النظر ساعتين في مجموعتي لعلم أكثر ممـا لو قرأ النظريين خلال خمسين عاماً » .

لقد نشأت هذه الطريقة ولكن ينبغي الا يستنتج بأنها أصبحت شائعة . فقد تكلم امبراوزباريه عن سم الهر عوضاً عن أن يذهب اليه ويرى . ولم يشك برنارد باليسي بالحدود الضيقة للحس السليم الطبيعي إذا ترك على حاله ، وهو يعتقد بأن الحجارة لايمكن أن تكون قاسية دون وفرة الماء ، لأن أقسى الحجارة توجد في البلاد المرتفعة والباردة والماطرة .

لقد قرأ هؤلاء التجريبيون كثيراً ، وهذا ماساعدهم على الملاحظة . ولكن الملاحظة تبقى مستحيلة في خضم الوقائع دون فرضية الأبحاث ، ودون أفكار مسبقة ودون أسئلة توضع . وهؤلاء النظريون الذين يحتقرهم باليسي هم الذين أتوا بمجموعة هذه الاسئلة .

ثم ان الامراض الجديدة أو المستجدة ، كالزهري الذي أتى كما يقال من امريكا على يـد ملاحي كولومب ، والطاعون ، والتيفوس ، والحمى الوبائية الانكليزية ، والحمى الراشحة ، والسعال الديكي ، وفساد الدم ، وصفت وصفـاً دقيقاً واعتني بهـا اعتناءً ناجعاً . وكان الايطـالي فرا كاستور عـــام ١٥٤٦ يعزوها إلى وجود أجسام صغيرة في الجسم

البشري لاتصل اليها حواسنا وتستطيع أن تنقل العدوى من جسم لآخر بالتماس ، وبواسطة المنزل ، وعن مسافة . غير أن هذا السبق لنظرية الجراثيم ، التي هي تركيب لملاحظات طويله ، لم يرفق بأدلة تجريبية ووقع في زوايا النسيان .

التشريح وعلم الفويزة (الفيزيولوجيا) . — كان الالماني غونثيه آندرناخ (١٤٨٧ — ١٥٧٤) طبيب الملك فرنسوا الاول يمدح الملاحظة المباشرة . وكان من تلاميذه اكبر المرشحين مثل سيلفيوس ، فيزال ، اوستاخيوس ، فاللوب ، سيرفيه ، وغيرهم . وبدأ التقاط الجثث وأعطى الصدمة الاولى البلجيكي فيزال (١٥١٤ - ١٥٦٤) . ففي كتابه في التشريح « تركيب الجسم البشري » هاجم جالينوس ، فاعتبر فظاً غليظ القلب متعجرفاً وجاهلاً جاحداً . ولم يستطع بعضهم نكران الاكتشافات ، وعوضاً عن أن يعترفوا بان جالينوس يمكن أن يخطىء فضلوا أن يفترضوا بان الطبيعة تبدلت . واكتشف الاسباني ميشيل سيرفيه في ١٥٥٣ ، والايطالي ريالدو كولومبو في ١٥٥٩ ، دوران الدم الصغير . وأوجد علم التشريح المقارن . وفي ١٥٥٥ قابل بيلون هيكل عظم الانسان مع هيكل عظم العصفور . وأسس الايطالي فابريتشيو آكوابانداننته (١٥٣٧ — ١٦٠٩) علم الجنين .

أما فن التداوي والمعالجة فقد ظل جملةً كما وضعه جالينوس : من اعطاء المسهلات والفصد واستعمال بعض النباتات لتغيير الامزجة . وأسس السويسري باراسيلس (١٤٩٣ — ١٥٤١ —) الطب الكيماوي وقال ان جميع عمليات جسمنا كيماوية . إذا ظهر بها خلل فهذا يعني وجود رسوبات معدنية في الاعضاء ، ولاذابة هذه الرسوبات بحث باراسيلس

عن الجوهر والدواء الشافي لجميع الامراض الجسمية . غير أن أجمل أدوائه كانت عمليات مرية .

علم النبات . — وحثت الحاجة إلى الدواء الابحاث النباتية . وبدأت مدرسة مونبليه تعترف بمجموعات نباتية متجانسة كالفطور والطحالب والسراخس والحشيشيات والاكليليات والشفويات والفراشيات . غير أن هذا التصنيف الأولي الطبيعي يعتمد على حدس التشابه العام لاعلى تحليل أصولي للخصائص وعلى تعاريف واضحة دقيقة .

علم الحيوان . — أما علم الحيوان فقد بدا أكثر تعقيداً وحافظ على تصنيف أرسطو . وتألفت موسوعة غيسنر (١٥٥١) على مشابهات خارجية .

علم طبقات الارض (الجيولوجيا) . — وأدت دراسة الحيوانات إلى علم طبقات الارض . والمستحاثات ، حسب نظرية بلين ، أحجار ناتجة عن الصاعقة أو غرائب الطبيعة التي تعيد خلق نفسها . وأكد الايطالي فراكاستور عام ١٥١٧ أن المستحاثات بقايا الحيوانات التي عاشت في الواقع . وكان الفرنسي برنارد باليسّي يدرس في العام ١٥٧٥ بان الطبقات المستحاثية تنتج عن الترسب في قاع المياه .

لؤناردو فانتشي والطرق التجريبية . — أن أقل ما يقال في عصر النهضة أنه كان عصر تحليل وانتقال من قيود العصر الوسيط ، وعصر اعداد وتجهيز وانبثاق واثارة للفكر العلمي . ففيه قامت أولى المحاولات العلمية الحديثة والطرق التجريبية التي وضع حجر الاساس فيها لؤرناردو فانتشي .

كان لؤناردو منذ بدء تكامله عالماً محباً للمعرفة الصحيحة ولم يحب أو يجل من القدامى إلا العلماء والمهندسين والرياضيين والفيزيائيين والاطباء

وهو وان لم يكن مدرسياً إلا أنه لم يجهل التقاليد العلمية والتجريبية المتعارف عليها في مدارس العصر الوسيط مثل فيزيائي أو كسفورد في القرن الثالث عشر والرابع عشر وفيزيائي باريس في القرن الرابع . وقد هجرت هذه التقاليد في باريس منذ آخر القرن الرابع عشر ، واحتفظ بها في ايطاليا عند فئات قليلة من الرياضيين والعلماء الذين أخذ عنهم لؤناردو .

التجربة في نظر لؤناردو شرط أساسي لاغنى عنه لكل علم حقيقي ، فهي قادرة على التنبؤ بالمعلولات بعد معرفة العلل . وكلمة التجربة لا تدل عنده على التجريب فحسب ، بل على مجموع الطرق التي تسمح باحداثها وتفسيرها . وكان يستعمل مختلف الطرق ، وينوع التجارب لئلا تخدعه ظواهر المشابهة السطحية ، ويحاول ، مستعيناً بالاستقراء ، أن يرتفع من الحوادث الخاصة إلى القوانين العامة . ويرى أن العلم المؤسس على التجربة يجب أن يدخل الدقة والضبط واليقين الرياضي في القوانين التي يضعها ، وان يجد الرياضيات العامة التي تكمن تحت تنوع الحوادث . ومتى امتلكت قوانين الحوادث أصبح العلم مصدر القوة وتلا العمل النظر . ويقول لؤناردو في هذا الصدد « ادرس العلم أولاً ثم التطبيق الذي ينشأ عن هذ العلم » .

موسوعة لؤناردو العلمية . — لقد كان لؤناردو يعرف العلم الحقيقي وطرقه وغايته وحدوده ولذا كان يحكم ببطلان العلوم التي لاتعتمد على التجربة ، ويطرح فيزياء أرسطو التي يجدها عند المدرسيين وعند معاصريه لأنها تعتمد على تقليد ذكرته الكتب ولا تعتمد على التجربة ، كما يطرح العلوم المزيفة مثل السيمياء والسحر وغيرها مما تساهلت به مدرسة فلورنسا ، ويريد تأسيس العلم الحديث على التجربة والعقل . وقد وضع لؤناردو قبل

غاليلية بمائة سنة مبدأ الميكانيك ، وتناول أعمال علماء الاغريق والمدرسين الباريسيين في القرن الرابع عشر على سقوط الاجسام وتنبـــأ بقانون الجاذبية ، ودرس توازن السوائل ووضع مسألة جريان الميـاه الباطنية في الارض ، ونظرية تشكيل الامواج وانتشارها ، وتأكد في هذه الناحية من وجود مشابهة بين الماء والهواء . وتطرق لبحث الصوت ، ودرس مسألة انتقال الاصوات ثم طبق نظرية الامواج على انتقال النور ، وأرجع الصوت والنور إلى حركات ، وقوانين انتشارهما إلى الميكانيك العـام ، وبين أن هذا الميكانيك العام يتعلق بحركة الاجرام السماوية ، وطرح علم الفلك عند ارسطو ونظرية الكرات السماوية الموضوع بعضها ضمن بعض ، كما دل على ذلك بطليموس وذكر في الكوميديا الالهيّة لدانتي . ورأى أن الارض لاتشغل مركز العالم ، ودل على مشابهات بين الارض والقمر بعد أن درس الكلف عليها ، وقال أن هنالك قوة تترك الارض والقمر في الفضاء ، وأن قوانين التثاقل تؤثر على سطح القمر والارض .

ويعد لؤناردو أول مؤسسي الجيؤلوجيا . فهو يعلم أن سطح الارض في تبدل دائم ، وأن الارض مرت في تشكيلات عديدة كسائر الاجرام السماوية ، وأن الاشياء التي تولد في المياه المالحة توجد في أعلى الجبـال بعيداً عن البحار ، ويقبل بان الحوادث الحالية توضح الحوادث الماضية ؛ ويعرف قوة الحت وأثرها في المناظر الحالية على سطح الارض ، وان الجبال ترفع وتدك بحركات المـاء ، وأن الصخور الرسوبية ليست سوى طبقات متتالية من الطمي وضع بعضها فوق بعض بتأثير المياه .

وهو كعالم وفنان يحاول أن يبحث عن القوانين التي تسير حيـــاة

النباتات والاجسام ويريد أن يرسم منظرهـا الخارجي ؛ وكعالم نباتي ، أن يدرس وضع الاوراق على الساق ، ويوضح خصائص النباتات بقوانين نموها ؛ وكفيزيولوجي درس التشريح طوال حياته . وفي كلو بالقرب من أمبواز حرر عام ١٥١٥ مقدمة الكتاب الذي حلم به ولم يكتبه ، وهو يتضمن حيـاة الانسان مذ يكون جنيناً إلى أن يصبح رجلاً راشداً وشرح الجثث وكان أول من قام بالرسم التشريحي ومن أول مؤسسي التشريح المقارن . طبق الطريقه التحليلية ودرس العضو الواحد خلال تنوع الاجناس وتوصل للقول بأن جميـع الحيوانات الارضية سويت حسب مخطط واحد . وفي الميكانيك وجد حادث الحركة في حوادث الحياة المعقدة ، وأرجع علم الغريزة (الفيزيولوجيا) إلى الميكانيك وقوانينه كالفيزياء وعلم الفلك . وقبل في علم الغريزة بدوران الدم ، إلا أنه ، على مايظهر ، لم يفهم حركته بصورة صحيحة . وجعل الدماغ عضو الاحساس والتفكير . وهو أول من رأى العين غرفة مظلمة .

التطبيقات العلمية . — ولكن لؤناردو لم يكن نظرياً فحسب بل كان يبحث عن التطبيقات العلمية للنظريات ، ويرى أن الميكانيك قاعدة لكل علم وضعي في العالم كما هو أيضاً واسطة عمل للانسان . ويقول في هذا الصدد : « الميكانيك جنة العلوم الرياضية وبه يتوصل إلى ثمارها » . وفكره خصيب بالاختراع كما في التجربة . وقـد أنشأ كمهندس قنوات منطقة ميلانو ، واخترع آلات لحفر الأقنية وكري أعماقها ، والسدود لرفع الزورق . واستعمل قوة الماء المحركة ، وتخيل أوضاع الدولاب المائي ، وعرف قوة البخار المحركة ، وتصور مدفعاً تقوم فيه قوة توسع البخـار مقـام انفجار البارود . وما فتيء يرسم ويخترع ويحسن الآلات المختلفة لمختلف الصناعات ، ويفخر بحق أنه كان أول مهندس عسكري في عصره .

ودرس صنع المدافع وتخيل أجهزة الغوص في الماء وركوبه وأجهزة للطيران .

نظراته العقلية العامة . — كان لؤناردو عالماً ، جامعاً ، مخترعاً لايتسرب اليه الكلل ، يعرف كيف يتجاوز حقل العلوم التجريبية حيث أجاد فيه ايما أجاده ليسمو نحو نظرته العامة في الكون . وهو يقول : « تكمن تحت الحوادث رياضيات عامة كلية وعلى عقل الانسان أن ينفذ إلى رمح هذه الرياضيات العامة ، ومن صفات هذه الرياضيات وجود قوانين ثابتة ، وليس هنالك أي تدخل مفارق للطبيعة يقطع جريانها . وهذه الضرورة التي لا تتزعزع هي الخارقة الحقيقية . ولذا فهو لايصدق بقصص الكتاب المقدس عن الخلق والطوفان .

إذن فمفهوم لؤناردو عن العالم مفهوم عقلي لامسيحي . وماالرياضيات العامة التي تدبر الكون إلا صورة ظاهرية عنه وفي الواقع أن العالم كائن حي تحركه حياة خفية . وما الضرورة الظاهرية والطبيعية ، التي تنمو حسب قوانين الرياضيات العامة ، إلا تعبير عن ضرورة داخلية ومعنوية وعن غائية داخلية توجه العالم نحو الخير . ولذا يؤدي التأمل في نظام الكون إلى الله الذي نعرف عمله في القوانين العامة . وإن كان له الوحيد يستحق الحب المعقول ، عند حد تعبير لؤناردو .

اخلاق لؤناردو . — وعلى هذه النظريات في الفلسفة العامة يؤسس لؤناردو اخلاقاً فكرية ، ويقول أن الفضيلة بنت الحقيقة التي تطهر الروح وتعلمها مايستحق أن يحب . وليست العاطفة هي التى تكتشفها بل العقل . أما العلم فيعرف الانسان بطبيعته وبالحدود المفروضة عليه وينصح النفس بالرضى الذي يبعث فيها السلام والطمأنينة . ومع هذا فلا يكفي أن تحرر النفس من رغائبها ومشاغلها العابثة ، كما أن دستور الرواقيين

« تحمل واستنكف » لايلائم عصراً تستطيع البشرية فيه أن تفجر بفتوحاتها وتشعر بأنها في تفتح شباب جديد . أن مايريده لؤناردو هو أخلاق نشيطة وساحة عمل رحبة تفتح للعمل البشري الذي يسيره العقل .

وهكذا نرى أن لؤناردو يجمع بين فكر العلم الحديث ونظرة العلماء الأقدمين في الكون ، ويبدو إلى جانب فيتشينو وبيك لاميراندول والصوفيين والنساك في طليعة الفكر الحديث ووارثاً مباشراً لحكمة العصر القديم . وقد اجتمع فيه ذكاء صاف نقاد وانشائي معاً يقيد الحساسية والهوى الايطاليين . وهذه الفلسفة الهادئة الوديعة ، التي نشأ عليها لؤناردو ، جعلته متسامحاً مع الناس ، غير مبال بتقلبات الحوادث وغير عابىء بمأساة حروب إيطاليا التي كان شاهدها العيان .

العلوم الاجتماعية والسياسية . — لقد نشأت النهضة الايطالية عن مفهوم جديد للانسان ، وتناولت فيها العلوم الاجتماعية الحقيقية الأشكال السياسية والاجتماعية وصنفتها وبحثت عن العلاقات الثابتة الدائمة بين الحوادث الاجتماعية التي يتغير بعضها تبعاً للآخر ، وكان تأسيس العلم السياسي على يد ماكيافيلي .

ماكيافيلي (١٤٦٩ — ١٥٢٧) . — ولد نيقولا ماكيافيلي في فلورنسا في ٣ أيار ١٤٦٩ ونشأ في أسرة بورجوازية قديمة ، أسرة ماكيافالي ، وقد لعبت هذه الأسرة دوراً هاماً في التاريخ السياسي ، ولم تنضم إلى اسرة الميديتشي واجتنبت أى نزاع معها . وقد كبر ماكيافيلي في عهد لوران الفاخر وكان له من العمر ٢٣ سنة عندما توفي لوران عام ١٤٩٢ .

أما ثقافته الفكرية فلا نعلم عنها إلا القليل ، ولم يكن مديناً فيها للانسانية المعاصرة للوران ، لأنه لم يكن على اتصال بالأكاديمية الفلورانسية وبافلاطوني فلورنسا مثل مارسيل فيتشينوأوابيك لاميراندول . غير أنه مدين قليلاً إلى تجديد الدراسات الاغريقية التي نشطت في فلورنسا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر . قرأ السياسيات لارسطو ، وقرأ بوليب ولكن لاشيء يدل على أنه قرأهما في النص الأصلي . لقد بقي ماكيافيللي رومانيا وغير اغريقي . فهو تلميذ القديم الروماني ، تلميذ تيت - ليف ، وموسع أثره التاريخي . قرأ خطب شيشيرون وكتبه في السياسة وقرأ فيرجيل لأن جميع تقاليد الماضي الروماني يعيش في أثره المسمى « الانياذة » . وهو سياسي قبل كل شيء ، كون ثقافته بتأمل التاريخ ودراسة العالم الحديث أي بما سماه فيما بعد « التجربة الطويلة في الامور الحديثة والمطالعة المستمرة للأمور القديمة » .

دخل ماكيافيللي الحياة العامة في حزيران ١٤٩٨ عندما انتخب اميناً لسر المستشارية الثانية المكلفة بتأمين العلاقات الادارية مع المدن التابعة لفلورنسا . وفي ١٤ تموز عهد اليه بامانة سر ادارة الجمهورية دون أن يتخلى عن وظيفته الأولى . وعندما دخل ماكيافيللي الحياة السياسية كان جمهورياً في عواطفه ، يكره مزاجه كل حكم استبدادي ، جمهورياً في مذهبه ، يبني يقينه على التقاليد القديمة الفلورنسية والتقاليد القنصلية ومجلس الشيوخ في روما وعلى إدارة الجمهورية في روما وأثرها . وهذه الدراسة أدت به إلى الحكم على قيصر ، هادم الجمهورية ، وعلى الامبراطورية الرومانية واستبدادها ، وعلى التقاليد الامبراطورية التي مازالت تعيش في العالم الحديث بشكل الامبراطورية الرومانية الجرمانية .

ولم يكن ماكيافيللي الجمهوري من حزب سافونارولا الراهب الدومينيكي ،

غير أن جهد هذا الراهب في تأسيس ديموقراطية متزمتة في فلورنسا وضع أمام فكر ماكيافيللي مسألة غير منتظرة وهي الدور الذي يستطيع أن يلعبه ، في تاريخ الشعوب ، الملهمون البصيرون بالعواقب والصوفيون والأنبياء الذين يقضون على العادات والتقاليد وتراث الماضي ويحاولون أن ينشئوا المجتمع الانساني حسب وجهـــات نظر فكرية . فمن ذلك أن ماكيافيللي لاينكر دور الرجال العظام الذين بدلوا فجأة مجرى التاريخ ، وفرضوا على الشعوب نظامـاً جديداً ، ويقبل دون تردد بتدخل مشرع عبقري . ونراه يقول « لقد غلب الأنبياء المسلحون وهلك الأنبياء العزل » . ولا يستطيع أي مصلح دولة أن يغلب بقوة الكلام وحدها أو الاقناع أو الفكر بل تجب القوة المادية أيضاً . وهذه القوة المـادية لم يعرف سافونارولا استعمالها أو لم يستطعه ، ومات كأنبياء اليهود وهم في نزاع مع ملوك اسرائيل ، وحكم ماكيافيللي بأن محاولة سافونارولا فاشلة لأن القوة تنقصها . كان ماكيافيللي فكراً نقاداً يذهب إلى الشك والتهكم ، ويضحك من الآخرين ومن نفسه ، ويكره رجـال الكنيسة ، ويحتقر الرهبان ويتهمهم بالرياء والمداهنة والمكر والخداع . وقد كتب في رسالة مؤرخة في ٨ أيار ١٤٩٧ « إن الراهب يتحين الظروف ليجيد تلوين أكاذيبه » .

ولكن ماكيافيللي يقبل بهذه الأكاذيب إذا كان العمل يبررهـا ، ويسمح لرجل العبقرية أن يخدع الشعب لخير الشعب . غير أن عمل سافونارولا ، في نظر ماكيافيللي ، لايستحق أن تدعمه جميع الوسائط بما فيها الخداع . ولذا فتأسيس الجمهورية المتزمتة لايهمه بسبب شجبه الكاثوليكية ، كما لايهمه الاصلاح في الكنيسة لأن الكاثوليكية لاتهمه أيضاً . ولم يستهوه المثل الأعلى الكاثوليكي ولا القداسة الكاثوليكية ، لا لأنه يحب الحيـاة

الرخيصة والتسلية واللذائذ ، بل لأنه يتعلق بفكرة ويريد أن يضحي بنفسه في سبيلها ، وهي فكرة رجل الدولة وبناء المدينة البشرية والمحافظة عليها وتوسيعها دون أن يشغل نفسه بملكوت السماء . واتهم ماكيافيللي الاخلاق المسيحية بأنها أضعفت عند المحدثين الفضائل القوية التي كان يتصف بها المواطنون القدامى . فالزهد الرباني في نظره ليس سوى تشويه للدين . وإتحاد المواطن والزهد ، كما حاول أن يحققه سافونارولا في جمهوريته المتزمته ، كان في نظر ماكيافيللي مثلاً أعلى متناقضاً يدعو إلى اليأس ، ضئيلاً . وفي الواقع أن الجمهورية المتزمتة لم تظهر بمظهر القوة لتحمي مؤسسها وتنقذه ، ولذا رفض ماكيافيللي أن يقبل بالاصلاح المدني والديني الذي حاوله سافونارولا . وبعد شهر من حرق هذا الاخير دخل ماكيافيللي الحياة السياسية أميناً لسر الدولة وانتدب مرات عديدة بمهام سياسية في فرنسا لدى لويس الثاني عشر سنة ١٥٠٠ ، ولدى قيصر بورجيا ١٥٠٢ ، وفي روما ١٥٠٣ ، وفي فرنسا أيضاً عام ١٥٠٤ .

كان ماكيافيللي واقفاً من قضايا إيطاليا واوربه ، ولا يعلق أهمية كبيرة على فلورنسا ، التي يشتغل في خدمتها ، ويرى بأن نظامها نظام التغافل وترك الامور تجري وحبلها على غاربها كيفما اتفق ، لأن السلطة العامة فيها ضعيفة وعاجزة عن وضع حد للاطماع الشخصية وتنازع الاحزاب .

رأى ماكيافيللي أن الجمهورية الفلورانسية ضعيفة عسكرياً فاراد أن يجهزها بالسلاح ، ولا سيما بعد أن رأى إنهيار الدول الايطالية ، بعد الغزو الفرنسي ، في حروب إيطاليا ، وخيانة الجنود المتطوعين الاجانب ، كالسويسريين الذين خانوا لودوفيك لومور . وهذه الفكرة جعلته يحاول

إنشاء جيش وطني في فلورنسا بعد أن رأى ان هذه الفكرة تحققت في روما في عهد الجمهورية ، حيث كان المواطن جندياً يزاول الفضائل العسكرية ويحافظ على فضائله مواطناً ؛ وفي العصر الوسيط ، حيث كانت للمدن الايطالية الحرة فرق اهلية ؛ وفي العصر الحديث ، في الكانتونات السويسرية حيث يخدم المواطن الحر في الفرق الاهلية (مليشا) . ولذا حاول ماكيافيللي أن يؤسس فرقة اهلية تتألف من مختلف طبقات السكان ويعودها على النظام العسكري المتين . ولكن هذا الاصلاح لم يتم إلا ببطء ، لأن المواطنين اعتادوا ، منذ زمن طويل ، على ان الدفاع عن الجمهورية امر لايعنيهم بل هو من شأن الجنود المتهنين للعسكرية . وكان من الصعب عليه أن يطلب إلى الفلورنسيين كثيراً من الجهد والتضحيات .

وسقطت حظوة ماكيافيللي منذ عودة آل الميديتشي إلى الحكم في فلورنسا في آب ١٥١٢ . وفي العام ١٥١٢ وضع كتابه « الامير » وعرف فيه نموذج الحكم الذي استوحاه عن الحكم اليوناني والامارات الايطالية في العصر الوسيط والمعاصر ، واراده أن يكون « استبدادياً مستنيراً » بعيداً عن أي وازع أخلاقي أو ديني ، ويعمل على إيجاد الدولة وبقائها والمحافظة عليها .

كان ماكيافيللي من الايطاليين الذين يشكون النفوذ الاجنبي ، وكان من تقاليد إيطاليا القديمة « ان تقبل ، في حدود بأسائها القصوى ، بتدخل زعيم تبعثه العناية الآلهية ليكون فداء لها ، ولذا رأى ماكيافيللي أن يقدم كتابه إلى أمير ويدعوه لأن يلعب دور الفادي ويحرر إيطاليا من البرابرة ويباشر العمل ، ضد الاجانب ، الذي بدأ به البابا جول الثاني ولم يحسن قيادته .

فكر ماكيافيللي أن يقدم كتابه إلى جوليان الميديتشي إبن أخ ليؤن العاشر . إلا ان جوليان لم يكترث لذلك ولم يشأ أن يقوم بدور الفادي لايطاليا المتألبة على البرابرة وعاجلته المنية في آذار ١٥١٦ . عندئذ علق ماكيافيللي آماله على لوران بن بطرس الثاني الذي أصبح عام ١٥١٧ دوق اوربينو بفضل مساعدة ليؤن العاشر . واخيراً اهدى ماكيافيللي كتابه إلى لوران ودعاه الى القيام بعمل الاصلاح والفداء في ايطاليا . ولكن لوران ، على مايظهر ، لم يعلق اهمية كبرى على قراءة هذا الكتاب ومات في سن السابعة والعشرين في أيار ١٥١٩ .

ومنذ هذا التاريخ هجر ماكيافيللي احلامه في عمل الأمير وفكر في فلورنسا وأراد ان يقدم ، لحكومة آل الميديتشي ، نصحه في اصلاح النظم الجمهورية في فلورنسا . فاذا تم هذا الاصلاح وجب ان يزولوا ويعدلوا عن كل سلطة حقيقيه في المدينة .

والف ماكيافيللي كتابه « خطب عن تيت - ليف » ولم يتمه . واستخلص من الكتب الاولى لتاريخ تيت - ليف قواعد الحكم واصلاح الدولة الجمهورية . واتم عام ١٥٢١ حواره عن « فن الحرب » . ثم تقرب شيئاً فشيئاً من آل الميديتشي ودخل في خدمتهم وكتب بناء على طلبهم بين ١٥١٢ - ١٥٢٥ « تاريخ فلورنسا » وانفصل رويداً رويداً عن الجمهوريين الذين لم يعودوا يبثونه آمالهم ، ونحوه في سنة ١٥٢٢ بعيداً عن المؤامرة التي دبروها لقلب النظام . وانصرف ماكيافيللي إلى خدمة آل الميديتشي ونصحهم بأن يوطدوا ، تحت ظواهر نظام الامارة ، جمهورية حقيقية في فلورنسا ، اعتقاداً منه بان ذلك يفيد الحريات في فلورنسا كما يفيد ايطاليا . وبعد ظفر شارلكان في واقعة بافيا بشهرين جاء ماكيافللي في نيسان ١٥٢٥ الى روما وقدم للبابا كليمان السابع

« تاريخ فلورنسا » ، واستشاره البابا عن الوضع واسترشد بنصحه فاشار عليه أن يجند سكان رومانيو الاشداء . وارسله البابا إلى غيشاردون حاكم هذه المقاطعة ، وكانت الصعوبات كثيرة والبابا متردد فلم يعمل شيئاً . وكل ماعمله ماكيافيللي بعد أن استأذن البابا ان جعل اسوار فلورنسا بحالة تستطيع فيها مقاومة الحصار .

وفي ١٦ أيار ١٥٢٧ قام الجمهوريون بحركة ادت إلى فرار آل الميديتشي واعادة الجمهورية في فلورنسا على شكلها القديم الذي كانت عليه عام ١٤٩٤ . ووجد ماكيافيللي في حالة سيئة مشبوهة في نظر الجمهوريين ، فرأى أن كل أمل قد ذهب ، وكانت صحته معتلة ، ومرض في ٢٠ حزيران ومات بعد يومين في ٢٢ حزيران ١٥٢٧ .

كتاب الامير . — كان كتاب « الامير » نتاج التفكير الحار في مقدرات ايطاليا . فقد عرف ماكيافيللي ان العالم السياسي والاخلاقي السائد قد انتهى اجله ، وان عالماً جديداً حل محله ، واراد ان تدخل ايطاليا هذا العالم الجديد .

ان غاية « الامير » مضاعفة وهي أن ماكيافيللي يدل على الغاية ويدل على الوسائط التي تؤدي اليها . الغاية هي توحيد ايطاليا ، والوسائط هي مجموع الطرق التي يتألف منها مذهب الواقع السياسي .

الغاية . — لقد تألم ماكيافيللي في كتاب « الامير » لايطاليا التي ترزح تحت حكم البرابرة فطلب إلى قارئه أن يوحدها ويخلصها . والغاية التي يقترحها في كتاب « الأمير » تدخل منطقياً في تيار التفكير الحديث بين فلسفة التاريخ ونظرية الدولة .

يرى ماكيافيللي أن أحسن نظام هو النظام الاقوى أي النظام الذي لا تكون فيه الدولة هي الاقوى في علاقاتها مع مواطنيها ، بل النظام

الذي يخول الدولة اعظم قوة عسكرية ، ويجعلها قادرة على الدفاع ضد الاجنبي ، وعند الحاجه أن تقوى على حسابه ؛ وأن النظام الديموقراطي في نظره خير نظام ، لأن المواطنين فيه يراقبون الدولة ، ولأن حريتهم تضمن لهم سيادة القوانين . ويقول : « ترينا التجربة ان المدن لم تعظم قوتها وثروتها إلا عندما كانت حرة » .

ومما يجدر ذكره أن تأسيس الجمهورية ليس هو الحد الأخير لتطور الدولة لأن كثيراً من الافراد يثرون بصورة فاحشة وتكون لهم مكانة اجتماعية واقتصادية عظيمة ، فيحاولون استخدام الدولة لمصالحهم في ظل الحكم الديموقراطي ، وعندئذ تنقلب الحال من الجمهورية إلى نظام إساءة استعمال الحرية والتمرد ، وهو شكل مشوه للجمهورية . ولكن المشرعين الأقوياء يستطيعون أن يضعوا العثرات في سبيله باصلاح الدستور بين حين وآخر .

الواسطة . — وللوصول إلى هذه الغاية المرسومة يرى ماكيافيلي ان المرحلة الاولى ، وهي تأسيس الدولة الايطالية ، لا يمكن قطعها إلا بامير ، وان الملك في نظره ، يؤمن المرور من الماضي إلى المستقبل . ومن الملاحظ أن ماكيافيلي كان أبعد من أن يفكر بأن جميع الوسائط صالحة إذا بلغت الغاية المتوخاة . لقد أنشأ ماكيافيلي علماً سياسياً تجريبياً وبين أن هذا العلم السياسي لا يفيد في معرفة الوسائط المؤدية إلى الغاية ، مهما كانت ، بل هو موضوع في خدمة التطور التاريخي . وإذا صح بأن أناساً استعملوا هذا العلم في اتجاه معاكس لحركة التاريخ فإن ماكيافيلي يسميهم آثمين .

واذا قرىء « الامير » بامعان أمكن معرفة مايجب أخذه من الواقع ومن الماكيافيلية التي يريد العامة منها أن الغاية تبرر الواسطة . لقد

كان ماكيافللي واقعياً ولا شك ، ولكننا لانجد عنده هذا الواقع العامي الذي ينسبونه إليه . أما الماكيافيلية في المفهوم العامي الشائع فليست إلا نتاج اساءة الفهم عند الأجيال المتعاقبة ، خلال أربعة قرون لما اراده ماكيافيللي .

غيشاردن (١٤٨٢ — ١٥٤٠) . — كان غيشاردن ، مثل ماكيافيللي ، فلورنسيا مؤرخاً ورجلاً سياسياً عملياً . اشتغل سفيراً في اسبانيا وحكم رومانيو باسم شارلكان ، ولعب دوراً خطيراً أثناء حرب عصبة كونياك ورأى عن قرب رجال السياسة وكيف يتلاعبون بمقدرات العالم . فضعف في نفسه الايمان . كتب في مذكراته السياسية والمدنية ، التي بقيت طويلاً سرية ولم تنشر ، ما يلي . « أشتهى أن أرى ثلاثة أشياء قبل موتي وهي : جمهورية منظمة جيداً في فلورنسا ، وإيطاليا متحررة من البرابرة ، والعالم محرر من ظلم الكهان . ومهما قيل في بلاط روما فهذا القول أقل من الحقيقة . وأني أحب مارتن لوثر أكثر من نفسي إذا كان من ثورته إجبار هؤلاء المجرمين على التخلي عن رذائلهم وعن سلطانهم » .

ولكن غيشاردن يرى أن من الجنون أن يستسلم الانسان للهوى ولو كان هذا الهوى كريماً سامياً ، وأن العقل في الفطنة والحذر الذي لايدعو إلى التراجع أمام الغنى . ولذا دخل في خدمة البابا كليمان السابع بكل ما أوتي من مواهب ، ثم أصبح مستشاراً لآل الميدتشي بعد أن رجعوا إلى الحكم بفضل جنود الامبراطور شارلكان . وهو لايتوانى عن خدمة أي نظام لايحبه ولا يريده مادام قانتاً بما حوله . وهذا الريب اليائس ، الذي نجده عند غيشارن دليل أكيد على الأعياء وعدم المبالاة والاهتمام التي منيت بها إيطاليا وشهدتها على مسرح تاريخها الخاص .

واشتهر غيشاردن بتأليفه في التاريخ . فقد ألف « تاريخ ايطاليا من ١٤٩٢ — ١٥٣٠ » ، ونشر بعد وفاته عام ١٥٦١ ، وفيه يقص حروب ايطاليا التي شهدها في حياته . ولايخرج في سياسته عن الريب للأسباب التي ألمعنا اليها .

توماس مور . — وفي العام ١٥١٦ نشر الانساني الانكليزي توماس مور (١٤٨٠ — ١٥٣٣) « اليوتوبيا » ، وقد استوحاها من التطور الرأسمالي الانكليزي ومن « جمهورية » افلاطون .

واليوتوبيا جزيرة نائية تخضع لنظام دكتاتوري شيوعي ، جميع خيراتها مشاعة ولايحق للمواطنين فيها أن ينتقلوا ، وهذا مايجعل رقابة العمل والاستهلاك مستحيلة ، وينتخب الموظفون فيها انتخاباً ، ويشاور اليوتوبيون في جميع القضايا الهامة بطريق الرفيراندوم . ويفرض دين الدولة الاعتقاد بكائن أعظم وعبادة مدنية . وينتخب فيها الاكليروس . وهو يختار ، من بين العمال المثقفين الذين يقومون بالأعمال الفكرية ويقدمون المرشحين إلى الوظائف . وتوجه الحكومة الاقتصاد حسب خطة الانتاج ، ولها حق حصر التجارة الخارجية . ويساعد الطوبائيون أي اليوتوبيون جيرانهم على التطويب ويعملون منهم دولاً محمية . وفي رأيه أن كل شيء صالح حيال الأعداء كوضع جائزة لمن يأتي برأس زعمائهم ، وإثارة الفتن عندهم .

جان بودن . — وفي العام ١٥٧٦ نشر الاسباني الفرنسي جان بودن الموظف الملكي والنائب في مجلس المملكة العام كتاب « الجمهورية » قد تأثر بمدرسة بادوا ، وكان مقتنعاً بنظام الكون ووجود حتمية كلية شاملة ، وجهد في البحث عن قوانين اجتماعية سوسيولوجية وأراد أن يؤسس علم السياسة أخذ من الأخبار التاريخية والجغرافية العامة الوقائع بينها واستنتج منها القوانين . وصف أولاً أشكال الحكومات

وتواليها الضروري ورأى أن الجمهورية هي الأمة المنظمة . وتتألف هذه من الأمر التي أقام زعماؤها شيئاً مشتركاً (كأن يكون مُلكاً ، أو ثروة أو حصناً أو قوانين أو عدلا) ودولة ذات سيادة . والسيادة هي السلطة التي تضع القانون وتلغيه . والمتصرف بالسيادة يتغير . ويمكن أن تكون الجمهورية ملكية ، أرستقراطية أو ديموقراطية . غير أن الدولة والحكومة شيئان مختلفان : ويمكن للدولة الملكية أن تحكم ديموقراطياً إذا خولت الألقاب والوظائف إلى جميع المواطنين دون اعتبار طبقتهم الاجتماعية . أما مايتعلق بمناقب ومثالب الحكومات وتواليها فان بودن يوضح ماكيافيللي وينوعه دون أن يبدل خطوطه الكبرى . ومع هذا فهو يرى أن الملكية خير حكم لأن السيادة لاتتشخص حقاً إلا في الملكية . أما الديموقراطية فسيد متناوب ومغرض وغير كفؤ ، والأرستقراطية سيد منقسم .

ولكن يمكن الشعب أن يبلغ كامل تفتحه في شكل سياسي قليل الجودة في ذاته إذا وافق هذا الشكل خلق الشعب . وهذا الخلق يتأثر بالعرض الجغرافي والارتفاع والرياح والخصب والطابع القومي الناشيء عن ثلاثة عناصر ، العرق والجغرافية والتاريخ . وهذا الخلق يمكن أن يبقى منفصلاً عن الشروط التي ولدته بشكل ثقافة قومية . وعلى الحكومة أن تسير في اتجاه الطبيعة . ولكن النظم يمكن أن تبدل الخلق ، والثقافة أن تتغلب على الطبيعة ، ومقارنة الوقائع تساعد على مثل أعلى وعدل طبيعي . وتحقيق هذه الامور إنما هو هدف يرمى إليه وغاية يراد بلوغها .

على هذا فقد أوجد بودن الطريقة المقارنة والسياسة التجريبية .

وهكذا نرى أن مجموعة كاملة من العلوم أخذت معالمها ترتسم وتنجلي ،

وان كل هذه الحركة في الأبحاث توحي بفكرة جديدة ، فكرة غريبة ، فكرة اللانهاية ، التي ستهدم نهائياً الارسطاطاليسية ونمط التفكير القديم .

أزمة النهضة . - انتهت النهضة بدور أزمة تبعاً لأزمة الرأسمالية وأزمة الدولة والحروب الدينية وفكرة اللانهاية . وقد بدأت هذه الأزمة في ايطاليا منذ نهب روما ١٥٢٧ . أما في غيرها فكانت متأخرة . وفيها اتجه الفن نحو فن الباروك . وبعد أن أتمت الانسانية إحدى نزعاتها المستديمة انتهت بريبية طبيعية . فقد نزل مونتين في كتابه « المحاولات ١٥٨٨ - ١٥٩٦ » بالعقل البشري إلى سوية عقل الحيوانات ، وهدم المفهوم القديم في تسلسل الخلق : الله الخالق والملائكة والانسان ثم باقي المخلوقات . ولم يخول إلى الله عملا في عالم تسود فيه الصدفة والثروة ، ووضع الدين جانباً في حياتنا اليومية حتى أصبح لايجدي نفعاً في ضبط السلوك البشري ، وقال أن الطبيعة تكفي نفسها بنفسها ، ومهما يكن عقلنا قاصراً فان حكمنا الشخصي يبقى ، مع ذلك ، في آخر الأمر ، الشيء الوحيد الذي نستطيع أن نعتمد عليه ، وقاعدة تفكيرنا الوحيدة وقاعدتنا الوحيدة في الحياة ، لأن مايبقى في هذه الازمة هو الانسان .

الفصل الرابع

النهضة الاقتصادية

النهضة الاقتصادية حادث من أهم الحوادث التي تميز أوربة في القرن السادس عشر . ولفهم هذه النهضة يجب أن نرى طابع الحياة الاقتصادية حوالي آخر القرن الخامس عشر . وهذا الطابع نراه في الانتاج والمبادلات .

الانتاج

الانتاج الزراعي . ــ كان الأمير الاقطاعي في كل إمارة يحتفظ بقسم من أراضيه يفلحه لحسابه الخاص بواسطة العمال الزاعيين ويوزع الباقي منها على الفلاحين . وكان الفلاح على أرضه مزارعاً وراثياً . ويجب أن نميز هنا نوعين من الفلاح :

١ ــ الفلاح الحر ، وكان ملزماً بدفع الاتاوات الاقطاعية إلى الأمير والقيام بالسخرة . ويمكنه أن يترك اقطاعه بعد أن يوفي التزامه .

٢ ـ القن ، وكان ملزماً بدفع الاتاوات والقيام بالسخرة ، وليس له حرية ترك الارض ، ولاحرية الزواج دون موافقة الأمير . وفي الواقع كانت القنانة آخذة بالزوال في آخر القرن الخامس عشر في أوربه أو على الاقل في أوربه الغربية .

الانتاج الصناعي . ــ كان هذا الانتاج يتأمن بشكل يشتري

فيه الصناع المواد الاولية والآلات ويشتغلون وحدهم أو مع بعض العمال (الرفقاء » ويبيعون انتاجهم الى المستهلكين مباشرة ودون وسيط .

وكان لكل صناعة هيئة ، لان الصناع ، في كل مدينة ، ينظمون أنفسهم في وابطات أو جماعات حرفية تسمى « الجوراند » ثم أطلق عليها فيما بعد اسم « الاصناف » .

لقد كانت الجوراند هيئة مغلقة يخضع أعضاؤها ، ويسمون « المعلمين» ، الى بعض الشروط ، كانجاز أثر نفيس ودفع رسم الانتساب . كما يخضع نشاط هؤلاء المعلمين الى أنظمة شديدة تضعها الرابطة : مثل نظام الصناعة (الفبركة) ، ونظام العمل من حيث مدة العمل وعدد العمال في كل مشغل ، وأحياناً تعين الحد الاعلى للاجرة . ومن جهة أخرى كانت الجوراند تملك امتيازاً خاصا وهو الحصر الذي تخوله إياها الحكومة . وغاية هذا النظام أن يؤمن الى المعلمين « حظوظاً متساوية » ، لاجتناب المنافسة ؛ والى المستهلكين المساواة في المنتجات .

لقد كان الانتاج الصناعي منظما ، ولكن أنظمة الصناعة داخل الجوراند كانت تجعل التقدم الفني غير ممكن عمليا ، أو على كل حال صعبا جداً .

بيد أنه يجب أن نذكر أن جميع الحرف لم تكن منظمة على شكل جوراند لأن بعضها كان حراً . وفي الحقيقة أن حصر الجوراند لم يطبق الا في المدن ، وفي بعض الاحيان في ضواحيها . أما في الريف فكان تعاطي الحرف حراً .

المبادلات

كان تبادل المنتجات الزراعية والصناعية بين المناطق قليلاً في العصر الوسيط لأن الاقتصاد كان ضيقاً والمعاملات التجارية لاتجري إلا في نطاق محلي .

ولكن الأسواق العامة الموسمية نمت ، منذ القرن الثالث عشر ، وتشكلت طبقة من التجار تشتري وتبادل وتبيع . وقد عظمت أهمية هذه الطبقة خاصة في الجمهوريات الايطالية وفي مدن الهانس والبلاد المنخفضة حيث كانت التجار يلتفون في رابطات . والى جانب أصحاب الثروة القديمة العقارية كان لهذا العالم من التجار ، الذي لايملك أرضاً ، سياؤه الخاصة . وكان كل عالم من هذين العالمين غير قابل لنفوذ الآخر .

غير أننا نرى ، في القرن السادس عشر ، تبدلاً في الحياة الاقتصادية بسبب نمو النشاط التجاري . ومن المحتمل أن يكون لهذه الثورة الاقتصادية أسباب نفسية كالرغبة في زيادة « اللذات الأرضية » والنجاح في الأعمال والحصول على أرباح طائلة . وقد قيل في هذا الصدد ان السياسة الاقتصادية القديمة قد تصدعت بقوة المصلحة الفردية . ولكن الاندفاع الحاسم كان بتأثير الاكتشافات الجغرافية الكبرى أي بالاتصال الذي تم بين اوربه والقارات الأخرى .

لقد شهدت العصور القديمة والعصر الوسيط كثيراً من الرحالة الذين جابوا أنحاء العالم واستطاع التاجر البندقي ماركوبولو برحلته . التي قام بها في آخر القرن الثالث عشر ، ان يكتشف آسيا والصين خاصة ، ويضمن كتابه « العجائب » كثيراً من المعلومات التي يختلط فيها عنصر الاسطورة بالملاحظة العينية . ومنذ ١٤٢٠ أخذت الرحلات البحرية تتوالى ، ولكن

في نطاق محدود لايتجاوز المناطق الشاطئية . أما الاكتشافات الجغرافية الكبرى فقد كسرت جميع هذه القيود وانطلقت في الآفاق البعيدة .

الاكتشافات الجغرافية الكبرى

اسباب الاكتشافات

كان تأثير الاكتشافات الجغرافية الكبرى عظيماً في تاريخ العالم ، ويتضح خاصة بالتوسع الاقتصادي . الذي طبع بطابعه اوربه ، في النصف الثاني من القرن الخامس عشر . فقد كانت الشعوب الأوربية بحاجة إلى المعادن الثمينة وإلى التوابل التي لاتنتجها القارة ويمكن أن تجهزها بها آسيا الشرقية والجنوبية — الشرقية .

وكانت اوربه تستورد هذه الحاصلات الآسيوية منذ القديم وقبل الاكتشافات الكبرى ، ولكن بطرق غير مباشرة . وبنتيجة ذلك كانت تستورد منها كميات محدودة وتدفع ثمنها غالياً ، فضلاً عن أن تأسيس الامبراطورية العثمانية في آسيا قد سد ، إلى حد ، الطرق البرية والبحرية في وجه التجارة الأوربية مع البلاد الآسيوية . وكانت التجارة تسير في طريقين : الأولى قارية وهي « طريق الحرير » وتسلكها القوافل فتصل الصين وآسيا الوسطى بالبحر الأسود وسورية ؛ والثانية بحرية وهي « طريق التوابل » التي تذهب من الموانىء الصينية فسيلان والبحر الأحمر ومنه إلى الاسكندرية .

وكانت هذه المنتجات الآسيوية ، في طريقها إلى اوربه ، تمر بايدي التجار العرب الذين يبيعونها في الاسكندرية أو في موانىء البحر المتوسط الشرقية أو الموانىء الايطالية إلى البنادقة خاصة بعد أن دمر هؤلاء اسطول جنوة واستولوا على مراكزها التجارية .

إذن يوجد نوع من حصر عربي — بندقي . وهذا الحصر كان يسمح للوكالات التجارية في الاسكندرية ببيع المنتجات بأسعار مضاعفة لما تباع به في الهند وشرقي آسيا وجنوبها الشرقي ؛ وكانت غاية سكان اوربه الغربية أن يتخلصوا من هذه الحصر بالعثور على طريق تؤدي مباشرة إلى البلاد المنتجة دون عبور البحر المتوسط . وللوصول إلى هذه الغاية كان عليهم أن يغامروا في المحيطات . ولم يكن هذا ممكناً لولا تقدم العلوم وخاصة الرياضيات وعلم الفلك والملاحة البحرية ورسم المصورات الجغرافية . وقد ساعدت البوصلة والاسطرلاب ، اللذان كانا يستعملها العرب ، على الملاحة في عرض البحار . كما ساعد تقدم صناعة السفن على صنع سفن جديدة ذات أربع سواري ، تسمى « كارافيل » ، أكثر سرعة وأشد مقاومة لمجابهة العواصف في المحيطات .

ومهما قيل في هذا الموضوع فان تجارة التوابل ، بطريق المحيط الهندي والبحر الاحمر ومصر ، التي يسلكها الملاحون العرب وأعوانهم البنادقة في البحر المتوسط ، لم تنقطع ولم تهدد جدياً في القرن الخامس عشر ؛ وإن امكانيات التموين لم تكن أقل من الحاجات . إلا أن الخوف ، الذي تملك النفوس من أن ترى هذه التجارة منقطعة يوماً ما ، قد لعب دوره ولكنه لم يكن جازماً قاطعاً .

ولاخلاف الآن في أن السبب الاول لكل هذا الطواف حول العالم ، الذي لم يسبق له مثيل ، هو شيء آخر غير فرضية « الجوع إلى التوابل » ، انه « العطش إلى الذهب » .

كان الغرب في آخر القرن الخامس عشر يعاني أزمة اقتصادية . وذلك أن نمو المبادلات ، يشجعها الهدوء النسبي ، الذي ساد العلاقات

بين الامم ، منذ آخر حرب المـــائة عام ، أخذ يصطدم بعوز متزايد للمعدن الثمين . فقد بدت موارد المناجم في أوربه لاتفي بالحاجة ، لان الطلب كان يفوق العرض باستمرار : ففي المانيا عـاود استثمار المناجم أعماله بعد أن توقف منذ عهد الرومانيين . وفي فرنسا شجع لويس الحادي عشر البحث عن الذهب في رمال أنهار جبال البيرينية والسيفين . وفي ايطاليا ، وخاصة في جنوة ، كان الاهتمام منصرفاً إلى شذور الذهب الذي يأتي من منطقة السودان على القوافل إلى موانىء مصر والمغرب العربي . وكان القلق يساور النفوس فتتساءل عن مصدر هذا الذهب . وكان الرحالة يتجهون ، لهذه الغاية ، نحو أوساط أفريقية ، مثل مالفانت . فقد قام برحلة عبر الصحراء الكبرى ومضى قدماً حتى توات . ولكنه لم يوفق إلى بلوغ مايريد لان سكان البلاد كتموا عنه أمر استخراج الذهب في الجنوب على ضفاف نهر سنغال .

هذا ولا يعزب عن البال كريستوف كولومب ، مكتشف أمريكا ، كان جنوياً وقضى شبابه في خدمة مؤسسة شانتوريون التي كانت تصنع الاجواخ والانسجة الحريرية وأخذت على عاتقها نفقات رحلة مالفانت إلى افريقية . وإذاً فقد عاش كريستوف كولومب في وسط يهتم بالمـــال والمعادن الثمينة . ولا شك في أن ذهنه قد تفتح باكراً على هذه الامور ، حتى أنه في إقامتـه الاولى في البرتغـــال ، من ١٤٧٤ إلى ١٤٨٤ ، كان يهتم خـاصة بالبحث عن الذهب وبامكان اكتشاف مناجم جـديدة عبر العالم .

وقبل هذا التاريخ بخمسين عاماً قام البرتغاليون بفتح وتنصير شواطىء افريقية القريبة منهم ، وامتدوا على طول الشاطىء الغربي ، ووصلوا إلى

مصب نهر سنغال ، وأسسوا مركزاً تجارياً يحرسه حصن في جزيرة آرغوان بالقرب من الرأس الابيض . ومنه أخذوا يتاجرون بالذهب والرقيق . واستطاعوا ، في العام ١٤٥٥ ، أن يحصلوا على امتياز بابوي يخولهم الاختلاف إلى هذه الاصقاع والمتاجرة معها . وعلى أثر هذا الحادث وضعت قضية جديدة وهي تموين البلاد المكتشفة أو التي ستكتشف في المستقبل .

وعلى شاطىء غامبيا تأسس عام ١٤٨٤ موقع المينا أو القديس جورج المينا أو منجم ملك البرتغال ، كما يقال في فرنسا ، حيث يشرى الذهب الذي يجمعه سكان البلاد من الانهار المجاورة . ثم توالت الحملات والرحلات الاستكشافية إلى أن توصلت أوربه إلى فتح طريق الهند واكتشاف العالم الجديد .

الحوادث الاساسية

وهذا الجهد ، الذي بذل للبحث عن طريق بحرية للهند ، أدى الى الاكتشافات الكبرى . وكان في طريقين أساسيتين :

أ) طريق المحيط الاطلسي بالطواف حول القارة الافريقية . سلك هذه الطريق البرتغاليون في رحلاتهم المنظمة تنظيماً أصولياً ونخص بالذكر منهم بارتولومه دياز . فقد وصل إلى رأس الرجاء الصالح عام ١٤٨٧ ؛ وفاسكو دوغاما ، الذي توصل الى كالكوتا على شاطىء الهند (٢٠ أيار ١٤٩٨) . ومنها أخذت السفن محمولها بالتوابل والحاصلات الاخرى وقفلت راجعة . وهكذا دخل طريق الهند في التاريخ الاوربي .

ب) طريق الغرب ؟ ويراد بذلك أن يعبر المحيط الاطلسي للوصول إلى القارة الآسيوية ، وذلك لان اوربه كانت تجهل في ذلك الحين ،

وجود القارة الاميركية . وكان يظن أن المسافة ، التي يجب قطعها للوصول إلى آسيا عن هذه الطريق ، أقصر بكثير مما هي عليه في الواقع . وقد اكتشف هذه الطريق كريستوف كولومب الجنوي الاصل ، وكان يشتغل لحساب الملكية الاسبانية . وكانت أولى رحلات كولومب عام ١٤٩٢ وفيها توصل الى كوبا وسن دومينغ ، كما توصل برحلاته التي قام بها فيما بعد الى شاطىء فينزويلا الحالية .

وبفضل كولومب اكتشفت القارة الاميركية . ومما لا شك فيه أن كولومب كان يبحث في رحلته عن الذهب في « بلاد الهند » . وقد ظن أثناء رحلته الاولى أنه توصل الى الهند ولم يفكر باكتشاف عالم جديد ، كما لم يقدر الاسبانيون عظمة اكتشافهم الا أخيراً .

ثم قام آخرون ، غير كولومب ، يكتشفون البحار وأراضي العالم الجديد . وتوالت السفن تسير على هدى الرائد الاول ، وظلت الاسطورة تضع بلد الذهب « الدورادو » في مكان ما في الجنوب وتتناقلها الألسن فتلهب الخيال وتشحذ الهمم .

كانت هذه الرحلات عاملاً قوياً في دفع نشاط البرتغاليين والاسبانيين . فقد بادر البرتغاليون باستثمار اكتشافهم للطريق الجديدة للتوابل بواسطة المحيط الهندي . فمنذ ١٥٠٤ اتجهت من لشبونة اثنتا عشرة سفينة نحو آسيا . وكانوا يهدفون الى أن يحل الحصر البرتغالي محل الحصر العربي – البندقي . ولذا كانوا يكتمون أمر رحلاتهم وعلاقاتهم التجارية التي يعقدونها مع البلاد المكتشفة ويعملون على تأسيس مراكز ومستودعات تجارية ، وخاصة في غووا الهند ، وعلى تنظيم تجارتهم . ويمكن القول أن النفوذ الاقتصادي البرتغالي في الهند قد تأسس منذ العام ١٥١٩ .

وحاول البرتغاليون ان يوسعوا علاقاتهم التجارية الى أبعد من الهند .

ففي عام ١٥١٧ وصلت السفن البرتغالية الى كانتون . وفي عام ١٥٢٢ ذهب البوكرك للبحث عن التوابل في جزر الصوند وملوك . وفي عام ١٥٤٢ صاقبت السفن البرتغالية اليابان حيث كان الدايميو يشترون منها الاسلحة النارية . وفي عام ١٥٥٢ اقام البرتغاليون في جزيرة ماكاؤ حيث كان التجار الصينيون يبيعونهم الحرير ويشترون منهم التوابل والانسجة القطنية والافيون .

وهكذا نرى أن البرتغاليين ظلوا قرابة ٣٠ سنة سادة التجار في بحار آسيا وافريقية ، وأسسوا على شواطئها مراكز تجارية ترتبط بالبرتغال مباشرة ، وتتوالى من رأس بوجادور الى جزيرة ملوك .

أما الاسبانيون فكانوا في الوقت نفسه منهمكين بالقارة الامريكية . ولم يجدوا فيها التوابل ، ولكنهم وجدوا المعادن الثمينة من ذهب وفضة . ومن هنا نشأت فكرة الفتح . ولقد قال فرناند كورتيز ، أحد من دفعهم حب المغامرة فجاء يبحث عن الثروة في هذا العالم المجهول : « لم آت الى هنا فلاحاً لزراعة الارض ، وانما اتيت باحثاً عن الذهب » . ولقد عرف هذا الفتح بحملة كورتيز التي قوضت امبراطورية الآزتيك بالاستيلاء على مكسيكو عام ١٥٢١ ، وبحملة فرنسيسكو بيزارو ، وآلماغرو اللذين أوغلا في امبراطورية الانكا عام ١٥٣٢ وانتهى الأمر بنهب عاصمتها كوزكو في ١٥٣٣ . وقد توصل الاسبانيون الى هذا الظفر بسهولة بالرغم من ضعف عددهم ، لأنهم كانوا لايتجاوزون بضع مئات . والفضل في ذلك يرجع الى تفوق سلاحهم . ولم يخل هذا الفتح من أعمال العنف والتخريب والابادة والافناء .

ومع هذا لم يتوصل الاسبانيون إلى ايجاد طريق مباشرة للهند . وما رحلة ماجلان ، وهو برتغالي وصديق لالبوكرك ، في خدمة الاسبانيين

عام ١٥١٩ ، وطوافه حول القارة الاميركية ، واجتيازه المحيط الهادي ، الا في سبيل هذه الغاية . ولكنه أودى في جزر الفيليبين في نيسان ١٥٢١ في حربه مع السكان الاصليين ، وتمت هذه الرحلة من قبل أحد أعوانه دل كانو ، الذي عاد إلى اسبانيا عن طريق رأس الرجاء الصالح . وكانت هذه الرحلة اول جولة حول العالم (١٥١٩ – ١٥٢٢) وعندما أبحرت كانت تتألف من ٥ سفن و ٢٦٥ رجلا ، ولم يرجع منهم الا ١٨ رجلا وسفينة واحدة واسمها « النصر » . وقــد توصلت هذه السفينة إلى جزر المولوك وشحنت منها التوابل وباعتها فغطت جميـع النفقات التي تكلفتها الرحلة .

لقد أدت هذه الجهود المبذولة إلى تشكيل امبراطوريتين كبيرتين لكل منهما طابعها الخاص .

١ — **الامبراطورية الاسبانية** ، وتضم نحو عام ١٥٤٠ جزر الآنتيل وامريكا الوسطى وكاليفورنيا وفلوريدا وشاطىء فينيزويلا والهضاب العليا في بيرو وشيلي ، ويضاف لها في العام ١٥٦٠ منطقة ريودولابلاتا .. وقد نظمت ادارة هذه الامبراطورية منـذ تأسيسها وشرع باستثمار مناجمهـا وأراضيها الزراعيـة على أيدي المغتربين الاسبانيين ودامت الحـال هكذا خلال ثلاثة قرون .

٢ — **الامبراطورية البرتغالية** . وتشمل موانىء متفرقة على ساحل افريقية الشرقية في موزامبيك وشاطىء الخليج العربي والهند وجزر الصوند وميناء ماكاؤ في الصين . وعدا ذلك ، حافظ البرتغاليون في المحيط الاطلسي على جزر الرأس الاخضر ، وجزيرة الصعود [١] والقديسة هيلانة وبعض

(١) اكتشفت هذه الجزيرة في يوم الصعود ولذا سميت بهذا الاسم .

أراضي على شاطىء افريقية وأخيراً البرازيل . ولكن سكان البرتغال ، وهم مليون نسمة ، كانوا قليلي العدد لايستطيعون أن يمدوا بنفوسهم هجرة حقيقية . ولذا فان الامبراطورية البرتغالية ، على نقيض الامبراطورية الاسبانية ، كانت تتألف من شبكة بسيطة من المحطات في المناطق الشاطئية ، ولم تستطع ان توغل في داخل البلاد المكتشفة وتفتح أراضي واسعة . وهذا مايفسر لنا الانحطاط السريع الذي منيت به الامبراطورية البرتغالية ، لأن البرتغال أهلكت نفسها بعمل كان ، في الحقيقة ، أعظم بكثير مما في وسعها .

نتائج الاكتشافات

لقد كان لهذه الاكتشافات الكبرى التي وطدت الاتصال بين أوروبه والقارات الأخرى نتائج هامة نجملها فيما يلي :

١) **النتائج السياسية** . – وهي ان « الشعوب المستعمرة » أصبحت دولا كبرى . وقد عرفت الدول الاوربية بسرعة ضرورة الحيلولة دون هذا التضخم ، الذي جعل هذه الدول الكبرى الناشئة تفوق غيرها بمراحل . وهذا مايوضح كيف ان التوسع الاوربي ادى إلى منازعات دولية .

٢) **النتائج الدينية** . – وهي أن « الشعوب المستعمرة » حاولت نشر دينها في البلاد التي اكتشفتها . وقد أفادت الديانة الكاثوليكية خاصة من الاكتشافات لان اسبانيا والبرتغال بلدان كاثوليكيان . وكانت البعثات الدينية عاملا في هذا التوسع الديني .

٣) **النتائج الفكرية** . وهي أن التماس ، الذي جرى بين أوروبة والقارات الاخرى ، ساعد على تقدم بعض العلوم كعلم الاجتماع والنبات

ودراسة الاقوام (الاثنوغرافيا أي دراسة ووصف الامم المختلفة من حيث الظواهر المادية لنشاطها) . ولكنه وسع خاصة أفق الاوربيين بفضل الملاحظات ، التي استطاعوا تسجيلها ، عن حضـــارات وديانات القارات الاخرى . فحتى ذلك التاريخ كانت الحضارة الاغريقية — اللاتينية في أعين الاوربيين مركز البشرية ، ولكن الاكتشافات بدلت هذه المفاهيم بظهور مفاهيم جديدة .

٤) **النتائج الديموغرافية** . — وهي أن أعمال المناجم والاغراس في أمريكا كانت تتطلب أيدي عاملة بعد أن قضى الاسبانيون على السكان الاصليين أو على حضارتهم . ولذا كان الاسبانيون يشرون زنج افريقية ويأتون بهم الى أمريكا ، وأسسوا بعملهم هذا تجارة الرق التي وسعها الملاحون الانكليز فيما بعد ، ودامت حتى القرن التاسع عشر ، ونقلت ملايين الزنوج الى العالم الجديد ، ووضعت « قضية الملونين » .

٥) **النتائج الاقتصادية** . — ان العلاقات التي تمت بين أوربه والقارات الاخرى كانت ذات نتائج عظيمة في الاقتصاد العالمي ، وأول هذه النتائج وأهمها تحول طرق التجارة العالمية بين أوربه وآسيا ، فقد أضـاع البحر المتوسط مكانته الاولى التي كانت له في القديم وحل محله المحيط الاطلسي . ورأت جنوة ومرسيليا ، وخـاصة البندقية ، دوركسوف وانحطاط . ولبثت الحالة هكذا حتى القرن التاسع عشر ، الى أن فتحت قنـــاة السويس واستعاد البحر الابيض المتوسط جزءاً من مكانته .

ومع هذا فان البحر المتوسط لم يفقد مكانته تماماً ، فما زال محافظاً على أهميته لانه مازال طريق الحرير . ولكن هذه الاهمية تعد ضئيلة اذا ماقيست بأهمية موانىء الاطلسي مثـــل لندن وبريستول وانفرس وروان وبوردو .

والحادث الهام في هذه المواصلات هو انتقال الثروة ، ونهوض الحياة الاقتصادية الاوربية وخاصة بين ١٥٢٠ و ١٥٦٠ . ومن الممكن أن يقال ان ثورة اقتصادية حقيقية حدثت في ذلك التاريخ . وقد ظهرت هذه الثورة جلياً فيما يأتي :

١ — تدفق الثروات . ان العلاقات الاقتصادية التي تأسست بين أوربه والقارات الاخرى أحدثت تدفقاً في البضائع (السلع) وتدفقاً في المعادن الثمينة .

أ) تدفق السلع . — لقد استطاعت التجارة البحرية أن تأتي بالبضائع الآسيوية بكميات كبيرة لم تكن لتستطيعها التجارة القديمة ، أي تجارة العرب والبنادقة ، فقد أخذت آسيا تجهز أوربه مباشرة بالتوابل ، التي نظمت تجارتها في البرتغال بشكل حصر بيد الدولة ، وبالاحجار الثمينة والعطور وغيرها . ومن جهة ثانية أخذت القارة الاميركية تجهز أوربة بالتبغ والكاكاؤ والسكر .

وكانت هذه السلع تأتي الى « المستودعات الكبرى » في موانىء لشبونة واشبيلية وقادس . ولكن توزيع هذه البضائع في اوربه لم يكن بأيدي الاسبانيين والبرتغاليين ، بل كان بأيدي الهولنديين الذين كانوا مجهزين بجميع الوسائل . وبفضلهم أصبحت آنفرس مدينة تجارية عظيمة حتى للمنتجات غير الاوربية ، وأخذ التجار الالمانيون ، الذين كانوا يذهبون سابقاً الى البندقية للبحث عن المنتجات الآسيوية ، يبحثون عنها في آنفرس أو لشبونة .

ونتيجة هذا الحادث هي أن آثار الاكتشافات ظهرت مباشرة لا في اسبانيا والبرتغال فحسب ، بل في البلاد المنخفضة ، وذلك بتأسيس تيارات تجارية جديدة .

وكانت تجارة هذه السلع الاستعمارية تأتي بأرباح باهظة وتقدر غالبا بأكثر من ٢٠٠٪ وتغذي نشاط أصحاب السفن والتجار . وقد أصبح لدى هؤلاء ، بفضل الارباح الجسيمة التي حصلوا عليها ، رؤوس أموال عتيدة ويمكنهم ان يوظفوها في مشاريع أخرى .

ب) تدفق المعادن الثمينة . — لقد لعب استثمار القارة الاميركية دوره الاساسي في هذا الشأن . فاكتشاف مناجم الذهب في بيرو والمكسيك وخاصة اكتشاف مناجم الفضة في بوتوزي ، التي فتحت عام ١٥٤٥ ، كان حادثا عظيم الأهمية ، لأن متوسط الانتاج السنوي للفضة ، الذي كان ٩٠٠٠٠ كغ عام ١٥٢٠ ، بلغ ١١٩٠٠٠ ك غ حوالي العام ١٥٨٤ .

وأدى تدفق هذه المعادن الثمينة الى ارتفاع الاسعار ، اولا في اسبانيا منذ ١٥٢٥ ، ثم في فرنسا وشيئا فشيئا في بلاد أوربه الغربية الاخرى . وتسارع ارتفاع الاسعار حوالي منتصف القرن ، واستغربه اهل العصر ، حتى ان جان بودن ، القاضي والكاتب السياسي الفرنسي ، ذكر في خطاب له عن « أسباب الغلاء الفاحش في فرنسا عام ١٥٧٤ » ، ولاحظ جيداً أن تدفق المعادن الثمينة كان « السبب الاصلي والوحيد تقريباً » في غلاء الأسعار . ولكن هذا الغلاء وسع نطاق الأعمال والمصالح .

ومن جهة ثانية ، كان الأوربيون ، مقابل هذه السلع والمعادن الثمينة ، يجهزون السكان الأصليين بالبضائع وخاصة الأقمشة والأجواخ . وهذا الطلب الجديد ، بالنسبة إلى أصحاب المصانع الأوربية ، حدا بهم إلى زيادة انتاجهم ، ودعا إلى كثرة الوسطاء الذين ينقلون هذه المنتجات الصناعية ويبيعونها ثانية إلى المصدرين .

٢ — **الاشكال الحديثة للحياة الاقتصادية** . لقد أدى انتقال البضائع

والنقود إلى تراكم الأرباح العظيمة في أيدي التجار ، فغدوا أصحاب ثروات ضخمة . وحاولوا أن يستعملوا رؤوس الأموال الجاهزة لديهم بشكل مثمر يدر ربحاً عليهم . فمن ذلك أنهم أخذوا يشترون الاراضي ويشيدون الأبنية ، كما بحثوا أيضاً عن أماكن أخرى يوظفون فيها أموالهم . وعلى هذا النحو ظهرت أشكال جديدة للحياة الاقتصادية .

أ) الاشكال الجديدة للمشاريع . — لقد ظهرت ، في القرن السادس عشر ، صناعة من نوع جديد إلى جانب الصناعات التقليدية التي تشكلت في نطاق الجوراند . فقد نظم أصحاب المصانع والفبارك أعمالهم في الارياف . وكانوا يشترون المواد الاولية ويؤجرون الانوال للقرويين ويشغلونهم لحسابهم .

ظهرت هذه الصناعة خاصة في بلاد الفلاندر وانكلترا . كما وجد هذا الشكل الجديد في صناعة استخراج الفلزات المعدنية والطباعة . وهذه الصناعة الجديدة ، التي نجد فيها التاجر صاحب مصنع ، هي صناعة رأسمالية .

ب) دور المصارف . — لقد أفاد أصحاب البنوك من رؤوس الاموال الجاهزة ، وكانوا يدفعون إلى الرأسماليين فائدة ثابتة مقابل ما يوظفون عندهم من مبالغ ، وقد ظهر هذا النوع في اوغسبورغ في المانيا الجنوبية . وشهدت البنوك نمواً عظيماً في ايطاليا وخاصة في المانيا . ولعب أصحاب البنوك دورهم ، وأصبح شأنهم كبيراً ولا سيما بعد ازدياد حاجة سادة أوربه إلى المال . ففي اسبانيا والبرتغال أنفقت الحكومات مبالغ جسيمة لتجهيز أساطيلها التجارية وارسالها إلى البلاد البعيدة ، ورأت نفسها مضطرة للاستدانة من أصحاب البنوك ريثما تأتيها الارباح التي تنتظرها من بيع السلع . وفي فرنسا والامبراطورية المقدسة كان الملوك يمدون أيديهم إلى هذه البنوك لحصول على الموارد الضرورية لسد نفقات الحروب .

وهكذا نرى ، في القرن السادس عشر ، تأسيس نظام اقتصادي يتصف ببعض الصفات الجديدة من تجمع النقد في أيدي فئة قليلة من الناس وهم كبار التجار وأصحاب البنوك ، واستعمال المال في شراء أكداس البضائع أو القروض بالفائدة . وهذه هي طلائع الرأسمالية كما نعرفها في القرن التاسع عشر ، لأن رأسمالية القرن السادس عشر كانت رأسمالية تجارية ومالية ، ولكننا نرى فيها ظهور النبتة الاولى للرأسمالية الصناعية .

على أن هذه الثورة الاقتصادية كان لها نتائج هامة من الوجهة الاجتماعية .

أ) عند طبقة النبلاء ، لأن هذه الطبقة في أوربه أو على الاقل في فرنسا والمانيا ، أصبحت فقيرة . كانت تتقاضى من فلاحيها اتاوات الاراضي وأجورها نقداً ثابتاً لمدة طويلة قد تبلغ ٩٩ سنة ، بينما كان سعر الحياة آخذاً بالارتفاع ، حتى اضطر النبلاء أن يستعطفوا الملك ليجد لهم وظائف في البلاط أو وظائف عسكرية . وبالتالي أصبحت طبقة النبلاء منوطة بالسلطة الملكية .

ب) عند المعلمين ، سواء رؤساء أصناف الحرف أم أصحاب الصناعة الذين أثروا ونزعوا الى جعل « المعلمية » صعبة المنال ليحجزوها لأولادهم وأنسبائهم ، فاتسعت بذلك المسافة بين المعلمين والرفقاء .

ج) عند التجار الذين ربحوا أرباحاً ضخمة .

وهكذا نشاهد تشكل طبقة بورجوازية غنية لها شأنها ، ونخص فيها أصحاب البنوك الذين لعبوا دوراً عظيماً .

ولكن هذه الثورة الاقتصادية كان لها صداها في الحقل السياسي .

١ – ان دور الاكتشافات الكبرى يسجل بداية تاريخ عام للعالم . ففي القرن السادس عشر تم التماس بين القارات بعد أن بقيت حتى ذلك

الحين منعزلة عن بعضها ، وفيه بدأت اوربه تبسط نفوذهـا على العالم .

٢ — ان اتساع المبادلات غير قيمة الدول الاوربية . فمن ذلك أن البلاد المنخفضة أصبحت ذات مكانة في السياسة الدولية أكبر بكثير مما تسمح بالتفكير به ابعادها الجغرافية ، وهـذا يرجع إلى الدور الرأسمالي الذي كان يلعبه تجارها في الاعمال التجارية .

٣ — ان الاشكال الجديدة في التنظيم الاقتصادي كسرت إطار التقليد المتعارف عليه في العصر الوسيط ، وساعدت على نمو الاستقلال الفكري . مثال ذلك : ان الطبقـة البورجوازية الغنية كانت ترغب في أن يكون للدولة نظام نافذ ، والا يكون النفوذ لطبقة النبلاء وحدها في هذا النظام ، أي أنها أخذت تنافس الطبقة الارستقراطية وتتطلع إلى الادارة والحكم .

* * *

الفصل الخامس

النهضة الدينية

الاصلاح البروتستانتي

كان انقسام الوحدة الدينية ، في أوربة ، في القرن السادس عشر ، من أهم الصفات المميزة لبدء الازمنة الحديثة . وكان هذا الشقاق نتيجة لازمة الاصلاح الديني ، الذي قام به المصلحون الدينيون عندما رفضوا قبول بعض النقاط الاساسية في مذهب الكنيسة الكاثوليكية وأسسوا كنائس جديدة انفصلت عن الكنيسة الرومانية وتوسعت ودامت إلى يومنا هذا .

لقد كان هذا الانفصال الحديث البروتستانتي أشد خطراً على الكنيسة الام من انفصال الكنيسة الشرقية الارثوذكسية عام ١٠٥٤ لأن هذه القطيعة لم تشمل في الواقع إلا أناساً لم يخضعوا في السابق إلى روما .

أسباب الاصلاح البروتستانتي . — لفهم هذه الاسباب يجب أن نلاحظ الحالة العامة التي كانت عليها الكنيسة في آخر القرن الخامس عشر .

يلاحظ ، في الاوساط المتعلقة باهداب الدين والمتمسكة باخلاص في العقيدة ، قناعة ترمي إلى ضرورة اصلاح اصول الحكم والادارة في الكنيسة وفي طرق التثقيف الديني عند الاكليروس وعند المؤمنين . وهذه القناعة تظهر في نزعتين مختلفتين : فقد كان البعض يهتمون خاصة

بمعالجة المساوىء التي يرونها في ادارة الكنيسة ؛ وكان الآخرون يعنون خاصة ً بتقوية الثقافة الدينية .

فكرة الاصلاح في ادارة الكنيسة . – لقد كان يبدو الناس أن البابوات ، في حكم الكنيسة ، يضعون نصب أعينهم جمع أكبر قسط ممكن من المال من الاكليروس ومن الشعب ، وذلك لأن البابا ، رئيس الكنيسة ، كان في الوقت ذاته زعيماً زمنياً وبحاجة إلى موارد تؤمن نفقات بلاطه ، الذي يعد أفخم بلاط في أوربه ، ونفقات سياسته الايطالية . وهذا ما يفسر لنا فداحة الضرائب التي يفرضها البابوات ، والتجارة بالمناصب الدينية وبيع صكوك الغفران .

ومن جهة أخرى ، كان تعيين الاساقفة ورؤسائهم يجري بموجب اتفاق بين البابا والحكومات الاوربية . وكثيراً ما كانت الحكومات ترشح لمثل هذه الوظائف امراء وبورجوازيين أغنياء لايهتمون بوظيفتهم الروحية ، ولا يقيمون في اسقفياتهم ، بل ينصرفون إلى التمتع بالاموال التي تدخل عليهم .

وكثيراً ما اعترض ، على هذه الاعمال ، بعض عناصر الاكليروس ، وخاصة من كانوا منهم تابعين إلى طريقة الاديرة ، وألحوا على ضرورة الاصلاح ، الذي بدأت حركته تظهر ، منذ القرن الرابع عشر ، وأدت إلى اتجاه في الرأي يرمي لإصلاح عام في الكنيسة . ففي مجمع بال الذي عقد عام (١٤٣١ – ١٤٤٩) صرح الكاردينال جوليان سيزاريني بضرورة إصلاح الكنيسة في رئيسها وأعضائها . وهذه الضروره قبلت عامة في فرنسا والمانيا والبلاد المنخفضة في آخر القرن الخامس عشر . ويتلخص برنامجها فيما يلي :

أ - تخفيض الضرائب ، وذلك يكون بتخفيف البذخ الذي ينعم به بلاط روما .

ب - الغاء العرف الذي يجعل المناصب الدينية العليا في صالح الأمراء .

ج - توطيد النظام بين أعضاء الاكليروس ، وذلك بتربيتهم تربية قوية . وهذا الاصلاح يمكن تحقيقه في النطاق الذي يتطلبه الدين الحنيف حتى ان أعضاء الاكليروس ، الذين يفضلون هذه الاصلاحات ، لايتعرضون الكثير من القضايا الهامة ، ولا يضعون على بساط البحث والمناقشة قضية سلطة البابا ونظم الكنيسة ، وأقل من هذا أيضاً قضية سلطة العقيدة . وبالرغم من ذلك فان الكرمي الرسولي لم يفكر باجراء هذا الاصلاح ، لأن زعماء الكنيسة كانوا منهمكين في المنازعات السياسية ، وكان الباباوات في آخر القرن الخامس عشر وأول القرن السادس عشر ، ينصرفون عن وظيفتهم الدينية ، التي هي من صميم اختصاصهم ، ويهملون المصالح العامة المسيحية . فمن ذلك أن حياة الكسندر السادس بورجيا (١٤٩٢ - ١٥٠٣) كانت مشينة تدعو إلى الشك ، وأن جون الثاني (١٥٠٣ - ١٥٢١) كان محارباً يلبس الخوذة ويقود الجيوش في الحروب الايطالية ، وأن ليون العاشر (١٥١٣ - ١٥٢١) جعل روما مركزاً مضيئاً للنهضة ، وفي عهده نشبت الثورة الدينية على يد مارتن لوثر .

فكرة الاصلاح عند الانسانيين . - أما في الأوساط الفكرية فقد قامت حركة جديدة أشد خطراً على الدين من غيرها ، وهي حركة الانسانية . لأن الانسانية ، كما رأينا ، كانت مظهراً من مظاهر النهضة يتمثل بهذا الجهد الذي يبذل في سبيل التحرر من أنظمة العصر الوسيط الفكرية والعودة إلى دراسة القديم دراسة مباشرة ليرى كيف كان تفكير المؤلفين القدامى في الانسان والكون .

ظهرت هذه النزعة الجديدة في الانسانية التقدمية في ايطاليا ، منذ منتصف القرن الرابع عشر ، على يد لورانزو فاللا وبيك دولا ميراندول ، الذين طبقا الأصول الحديثة في التفسير ، التي تعتمد على الفلسفة والتاريخ والنصوص القديمة . ويعتبر لورانزو فاللا أول من دشن الدراسة الانتقادية في النظم الدينية واصولها في تفسير الكتاب المقدس .

وامتدت هذه الحركة الانسانية إلى البلاد المنخفضة على يد ارزموس ، الذي عرف لورانزو فاللا وبيك دولاميراندول . ففي كتابه المسمى « كتاب الفارس المسيحي » الذي نشره عام ١٥٠٤ ، يوسع الفكرة القائلة بأن اللاهوت الحديث يجب أن يعتمد على دراسة الكتاب المقدس وحده ، ويجب أن يكون دارس الكتاب المقدس فقيهاً في اللغة ومؤرخاً . وامتدت هذه الحركة إلى فرنسا على يد لوفيفر ديتابل ، وقد ذهب هذا إلى ايطاليا وتعرف ببيك دولاميراندول ، كما امتدت إلى انكلترا على يد جون كوليت الأستاذ في جامعة اوكسفورد .

كان هؤلاء الانسانيون يحترمون من الوجهة الدينية تعاليم الكنيسة ولا يريدون ، في الأصل على الأقل ، أن يقطعوا علاقاتهم مع الدين الحنيف ، إلا أن طرقهم كانت ، بطبيعتها ، تؤدي إلى زعزعة النظام الفكري في الكنيسة ، وذلك لسببين :

١ — لأنهم طبقوا على النصوص الدينية القواعد الانتقادية التي طبقوها على النصوص الدنيوية ، وأرادوا أن يخلصوا النصوص المقدسة مما علق بها ، مع الزمن ، من اضافات تدعو إلى الشك ، ويفسروها تفسيراً يرجعها إلى معناها الحقيقي . ويزعمون أنهم يتوصلون إلى تعاليم المسيح والحواريين الحقيقية بابعاد الاحاديث غير الصحيحة والأساطير . وجهدهم هذا يؤدي

ولا شك إلى « اعادة النظر » في مصادر المذهب المسيحي .

٢ – لأنهم كانوا يقومون بهذا الجهد بسلطتهم الخاصة باسم الحقوق ، التي يخولها الفكر الانتقادي ، ويتوسعون في تطبيق حرية التفسير ، التي تحرر المؤمنين من القواعد القاسية التي وضعها اللاهوتيون في العصر الوسيط .

وهذه المحاولة تؤدي إلى قبول حرية الفكر الديني التي تجنح إلى هدم الاعتقاد بسلطة البابا ، وهذا مالا يرضى عنه الكرسي الرسولي الذي لا يسمح بمس هذه السلطة . وأمل الانسانيون أن لديهم من التأثير مايجعل البلاط الحبري يسير في الطريق التي يسيرون فيها ، وزادهم اعتقاداً بهذا الرأي ما لمسوه عند البابا من عدم اهتمام لما يعملون .

وقد نتساءل أي السببين كان له شأن أعظم من الآخر ، هل هو كفاح المساوىء في ادارة الكنيسة أو كفاح الأفكار المتعلقة بالحركة الانسانية ؟

لقد كان المؤرخون في السابق يعلقون أهمية كبرى على السبب الأول ، ولكنهم ، في الوقت الحاضر ، يجنحون إلى اعطاء الأهمية للسبب الثاني ؛ ولا يشكون في أن الاستياء ، الذي سببه فساد الادارة في الكنيسة ، قد ساعد على حركة الاصلاح .

وقد أخذت فكرة الاصلاح في الكنيسة شكلاً ثورياً بتأثير بعض الاشخاص وخاصة مارتن لوثر .

مارتن لوثر (١٤٨٣ – ١٥٤٦) – . ولد مارتن لوثر في ١٠ تشرين الثاني سنة ١٤٨٣ في ايشلبن في اقليم ساكس ، بالمانيا ، في المنطقة العليا المشجرة التي تمتد من هارتز إلى تورنجه . كان أبوه هانس ، في بداية أمره ، فقيراً ثم تحسنت حاله ، لاشتغاله في ادارة منجم . وتربى لوثر

في طفولته تربية صارمة وشديدة . ففي مانسفلد ثم في ماغدبورغ تعلم على يد « اخوة الحياة العامة » قواعد اللغة والترتيل . وأتم دراساته اللاتينية في ايشلبن . وفي عام ١٥٠١ دخل جامعة ارفورت لدراسة الحقوق تنفيذاً لرغبة أبيه . ويبدو أنه لم يكن على اتصال وثيق بالانسانيين الذين يهتمون بالدراسات القديمة الأدبية ويزدرون الاعتقادات الشعبية .

نشأ لوثر شديد الحساسية ، ملتهب الخيال ، قلق الفكر ، يخامره الخوف من الذنب والشيطان ورهبة العدل الآلهي . وقد حدث له حادثان ولدا عنده أزمة نفسية : فقد صديقاً عزيزاً عليه ، وفاجأته ، في ٢ تموز ١٥٠٥ ، صاعقة ، وهو في الريف ، كادت تختطفه ، فخاف أن يموت وعليه ذنب ، وبعد خمسة عشر يوماً على هذا الحادث ، أي في ١٧ تموز ١٥٠٥ ، دخل دير الاوغستيين في ارفورت وسمح له رئيس الدير أن يتابع دراسة اللاهوت ثم عين استاذاً لهذه المادة في جامعة فتّامبرغ ، على ضفاف الألب ، في ساكس الشمالية ، واكتسب بفصاحته شهرة عظيمة .

وفي عام ١٥١٠ زار روما وقضى فيها شهراً ، وكانت في نظره المدينة المقدسة التي تشع منها على العالم تعاليم المسيح والفضائل الروحية . زار المعابد والمصليات والدياميس . ولم يخامره شك في حقيقة النظام الكاثوليكي السائد بالنسبة لتعاليم المسيح . ولم تأخذه أبهة النهضة ، ولم يعنف الفن إذا كان في خدمة الدين . غير أن الطابع العصري والسيامي والعسكري في بلاط جول الثاني وبهارج الاحبار في روما أثارت دهشة هذا الراهب المتقشف الكلف بالحياة الباطنية ، الذي لا يعرف من عصره سوى المدارس الصغيرة في ماكدبورغ وايزناخ وهيئات الاديرة في ارفورت وفتامبرغ . رأى في روما أن القداسات قصيرة بينا الأعياد والاستقبالات

طويلة . ولم يدر من فضائح البلاط البابوي إلا ما نقل اليه . غير أنه ولى وجهه عن كل هذه الأشياء وبقي ابناً مخلصاً للكنيسة الرومانية .

لقد دخل لوثر الدير خوفاً من قضاء الله وظن أنه يستطيع أن يعيش براحة في أداء واجباته الدينية ، ولم يكن للصوم والتهجد وممارسة الزهد والنسك من تأثير فاعل على وجدانه المعذب لأنه لم يجد فيها يقين السلام . ولكنه قرأ آية في رسالة القديس بولس إلى أهل رومية وهي : « البار بالايمان يحيا » فاطمأن وبنى مذهبه : « السلام بالايمان وحده لا بالاعمال » ، هذا المذهب الذي هو أساس العقائد عند جميع الكنائس البروتستانتية . وفي العام ١٥١٥ — ١٥١٦ أخذ يوسع هذه الرسالة أمام تلاميذه ويعرض أفكاره الأساسية .

حادث صكوك الغفران . — الغفران في الأصل هو افتداء المؤمن ذنبه بالصوم أو الامتناع عن بعض المآكل ، أو هو العفو الذي تمنحه الكنيسة للمؤمنين للتكفير عن ذنوبهم . وقد حدث في سنة ١٥٠٦ أن البابا جول الثاني كان بحاجة إلى المال لاتمام بناء كنيسة القديس بطرس ، ففكر في أن يحصل عليه بواسطة صكوك الغفران التي يمنحها للمؤمنين مقابل ما يدفعونه من أموال تصرف لأعمال البناء . وفي العام ١٥١١ عاد ليون العاشر ووعد بالغفران أيضاً ، حتى أن هذا الغفران يمكن أن يمتد إلى الأرواح المعذبة في المطهر ، وعهد بأمر الدعوة إلى الرهبان الدومينيكيين واختار لألمانيا الشمالية الشاب البرت براندبورغ ، رئيس أساقفةماينس ، على أن يتولى آل فوغر ، صيارفة أوغسبورغ ، حفظ الاموال التي تدفع لقاء بيع صكوك الغفران . ولكن التبشير بهذه الصكوك ، الذي قام به الراهب تيتزل الدومينيكي ، أخذ شكل الدعاية لمعاملة تجارية ، بعد أن عرضت صكوك الغفران للبيع أمام كوات البنوك .

ومن الملاحظ أن الاعتقاد الذي يستند اليه مبدأ صكوك الغفران يتعارض مع فكرة « التبرير بالايمان وحده » ، التي وجد فيها لوثر السلام الذي ينشده . لقد كان لوثر كأرزموس وهوس وويكليف ينزع إلى ديانة داخلية ، أي إلى عبادة فكرية ترجع الطقوس والاعمال الدينية إلى رموز . ويبدو أن تيتزل كان يؤكد باسم البابا بأن الكنيسة الكاثوليكية تعلق الفكرة بحرفية النصوص . غير أن لوثر رأى أن وجدانه يملي عليه أن يظهر هذا الخطأ الذي من شأنه أن يهدم جوهر الفكرة المسيحية . وفي ٣١ تشرين الاول ١٥١٧ أعلن على باب كنيسة فتامبرغ خمساً وتسعين نظرية ضد صكوك الغفران . وهذه النظريات كانت أساساً للاصلاح البروتستانتي .

تتعلق هذه النظريات في جوهرها بمذهب السلام بالايمان وحده أي « التبرير بالايمان » . لأن العفو أو السماح الذي يمنحه الكرسي الرسولي لا يبرر المذنبين ، وان الذين يضعون آمالهم في صكوك الغفران أناس حكم عليهم بالشقاء إلى الأبد . وان الاساقفة والخوارنة واللاهوتين ، الذين يسمحون بهذه الامور الضالة ، سوف يعترفون أمام الله بجرمهم . وعوضاً عن أن يبشر بصكوك الغفران كان من الواجب أن ينادى ، أمام المؤمنين ، أن البابا لو علم بالعبارات التي تقدم بها هذه الصكوك وبالمساومات التي أوجدت من أجلها ، لفضل أن يرى كنيسة القديس بطرس خراباً يباباً من أن يراها تبنى بجلد شياهه ولحمها وعظمها . ومع هذا فان لوثر لم يندفع بأفكاره حتى النهاية . فقد كان يؤمل ، مثل لوفيفر ديتابل أو ارزموس ، ان الكنيسة الرومانية تعرف كيف تجد في نفسها القوة الكافية للرجوع إلى الحق . ولم يتعرض لوثر لصدقات الكنيسة باللوم لأنها عمل من أعمال البر والاحسان ودليل على الايمان

الحي . ولم يطالب بعد بالحرية المسيحية أو العبادة بالفكر ، وما زال يؤمن بفضائل القداسات الكاثوليكية ويقبل براتب الكنيسة ويعترف للبابا بالسلطة العليا فيما يتعلق بنظام الكنيسة أو العقيدة ويضع بين يديه مذهبه الجديد .

وبقي لوثر ، خلال سنتين ، يوسع النتائج الثورية للمبادىء التي وضعها . واستمر النزاع في قضية صكوك الغفران واستهوى الجامعات . وقام تيتزل منذ كانون الثاني ١٥١٨ يوسع النقاش في نظرياته ، التي يخالف بها نظريات لوثر و ويؤيد المذهب ، الذي نادى به البابا وهو أن البابا سيد المجتمع الديني والمفسر الوحيد للكتاب المقدس ، وانه يعلو على الكتاب المقدس أيضاً لأن الكنيسة تدعو إلى حقائق لاتوجد فيه صراحة". ولكن لوثر عارضه في آب ١٥١٨ بمقرراته . وهو وان أبقى على التبرير بالايمان وحكم على صكوك الغفران بالبطلان من جديد فما زال يقبل بحكم روما في قضايا العقيدة : وإذا بقي الكتاب المقدس في نظره مصدراً معصوماً لكل اعتقاد ، فهو لايطرح التقاليد المتوارثة عن آباء الكنيسة والمجامع ورسائل الباباوات في قضايا الخلاف ، ولا يجرأ أن يميز بين البابا المعصوم ، عندما يتكلم طبقاً للمجامع الدينية وآباء الكنيسة ، والبابا غير المعصوم ، الذي يمكن أن يقرر أحكاماً جائرة عندما يتكلم باسمه الخاص ، لأن واجب الاطاعة فرض على المؤمن ، ولأن الاصلاح الضروري للكنيسة هو من عمل الدول المسيحية بأجمعها ، والله وحده أعلم بهذا اليوم الذي يجري فيه مثل هذا الاصلاح . وليبرهن لوثر على طاعته للبابا أهدى كتابه إلى ليون العاشر . ولكن البابا لم يكن متهيئاً لمثل هذا النقاش ، ولم ير فيه سوى نزاع رهبان ، وندب للتحقيق راهباً دومينيكياً وهو سيلفيستر مازّوليني ، وقد نشر هذا الأخير كتاباً اسمه « سلطة البابا » أو « سلطة

الحبر الاعظم » دعم فيه ، دون تطرف ، ولكن بحذاقة ، نظريات تيتزل ودعا مارتن لوثر للمثول أمام محكمة روما . وبعث البابا برسالة إلى مندوبه الكاردينال كيتان يطلب اليه فيها أن يستدعي لوثر اليه ويحصل منه على تصريح بسحب كلامه . وفي هذه الحالة تبطل دعوة المثول إلى روما ، ولكنه أبى .

هددت الكنيسة لوثر بشتى الاحكام المخيفة فصرح علنياً منذ تموز ١٥١٨ في خطاب له عن مدى تأثير قوة « الطرد من الجماعة » أو « الحرمان » والقضايا التي تضعها أمام وجدانه . غير أن الحل الذي طمنه كان هو الحل الذي هدأ في الاصل قلق المفكرين المسيحيين ، الذين كانوا على خلاف مع تعاليم الكنيسة ، أي الحل الذي أيد جان هوس في كونستانس وسافونارولا عندما أقصي عن الكنيسة ، ويتلخص في : « أن الطرد من الجماعة يحرم المسيحي من المشاركة الخارجية والجسمية مع المؤمنين ولكنه لا يقصيه عن الكنيسة اللامرئية وعن الله » ، وإذا توجب عليه أن يحترم الحكم الذي يؤخذ بحقه وألا يجيب عنه بالشدة ، فيجب عليه ألا يخضع عندما يكون العدل والحق موضع المنفعة . وأخذ انتقاد لوثر يشتد ويتضح ويؤكد رداً على مازّوليني « بأن الكتاب المقدس مصدر وحيد لكل حقيقة » . وفي تشرين الاول ١٥١٨ لم يعدل عن رأي من آرائه أمام كايتان . وعاد إلى فتانبورغ وقطع علاقاته مع الممثل الرسمي للبابا في ألمانيا (١٥٢٠) عندما القى أمام طلاب الجامعة مرسوم الحبر الاعظم بالنار . ولقد كان من الممكن أن يسوى الخلاف بين البابا ولوثر لولا أن سوء نية الدومينيكيين من رجال روما قد أبعد كل تقارب بين الطرفين .

لقد احدثت احتجاجات لوثر صدى عظيماً في كل أوروبة الكاثوليكية . ففي المانيا ، دعمه الانسانيون بشغف زائد . وفي انكلترا ، ألفى أنصاراً

ومحبذين مثل جون كوليت . وفي فرنسا ، مثل لوفيفرديتابل . وفي هولنده ، بين أصدقاء ارزموس في كليات لوفن . وفي أديرة مالين وبروج وآنفرس عند البورجوازيين من مؤسسي الرأسمالية الحديثة والمتحررين فكرياً . غير أن ارزموس روتردام ، وان لم يعنف لوثر ، رفض أن يستحسن ما ذهب اليه .

افكار لوثر . — كان لوثر يطالب في الكتب التي نشرها باصلاح الكنيسة « في رئيسها وأعضائها » وباصلاح العقيدة ، ويرى أن الاعمال الدينية تفيد المؤمن في تعويده على النظام والتهذيب ولا تمنحه استحقاقاً أمام الله ، لأن الاعمال الدينية والحركات الخارجية في التقوى والعبادة لا تؤمن سلام الانسان ، بل الايمان بالله وبالمسيح . وان « أفضل الاعمال الحسنة وأنبلها وأعظمها هو الايمان بالمسيح » .

بسّط لوثر العبادة إلى حد عظيم فأصبحت اتصالاً شخصياً بين المخلوق والخالق ، ورأى أن ينشر الكتاب المقدس باللغة الألمانية ليكون في متناول الجميع ، وهذا ما فعله . ولم يعترف للكهان بفضل الوساطة بين الله وبين المؤمنين ، بل اعتبرهم ادلاء بسطاء أكثر علماً من غيرهم ؛ وعليهم أن يعيشوا كسائر الناس ويتزوجوا ويؤسسوا عائلة . والغى الاكليروس النظامي وحياة الدير .

وأراد العودة بالكنيسة إلى حياة البساطة والبدائية الاولى ، وأخذ يشذب ما علق بها من اضافات على ممر العصور ، واحتفظ بالعقائد والأعمال التي أقرها السيد المسيح نفسه ونقلها « العهد الجديد » . وتسامح لوثر في بادىء الأمر مع سر « التوبة » ، ولم يعترف بعد ذلك إلا بالسرين اللذين أقرهما المسيح وهما التعميد والمناولة بعرَضَيها : الخبز والخمر ، وأبطل عبادة العذراء والقديسين والايمان بالمطهر . وهكذا بسط لوثر

الدين فأصبح مثلاً أعلى لدين حنيف داخلي ينطوي فقط على التأمل بالكتاب المقدس وحوار وجدان المؤمن مع المسيح .

ثم نظم لوثر ومن حوله « الكنيسة اللوثرية » ، واقتصرت العبادة فيها على قراءة الكتاب المقدس وتفسيره وتوسيعه وغناء « المزامير » جماعةً . وكان لجوقة التراتيل اللوثرية دوراً رئيسياً في نمو الموسيقى الألمانية .

وقد لعب شخص لوثر دوراً هاماً وحاسماً في حركة الاصلاح الديني فهو الذي أوجد الانقسام . ولا شك في أن المذهب الذي أتى به قد تم بمصلحين أشد منه جرأة ، مثل زونغلي في زوريج وكالفن في فرنسا وفي جونيف ، غير أن محاولة لوثر كانت حادثاً أساسياً في الاصلاح البروتستانتي .

ظروف نجاح الاصلاح . — لقد فصلت ثورة المصلحين ، عن ادارة الكرسي الرسولي الروحية ، القسم الأعظم من اوربة الوسطى والشمالية . ففي ألمانيا تمت القطيعة مع البابا عندما انتخب شارلكان امبراطوراً . وأقلق هذا النزاع شارلكان لأنه كان كاثوليكياً وخشي أن تصبح المانيا موطناً للفوضى ، فاستدعى لوثر إلى فورمز ، ورغب اليه العدول عن رأيه فرفض بحزم زائد ، فوضعه الامبراطور خارجاً عن الامبراطورية في ٢٢ أيار ١٥٢١ أي حرمه من التمتع بحقوقه وأمره أن يغادر فورمز فوراً واعتبره هرطقياً . ولذا يمكن ايقافه وحرقه بعد أن تنتهي مدة جواز سفره ، لولا أن ناخب ساكس نقله سراً إلى قصر فارتبورغ حيث بقي مختبئاً مدة سنة ترجم فيها الكتاب المقدس إلى الألمانية . وكان لهذه الترجمة نجاح عظيم لأنها كتبت باللغة الألمانية الشعبية التي يفهمها الجميع .

لقيت حركة لوثر تأييد طبقة البورجوازيين ، وذلك عن قناعة دينية

منهم ، وتأييد طبقة النبلاء ، وفي هذه الحالة لم تكن الأسباب دينية فحسب ، بل لأن طبقة النبلاء الالمانية ترى أن روما كانت تسيء لهم في كثرة الضرائب ؛ وتأييد الامراء الالمانيين . وقد دعم هؤلاء حركة الاصلاح لأسباب سياسية ، وذلك لأن هذه الحركة فسحت أمامهم مجالاً لاعلان استقلالهم حيال الامبراطور شارلكان ومكنتهم من تعصير املاك الكنيسة أي حجزها لصالحهم . ومع ذلك فان أكثرية الأمراء ترددت ، بعض الزمن ، في الانضمام إلى حركة الاصلاح ، ولكن هذا التردد زال عندما قام لوثر أثناء ثورة الفلاحين في المانيا الجنوبية عام (١٥٢٤) ، يدافع عن النظام الاجتماعي ويحكم على هذه الثورة بالبطلان ، فكان سبباً في قيام أزمة اجتماعية في المانيا عندما خرج لوثر من فارتبورغ . فقد رأى المستاؤون في تهجمات لوثر على الكنيسة مشجعاً وفرصة للقيام بالثورة لتحسين حالهم : فمن ذلك أن الفرسان من طبقة النبلاء الفقيرة ثاروا على الاغنياء من بورجوازيين واكليركيين . وهاجم بعضهم ١٥٢٢ أراضي رئيس اساقفة تريف ، الذي كان في الوقت نفسه ناخباً لها ، وهاجم الآخرون المدن الغنية في منطقة سؤاب ، إلا أن الطبقة النبيلة العليا والبورجوازية سحقت هذه الحركة وقضت عليها بالقوة (١٥٢٣) .

وتبع ثورة الفرسان عصيان الفلاحين . فقد أصغى هؤلاء لبعض المتحمسين ممن كانوا ينادون ويبشرون بأن حان الوقت ودقت ساعة « امبراطورية المسيح » التي يقضى فيها على الكافرين ، وليس ثمة ملوك أو أمراء أو كهان بل الجميع سواسية والأموال ملك مشترك فيما بينهم .

بدأت هذه الحركات من منطقة بحيرة كونستانس وانتشرت بسرعة في المانيا الجنوبية والغربية وأدت إلى احراق كثير من الاديرة والقصور

(١٥٢٤) . وخاف لوثر من هذه الفظاعات وحاول أن يمنعها بالنصيحة والارشاد والتهديد . وأخيراً أخمدت هذه الحركات وقتل عدد عظيم من الفلاحين .

ولكن ماحرم على الفرسان والفلاحين بالقوة كان حلالاً لمن اعتنق مذهب لوثر ؛ فمن ذلك أن ناخبي ساكس وبراندبورغ وبالاتينا ولاندغراف هس ودوق ميكلامبورغ وبوميرانيا وغيرهم وضعوا أيديهم على أموال الكنيسة وضموها إلى املاكهم أي عصّروها ، وأهم هذه التعصيرات ماقام به سيد الطريقة التوتونية ، البرت براندبورغ ، من أسرة آل هوهنتسولرن ، فقد استولى على أملاك هذه الطريقة التي يرأسها ، وحولها إلى دوقيـــة وراثيـة وهي « دوقيـة بروسيـا » التي كانت نواة أولى لمملكة بروسيا (١٥٢٥) .

اعتراف أوغسبورغ . — كانت هـذه الأزمات تتوالى وشارلكان عنها في شغل ، لأنه كان منهمكاً في حروبه مع فرنسوا الأول ولذا لم يستطع أن يقف في سبيل توسع الاصلاح في المانيا . ولكن منذ أن بدأت مفاوضات الصلح ، عام ١٥٢٩ ، التي أدت إلى صلح كامبريه دعا الامبراطور مجلس الدياط إلى سبير وتقرر أن يسمح لمذهب لوثر (اللوثرية) في البلاد التي انتشر فيها ، على أن يمنع تأسيسه في خارجها . فاحتج على هذا القرار خمسة أمراء وأربع عشرة مدينة . ومن هنا نشأ اسم المحتجين « بروتستانت » نسبة إلى أشياع المذهب الجديد المنفصل عن الكنيسة الكاثوليكية .

ولقـد حاول شارلكان في السنة التي تليها أن يرد البروتستانتيين إلى الكاثوليكية واجتمع الدياط في أوغسبورغ للبحث عن وسيلة للوفاق والتفاهم وتهيـأ البروتستانتون للمناقشة وأوضحوا مذهبهم وعرفوه بدقـة ، وترك

لوثر إلى الانساني ميلانكتون ، أحد تلاميذه المخلصين والمعتدلين ، أن يدون المذهب البروتستانتي فدونه في ٢٨ مادة عرفت باسم « اعتراف اوغسبورغ » وهو يعتبر العقيدة الاولى للكنيسة البروتستانتية .

وحاول المعتدلون من كل حزب أن يوفقوا بين وجهتي النظر ، إلا أن كل محاولة من هذا النوع باءت بالاخفاق . ولقد قال لوثر : « إن التوفيق بين المذهبين شيء مستحيل ، اللهم إلا إذا تخلى البابا عن بابويته » . وجدد دياط اوغسبورغ الحكم على لوثر وأشياعه ، فاضطر البروتستانتيون إلى الدفاع عن أنفسهم وألفوا حزباً سياسياً . وهكذا تشكلت عصبة شمالكلد (١٥٣١) بناء على اقتراح ناخب ساكس ولاندغراف هس ، وانقسمت المانيا ، منذ ذلك الحين ، إلى حزبين متعادين يضطهد أحدهما الآخر ولا يعرف تجاهه أي تساهل . ففي الدولة التي تتأسس فيها البروتستانتية كانت الكاثوليكية تطرد منها والعكس بالعكس . مما أعقب حروباً دينية وأهلية في المانيا .

صلح اوغسبورغ (١٥٥٥) . — لقد أراد شارلكان قبل أن يتنازل عن العرش أن يؤمن السلام في المانيا فمنح أخاه فرديناند سلطات واسعة ، كان منها أن عقد مع اللوثريين صلح اوغسبورغ (١٥٥٥) . وبمقتضى هذا الصلح حصل الامراء اللوثريون على حرية العبادة وملكية الاراضي التي عصروها سابقاً في العام ١٥٥٢ ، على أن يتخلى كل أمير كنسي عن كل أملاكه إذا اعتنق البروتستانتية في المستقبل .

ولم يوطد صلح اوغسبورغ دعائم الحرية الدينية في المانيا ، حتى ولا التسامح الديني لأن هذا الاتفاق ، الذي اعترف به لوثر والبروتستانتيون والكاثوليك ، كان يخول الامراء الحق في فرض دينهم على رعاياهم .

ثم ان صلح اوغسبورغ وإن اعترف باللوثرية فهو يصرح رسمياً بانقسام

المانيا إلى حزبين : كاثوليك وبروتستانت لم ينته النزاع بينهما . يضاف إلى ذلك أن هذا الصلح يحوي في داخله على بزور الشقاق في المستقبل ، لأن اللوثريين كانوا يحتجون على مبدأ التخلي عن الاملاك إذا غير الامير الكاثوليكي دينه . ولذا فان انقسام الامبراطورية والحروب الاهلية التي اجتاحتها أدت إلى إضعاف قواها وحالت دون ما تطمح اليه من دور في السياسة الاوربية . فقد كانت أرضها في بدء القرن السابع عشر ، كما كانت ايطاليا في بدء القرن السادس عشر ، ميدان حرب بين الدول الاوربية الاخرى .

الاصلاح في البلاد الاسكاندينافية . — كان تأثير لوثر عظيماً خارج المانيا . فقد غذت الافكار اللوثرية ، في البدء ، حركة الاصلاح في سائر البلاد الاوربيـــة . غير أن هذا التأثير عارضه تأثير المصلح السويسري زونغلي ، وقضى عليه خاصة تأثير المصلح الفرنسي كالفن . وبالرغم من ذلك فما زالت ثمة بعض المراكز التي تدين باللوثرية مثل بوهيميا وهونغاريا العليا وترانسلفانيا وبولونيا . ولكن البلاد التي تأصلت فيها اللوثرية ، كما في المانيا ، كانت البلاد الاسكاندينافية ، لا لأنها تأثرت بلاهوتيين أتموا دراستهم في فتامبرغ ، بل لأن الاصلاح كانت تساعده ، كما في المانيا ، في الوقت نفسه ، ظروف سياسية ومصالح الامراء والطبقة النبيلة .

ففي السويد ، كان الاصلاح نتيجة الثورة الوطنية ، التي قادها غوستاف فازا (١٥٢١ — ١٥٢٣) ، سليل ملوك السويد الاقدمين ، على الدانيمارك ، وكان منها أن نودي به ملكاً . فقد عاد من فتامبرغ الاخوان أولاف ولوران بيترسون في العام ١٥١٨ ولوران أندره وأخذوا يبشرون باللوثرية في السويد . وحماهم غوستاف فازا ، وكان يميل إلى حركة الاصلاح واشترك بها علانية منذ ١٥٢٤ . غير أنه كان بحاجة إلى

المال في مملكة خربتها الحروب ، ورأى أن الاكليروس يملك ثلثي أراضي المملكة فقرر في ديت (دياط) فيستراس عام ١٥٢٧ وضع أموال الكنيسة تحت تصرف الدولة واصلاح المساوىء الكنسية .

ولم يشأ الدياط أن يسايره في رأيه فأصر على التنازل عن العرش إن لم يلب طلبه . وحذا النبلاء حذوه في تعصير املاك الكنيسة . وما لبث غوستاف فازا أن أعلن أن اللوثرية أصبحت ديناً للدولة وهكذا صار الملك رئيساً للكنيسة والدولة .

وفي الدانيارك ، كان نجاح أفكار الاصلاح ، التي انتشرت في (١٥٢٢ — ١٥٢٥) على يد اللاهوتيين ، مثل جان توزن ، الذين درسوا في فتامبورغ ، أشد منه في السويد ، وذلك أن كريستيان الثاني ملك الدانيارك ازيح عن العرش عام ١٥٢٣ في الوقت الذي كان يتقرب فيه من روما ليحصل على مساعدة شارلكان ضد السويد ، ولكن خلفه فريديريك الاول ، وكان على وفاق مع الطبقة النبيلة ومع المدن على تحقيق الاصلاح بمصادرة أموال الكنيسة ، كما حصل في السويد ، قطع العلاقات مع روما في العام ١٥٢٧ في دياط أودوانسي الذي قرر التسامح الديني وزواج الكهان وانتخاب الاساقفة من قبل مجلس الاسقفية والتنازل عن نصف ضريبـــة العشر إلى الملك . وثبتت الشروط في ٢٣ مادة في كوبنهاغن عام ١٥٣٠ . وأصلحت الكنيسة الدانياركية أخيراً على أسس لوثرية ، واعترف بها رسمياً في العام ١٥٣٧ .

الاصلاح في سويسرا الالمانية وسهل الراين . — كانت بعض المدن الكنسية تؤلف جمهوريات حقيقيـة صغيرة في سويسرا الالمـانية والسهل الريناني . ومن هـذه المدن بال ، زوريخ ، ستراسبورغ ، كولمار ، سيليستات ، وكانت في أول القـرن السادس عشر مراكـز للانسانية

الاصلاحية . وتختلف هـذه المدن عن غيرها ، لأن علماءها كانوا رجال كنيسة . وكانت هذه الفئة من المفكرين تضم عقولاً قوية تتماثل بثقافتها العميقة وعقليتها الثاقبة واهتمامها الخاص . وقد عرف كل منهم الافكار اللوثرية وتأثر بها ، كما اثر كل منهم في الآخر والفوا جميعاً اسرة فكرية .

اولريخ زونغلي (١٤٨٤ — ١٥٣١) . — كان زونغلي أقوى هؤلاء المصلحين شخصية ، وإذا عرضنا أفكاره فاننا نعرض تقريباً أفكار المصلحين السويسريين والرينانيين . كان زونغلي خوري غلاريس من ١٥٠٦ إلى ١٥١٦ ثم أصبح خوري زوريخ في العام ١٥١٨ وأخذ يبشر بالانجيل وما لبث أن أصبح زعيماً دينياً وسياسياً وعسكرياً . وكان وطنياً ورجل دولة وانسانياً حاول أن يوفق بين المسيحية ودين القديم وبسائل الايمان يقين الحقيقة .

تتلخص أفكاره في أنه اطرح فكرة السر . وليس التعميد والعشاء الرباني في نظره إلا رمزين ، والمؤمن الذي « يتناول » يكون على اتصال روحي بروح المسيح . وأرجع العبادة إلى قراءة الكتاب المقدس والوعظ ، والمناولة . وجعل الشعب ، أي مجلس المؤمنين ، حكماً في توافق أعمال كل مؤمن مع هـذا المعنى ، والكنيسة الديموقراطيـة تختلط بالدولة الديموقراطيـة . وفي العـام ١٥٢٤ تبنى مجلس زوريخ اصلاحه ، ومنها انتقل هذا الاصلاح إلى بال وبيرن الخ ... ولكن هـذا الاصلاح لم يكن في نظر الكثيرين حلاً نهائياً . لأن مفهوم زونغلي للأسرار بصورة خاصة يبدو انه يبعد الله .

ولا يقبل زونغلي إلا بكل ما أمر به الكتاب المقـدس . ونتيجـة لذلك حذفت الصـور في ١٥٢٤ من الكنائس ، حتى ان بعض تلاميـذه طالب بحذف تمثال السيد المسيح المصلوب . وحذفت القداسات ، والحفلات

الدينية ، وما دخل في الدين عن طريق العرف والتقليد ، والاثاث مثل الناقوس والمذبح والشموع ، وابطلت الأعياد عدا عيد الأحد ، وأعيدت الديانة إلى بساطتها البدائية من قراءة الكتاب المقدس والوعظ وتوزيع العشاء الرباني ، ولم يقبل بأي قداس أو احتفال ديني ما لم يكن المسيح قد أقر وضع نظامه .

وتجاوز تأثير زونغلي حدود زوريخ إلى الكانتونات السويسرية الاخرى وإلى المانيا الجنوبية . فقد أراد أن يجعل من زوريخ مركزاً سياسياً يمتد أثره في المانيا والنمسا وحاول لذلك الحصول على مساعدة ملك فرنسا . ولكن دعاية زونغلي اصطدمت بمقاومات كاثوليكية ، حتى ان فرديناند النمسا شكل اتحاداً مسيحياً ، في ٢٢ نيسان ١٥٢٩ ، مع خمس كانتونات ، ضد عصبة زوريخ وستراسبورغ وبيرن وكونستانس ، وظفرت جماعة زوريخ في أول الامر ، ، لكن ما لبث أنصارهم أن غلبوا على أمرهم في واقعة ثانية ولقي زونغلي حتفه فيها . وكانت هذه الواقعة كافية للحيلولة دون تحقيق آماله . ثم ان وساطة ملك فرنسا والكانتونات الاخرى أدت إلى صلح كابِّل ، وفيه اعترف بالسيادة الدينية في كل كانتون مع منح الاقليات الدينية الضمانات الكافية لسلامتها . وأوقف موت زونغلي توسع سياسته في سويسرا وعطل انتشار مذهبه في خارجها ، إلا أنه بقي حياً وسيأتي المصلح كالفن ويحيي مبادئه ويعيد اليها النشاط من جديد .

الاصلاح في فرنسا . — لقد وضعت قضية الاصلاح الديني في فرنسا كما في غيرها قبل ظهور لوثر . غير أن الجهود ، التي بذلت في عهد شارل الثامن لاصلاح الجامعة والاديرة في باريس واجتماع لجنة الاصلاح في تور عام ١٤٩٣ ، لم تعط سوى نتائج ضئيلة ومحدودة في الاكليروس العصري . ولذا فالمجال واسع للاصلاح . وقد بدأ هذا الاصلاح بتوسع الحركة

الانسانية ، التي فتحت للفكر المسيحي آفاقاً جديدة على يد لوفيفر ديتابل لما كان له من أثر عظيم في فرنسا . كان استاذاً في كلية الكاردينال لوموان في باريس ، وناشراً ، ومفسراً ، ومترجماً للكتب المقدسة والفلاسفة القدماء وصوفيي العصر الوسيط . كان معتدل الطباع ، ولكنه جريء التفكير ، وتوصل إلى مفهوم ارزموس ، الذي يرمي إلى مسيحية انجيلية تتقيد بتعاليم الانجيل ، كما فهم لوثر جيداً . وعندما نشر هذا المصلح نظرياته كان يوجد في فرنسا مدرسة اصلاحية ذات نزعة جذرية .

لقد أوحى لوفيفر بالمحاولة التي قام بها غليوم بريسونّه أسقف مو عام ١٥١٦ ليحقق في اسقفيته تجديداً دينياً مثالياً . ثم ان بريسونه جذب اليه لوفيفر مع كثير من تلاميذه مثل فاتابل وجيرار روسل وغليوم فاريل . ويتلخص اصلاح اسقفية مو في اعادة النظام إلى الاكليروس وفرضه على الخوارنة والاهتمام بتربية الاكليركيين وتنظيم الوعظ والارشاد . وهذا الوعظ يقوم على التبشير بمبادىء المسيحية الانجيلية الحنيفة وعلى التبرير بالايمان وعدم كفاية الاعمال .

ولكن هل يمكن أن يؤدي تأثير لوفيفر وتلاميذه ، بمساعدة الملك ، إلى اصلاح سلمي ؟ وهل لتلاميذ لوفيفر ، ان لم يكن هو نفسه ، أن يوجدوا في فرنسا حركة هرطقية تنزع إلى الانفصال لو لم تنشب الثورة اللوثرية أولا في المانيا ؟ الثابت أن ثورة لوثر لاقت تحبيذاً في فرنسا ، فقد انتشرت فيها آراءه وآراء كارلشتاد وزونغلي وبوسر وغيرهم من المصلحين بسرعة لأنها كانت تتضمن آراء لوفيفر ، وظلت فكرة امكان الاصلاح تشغل الاذهان ، وكان يرى أن يتحقق هذا الاصلاح بصورة تدريجية وداخلية بمساعدة السلطة الملكية وان يفرض على روما دون قطيعة .

وكانت السياسة الملكية تغذي هذا الوهم . بيد أن الحوادث دلت على أن فرنسوا الاول لم يكن متهيئاً للانفصال ولمساندة هـذه المرطقة الجديدة بصورة صريحة . فقد كان متمسكاً بوحدة الايمان في مملكته ومتعلقاً بالمحافظة على العبادة والنظام التقليدي في الكنيسة ولا يقبل بحركة دينية عفوية وشعبية ضد السلطات القائمة . واهتم بنهضة الآداب عن ذوق طبيعي وحب للمجد وكانت اخته مارغريت آنغولم ، دوقة آلانسون ، ثم ملكة نافار ، متدينة صوفية تشاركه في ميوله وتشجع هذه الحركة . بيد أن سياسة فرنسوا الدينية كانت متعلقة بالضرورة بسياسته العـامة . فمنذ أن وقع الكونكوردات (١٨ آب ١٥١٦) لم يكن له أي مصلحة في قطع العلاقات مع روما . وكانت علاقته مع البابا ومع البروتستانتيين الالمان منوطة بنزاعه مع شارلكان . أما ابنه هنري الثاني فكان فكراً محدوداً ومتديناً متأثراً بمؤثرات كاثوليكية ، ولكنه بقي محافظاً حتى عام ١٥٥٩ على سياسة التحالف مع البروتستانتيين . وهذه السياسة الملكية وان كانت كاثوليكية في الحقيقة فقد كانت تعطف على فكر الاصلاح ومضطرة إلى محاباة الرأي البروتستانتي في الخارج .

يميز في تاريخ الاصلاح الديني ، في فرنسا ، قبل الحروب الدينية ، دوران : الدور الاول يمتـــد حتى ١٧ — ١٨ تشرين الاول ١٥٣٤ ويتصف بحركة اصلاح سلمية يساعدها الملك والبلاط . وفي الدور الثـاني أخذت النزعات الجذرية تسيطر على هذه الحركة واصبح الملك أكثر استعداداً للاضطهاد واشتد هذا الميل عنده حتى آخر حكمه .

انتشرت حركة الاصلاح منـذ عام ١٥٢٠ ووصلت مختلف المنـاطق وخاصـة الأوساط المدنيـة والعمال والبورجوازية وقام بالتبشير الكهان والرهبان . وكانت ليون مدينة تجارية قريبة من الحدود مفتوحة للأجانب

وفيها مطابع عديدة ومتهيأة لتكون مركزاً للنشاط الديني الجديد . وقد انتقلت آثار لوثر في كل مكان مع كثير من الكراريس التي كتبت باللغة العامية . غير أن كلية باريس الدينية قاومت هذه الحركة بتوجيه من عميدها نوئيل بيدا . ثم صدر أمر ملكي في ١٨ آذار ١٥٢١ وأيده في حزيران قرار من البرلمان ، ينص على عدم طبع شيء أو نشره قبل الحصول على إذن مسبق ، وحكم على نظريات لوثر بالبطلان وحرق كثير من آثار الانسانيين . يضاف إلى ذلك أن ثورة الفلاحين ، التي قامت في المانيا وأخذت طابعاً شعبياً ، أقلقت البلاط وتقرب الملك في عام ١٥٢٤ من كليمان السابع . وبعد واقعة بافيا تهيأت الوصية لويز سافوا (أم فرنسوا الأول) إلى الضرب بشدة على الحركة . وفي ٢٠ آذار ١٥٢٥ أقر برلمان باريس نوعاً من محكمة تفتيش تتألف من عضوين من أعضائه ومن عضوين من كلية اللاهوت ، وتتمتع بصلاحية في جميع الاسقفيات حتى أن لوفيفر وجيرار روسل فرّا إلى ستراسبورغ ، وساور القلق جماعة (مو) فتفرقت ، وطبقت اعدامات في أمكنة مختلفة .

ولكن هذا الاضطهاد يعد بسيطاً لما أعقبه من اضطهادات ضد رجال الاصلاح ومن تبعهم . فقد بدأ الاضطهاد على أثر قضية « المناشير » التي وجهت ضد القداس واعلنت في الليل والصقت حتى على باب غرفة الملك في آمبواز . وفي ٢١ كانون الاول ١٥٣٤ أقر الملك أن يشكل في البرلمان لجنة مؤلفة من ١٢ مستشاراً لمحاكمة المراطقة ، وكانت هذه اللجنة تجتمع في غرفة اطلق عليها اسم « غرفة السعير » . وأوجد فرنسوا الأول نوعاً من تمييز بين أنصار الاصلاح المتعلمين والمعتدلين وبين المراطقة . إلا أن هذا التقسيم كان اصطناعياً لأن التسامح ، الذي كان يتمتع به المعتدلون ، أفاد المراطقة ، حتى ان أمر البحث عن هؤلاء ومحاكمتهم

كان منوطاً بسلطات محلية حيادية تميل إلى الاصلاح غالباً . ولم يستطع البرلمان ، وكلية اللاهوت (الصوربون) في باريس مطاردة المراطقة في كل مكان . يضـــاف إلى ذلك أن الملك ، بعد شهر من الاضطهاد ، اضطرته علاقاته مع عصبة شمالكلد ومحـاولته التوفيق بين البروتستانتيين الالمان أن يتساهل مع أنصار الاصلاح في بلده . وفي ١٦ تمـوز ١٥٣٥ صدر موسوم بالعفو عمن يرتد عن دينـه الجديد خلال ستة أشهر . ولم يراع هذا الشرط وامتدت الهرطقة البروتستانتية في جميع أنحاء المملكة . وهكذا اخفقت حركة الاصلاح المعتدلة على يد لوفيفر ديتـابل بعد أن قادتها العناصر الهرطقية المتطرفة . ولكن حركة الاصلاح أخذت شكلا أصيلا على يد مصلح آخر أصلب عوداً وأقوى شكيمة وهو كالفن .

حنا كالفن (١٥٠٩ — ١٥٦٤) . — ولد حنا كوفن (وكالفن اسمه باللاتينية) في بلدة نوّيون في منطقة بيكارديا في فرنسا ، ونشأ في أسرة بورجوازية غنية خدمت في الكنيسة . ويبدو أن كالفن أتى متأخراً بالنسبة إلى غيره من المصلحين ، وبدأ دراساته في وقت ظهرت فيه مختلف مفـاهيم المسيحية الاصلاحية على يد لوفيفر وارزموس ولوثر وكارلشتاد وزونغلي وبومر وغيرهم ، ولذا كان بامكانه أن يقارن بين مختلف هـذه المذاهب . كانت ثقافة كالفن قوية وواسعة وفي الوقت ذاته انسانيـــة ومدرسية . فمن سنة الرابعـة عشرة إلى التـاسعة عشرة كان في باريس تلميذاً في كلية المارش حيث تأثر بالانساني ماتورن كورديه ثم في كليـة مونتيغو وكانت تضم أساتذة موهوبين وأكثرهم اسبانيون ، حيث حصل ثقافته المدرسية واستطاع أن يتعمق في دراسة الحكماء الاوكاميين من أمثال سكوت والقديس بونافانتور والقديس توماس الاكويني . درس الحقوق في اورلئان وبورج دون أن يتخلى عن دراسة اللاهوت . وفي بورج درس

الافريقية عن الألماني ملخيور فولمار اللوثري المذهب . وفي العام ١٥٣٢ تابع في باريس دروس الاساتذة الملكيين مثل دانيس وفاتابل وبوده . ولكن نزاع أسرته مع السلطات الكنسية قوّى في نفسه النزعة إلى الاصلاح . فقد طرد أبوه من الجماعة عام ١٥٣١ ثم أخوه بعد ذلك لرفضهما الأسرار وفي العام ١٥٣٢ قبل كالفن أفكار الاصلاح وأظهر تشيعه لها في العام التالي واضطر لمغادرة باريس بضعة أشهر واجتمع بلوفيفر و روسل في نيراك (في مقاطعة اللوت والغارون) . وفي آخر العام ١٥٣٤ ذهب إلى ستراسبورغ ومنها إلى فريبورغ (في سويسرا) والتقى بارزموس ، ومنها إلى بال حيث أقام .

وفي بال نشر ، في آذار ١٥٣٦ ، الطبعة الأولى اللاتينية من كتابه « النظام المسيحي » الذي اشتهر به وعرف بأنه أقوى وأكمل أثر في الديانة البروتستانتية في ذلك العهد . وقد طبع هذا الكتاب في حياة كالفن ٢٥ مرة . وأهم طبعاته الاساسية هي طبعاته اللاتينية الثلاث : طبعة بال ١٥٣٦ و ستراسبورغ ١٥٣٩ ، وجونيف ١٥٥٩ .

أما الطبعة الأولى فقد قدمت برسالة اهداء إلى فرنسوا الاول ، وفي فصليها الاخيرين أثنى على المصلحين الفرنسيين ، الذين اتهمهم الملك بالفتنة والشغب والعصيان ، وبرر كالفن عملهم وناشد الملك أن يعترف بأنهم اتباع الأنجيل الحقيقي والايمان الخالص . والطبعة الثانية ذات طابع مذهبي . وقد أفاد كالفن من تجاربه في النقاش والجدل بعد اقامته الاولى في جونيف ، وعنها وضع « النظام المسيحي » باللغة الفرنسية ونشره عام ١٥٤١ .

مذهب كالفن . — ينطلق مذهب كالفن من مذهب لوثر ويتناول

نقاطه الأساسية : التبرير بالإيمان ، والعبادة البسيطة التي تقتصر على الصلاة والوعظ ، والاعتماد على الكتاب المقدس وحده".

ولكن كالفن ذهب إلى أبعد مما ذهب اليه لوثر . فقد قاده عقله المنطقي والقانوني إلى الحدود القصوى في أفكاره ، حتى عد لوثر بجانبه معتدلاً . كتب لوثر بشأن التماثيل وتزيين الكنائس : « لافضل للصور ولذا لاداعي للثورة عليها » . أما كالفن ، على العكس ، فقد جرد الكنائس من كل زينة وأبهة ، وأرادها معابد ، بجدران عارية ، لا يرى فيها سوى الكتاب المقدس موضوعاً على منضدة ، ولا يسمع فيها غير « كلام » الله وغناء المزامير تقوم به جوقة المؤمنين . ويتألف الاكليروس من « رعاة » أي قسس سواسية فيما بينهم ، ويقومون بالتبشير والوعظ والارشاد .

ولم يبق كالفن من الأسرار القدسية سوى سرين : التعميد والقربان المقدس (الافخارستية) ، ورفض ، بشكل لايدع مجالاً للشك أكثر من لوثر ، سر التوبة . ولكن بينما يرى لوثر في المناولة « حضرة » المسيح تحت ظواهر الخبز والخمر ، فان كالفن لايرى فيها سوى « حضرة » روحية محضة ومشاركة فكرية .

ويلح كالفن أخيراً على فكرة الجبرية والايمان بالقضاء والقدر التي يتضمنها مذهب لوثر ، ولكن كالفن يوسعها بمنطقه المعروف إلى أقصى نتائجها ، ويقول : ان الانسان ضعيف وقمىء ومحكوم عليه بالشقاء بشكل لايمكن علاجه بسبب الذنب الاصلي ، وهو لا يستطيع شيئاً في سبيل سلامه ، وغير مسؤول عن أعماله . وهذا ما يجعل كالفن على خلاف مع الانسانيين الذين يثقون بالانسان وبامكان اصلاحه . ويقول : إن ارادة الله أي العناية الإلهية وحدها هي التي تنقذ المخلوقات البشرية

البائسة . الانسان لاشيء ، والله كل شيء ، وهـو المجيد العظيم . وإذا نسبنا إلى أنفسنا بعض الفضل فهذا يعني اننا سلبناه مجده وعظمته . ان الله يبررنا ويعفو عنا وينجينا نحن الذين لا نستحق إلا الشقاء الأبدي . إن الله ينجينا من العذاب ولكنه لا يرد لنا حريتنا . انه يعرف منذ الأزل مصير كل إنسان ويتنبأ به . ويمنـــح عفوه لأناس ويحجبه عن آخرين . والايمان المنقذ المبرر إنما هو رمز العفو الالـهي لمن اصطفاه على غيره . وهذا الايمان يجب أن يكون مصحوباً عند الانسان بحياة التقوى والتقشف والزهـد والحذر في كل لحظة من اغراء الذنب . إن الله خير ويفعل الخير ، ولكن من الذي يفعل الشر ؟ يقـول كالفن إن الله لا يسمح بفعل الشر ، ولكنه أراد الشر . لأن للشر دوراً في هذه الحياة الدنيا يلعبه ولا ندري به . لقد أراد الله سقوط آدم . وعصا آدم ربه ، فعصيانه اطاعة لأمره . والانسان لا يستطيع شيئاً ، ولا يعمل عملاً صالحاً جوهرياً ، ولا يؤثر فيما قدره الله عليه . وهكذا تنتهي فكرة العنـاية الربانيـة عند كالفن بالجبرية والايمـان بالقضاء والقدر خيره وشره من الله تعالى . ولكن هـذا التوسع في التفسير أوقع كالفن في التنـاقض وعدم الانسجام ، غير أنه كان يخرج من المأزق وينصح الانسان بألا ينفذ إلى جميع الأسرار .

ولم يكن كالفن رجلاً متديناً فحسب ، بل كان أيضاً رجلاً اجتماعياً . واستخلص من الكتاب المقدس أخلاقاً عملية وسياسية .

الأخلاق . — أما الأخلاق فتعرف بثلاث كلمات : قناعة ، عدل ، تقوى ، وتعين لنا ما يجب علينا نحو أنفسنا ونحو الآخرين ونحـو الله ، وتتلخص بتعاليم قانون الوصايا العشر . وهذه الأخلاق تؤدي إلى وضع

يختلف عن الزهد المسيحي المعروف ، إذ يمكن للانسان أن يملك ويكسب ويتمتع بالحياة ملء شعوره ووجدانه ، ولكن الذي يحرمه الله هو اساءة الاستعمال لا الاستعمال . ولذا فان أخلاق كالفن ترمي إلى تهذيب الطباع وتقويم الاخلاق ولا تدع مجالاً للاندفاع في الميول الطبيعية ، وتريد أن تنظم الخير على الارض وتصونه من كل رجس .

ويرى كالفن ، كلوثر ، أن خدمة الله واجبة في العمل الذي خصصه لكل انسان . ومهما يكن هذا العمل مهنة أو وظيفة أو خدمة ، فيجب القيام به بشكل ملائم .

وتجدر الاشارة هنا إلى الاختلاف بين مفهوم لوثر ومفهوم كالفن لأن هذا الأخير يعتبر تقدماً بالنسبة للأول . فقد نشأ لوثر قروياً راهباً بعيداً عن أمور العالم ولا يخرج عن نطاق العائلة ، ولذا فهو في غريزته يكره حياة الاعمال والمصالح والبنوك ورجال المال . وصاحب المصرف في نظره مراب . أما كالفن فقد نشأ وتربى في وسط الاعمال والمال وأدرك أثر الثورة الاقتصادية التي حدثت في القرن السادس عشر ، الذي يعيش فيه ، وكان انسانياً يعرف أن النظم والاوضاع تختلف حسب البلاد والعصور ، وأن الحظر المفروض على اليهود لا مسوغ له عند مسيحيي عصره ، وأن التجارة غير ممكنة دون القرض بالفائدة ، وأن المال ليس أقل قيمة من أي شكل من أشكال الغنى كالاطيان والعقارات وغيرها .

ولكن كالفن ، الذي يعتبر من أنصار الرأسمالية ، يختلف عن كالفن الأخلاقي الذي يحترم الانسان ويدعو إلى العدل والاحسان . فهو يرى أن القرض بالفائدة إلى الفقراء جرم ، وينصح بأن من الاحسان أن نقرض اناساً معوزين لا أمل لنا بتحصيل المال منهم . وإذا كان كالفن مجدداً جريئاً من الوجهة النظرية فقد كان في الواقع مجدداً خجولاً ، لأنه

بور الفكر الرأسمالي ودسه في المفهوم المسيحي للحياة عن غير وعي . وكما قال عنه بعض المؤرخين : لقد كان كالفن ، رغماً عنه ، ودون علم منه ، أحد مبدعي الاقتصاد الرأسمالي في الأزمنة الحديثة .

السياسة . — وبنى كالفن مذهبه السياسي على كلام الكتاب المقدس . فهو يرى أن الدولة ضرورية في حياة البشر لأن الناس بعد الذنب الأصلي ليسوا أرواحاً نقية ؛ ولأن تعاملهم ووجودهم مع بعضهم يتطلب ناظماً لأمورهم . والدولة خير دواء لذلك ، لأنها ليست اختراعاً من اختراعات البشر وإنما هي عمل من أعمال العناية الالـٰهية . ولذا فالسلطة الحاكمة ليست مندوباً عن الشعب بل نائباً عن الله الذي يخولها جميع الحقوق التي تمارسها السلطة الشرعية . وهذه الحقوق تقابلها واجبات وتنحصر في كلمة واحدة وهي العدل . وليست غاية القانون البشري تحديد العلاقات بين الناس فحسب بل تنظيم أمور الدين أيضاً . ومن هذا الاتحاد بين الحق العام والأخلاق يصل كالفن إلى الحكم الالـٰهي .

ويقابل حقوق الدولة وواجباتها حقوق الأفراد وواجباتهم فلها عليهم حق الاحترام والطاعة ولو لم تكن أهلاً لذلك ، لأن الظلم شر ولكن العصيان ذنب عظيم ، ولذا يستطيع الشعب أن يطالب بالعدل لا أن يأخذ حقه بنفسه . بيد أن هنالك حالة وحيدة تكون الثورة فيها مشروعة وهي حالة الأمير الكافر الذي يضطهد الرعية ويريد أن يصرفها عن خدمة الله ، ففي هذه الحال لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

ولكن ما هو النظام الذي يفضله كالفن . انه يفضل نظام حكم المجالس التي يراقب بعضها بعضاً . وهو النظام الذي طبقه ونفذه في كنيسته . وإذا أراد كالفن سلطة حاكمة قوية شديدة ، فقد كان قانعاً في الوقت نفسه بحرية المحكومين ، لأن حق الفرد كحق الآخرين صادر

عن الله . وبالرغم من أنه لم يكن ديموقراطياً إلا أن أفكاره والصورة ، التي أراد أن يسهم فيها المؤمنون بالحكم ، تساعد ، دون إرادة منه ، على تهيئة الفكرة الديموقراطية .

الكنيسة . — لقد ساعدت نظرة كالفن الحقوقية والاجتماعية على تنظيم الكنيسة الوضعية الارضية التي أسسها المسيح ويحكمها . وتعاليم هذه الكنيسة هي التبشير بكلام الله واقامة الحفلات الدينية . يشارك فيها من قبل مذهبها وقوانينها ؛ خصائصها واحدة لأنه لا يمكن تمزيق المسيح ؛ عامة لأنها تتوجه إلى جميع الناس ، معصومة ومقدسة ، لأن المسيح مؤسسها وعلى هذا النحو تتوطد الكنيسة بين الله والانسان . لأن المسيحي أصبح داخلاً في نظام الكنيسة وفيها يجد السلام الذي ينشده .

يتألف اكليروس الكنيسة الكالفنية من الشخصيات الآتية :

١ — الشيوخ أي الاساقفة ويتولون ادارة أموال الكنيسة وتنفيذ نظامها مع القسوس .

٢ — القسوس وهم « الرعاة » ويتولون أمر السهر على الارواح .

٣ — الشماسون ووظيفتهم مساعدة الفقراء وتوزيع الصدقات .

وتؤلف الكنيسة طائفة ، ويجب أن تكون لهذه الطائفة أنظمتها وشرطتها ، وأن يقوم المجلس الملي باعباء السهر على النظام ، ويتألف من الاساقفة (الشيوخ) والقسوس . وهو العجلة الاساسية في الطائفة الانجيلية ، فهو يعد الأنظمة ويراقب أمور العبادة ويقضي في الخصومات ويلفظ أحكامه من إخطار ونصح وتوبيخ أمام الشهود ، وطرد من الجماعة . وعلى هذا النحو تبعد اللا أخلاق والمرطقة من مدينة الله . على أن الشدة

لا تنفي الاعتدال . ولذا يجب أن يترك للمجرم امكان الندم والعودة إلى حظيرة المؤمنين .

وتؤلف كل كنيسة وحدة لا علاقة لها برجل أو دولة أو شعب . وليس فيها تسلسل مراتب أو طبقة ممتازة . فالقسوس سواسية وكذلك الاساقفة والشماسون . ويشترك العلمانيون والقسوس في أعمال الكنيسة وادارة مصالحها .

والمساواة سائدة بين الكنائس . ففي كل منطقة يجتمع القسوس ويعقدون مجالس اقليمية . وفي كل دولة تعقد المجالس الدينية للدولة مجالس مشروعة ومقدسة . ومن هنا يرى الاختلاف الظاهر بين نظام الكنيسة الرومانية ونظام الكنيسة الكالفنية ، فنظام الكنيسة الرومانية نظام بسط نفوذ وتسلسل وطبقات . ونظام الكنيسة المصلحة هو نظام اتحاد كنائس رئيسها واحد وهو المسيح ، وقاعدتها واحدة وهي الكتاب المقدس . ولاجتناب الفوضى في الكنيسة سحبت من الطائفة حرية اختيار القسوس وعهد بالانتخاب إلى الشيوخ في المجالس لانتقاء الاكفاء .

ولكن كيف يجب أن تكون العلاقات بين الكنيسة والدولة ؟ انها علاقات مساواة بين عالمين مختلفين : على الكنيسة أن تتولى أمر الارواح ، وعلى الدولة ألا تتدخل في الامور الدينية والاخلاقية ، بل أن تدعم الكنيسة . ولما كان كل منها يقوم بالدفاع عن « شرف الله » لذا يجب على الدولة أن تضع نظامها في خدمة الكنيسة .

وهكذا وجدت الكنيسة المصلحة ، بفضل كالفن ، طريقها السوي وأخلاقها وحكومتها ، ولم يعد الاصلاح بعد الآن نزعة أو اشراقاً بل ديانة ذات عقيدة ، وبامكانه أن يقابل روما وجهاً لوجه ، وإذا اقتضت

الحال ، أن يناضلها وحظه كحظها ، كما أصبح بامكانه أن يندفع في فتح العالم والتبشير بالدين العتيق الجديد .

كالفن في جونيف . — عندما انهى كالفن « النظام المسيحي » جاب كثيراً من مدن اوربه الغربية وانتهى المطاف به أخيراً إلى جونيف ، وكان فيها المصلح فاريل وهو عضو قديم في جماعة مو .

أشرك فاريل كالفن في عمله وبين له أن بقاءه في جونيف واجب وجداني يتحتم عليه ، وعندئذ تقدم كالفن للعمل بعزم الشباب ، وكان عمره سبعاً وعشرين سنة ، تحدوه قوة ايمان متين ، وشاءت الاقدار أن تجعل منه مصلحاً ورجل دولة .

رأى كالفن أن الاصلاح يجب ألا يكون دينياً فحسب بل اخلاقياً أيضاً . غير أنه كان مصلحاً قاسياً لا يعرف الهوادة ، وأدت شدته بالجونيفيين إلى طرده مع فاريل . وعندما استلم أشياعه الحكم استدعوه من ملجئه في ستراسبورغ فعاد وأقر تأليف لجنة دينية مهمتها انتخاب القسوس وعزلهم ، ومحكمة وظيفتها السهر على الاخلاق القويمة ، وحرم الالعاب والبذخ في الملبس والمآكل والمشرب واعتبرها ظاهرات شيطانية ، ولاقى في تطبيق هذا النظام وقبوله مقاومة عنيفة . ولم يكن كالفن رحيما بخصومه وبمن لا يشاطره اعتقاده : فمن ذلك أنه أمر بقطع رأس جاك غروية لأنه اتهم كالفن بالرياء ومذهبه بالجنون . وكذا الطبيب العالم الاسباني ميشيل سيرفه حاول أن يدحض النظام المسيحي وينكر الثالوث الاقدس . وعندما مر من جونيف أوقف وحكم عليه بالموت وأحرق حياً (١٥٥٣) . وليزيد كالفن في قوة حزبه منح حقوق المدينة إلى كثير من اللاجئين الفرنسيين . وقد بدل دخول هؤلاء البورجوازيين المحدثين

الاكثرية في المجالس وأثار عاصفة شديدة من المعارضة ، ولكنها أخذت بالحكم والتعذيب (١٥٥٤ — ١٥٥٥) .

ولبث كالفن ، حتى وفاته ١٥٦٤ ، يمارس دكتاتورية حقيقية سياسية ودينية واخلاقية . وغدت جونيف ملجأ المصلحين وروما البروتستانتية ومدينة كالفن « بابا جونيف » ، كما يقولون ، ومركزاً فكرياً هاماً تشع منه حركة الاصلاح . فقد أنشأ فيها كلية جامعية وعهد بادارتها إلى تيؤدور بيز أحد تلاميذه وسميت فيما بعد أكاديميا (سنة ١٥٥٩) وكان الطلاب يفدون عليها للدراسة من كل أنحاء اوربة . وكانت لهم بمثابة مدرسة كهنوتية كبرى يتخرجون منها وهم يلتهبون ايماناً وحماسة للتبشير بالمذهب الكالفني في أي مكان يدعوهم الواجب اليه .

توسع الكالفنية . — خرجت الكالفنية من جونيف وانتشرت في كل اوربة وخاصة في فرنسا وهولندا وايكوسيا (سكوتلندا) . ويمتاز هذا المذهب عن اللوثرية بمناصرته فكرة استقلال الاتباع ، خلافاً لمذهب لوثر ، الذي يترك للأمير سلطة على اتباعه . فمذهب كالفن اذن مذهب ديموقراطي ، ولذا كان سادة اوربة أعداءً له وخصوماً .

في فرنسا . — ظهرت الكالفنية في فرنسا في عهد فرنسوا الاول . ولم يناهضها الملك ، في أول الامر ، لما عرف عنه من مؤازرة النهضة العلمية الحديثة ، ولما كان عليه من صلة بالبروتستانتيين في المانيا ضد شارلكان . ولكن الاضطهاد عاد بعد تقارب فرنسوا الأول من شارلكان في صيف عام ١٥٣٨ . وسيطر على البلاط آنذاك أنصار الضرب على أيدي البروتستانتيين . ولكن في آخر سنوات ملكه حدثت مذبحة الفودويين (نسبة إلى بطرس فالدو أو بطرس فو ، وهو تاجر من ليون نشر الهرطقة الفودوية التي ذاعت في القرن الثاني عشر ، وهي هرطقة

تدعو إلى الفقر وتترك لكل انسان حق تفسير الانجيل) في كانون الثاني ١٥٤٥ حيث قتل ٨٠٠ شخص وهدمت ٢٢ قرية . غير أن الاضطهاد الحقيقي بدأ منـذ عهد هنري الثاني (١٥٤٧ - ١٥٥٩) لفرط تعصبه للـكاثوليكية . ولكن هذا الاضطهاد لم يمنع من انتشار الـكالفنية ، وكان يساعدها على ذلك اشتراك السلطات المحلية أو اهمالها ، لأنه لم يكن للسلطة الملكية أو الكنيسة وسائل الرقابة عليها . وتقدمت خاصة ، بين ١٥٤٠ و ١٥٦٠ بانتساب بعض الامراء الكبار اليها .

في البلاد المنخفضة . — وفي البلاد المنخفضـة ، التي كانت تابعـة لاسبانيا ، كانت البورجوازية العليا على صلة بآراء ارزموس روتردام ولذا اعتنقت البروتستانتية بسهولة . وكانت مشايعة الاصلاح فيهـا عن قنـاعة دينية . ولكن يجب ألا ننسى أن اعتناق الدين الجديد كان وسيلة لمقاومة الحكومة الاسبانية التي كانت في نزاع مع البورجوازيين والنبلاء في البلاد المنخفضة على مسائل ادارية وسياسية .

في سكوتلانده (ايكوسيا) . — انتشرت الـكالفنية في ايكوسيا على يد جون نوكس (١٥٠٥ - ١٥٧٢) تلميذ كالفن . وكان يشجع نفوذ الاصلاح اليها أسباب سياسية واجتماعية . فمنذ أن قتل جاك الخامس عام ١٥٤٢ قام النبلاء الايكوسيون المصلحون يناوئون الملكة الوصية على العرش ، ماري غيز الفرنسية ، وعلى رأسهـم جيمس ستورات وهو ابن طبيعي لجاك الخامس . يضاف إلى ذلك أن الكنيسة الايكوسية كانت غنية فطمعوا في وضع يدهم على أموالها . وأخيراً تم الاتفاق بينهم عـام ١٥٥٧ . وفي ١٥٦٠ اعترف البرلمان رسمياً بالاصلاح بعـد وفاة الوصية دون أن يكترث لعواطف ابنتها الملكة ماري ستوارت التي كانت في فرنسا وتزوجت فرنسوا الثـاني ملك فرنسا ابن هنري الثـاني . ونظمت

الكنيسة الايكوسية وفقاً لكنيسة جونيف ، إلا أن الكنيسة الايكوسية عرفت باسم الكنيسة المشيخية ويديرها مجلس من الرعاة الشيوخ .

في انكلترا . — انتشر الاصلاح في انكلترا على يد ملكها هنري الثامن (١٥٠٩ — ١٥٤٧) من اسرة تودور . غير أن قطع العلاقات بين الكنيسة الانكليزية والكنيسة البابوية لايتعلق ، في الحقيقة ، بأسباب دينية بل بأسباب شخصية وهي قضية طلاق الملك هنري الثامن التي دعت لذلك . إلا انه يجب ألا يذهب عن البال ان الافكار في انكلترا كانت مهيأة لقبول الاصلاح منذ المحاولات التي قام بها ويكليف وتلاميذه اللولارديون في القرن الرابع عشر . فقد كان ويكليف استاذاً في جامعة اوكسفورد يبشر بقوله أن الملك له الحق أن يضع يده على أملاك الكنيسة إذا كان رجال الدين يسيؤون استعمالها ، ثم قادته أبحاثه إلى دعم الرأي القائل بأن تفسير النصوص المقدسة ليس خاصاً بالبابا ورجال الدين فحسب ، بل بكل مؤمن نال حظاً وافياً من الثقافة . ومن أعماله انه ترجم الانجيل إلى الانكليزية . هذا فضلًا عن أن جامعة اوكسفورد كانت منذ أول القرن السادس عشر مركزاً للحركة الانسانية المسيحية التي قامت على يد جون كوليت وتوماس مور .

هنري الثامن ومشكلة الطلاق . — كان هنري الثامن يدعي المعرفة في المسائل اللاهوتية . ففي سنة ١٥٢١ الف كتاباً ضد لوثر ، فمنحه البابا لقب « حامي الدين » . غير أن هنري الثامن مالبث أن بدل وضعه سنة ١٥٢٧ بمناسبة طلاقه . فقد سبق أن تزوج سنة ١٥٠٩ أرملة أخيه البكر ، كاترينا آرغوانه ، بيد أن هذا الزواج لم يتم إلا بعد سماح البابا جول الثاني به لأنه وجد أن هنالك قرابة بينه وبين كاترينا . وبعد

مضي ثماني عشرة سنة على زواجه خامره شك في صحة هذا السماح فرغب إلى البابا كليمان السابع أن يفسخ الزواج . وفي الحقيقة ان هنري الثامن استهوته آنسة من وصيفات الشرف عند الملكة ، اسمها آن بولين فأراد أن يكون طليقاً ليستطيع الزواج بها . وطال امر القضية في بلاط روما ، وسوّف البابا الاجابة على الطلب ، لأن كاترينا آراغونه قريبة للامبراطور شارلكان صاحب النفوذ في ايطاليا . غير أن هنري سئم هذا الابطاء في الجواب ، وقرر قطع العلاقات مع روما ، وفسخ زواجه من كاترينا ، وتوج آن بولين ملكة على انكلترا (١٥٣٣) . رد البابا عليه بالطرد من الجماعة فلم يكترث لذلك وطلب إلى البرلمان التصويت على قانون التفوق الذي يضع الكنيسة الانكليزية تحت سلطة الملك العليا (١٥٣٤) . وبعبارة اخرى لقد جعل الملك نفسه بابا مملكته ، واتخذ فكرة اصلاح المساوىء حجة فوضع يده على أموال الاكليروس النظامي . ثم باع أو أعطى قسماً منها إلى النبلاء فأصبحوا سنداً قوياً للنظام الديني الجديد .

على ان هنري الثامن وان انفصل عن البابوية فقد زعم انه بقي مخلصاً للمذهب الكاثوليكي ، الذي دافع عنه ضد لوثر . ففي قانون المواد الست (١٥٣٩) عرف العقائد التي أراد فرضها على رعاياه . وكانت هذه العقائد عقائد كاثوليكية تماماً . وأنذر أن كل معارضة لهذه المواد الست تؤدي إلى العقوبة بالموت .

ووجدت في انكلترا فئتان لم ترضيا الخضوع لهذا القانون : الكاثوليك والبروتستانت ، وذلك لأن الكاثوليك لا يعترفون برئيس روحي غير البابا . ولأن البروتستانت كانوا يرفضون أكثر العقائد التي حافظ عليها الملك . ولذا كان هنري الثامن يشنق أو يقطع رؤوس الكاثوليك باعتبارهم خونة ويحرق البروتستانت لأنهم هراطقة . ومن ضحايا هذا الاضطهاد

توماس مور الذي كان مستشاراً الملكة ورفض بنبل أن يصوت على قانون التفوق (١٥٣٥) .

ولبثت انكلترا بعد هنري الثامن تتقلب بين الكالفنية في عهد ادوار السابع (١٥٤٧-١٥٥٣) والكاثوليكية في عهد ماري تودور (١٥٥٣-١٥٥٨) ابنة كاترينا آرغوانه وزوجة ملك اسبانيا فيليب الثاني ، وقد أرادت أن توطد الكاثوليكية في البلاد بسفك الدماء حتى لقبت ماريا السفاحة .

الديانة الانغليكانية . - غير أن الديانة الرسمية لم تصبح قطعية إلا في عهد اليزابث (١٥٥٨ - ١٦٠٣) ابنة آن بولين . فقد سلكت سياسة دينية شبيهة تقريباً بسياسة ابيها ، إلا انها في (١٥٦٣ - ١٥٦٤) نظمت الاصلاح في انكلترا بـ « قانون الـ ٣٩ مادة » وهو يعتبر شرعة الديانة الانغليكانية . وهي ديانة متوسطة ، بين الكاثوليكية والبروتستانتية ، أثبتت مذهب كالفن ولكنها حافظت على نظام تسلسل الاساقفة وعلى قسم من مظاهر الاحتفال الكاثوليكي . وهذا ما يوضح لنا معارضة الكنيسة الرومانية لها وعداوة الفرق البروتستانتية في انكلترا ، لأن هذه الفرق لم تتكيف مع نظام الكنيسة الانغليكانية الجديدة من جهة ، وفسرت الكتاب المقدس وفهمت العبادة بشكل مغاير من جهة أخرى . وقد كثر عدد هذه الفرق ، وأهمها فرقة « الأطهار » التي تشكلت خاصة في الشمال بتأثير من كنيسة ايكوسيا المشيخية .

الاصلاح في بلاد البحر المتوسط : في ايطاليا واسبانيا . - لم يلق الاصلاح في ايطاليا كبير نجاح وذلك لأن الكالفنية واللوثرية اصطدمتا بالاصلاح الكاثوليكي وبالنزعة العقلية التي حدت بالكثيرين إلى نفي العقيدة المسيحية . وفي العام ١٥٥٥ ضاع كل أمل بالاصلاح .

وكذا الأمر باسبانيا التي بقيت متمسكة بكاثوليكيتها . وقد وضع كل من هذين البلدين علمه ومواهبه في خدمة الاصلاح الكاثوليكي .

الاصلاح في اوربه الوسطى والشرقية . — نفذت أفكار الاصلاح مبكرة ، منذ (١٥٢٠) إلى أوربه الوسطى في البلاد الخاضعة لآل هابسبورغ ، ولكن البروتستانتيين فيها لم ينتسبوا بصورة كلية إلى هذه الكنيسة أو تلك بل كانوا يسلكون في الاصلاح مسلكاً متوسطاً يهيئونه بأنفسهم ويأخذون اللاهوت والطقوس والانظمة عن مذاهب مختلفة ثم يؤلفون بينها .

وفي بلاد بوهيميا ومورافيا ولوزاس كان النفوذ للكاثوليك والعدد للبروتستانتيين ، وكان لهؤلاء كنائس لوثرية وكالفنية .

وفي هونغاريا ، التي احتلها الاتراك وجزؤوهــا ، لم تعصف ريح الانقسام ولكن منذ ١٥٤٥ نظمت الكنيسة فيها بشكل كالفني من نوع خاص .

ونفذت الكالفنية الشعبية من جبال الكاربات وتسربت إلى رومانيا في فويفوديا وترانسلفانيا التابعتين للسلطان ، ووجدت في رومانيا الديانات الثلاث : الارثوذكسية ، الكاثوليكية ، الكالفنية ، دون أي اضطهاد وما ذلك إلا لسياسة التسامح التي سلكها الأتراك العثمانيون في هذه البلاد .

وفي بولونيا انتشرت الكالفنية في أول الأمر للتساهل الذي أبداه ملكها جان سيجيسموند . ولكن هذا الظفر كان قصير الأمد بسبب الانقسام الذي حصل في صفوف الشعب . وفي عام ١٥٦٠ غلبت الكالفنية على أثر تطبيق مقررات مجمع ترانت وعادت بولونيا إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية بفضل جهود اليسوعيين .

وصفوة القول ، إذا راعينا بعض الاستثناءات ، نجد في العام ١٥٦٠ ان بلاد البحر المتوسط بقيت سليمة ؛ والمانيا الشمالية والبلاد الاسكاندينافية لوثرية وخاضعة للأمراء . والبلاد التي تأثرت بالكالفنية هي : بريطانيا العظمى ، البلاد المنخفضة ، سويسرا عدا كانتونات الوسط ، هونغاريا ، بوهيميا ، المانيا الرينانية ، بولونيا موقتاً ، أكثر من نصف فرنسا .

ان تاريخ العام ١٥٦٠ أساسي في تاريخ الكالفنية ، ففيه بلغ الاصلاح حده الأقصى في اوربه . وفيه خرجت البروتستانتية من عزلتها وألفت حزباً سياسياً قوياً . ولم يعد امكان لاتخاذ حل متوسط . فأمام حشد الاصلاح وقف حشد الكاثوليكية . وانبرت الحنفية الرومانية تناهض الحنفية البروتستانتية ، فلا مراعاة ولا تساهل تجاه أي انقسام وخروج على الكاثوليكية . وستكون الحرب الأهلية في فرنسا والحرب القومية في البلاد المنخفضة مظهراً جديداً للنزاع بين المصلحين والكاثوليك وبين المليك وأتباعه المتمردين . وستنضم ولا شك إلى فكرة الايمان المنافع الزمنية والاهواء البشرية .

الاصلاح الكاثوليكي

لبثت روما طويلاً تشهد حركة الاصلاح دون أن تبدي حراكا ، وذلك لأن الحروب المستمرة منذ ١٥١٩ حالت دون انعقاد مجمع ديني يعيد إلى الكنيسة وحدتها باصلاح داخلي فيها وفي عقائدها ، فضلاً عن أن الكرسي الرسولي نفسه كان منهمكاً في السياسة كسائر الأمراء . فقد كان الكسندر السادس بورجيا (١٤٩٢ — ١٥٠٣) وجول الثاني (١٥٠٣ — ١٥١٣) منصرفين عن واجباتهما الروحية ، يعيشان ملكين لا يهمهما إلا الحياة الدنيا . حتى ان مجمع لاتران ، الذي انعقد عام ١٥١٢ ،

ضم ما يقرب من مائة حبر ، وأكثرهم ايطاليون ، لم يبد أي رغبة في تبديل الحالة الداخلية للكنيسة ، لأن هـذا الوضع يلائم الأمر الايطالية الكبرى ، التي جعلت من الكرمي الرسولي وواردانه اقطاعـاً حقيقياً ، وكل ما أجراه من اصلاح هو أنه ألغى الجمع بين عـدة وظائف كنسية كانت تثير الشك والفضيحة . ولم يحدث أي اصـــلاح جوهري يستحق الذكر . وسبب ذلك أن ما تشكو منه الكنيسة كان متعلقاً بالباباوات . فقد سلم هؤلاء أمر إدارة الكنيسة إلى السلطات الزمنية وتركوها تغتصب وظائف ليست من اختصاصها : ففي اسبانيا مثلاً نظمت محكمة التفتيش من قبل الملك فرديناند والملكة ايزابل عوضاً عن أن تقوم الكنيسة بمثل هذا العمل . وفي ١٥١٦ وقعت كونكوردات بين البابا ليون العاشر والملك فرنسوا الاول وترك البابا اليه أمر تعيين الأساقفة والآباء . وفي ١٥١٨ تخلى لهنري الثامن عن ادارة الكنيسة الانكليزية وجعل من وزيره ولزي مندوباً عنه في انكلترا . وفي العام ١٥٢٠ قام شارلكان بالضرب على أيدي المراطقـة في البلاد المنخفضة عوضـاً عن الكنيسة . كما حاول أيضاً في عام ١٥٢١ أن يصرف الكرمي الرسولي عن سياسته الايطاليـة فانتخب البابا أدرين السادس (١٥٢٢ — ١٥٢٣) . وحاول هذا الحبر الاعظم أن يدفع خطر الوثرية فترك للأمراء الألمانيين خمس واردات الكنيسة . وان ما قام به البابا بولس الثالث (١٥٣٣ — ١٥٤٩) ، من محاولات في تقريب وجهات النظر بين أنصار الاصلاح والكاثوليكيين ، لم يؤد إلى حل يعيد المنشقين إلى حضن الكنيسة الرومانية . وعندئذٍ قرر البابا بولس الثالث النضال ، وبدت في الأفق حركة جديدة ترمي إلى أنه يجب على الكنيسة أن تصلح نفسها لتستطيع مقاومة خصومها ، حتى ان كثيراً من

أحبار الكنيسة كانوا يدعون إلى الاصلاح الكاثوليكي . وتبنى البابا بولس الثالث هذه الفكرة واتخذ لاصلاح الكنيسة ثلاثة اجراءات وهي :

١ — الاعتراف بجمعية اليسوعيين .

٢ — تنظيم محاكم التفتيش .

٣ — عقد مجمع ترانت عام ١٥٤٥ .

الطرق الديرية . — كانت الكنيسة ، عند كل أزمة تهددها بالخطر ، تلتفت إلى نفسها وتستجمع قواها . ويتمثل رد الفعل عندهـــا بانشاء الطرق الرهبانيـــة ، فمن ذلك أن رهبان كلوني والورين ، في القرن الحادي عشر في عهد بابوية غريغوار السابع ، أخـذوا على عاتقهم اصلاح الكنيسة عندما عمت فيهـا المساوىء والمفـاسد . وفي القرن الثالث عشر لقي البابا اينوسان الثالث مساعدة الفرنسيسكيين في مكافحة المرطقة التي انتشرت في الحواضر المدنية ، ومساعدة الدومينيكيين الذين أقروا نظرية السلطة البابوية وشرعية العقوبة بالموت ضد الهراطقة ، ونظموا محاكم التفتيش .

وفي هذه المرة ، أي في القرن السادس عشر الذي تشكو فيـه الكنيسة أزمة الانحلال الأخلاقي ، ظهرت طرق جديدة أخـرى : فمن ذلك أن الفرنسيسكيين جددوا طريقتهم وانتظموا تحت اسم **الكبوشين** **١٥٢٦** نسبة إلى الاسكيم الذي يضعونه على رؤوسهم . ومن الطرق التي تأسست حديثاً طريقة **التياتين ١٥٢٤** (بالنسبة إلى أسقف تياتو الكاردينال كارافا الذي أصبح فيما بعد بابا باسم بولس الرابـع) وطريقة **الاوراتوريين** (**١٥٤٨**) التي أسسها فيليب نيري . وقد أحدث من ١٥٢٤ إلى ١٦٤١ مالا يقل عن خمس عشرة طريقة ترمي إلى بعث الحيـاة الدينية وتثقيف الاكليروس وتعويده على النظام والتقى والصلاح والقيام بأعمال الاحسان .

على أن الطريقة التي كتب لها أن تلعب دوراً هاماً في التاريخ هي طريقة اليسوعيين التي أسسها اغناطيوس لويولا .

اغناطيوس لويولا – ولد اغناطيوس لويولا على الأكثر في آخر العام ١٤٩١ من أسرة نبيلة اسبانية من بلاد البشكنس (الباسك) في قصر لويولا الذي يحمل اسمه في التاريخ . دخل في خدمة الملك فردينـــاند مرافقاً ثم جندياً ، وأصابه في الدفاع عن قصر بامبلون ، ضد الفرنسيين ، في ٢٠ أيار ١٥٢١ ، جرح اضطره للعدول عن الحياة العسكرية . وكان في فترة استشفائه يطالع الكتب الدينية ، فأعجب بالقديسين فرانسو أسيز ودومينيك ، مؤسسي طريقتي الفرنسيسكيين والدومينيكيين ، وهما من طرق المتسولين . وأحب اغناطيوس أن يقلدهما ويكون جندياً للمسيح . وفي ٢ شباط ١٥٢٨ ذهب إلى باريس وأقام فيها ست سنوات . وهناك ظهر تأثيره في نفوس رفقائه . فقد جمع حوله ستة طلاب ثم ذهبوا معاً إلى قابلة القديس دوني في حي مونمارتر ونذروا أن يقوموا بالفضائل الرهبانية الثلاث ويزوروا القدس ، ويرصدوا أنفسهم لسلام الأرواح . وإذا استحال الحج إلى الأراضي المقدسة فانهم يقدمون خدمتهم للبابا . وقضوا سنتين لإتمام دراستهم الكنسية . ولم يستطيعوا الذهاب إلى فلسطين ، وبعد أن قاموا بالوعظ والارشاد في أراضي البندقية قرروا أن يخدموا البابا وأطلقوا على أنفسهم « جمعية اليسوعيين » ١٥٣٧ . وبعد ثلاث سنين من تأسيس هـــذه الجمعية أي في ٢٧ ايلول ١٥٤٠ اعترف البابا بولس الثالث بهذه الجمعية ووضع أعضاءها تحت حماية الكرسي الرسولي . وفي ٢٣ نيسان ١٥٤١ انتخب اغناطيوس جنرالاً لها وأقسم يمين الولاء والطاعة بين يدي البابا .

جمعية اليسوعيين . – كان نظام هذه الجمعية نظاماً عسكرياً يتطلب

من أعضائه الاطاعة العمياء والتنازل الكلي عن إرادتهم الخاصة والثقافة العميقة . وعقد هؤلاء العزم على سحق الاصلاح والانسانية والهرطقة والفكر الحر ، ليؤمنوا الخضوع التام إلى الكنيسة الرومانية ، وقرروا أن يكافحوا العقل بسلاح العقل .

نظموا عملهم في التعليم ليكافحوا التعاليم الكالفنية . وجعلوا برامج كلياتهم مفتوحة للثقافة الجديدة ، ولكن تحت رقابتهم . وأخذوا عن الانسانية شكلها لا روحها وعقلها . وليتبنوا الاكليروس من جميع البلدان أسسوا في روما كلية جرمانية ومدرسة كهنوتية انكليزية ومثلها لليونان والموارنة . وفي ١٥٨٠ كان جنرال الجمعية اليسوعية يأمر على خمسة آلاف يسوعي في ٢١ اقليماً و ١٤٤ كلية .

تختلف هذه الطريقة عن غيرها من الطرق الديرية في انها طريقة عمل وكفاح وانخراط في المجتمع لاصلاحه ، وأعضاؤها كتاب وأساتذة وأطباء وعلماء ومبشرون يهدفون الى فرض نفوذهم على الطبقات الموجهة في البلاد الاوربية ويحاولون جهدهم كسب مودتها وثقتها والسهر على عدم التعرض لمصالحها . وقد امتد تأثيرهم على كثير من الجامعات ، وسعوا لاحلال الفلسفة المدرسية محلها اللائق بها دون أن يضحوا بالفكر الجديد . ولم يقتصر عملهم على أوربة فحسب بل أرسلوا البعثات إلى مستعمرات البرتغال والهند واليابان . ولكن شدة تعصبهم وعدم تسامحهم وتكبرهم ، أدت في العام ١٥٨٠ ، إلى توقفهم عن العمل في البلاد الجديدة .

قاوموا حركة الاصلاح بما أوتوا من عزم ونشاط . فمن ذلك ان الأب كانيزوس أوقف تقدم الاصلاح في المانيا وسويسرا ، وبمساعيه وضعت الجمعية اليسوعية يدها على جامعة انغولشتاد (١٥٥٦) وديلنغن (١٥٦٣) كما انه أسس كليات كبرى في فريبورغ وفينا وبراغ ومونيخ ووسع عمله في بولونيا وليفونيا وترانسلفانيا .

وبالرغم من معارضة جامعة لوفن الشهيرة بكاثوليكيتها فان الجمعية اليسوعية أسست لها فروعاً في البلاد المنخفضة (١٥٥٦) وأحدثت في دوويه مدرسة اكليركية انكليزية — ايرلندية لتقاوم الجزر البريطانية .

وفي البرتغال ، عظم تأثيرها في عهد جـــان الثالث . وفي اسبانيا انشأت كليتها ، التي كانت بمثابة حصن منيع للدين الحنيف ، إلى جانب جامعة سالامنكا .

وفي ايطاليا ، كان تأثيرها عظيماً وعميقاً حتى ان عقليتها الاستبدادية التي فرضتها على القلوب والأفئدة ، خنقت كل تفكير حر وجعلته يتقيد بالشكل أكثر من تقيده بالجوهر .

وفي فرنسا ، لاقت مقـــاومة الغاليكانية (أي الكنيسة الفرنسية الكاثوليكية) والبرلمان ؛ وهذا لم يمنع تأسيس ما لا يقل عن ١٤ كلية في المملكة كانت أداة لاستبداد هنري الرابع .

وهكذا استطاعت جمعية اليسوعيين ، بفضل الجهود التي بذلتها ، أن تردّ إلى الكنيسة روح النظام والدين الحنيف ، وتبعث فيهـــا عموميتها وقوة شمولها . وحاولت أن تخضع الدولة إلى سلطة روما ، وقامت بنشر الثقافة المتينة ، إلا انها كانت تراقبها وتسهر على منع كل تشبث يؤدي إلى التحرر الفردي . وفرضت سيطرتها الكليـة ؛ حتى انها قضت على الحركة الانسانية حيثما كتب لها النجاح والظفر . وإذن فقـد كان عمل الجمعية اليسوعية خدمة المصلحة الكاثوليكية العامة وخـدمة الكنيسة وخدمة البابا .

محكمة التفتيش . — هي محكمة أسست في العصر الوسيط للبحث عن المراطقة ومحاكمتهم . وقد وضع مجمع فيرونه (١١٨٣) الأسس التي بنيت عليها هذه المحكمة ، ثم امتد تأثيرها في سائر البلاد المسيحية الاوربيه

ولكن هذا التأثير أخذ يضعف مع الزمن إلا في اسبانيا ، لأنها كانت سياسية وبيد الملك .

وفي ٢١ تموز ١٤٥٢ أعادها البابا بولس الثالث إلى العمل ووضعها تحت رقابته في ايطاليا . وكان البابا يمارس رقابته على هذه المحكمة بواسطة اللجنة المقدسة . وتتألف هذه اللجنة من ستة كرادلة يرأسهم البابا نفسه ، ومهمتها السهر ، في جميع البلاد الكاثوليكية ، على الدين الحنيف . فهي تقوم بوظيفة الشرطة فيما يتعلق بالأمور الدينية وكان أحد الكرادلة مفتشاً أكبر وهو الكردينال كارافا . وكان رسول البابا في اسبانيا وهو الذي نصح البابا بتأسيس هذه المحكمة على النمط الاسباني . وكان باستطاعة المفتشين العامين أن يجوبوا مختلف البلاد ويتمتعوا بسلطات واسعة تخولهم حتى الحكم بالموت . ولا يستثنى من هذا التفتيش أحد بل كان يخضع إليه الاكليروس النظامي والعصري وسائر المسيحيين في سائر البلاد . وقد عهد بمحاكم التفتيش إلى الدومينيكيين . وبينما كان اليسوعيون يقومون بحراسة الدين والدفاع عن العقيدة بالارهاب . وظفرت محكمة التفتيش في كل مكان إلا في البندقية التي قاومت مقاومة جدية لأنها تعتبر ان ثروتها ناجمة عن صفتها العالمية وأنها موطن لأبناء العالم مهما تنوعت مذاهبهم .

قامت هذه المحكمة في عملها بكل شدة وصرامة ولم تكتف بمحاربة الاصلاح بالنار بل أرادت أن تخنق الحرية العلمية والفلسفة . أسست في العام ١٥٥٩ لجنة الثبت ووظيفتها أن تنظم قائمة بأسماء الكتب التي تحرم قراءتها . فمن ذلك انها حكمت بالحرمان على ٧٢ طباعاً وأحرقت كميات كبيرة من الكتب ، وبذا تحول الاصلاح الكاثوليكي إلى مكافحة النهضة .

ومع هذا فقد استقبلت محكمة التفتيش بسهولة ، وذلك لأنها ظهرت بالنسبة إلى الطبقات المالكة وسيلة عليا للدفاع عن النظام ، لا ضد الهرطقة فحسب ، بل ضد النظريات الاجتماعية الانقلابيـة الهدامة . وكان نجـاح اليسوعيين ، في أوساط المجتمع الراقية والعليا ، ناجماً عن هـذا السبب نفسه وهـو الخـوف من الشيوعية التي لبثت خلال عشرة أعـوام من (١٥٢٥ — ١٥٣٥) تدعو الطبقة الـكادحة في المدن للقيـام بأعمال التخريب والعدوان .

وإلى جانب هذه اللجان شكل البـابا بولس الثالث لحماية الدين لجنة الدعاية ، وكانت هذه اللجنة تبعث بالرسل إلى مختلف الدول ، وتخالط التمثيل الدبلومامي بضرورة الكفاح ضد البروتستانتية ، وتضع عنها مندوبين على طول الحدود الدينية كما هي الحال في لومرن و كولونيا (١٥٨٠) وفارسوفيا وبروكسل ١٦٠٦ .

مجمع ترانت (في منطقة التيرول الايطالية) . — ان تاريخ هذا المجمع الديني هو تاريخ خلاف مستمر ، بين الكرمي الرسولي الذي لا يقبل بأن تمس العقيدة التقليدية في شيء ولا فيما يتعلق بسلطته الخاصة على الكنيسة ، وبين الامراء المنقسمين فيما بينهم ولكنهم يرغبون باصلاح العقيدة ويرون أن هذا الاصلاح ضروري لتوطيد السلام الديني ويكرهون مزاعم البابوات الاستبدادية . ولكن المجمع انتهى إلى اصلاح الكنيسة الرومانية طبقاً لارادة البـابا . واتضح ظفر الكرمي الرسولي بوحـــدة الكنيسة واستمرار سياسة الفاتيكان . وأول ظفر له أنه منع انعقاد المجمع خارجاً عن ايطاليا وفي مدينة ربما تكون عرضـة للتأثيرات الخـارجية ؛ والظفر الثاني حمله المجتمعين على التصويت بعدد الرؤوس لا بعـدد الدول كما في مجمع كونستانس (١٤١٤) وبال (١٤٣١ — ١٤٤٩) وذلك

ليحفظ للكنيسة صفتها العامة ويبعد عنها النزعات القومية . ولكن هذا الاجراء لم يمنع ظهور التأثير الايطالي والروماني في المجمع ؛ وهناك ظفر ثالث للبابا وهو أن شارلكان كان يطلب منذ عشرين سنة انعقاد هذا المجمع ولم يفتتح إلا في ١٣ كانون الاول ١٥٤٥ بعد أن وقع الصلح في كريبي بين شارلكان وفرنسوا الاول وعاد السلام إلى اوربه . وكان شارلكان يريد أن تقوم الكنيسة باصلاحات جذرية تقضي على المساوىء ، وأن ينظر المجمع بالواسطة التي يمكن أن تعيد البروتستانتيين إلى الكنيسة الكاثوليكية . ولكن الكرادلة الايطاليين والاسبانيين ، الذين يتمتعون بالاكثرية في المجمع ، أثاروا قبل كل شيء قضية العقيدة ، ولذا أخذ المجمع وضعاً حازماً وصرح بأن الاكليروس له وحده الحق في تفسير العقيدة والكتب المقدسة ، فانقطع كل رجاء في التوفيق .

ثم توقف المجمع عن الانعقاد سنة ١٥٤٩ بسبب الحوادث السياسية ولم يجتمع إلا في ١٥٦٠ بعد صلح كاتو — كامبريزي واختتم جلساته عام ١٥٦٣ .

تنقسم المقررات التي اتخذها المجمع إلى قسمين : قسم يتعلق بالعقائد وقسم يتعلق بالانظمة .

العقائد . — كان عمل المجمع متجهاً ضد البروتستانت . فقد امتنع عن الفصل في المسائل التي كانت موضع جدل بين علماء اللاهوت الكاثوليك ، وشرح بتعاريف واضحة النقاط التي هاجمها البروتستانت ، وصرح ان مصادر الايمان هي الكتاب المقدس وما يتممه من أحاديث ، وان النص ، الذي يجب أن يعتمد عليه الكاثوليك ويعتبروه أصلياً صادقاً ، هو نص الفلغاطة أي الترجمة اللاتينية التي قام بها القديس جيروم في القرن الرابع الميلادي للنص الأغريقي السبعيني . وأبقى الاسرار

السبعة التقليدية وهي : التعميد ، التثبيت (الميرون) ، القربان المقدس ، التوبة ، المسحة الاخيرة ، الكهنوت ، الزواج ، التي أرجعها البروتستانتيون إلى اثنين . وأثبت الحضور الحقيقي للمسيح في سر القربان المقدس ، وأبقى مذهب المطهر الذي اطرحه البروتستانتيون ، واجلال الصور ، وعبادة القديسين التي اعتبرها البروتستانتيون كعبادة الاوثان . وبينما انفصل البروتستانتيون عن روما ، أعلن المجمع أن كل كاثوليكي تجب عليه الطاعة الروحية للبابا خليفة القديس بطرس ونائب السيد المسيح ، وان كتاب « قواعد الدين المسيحي » الذي حرره شارل بورومه ، رئيس أساقفة ميلانو ، يضع هذه العقائد في متناول الجميع .

العمل التنظيمي . — أما ما يتعلق بنظام الكنيسة فقد اهتم المجمع باستئصال المساوىء الصارخة وأبقى التعاملات التي ذمها البروتستانتيون . فمن ذلك أنه أبقى استعمال اللغة اللاتينية في الصلاة والقداسات العامة وعزب الكهان . ومن جهة أخرى ، حرم المجمع بين وظائف متعددة ، وقرر أن يقيم الكهان والاساقفة في كنائسهم واسقفياتهم ويبشروا في كل اسبوع مرة واحدة على الاقل ، أي في يوم الاحد ، يوم القداس الاكبر . ولا يمكن للاكليركي أن يكون اسقفاً مالم يكن له من العمر ٣٠ سنة وكاهناً ٢٥ سنة . وجعل اللباس الكهنوتي اجبارياً . وأوصى المجمع بتأسيس المدارس الاكليركية لتثقيف الفتيان الذين يرغبون أن يكونوا كهاناً في المستقبل ، وأوصى بفتح مدرسة في الخورية ، كنيسة القرية ، لتعليم الاطفال مجاناً .

وإذا كان الاصلاح البروتستانتي أدى إلى تأسيس كنائس خاصة معتمدة على مبدأ « حرية العقيدة » فان الاصلاح الكاثوليكي كان همه بقاء مبادىء الوحدة والسلطة في الكنيسة . ولذا رفض السماح باستعمال

اللغة الوطنية في القداس والاحتفالات ، وأبقى اللغة اللاتينية لغة عامة مشتركة ، ووحد كتب صلوات القداس التي تضم صلوات القداس لكل أيام السنة ، وكتب الفروض الكنسية ، التي يجب على الكهان قراءتها كل يوم . وأقر سلطة البابا على الكنيسة لأن الكنيسة جسد واحد ويجب أن يكون لها رأس واحد . وأعلن مجمع ترانت أن البابا راعي الكنيسة ، وأنه يتمتع بالسلطة الواسعة في ادارة الكنيسة العامة ، وأنه المفسر الوحيد للكتاب المقدس ، وأنه يعلو على المجامع ، وان كل ما في الكنيسة يجب أن يصدر عن البابا وينتهي اليه . ولذا فان سلطة البابا ، التي اطرحها البروتستانتيون ، رسخت قدمها أكثر مما في السابق .

أما الاصلاح الداخلي للكنيسة فلم يحقق في المجمع ، بل ترك إلى سلطة الكرسي الرسولي ليعمل على تجديدها . ولبثت روما أكثر من قرن جاهدة في القيام بأعباء رسالتها الروحية وانشاء المدارس الكهنوتية واصلاح الاديرة وتأسيس الطرق الجديدة .

وهكذا سجل مجمع ترانت نهضة كاثوليكية مؤسسة على سلطة البابا وسلامة العقيدة وصرامة النظام الكنسي .

وأوقف مجمع ترانت حركة التطور التي حدثت في الممالك الاوربية وكانت ترمي إلى انشاء كنائس وطنية . ولذا اصطدمت مقررات المجمع في هذه الممالك بمقاومات عنيفة : ففي فرنسا ، مثلا ، عارضت الكنيسة الغاليكانية بقبولها . وفي اسبانيا ، لم تقبل إلا بعد أن قيدتها بألا تغير شيئاً في النظام القائم ، كما هي الحال في البندقية . وفي البرتغال والنمسا وبولونيا ، قبلت بتمامها ، وارجعت عمومية الكنيسة ، وفرضت على الدول بالرغم من معارضتها .

وبفضل هذه الخطة الحازمة ، التي سلكتها الكنيسة الكاثوليكية في

الاصلاح ، استطاعت أن توقف حركة الاصلاح البروتستانتي وتحدث يقظة دينية كاثوليكية ، وان لم تستطع رد جميع المنشقين إلى حضن الكنيسة الرومانية . يضاف إلى ذلك أن الكنيسة وجدت حلاً للازمة الدينية وذلك بالرجوع إلى الدين الكاثوليكي الحنيف وما رافقه من تنظيم . ولكن المنازعات الدينية ، التي لم تظهر بعد إلا بشكل نقاش وجدل ومجالس واضطهادات ، ولدت مباشرة حروباً طويلة وفظيعة أهلية وخارجية وأمدت النزاع السياسي الاوربي بغذاء جديد . ففي فرنسا ، بدأت الحروب الدينية . وفي اسبانيا ، كانت الامور تجري طبقاً لمآرب سياسية وضرورات تقضي بالدفاع عن امبراطورية غنية ، ولكنها بدأت تصطبغ بصبغة حرب صليبية كاثوليكية ، وتزيد في شدة التنافس الاقتصادي بين اسبانيا وانكلترا . وفي ألمانيا ، كان امتداد المنازعات الدينية ، بعد صلح أوغسبورغ ، والدفاع الكاثوليكي ، الذي شنته البلاد النمساوية والبافارية تحت ادارة اليسوعيين ، سبباً في حرب الثلاثين عاماً (١٦١٨ - ١٦٤٨) .

★ ★ ★

وصفوة القول ان البروتستانتية اصطدمت منذ ظهورها بمقاومات . وهذه المقاومات تنقسم إلى قسمين : مذهبية وحكومية ، أدت الاولى إلى تقوية الحنفية المصلحة وتحرر الفكر الديني والفلسفي وقيام الكنيسة الرومانية ؛ وأثارت الثانية اضطهادات وحروباً دينية وأوقفت توسع الديانات الانجيلية في أوربه .

ولم يكن للدفاع الكاثوليكي سوى نتائج محدودة ، لأن تأثير الملوك أخفق من الناحية العملية : ففي ألمانيا لم يستطع شارلكان التغلب على عصبة الامراء البروتستانتيين ، واعترف بموجب صلح اوغسبورغ (١٥٥٥) بوجود البروتستانتين في المانيا عملاً بالمبدأ « الذي يخول الأمير فرض دينه

على اتباعه ، واضطر إلى قبول التعديلات التي أجراها الامراء في اموال الكنيسة ، ولذا تخلى عن فرض الوحدة الدينية على الامبراطورية الجرمانية الرومانية المقدسة .

ولم ينجح في البلاد المنخفضة في وضع حد للوثرية وخاصة الكالفنية ، التي استمرت في تقدمها ، حتى ان المحاولات التي قام بها الضرب على أيدي المنشقين كانت سبباً في قيام البلاد المنخفضة ضد الحكم الاسباني .

وفي فرنسا ، كانت سياسة الملوك مترددة : فقد كانت مقاومة فرنسوا الأول متقطعة . ووقف هنري الثاني موقفاً حازماً ضد الكالفنية إلا أنه لم يوفق هو وأخلافه في القضاء على الدين الجديد ، لأن مرسوم نانت ١٥٩٨ بعد الحروب الدينية خول البروتستانتيين حق العبادة .

أما دعاية الكرمي الرسولي فكانت نتائجها متباينة حسب موقف الحكومات : ففي انكلترا ، حيث كانت الحكومات تعارض الكنيسة الرومانية ، أخفقت الدعاية ، ولكنها نجحت في بعض بلاد اوربه (بافاريا ، وينانيا ، بوهيميا) بفضل مساعي اليسوعيين الذين أعادوا إلى الكاثوليكية المناطق التي انفصلت عنها . ولذا فان أهمية الشروط السياسية هي التي تبدو في نجاح الاصلاح .

وبعد فكيف كانت خارطة أوربة الدينية في النصف الثاني من القرن السادس عشر ؟ ان بعض البلاد أو المناطق ، التي خرجت عن طاعة البابا والكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، هي : المانيا ، حيث نجد أن ثلثي الدول الالمانية قد اعتنقا الديانة اللوثرية ؛ واسكانديناڤيا حيث أصبحت اللوثرية ديانة رسمية للدولة .

وفي انكلترا صارت الكنيسة الانغليكانية كنيسة الدولة .

وفي سويسرا نجد أن المناطق الجبلية في الوسط (وعددها سبع على اثنين وعشرين) بقيت كاثوليكية .

ونجد في البلاد ، التي بقيت كاثوليكية ، جزراً ونوى ممن دانوا بالديانة الكالفنية المصلحة كما هي الحال في فرنسا والبلاد المنخفضة وبوهيميا وحتى هونغاريا .

والجدير بالذكر ، في هذه القطيعة التي كسرت الوحدة الدينية الكاثوليكية ، هو أننا لا نجد في الجماعات البروتستانتية وحدة ، لأن الاصلاح أدى في كل دولة من الدول إلى تشكل عدة كنائس انجيلية ، لا رابطة بينها إلا الاعتماد على الكتاب المقدس ، ولكنها بقيت ملحقة بالدولة . وتعتبر هذه النقطة هامة من الناحية السياسية ، لأن خضوع الكنيسة الكاثوليكية في الدولة لكنيسة روما يوجد على هذا الشكل دولةً ضمن دولة .

وإذا نظرنا إلى الاصلاح من الناحية الاقتصادية نرى أنه لعب دوراً نشيطاً ، وذلك لأن كالفن قبل ، خلافاً للاهوتيين الكاثوليك ، بشرعية القرض بالفائدة ، واعتبر جهد الانسان في سبيل الحصول على الثروة والغنى أمراً طبيعياً وحلالاً ، حتى ان بعض علماء الاجتماع يرون في روح البروتستانتية عنصراً أساسياً لنمو الرأسمالية .



الفصل السادس

نهضة الدولة

تشكل الدول الكبرى . – لقد كانت أوربه ، في العصر الوسيط ، تؤلف نوعاً من جمهورية مسيحية يوجهها الامبراطور في الأمور الزمنية والبابا في الشؤون الروحية ، ويتبادل الاثنان العون . ولكن هذا المفهوم أخذ يضعف مع الزمن وفقد قوته وأصبحت اوربه وحدة حضارية واحدة دون أن تكون وحدة سياسية . ولم يعد لسلطة البابا تلك المكانة التي كانت لها في النفوس ، ولم يعترف بها في كثير من البلدان الأوربية . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل ان بعض البلدان شقت عصا الطاعة عليها وخرجت على نظامها الديني وأخذت تكافحها . وكذا الحال فيما يتعلق بسلطة الامبراطور ، فقد كانت محدودة في الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة ، وأصبحت عدماً في خارجها في الدول التي لايحكمها بصفة عاهل صاحب سيادة أو أمير . وظهرت فردية النهضة في السياسة بتنظيم اوربه في جمع من الدول يسود التوازن بينها ، أي ان كل واحدة مساوية في الحقوق للأخرى ، كأفراد أحرار أخلاقهم متشابهة ، ومثلهم الأعلى واحد ، بالرغم من المنافسات القائمة بينها . وقد حلت هذه المساواة بين الدول محل نظام التسلسل المتعارف عليه في العصر الوسيط .

وبدأ الاتجاه نحو تشكل الدول الكبرى ، منذ العصر الوسيط ، لبلوغ هذا التوازن الجديد بين الدول الأوربية . فقد أخذت بعض الدول ، كفرنسا مثلا ، تضع تحت سلطة الملك المباشرة بلاداً تابعة كان

امراؤها يحاولون أن يجعلوا منها أمماً متميزة ، مثل دوقية بورغونيا عام ١٤٩٣ ، ودوقية بروتانيا عام ١٥٣٢ ؛ وتشكلت اسبانيا من وحـــدة مملكة اراغونه ومملكة قشتاله بزواج فرديناند وايزابيلا عـام ١٤٦٩ . واتحدت في بريطانيا امـارة الغال (ولز) مع بـلاد الانـكليز وخضعت لارادة واحدة عام ١٥٣٦ . وفي الامبراطوريـة المقدسة كون الأمراء من اماراتهم دولاً حقيقية . وظلت ايطاليا منقسمة ، كسابق عهدها ، لأن دولها تأسست منذ البدء تأسيساً قوياً وتحررت من كل رابطة تربط فيما بينها ، وساد علاقاتها التوازن الدولي قبل أن تتشكل الدول الكبرى .

الملكية المطلقة . — لقد نحا تطور معظم الدول الاوربية في عصر النهضة منحى الملكية المطلقة ، التي يشخص فيها الملك المثل الأعلى القومي ، ويتمتع حقاً وفعلاً بصفات السيادة أي بسلطة سن القوانين واقامة العدل وفرض الضرائب واعداد جيش دائم وتعيين الموظفين والحكم على الاعتداء على الاموال العامة وخاصة على السلطة الملكية بأحكام استثنائيـة صادرة عن سلطته بوصفه قاضياً أعلى . ولم يأت مفهوم الملكية االمطلقة ليهدم بل ليضاف الى المفاهيم القديمة ، التي سبقته ، كمفاهيم العقـــد والعرف المعروفة في العصر الوسيط ، والـناظمة للعلاقـات بين الملوك وتابعيهم الخاصين ورعاياهم .

ولقد لعبت العاطفة الوطنية دورها في تشكل هذه الدول الحديثة في اوربه وكانت تمتزج بشكل غريب مع الوطنية المحلية وعاطفة الولاء للأمير لمتبوع صاحب السيادة في أمارته . كما ساعد على تفتح هذه الوطنية القديمة جداً النضال ضد الأجنبي بما ولد عند الشعوب من شعور بالمنافع المشتركة ، وعمل الموظفين الملكيين الدائب ، والعلاقات الاقتصادية الجديدة ، وتأثير

الانسانيين على رجال البلاط وكبار البورجوازيين . وقد زادت الانسانية هذه العاطفة الوطنية ، المتولدة في أعماق الفرد من تفاعل الانسان مع البيئة ، دقة ووضوحاً وشكلاً . ومما لا شك فيه أن الملوك أفادوا من هذه العاطفة كثيراً وعرفوا كيف يوجهونها لصالح شعوبهم وصالحهم الخاص

يرجع تقدم الملكية المطلقة في هذا العصر الى الأسباب التالية :

١ — إلى رغبة الملوك الطبيعية في زيادة سلطتهم ونفوذهم على رعاياهم .

٢ — الى انتشار الحقوق الرومانيـة ، وذلك أثر من آثار النهضـة . فقد أتت هذه الحقوق ، منذ القرن الثالث عشر ، بفكرة الامير المطلق ، الذي يركز جميع السلطات بشخصه وتكون إرادته هي القانون ولكن الاقبال على دراسة القديم أعطى الحقوق الرومانيـة في القرن السادس عشر نهضة جديدة وأضاف اليها فكرة البطل القديـمة ، فكرة نصف إله مهيمن ومحسن . ولقد نجحت الحقوق الرومانية في هذا السبيل لأنها عبرت عن النزعات العميقة لدى المعاصرين . وكان البطل نموذج الكائن ، الذي تشعر الشعوب بحاجة لأن تهب نفسها له . ولقـــد كان مذهب الحكم المطلق يستجيب لهـذه الحاجـات السائدة في تلك المجتمعـات ويلبي رغباتها .

٣ — إلى الصراع القائم بين الأمم في ذلك العصر ، لأنه كان يتطلب ضرورة وجود سلطة قوية تأخذ على عاتقها كل شيء وتفرض نفسها في الداخل لتأمن عدم قيام المنازعات الداخلية ، ولتستطيع الانصراف الى بسط نفوذها وسلطتها في الخارج ، لا سيا وان الدول ، بعـد ان تمت وحداتها ، أخذت تشن الحروب في سبيل تفوقها السياسي والاقتصادي .

وكانت الحرب تفرض تقوية السلطة ووجود حكومات قوية تتخذ قرارات سريعة تنفذ على عجل في كل مكان .

٤ - إلى تركيب الامم الاوربية نفسها . فقد كانت الطوائف والاقاليم والبلاد والمدن والقرى والهيئات والطبقات الاجتماعية : من اكليروس وطبقة النبلاء والطبقة الوسطى وهيئات الضباط والجامعات والاصناف الحرفية في تنافس دائم فيما بينها دفاعاً عن مصالحها . ولذا كان على الملك أن يكون قوياً ليستطيع الحكم في خلافاتها وينسق أعمالها في سبيل الخير العام الذي يفيد منه الجميع في ظل النظام الملكي الجديد .

٥ - إلى المنافسات القائمة بين كبار الاسر الاميرية في مختلف البلاد الاوربية . وهذه المنافسات بقية من بقايا العصر الوسيط وعواطفه واعرافه . فقد اوجدت الروابط التبعية لهذه الاسر زبائن يتفانون في خدمتها وطامعين يعيشون على حسابها . وكان هؤلاء وأولئك على استعداد للخيانة وللموت في سبيلها . هذا بالاضافة إلى أن الروابط العائلية كانت قوية . فقد كان الامير يطمع في الزواج من ابنة عم له ، ولو كانت بعيدة ، ليؤمن لنفسه حماية ابيها ورعايته وانعامه . وبالمقابل كان عليه أن ينذر نفسه لخدمة هذا الامير الاب ، ولو كانت هذه الخدمة ضد الملك . وكان الملك يجد ، بدوره ، حول كبار هذه العائلات ، زبائن مخلصة تتفانى في خدمته ضد من يثور عليه من الامراء ، كما يجد بين منافسيهم أنصاراً له وأعواناً .

٦ - إلى نزاع الطبقات . فقد كانت الطبقتان : البورجوازية الناشئة والارستقراطية النبيلة في تنافس دائم ، وكان الملك بحاجة إلى البورجوازيين ،

فهم يجهزونه بالمال وبالموظفين ، ويقدمون له طاعتهم ومساندتهم ضد الامراء الاقطاعيين . وكانت السلطة الملكية تغدق على تجارهم النعم بقروضها وتعهد الاراضي الملكية والتزام الضرائب الملكية وحصر الاستغلال والحماية ضد قوانين الكنيسة على الربا وضد العوائق الاميرية للتجارة وضد الاصناف . وانقذت السلطة الملكية كذلك معلمي الحرف باعطاء أصنافهم وضعاً قانونياً وحماية قضائية ، وبدفاعها عن زبائنهم ووارداتهم ضد الرأسماليين . وحمت أيضاً البورجوازيين التجار وبورجوازيي الحرف ضد الطبقة الكادحة الجديدة . وكان حلم هؤلاء البورجوازيين أن يصبحوا نبلاء ، وكان الملك وحده يستطيع أن يهيء لهم أسباب الترفيع ، وتغيير طبقتهم الاجتماعية بتخويلهم وظائف عامة منبلة ، ومنحهم اسقفيات واديرات (اديرة) ، والانعام عليهم برسائل النبل ، والسماح لهم بالتصرف باقطاعات نبيلة . وهكذا كان البورجوازيون ينتقلون من طبقتهم إلى طبقة النبلاء ، ويصبحون ارستقراطيين . ولكن هؤلاء البورجوازيين المتنبلين يحافظون على عاداتهم البورجوازية في حب الكسب والاقتصاد والحيسوبية . وبالمقابل كان بعض النبلاء يتبرجزون عن طريق زواج بناتهم ببورجوازيين أو تزوجهم ببورجوازيات . ووجدت على هذا النحو طبقتان نبيلتان : الطبقة النبيلة القديمة ، وهي طبقة نبيلة السيف تحتقر غيرها ، أنفة ، متغطرسة متعالية ؛ والطبقة النبيلة الجديدة التي توصلت إلى النبل بعد طول العناء ، وبعد ممارسة اعضائها المهنة العسكرية ، وبعد التعريف بصفاتها ومواهبها .

ولم تستطع الطبقة النبيلة الدفاع عن نفسها ، ضد البورجوازية ، لولا

فضل الملك عليها ، لانه لم يكن على العموم لهذه الطبقة من مهنة نبيلة غير مهنة السلاح ، ولذا كانت تهمل أراضيها وحقوقها الاقطاعية . هذا بالاضافة إلى أن انخفاض قيمة النقد قلل الاتاوات المحددة نقداً . وكان باستطاعة هذه الطبقة النبيلة أن تعيش على أراضيها ومن الاتاوات التي تأتيها عيناً ومن خدمات فلاحيها ، ولكن حياة البلاطات الملكية والاندية في المدن ، والحملات العسكرية الخارجية البعيدة كانت تستهويها وتجتذبها ، فهدمت نفسها بها ؛ فضلاً عن أن البذخ التزام أميري ، وأن النبل يفرض عليها الظهور بالمظهر اللائق . والسعة في الانفاق تقليد نبيل ، ولكنه أصبح بالتدريج ضرورة ملحة بعد أن أخذ صعود البورجوازية يفرض نفسه . وكانت دور النبلاء تعج بالخدام والخادمات ، والاعراس فرصة للحفلات الراقصة والمبارزات والمساجلات وما إلى ذلك من أبهة في الحياة وفي الموت ، وكل هذا يتطلب من النبلاء نفقات باهظة ينوؤون بحملها . ولذا كان الأمير مضطراً للدخول في خدمة الملك متوسلاً اليه أن يجد له وظيفة تتناسب ومكانته الاجتماعية ، كأن يعينه حاكماً على إقليم أو حصن أو قائداً لكتيبة أو موقع بسيط ، أو حارساً متنقلاً مع الملك ، أو يخصص له مرتباً يعتاش منه . وهكذا نجد في المنطقة الواقعة في غرب نهر الايلب وجبال الآلب الدينارية تناقص الاقطاعات ، وازدياد الطبقات النبيلة ، وقلة الأمراء الذين يمارسون السلطة العامة في أراضيهم ، وزيادة الفئات الاجتماعية التي قامت بوظائفها العسكرية والحكومية خير قيام ، فمنحها الملك بصفة وراثية مكانة أعلى والقاباً متسلسلة : أدواقاً ومراكيز وكونتات وبارونات وشارات وامتيازات شرفية وغيرها . وعلى هذا النحو نجد أن نزاع الطبقات ربما كان عاملاً أساسياً في نمو الملكية المطلقة.

حدود الحكم المطلق . — ولكن يجب ألا نبالغ في قيمة هذا الحكم المطلق لأن الملاحظ أن سلطته الفعلية ونفوذه الحقيقي على الحياة اليومية وعلى كل من رعاياه أقل مما للحكومات الديموقراطية الحرة في القرن التاسع عشر على مواطنيها . فالقانون الالهي المسيحي ، والقوانين الأساسية في المملكة التي تعبر عن بعض شروط الحياة ، وقوانين حقوق البشر ، والقوانين التي تكفل الملكية والهيئات والطوائف وعقودها واعرافها وامتيازاتها، ان كل هذا يحدد سلطة الملك ، كما يحدها ايضاً عدد صغير من موظفي الملك وصعوبة المواصلات . وكانت الحكومة المركزية تمارس نفوذها . ولكن هذا النفوذ اقل تأثيراً واستمراراً ونفاذاً مما في ايامنا . وكان الامراء والهيئات والجمعيات يقومون تحت اشراف الملك بكثير من الوظائف التي انتقلت اليوم ليد الدولة .

وفي الواقع استطاع مبدأ الحكم المطلق ممتزجاً بفكرة العقد والعرف ودون الافراط ، الذي ابداه في عهد تيؤدوس وجوستنيان ، ان يسير معاً جماعات بشرية مختلفة لم يتم تكوينها بعد ، لانها كانت في دور من تاريخها يعتبر بالنسبة لها دور حياة أو موت . كما ساعد هذا المبدأ على تحقيق التوازن في شروط بالغة التجزئة والانقسام ، وعلى الحفاظ على حياة الممالك الاوربية وسط النزاع ، وعلى تدريجها نحو دولة مركزية موحدة ضرورية لتقدمها ورقيها . وسندرس ، فيما يلي، تطور الدول الاوربية تبعاً لظروف الملكية المطلقة .

نموذج الدولة المتطورة

الملكية الفرنسية

وحدة الارض الفرنسية . — يبتدىء تاريخ فرنسا الحقيقي منذ معاهدة فردن عام ٨٤٣ م أي منذ انقسام امبراطورية شارلمان بين احفاده الثلاثة ، أبناء لويس التقي ، وهم لويس الجرماني ، لوثير ، شارل الأصلع . وكان نصيب هذا الأخير القسم الغربي المحدود بالمحيط الأطلسي، ويشمل حوض الايسكو والسين والوار والغارون وجبـــال البيرينه إلى حدود نهر الايبر .

وقد خلف الأمرة الكارولنجية ، التي ينتسب اليها شارل الاصلع ، على عرش فرنسا سنة ٩٨٧ م ، الامرة الكابسية التي دامت حتى سنة ١٣٢٨ وخلفتها امرة فالوا التي هي فرع من السلالة الكابسية . واهم الحوادث ، التي وقعت في عهد هذه الامرة ، حرب المائة عام (١٣٣٨ — ١٤٥٢) التي نشبت بين فرنسا وانكلترا وكان من نتائجها ضعف سلطة الامراء الاقطاعيين وتوطيد سلطة الملك وإذكاء العاطفـــة الوطنية والروح القومية .

ودام حكم امرة فالوا من ١٣٢٨ على يد فيليب السادس وانتهى بانتهاء حكم الملك هنري الثالث (١٥٨٩) . وبموته انتقل العرش إلى امرة بوربون على يد هنري الرابع ملك فرنسا (١٥٨٩ — ١٦١٠) .

وتقدمت وحدة فرنسا في بدء الأزمنة الحديثة تقدماً عظيماً بعد أن ضمت اليها دوقية بورغونيـــا بموت شارل الجسور (١٤٧٧) ، وأدمجت فيها بطريق الارث مقاطعة بروفانس ومين (١٤٨٠) . وبزواج شارل

الثامن وآنّا بروتانيا ضمت بروتانيا إلى فرنسا وتم ذلك نهائياً في عهد فرانسوا الأول (١٥٣٢) ، وكذلك بوربونيه (١٥٢٧) ومارش (١٥٣١) ، واراضي البريت ونافار عندما اعتلى العرش هنري الرابع ١٥١٩ .

ويبدو أن مصور فرنسا ، في فاتحة القرن السادس عشر ، يشبه كثيراً مصورها الحالي إلا من جهة الشمال الشرقي حيث توجد الاسقفيات الثلاث : تول ، متز ، فردن . وقد احتلتها جيوش هنري الثاني (١٥٥٢) واعترف بانضمامها نهائياً إلى فرنسا في مؤتمر وستفاليا (١٦٤٨) . وتقرر ضم كاليه (١٥٥٩) وأصبح نهائياً بموجب معاهدة تروا في ١١ نيسان ١٥٦٤ .

ومن هنا يظهر أن تشكل الملكية الفرنسية قد تم في تاريخ طويل حتى أصبحت تؤلف كلا متجانساً ، وبلداً آهلاً بالسكان نسبياً ، له مدنية أصيلة ، وله طابعه الخاص . وقد فرضت وحدة اللغة فيه بموجب براءة فيللر كوتّيريه (١٥٣٩) التي قضت بتعميم لغة شمال نهر اللوار على لغة البلاد التي في جنوبه ، لغة أوك . ولا شك أن مثل هذا العمل له أهميته في الوحدة القومية ، لأن وحدة اللغة مقوم أساسي من مقومات الأمة والدولة .

نمو البلاط . — من مظاهر نمو الملكية توسع بلاط الملك . ففي القرن السابق كان بلاط كثير من الأمراء ، كبلاط دوق بورغونيا ، يفوق كثيراً بلاط الملك . أما الآن فقد أصبح بلاطه دون منازع ، وفي الوقت ذاته ، مركز الحياة السياسية والحياة العصرية ، ويستهوي الكثيرين ممن يتوقون إلى السلطة وحياة الملذات .

كان البلاط ، كما في عهد الكابسيين ، يتألف من مجموع الموظفين القائمين في خدمة الملك ، وكانوا مرتبين حسب طبيعة وظيفتهم على :

المائدة ، الغرفة ، الحظيرة ، الصيد ، وغيرها ، تحت زعامة رؤساء يسمون الموظفين الكبار وهم : السيد الأكبر ، رئيس الغرفة الأكبر ، السائس الأكبر ، الصياد الأكبر وغيرهم . وفي عهد فرنسوا الأول ازداد عدد الخدم ازدياداً فاحشاً ، وجلهم من النبلاء . وكان الملوك وكبار الأمراء ، الذين تربطهم بالملك رابطة الدم ، يوظفون الأشراف خدماً لغرفتهم أو سواساً لحظيرتهم . وكان للملك أيضاً بيته العسكري وحرسه المؤلف من ٨٠٠ رجل ، وأكثرهم من النبلاء ومن أشراف بيت الملك ، ورماة الحرس ، والحرس الايكوسي والحرس السويسري وكان لكل من الملكة وأم الملك دارها المتميزة عن دار الملك . وكانت نساء وبنات الأمراء يخدمن فيها بصفة سيدات وآنسات شرف .

ويضم البلاط أيضاً كثيراً من الشخصيات الأخرى : ويأتي أولاً الموظفون الكبار الذين كانوا رؤساء وظائف سياسية : مستشار ، قائد أعلى ، الأميرال الأكبر ، أعضاء مختلف المجالس الملكية ، أمراء الدم أي أمراء الأسرة المالكة ، وأخيراً شخصيات يحلو للملك أن يراهم إلى جانبه دون أن يكون لهم أي عمل يقومون به . وهكذا وجد في حاشية الملك وبلاطه عدة ألوف من الاشخاص يعيشون من خيرات الملك . ولذا كان البلاط يستنفد قسماً كبيراً من موارد المملكة .

حياة البلاط . — لم يكن للبلاط اقامة ثابتة ولا اقامة عادية . فقد كان فرنسوا الأول ، عن ذوق وعن ضرورة ، ملكاً سياراً ينتقل من مدينة لاخرى ، ومن قصر لآخر ، من فونتينبلو إلى آمبواز ، إلى بلوا ، إلى شينونسو ، إلى شامبور .

وتتجلى في حياة البلاط كثرة البذخ والالعاب واللذائذ المتجددة على

الدوام وأكثرهـا أهمية ، كما في العصر الوسيط ، الصيد ، الجوت ، المبارزة ، وبعض الألعاب مثل لعبة التنيس . وكانت التسليات العصرية : الاستقبالات ، والحفلات الراقصة ، والحفلات الموسيقية (الكونشرتو) والتمثيل المسرحي ، الذي ازدادت أهميته في المجتمع الحديث . وكان القصر يضم كثيراً من السيدات اللواتي يلعبن دوراً هاماً في السياسة .

الملكية والنظم الملكية . — إن ما يلاحظ ، في آخر القرن الخامس عشر ، في فرنسا ، هو توطيد السلطة الملكية . فقد ظهرت فرنسا نموذجاً للملكية المطلقة التي تتمتع بادارة مركزية ، بعد أن قضى الملك لويس الحادي عشر على جميع المقاومات الداخلية . غير أن هذه السلطة الملكية لم تأخذ بعد طابعاً غير شخصي وديوانياً (بوروقراطيـــاً) كما يلاحظ ذلك عندما يصل الحكم المطلق إلى ذروته ، بل إن شخص الملك وموقف حاشيته المباشرة كانا يلعبان دوراً هاماً . ومن الصعب في الغالب الكشف عن طباع الملوك على حقيقتهـا بدقة . لذا يجب الحذر والشك بالأقوال التي ترددها الكتب التاريخية وعدم قبولها على علاتها . فقد كان شارل الثامن (١٤٨٣ — ١٤٩٨) عنيداً ، كريماً ، يحب الأدب ، ويتذوق الفن ، ولكنه كان ينقاد إلى مقربيه مثل فيسك وغرافيل وبريسونه . وقد ألح على شعبية لويس الثاني عشر كثيراً ولقب بأبي الشعب ، وفاخر معاصروه بفكره الاقتصادي وذكروا أن ضريبـة التاي (على الاملاك والواردات) لم تزد في عهده . ولكن سياسته الخارجية في آخر سنوات حكمه اضطرته إلى الاستدانة ورهن الحقل الملكي . وكانت صحته ضئيلة ولا يملك أي مؤهل للعمل ، إلا أنه كان لطيفاً رقيقـاً ، يسير سياسته جورج امبواز وفلوريموند روبرته . ويقال أيضاً إن لويس الثاني عشر اهتم بتحسين العدالة وقرر اعادة النظر بالأعراف .

أما فرنسوا الاول فقد ولد عام ١٤٩٤ ، واعتلى عرش فرنسا في العام ١٥١٥ ، وتوفي عام ١٥٤٧ . كان ملكاً محباً للرفاه والبذخ وحب الظهور والمغامرات ، شجاعاً ، انانياً ، مسرفاً . ويبدو أن البطانة أثرت تأثيراً شديداً على حكمه ، ويضاف إلى ذلك تأثير الخليلات من أمثال الكونتس دوشاتوبريان ودوقة ايتامب وتأثير المحظيين ، مثل بونيفه ، الذي أصبح أميرالاً ، وموممورانسي ماريشال فرنسا ، وكذلك تأثير البيت اللوريني مثل كلود غيز والكردينال جان مع رجال الحكم مثل فلوريموند روبرته والمستشار دوبرا . وكان هنري الثاني عظيم الجثة ، ضخم العضلات ، يحب الصيد والمبارزة والرياضة ، إلا أنه كان حزيناً ، حاد المزاج ، لايستطيع السيطرة على أعصابه .

وبعد وفاة هنري الثاني أصبحت الملكة ماري دوميدتشي وصية باسم بنها القاصر شارل التاسع حتى ١٥٦٣ ، ثم مستشارة . وكثيراً ماشجبت طرقها في الحكم واتهمت بالخداع . غير أن أمثال هذه الصفات لم تكن نادرة في ذلك العصر . وعذرها الوحيد أنها وجدت نفسها أمام نزعات وميول حزبية متضاربة فلم يسعها إلا أن تسلك هذه السياسة لتستطيع الحفاظ على التوازن بين الاحزاب لصالح السلطة الملكية .

واستلم بعدها الحكم شارل التاسع (١٥٦٣ — ١٥٧٤) وثم هنري الثالث (١٥٧٤ — ١٥٨٩) إلا أنها يختلفان عنها تماماً . فقد كان شارل التاسع ملكاً مستقيماً ، ولكنه غضبي المزاج ، يحب الصيد ، قليل الدماثة . وهنري الثالث ، على العكس ، كان ذكياً ، مثقفاً ، خداعاً ، يحب اللذائذ رغم تظاهره بالتقوى .

الحكم الملكي . — لقد شهدت العقود الاولى من القرن السادس عشر تقدم السلطة الملكية وسيرها باتجاه الحكم المطلق ، رائدها في ذلك

نظرية الحقوق الرومانية القائلة « ان ما يطيب للامير هو القانون » . ولم يفكر أحد بمنازعة الملك سلطته : ولقد قال بارلمان باريس إلى الملك فرانسوا الاول « أن منازعتكم السلطة إنما هو نوع من التجديف ، اننا نعلم بأنكم فوق القوانين » .

وتجلى ظفر الحكم المطلق بتعطيل مجلس المملكة العام ، ولم ينعقد ولو مرة واحدة خلال هذا الدور ، الذي فقدت فيه الأمة كل وسيلة في مراقبة الحكم الملكي ، ولم يبق لها للاعراب عن أمانيها وشكاواها إلا مجالس اقليمية تضاءل دورها مع الزمن وفقدت أهميتها .

الحكومة المركزية . — لقد ظل نظام الحكم في هذا العهد كما كان عليه في عهد شارل السابع . غير أنه يمكننا أن نلاحظ في هذا الدور ، نزعة مزدوجة ترمي إلى تركيز السلطة والتخصص في الوظيفة . وكما في السابق ، كان يساعد الملك في الحكم موظفو التاج الكبار ومجلس الملك أو مجلس الدولة . وكان هذا المجلس يضم ، عدا المستشارين الرسميين ، بعض الأمراء والأحبار الذين يعينهم الملك . وفي الواقع كانت القرارات الهامة تقوم بها لجنة صغيرة تؤلف مجلساً اطلق عليه اسم « مجلس القضايا » ويتألف من بعض محظيي الملك ومقربيه .

ولم يكن في ذلك العصر شيء مما يشبه نظام الحكم فيما يتعلق بعمل الوزراء والوزارة ، بل كانت السلطة شخصية ومنوطة بالملك وحده ، ولم يكن ثمة وزراء إذا استثنينا « المستشار » وكان وزير العدل . ومع هذا فقد وجد عدة أمناء في مجلس الملك وأخذ شأنهم يعظم مع الزمن . من ذلك أن هنري الثاني عين أربعة أمناء وعهد إلى كل منهم الاهتمام بشؤون جزء من أجزاء المملكة . وقد سمي كل منهم أمين الدولة . وكان هؤلاء بمثابة وزراء الملك .

ادارة الاقاليم . — لقد ظل عمال الملك في الاقاليم كما في السابق ويسمى الواحد منهم حاكماً (بايي) في ولايات الشمال ، و (سينيشال) في ولايات الجنوب ، وعددهم يقارب المائة . وقد جرى في ادارة الاقاليم ما يماثل التخصص في الوظائف الذي جرى في الحكومة المركزية . فمن ذلك أن « الحكام » كانوا يدلون بسلطة العدل إلى قائمقامين مدنيين في الدعاوى المدنية ، وإلى قائمقامين جزائيين في الدعاوى الجنائية .

وفوق هؤلاء الحكام وجد في بعض الاقاليم موظفون ملكيون ينتقون من بين الامراء العظام ويسمون الحكام العامين ، ثم اطلق عليهم فيما بعد **حكام الاقاليم** . وكانت وظائف هؤلاء الحكام عسكرية في الغالب ، وتكون في المقاطعات القائمة على الحدود . غير أن هؤلاء كانوا ينزعون إلى توسيع سلطانهم ، وكان الملوك يحذرونهم ولا يثقون بهم . ولذا لجأت الملكية إلى تشديد الرقابة عليهم بارسال مفتشين خولتهم صلاحيات وسلطات غير عادية ، وقد اطلق على هؤلاء اسم **مفوضين** .

السلطة القضائية والبرلمانات . — كانت المحاكم « برلمانات » تمارس السلطة القضائية العليا مع ما يرافقها من وظائف عامة أو ادارية ، وكانت جميع الدعاوى تستأنف لديها . وأهم هذه البرلمانات برلمان باريس وتمتد سلطته على جميع أراضي الملك . وله حق **التسجيل** وهو أن البراءات الملكية والأعمال الحكومية ، كالمعاهدات مثلا ، يجب أن تدون في سجل البرلمان لتصبح مقبولة شرعاً . وعن هذا الحق نشأ حق آخر وهو **الملاحظة** ، أي الحق في ابداء الملاحظات إلى الملك فيما يتعلق بالأعمال المسجلة . واستطاع البرلمان ان يصبح نوعاً من هيئة تشريعية ، وان يعارض الملك باسم التقاليد الملكية ، التي يدعي بتمثيلها وصيانتها والحفاظ عليها . وإذا أبدى البرلمان بعض المقاومات العارضة ، فقد كان خير

دعامة للملكية ، هذا مع العلم بأن للملك الكلمة الاخيرة فيما يتعلق بالاصول القضائي . وكان لديه منذ آخر القرن الرابع عشر المجلس العدلي الاكبر إلى جانب مجلس الحكومة . وهو نوع من محكمة عليا يرفع اليها الملك جميع الدعاوى التي يراها ذات أهمية خاصة وكما كان مجلس النجوم عند آل تيودور في انكلترا ، كان المجلس العدلي الاكبر آلة طيعة في يد الملك الفرنسي .

ويتفق تقدم التشريع مع نمو العدل الملكي . فقد حث فرانسوا الاول وهنري الثاني العمل الذي بدىء به منذ شارل السابع في اعادة النظر في الاعراف ونشرها . ويقصد من هذه الاعراف العادات القضائية الخاصة بكل بلد من البلدان التي لا تطبق فيها « الحقوق المكتوبة » أي الحقوق الرومانية منذ قرون . وقد تم هذا العمل في عهد هنري الثالث ، وكان عظيم الاهمية لانه جعل القوانين في متناول الجميع . ونصت براءة فيلار كوتيريه ، التي اذاعها فرانسوا الاول عام ١٥٣٩ على ان جميع أعمال كتاب العدل وأصول الدعاوى والمحاكمات والاحكام التي كانت تحرر باللاتينية حتى ذلك العهد ولا تفهمها الاكثرية الساحقة من المتداعين ، يجب ان تحرر باللغة الفرنسية . وهذا التدبير أمن ظفر اللغة الفرنسية على اللاتينية واللغات المحلية ، وساعد على تقوية وحدة المملكة .

نظام المالية . — ان كثرة الموظفين والحروب ومصاريف البلاط والاعياد وبناء القصور كانت تتطلب مبالغ جسيمة من المال . غير أن نظام المالية كان على درجة من التعقيد يصعب معها كل مراقبة فعلية . فقد وجد نظام خاص لكل صنف من اصناف الواردات : الواردات العادية من املاك الملك ، والواردات غير العادية أو حصيلة الضرائب

الثلاث الاساسية : المساعدات (رسوم البيع) ، وضريبة الملح (غابيل)،والتاي على الأشخاص أو على الأراضي ، والشؤون غير العادية أو الضرائب الناشئة عن الوسائل الاخرى .

وفي عهد الملك فرانسوا الاول تقرر تركيز جميع الواردات في صندوق عام سمي « خزانة التوفير » واقيم في قصر اللوفر (١٥٢٣) وخولت اليد العليا في ادارة المالية كلها إلى شعبة من مجلس الملك سميت « مجلس المالية » . وجباية الضرائب من الاقاليم حوفظ على النظام المتعارف عليه . بعد تبسيطه ، وهو نظام « الدوائر العمومية » وتنقسم بموجبه المملكة إلى أربعة دوائر عامة مالية ، على رأس كل منها مدير عام ، وتنقسم بدورها إلى عدة ناحيات يدير كلاً منها موظف ملكي يدعى « المنتخب » .

وإذا نظم الملك القواعد المالية فقد نسي نفسه ولم يضع قاعدة لاسرافه. وقد كتب فيه سفير البندقية يقول « انه يصرف بسخاء زائد ودون اي قاعدة » . ولذا كانت الضرائب ، رغم ازديادها ، لاتكفي ، وصندوق المالية في عجز دائم . وبقيت الحال على هذا النحو في عهد من خلفه من الملوك . وسيؤدي الامر إلى زوال الملكية أخيراً بنتيجة سوء الحالة .

ولمجابهة العجز القائم كان الملك يسلك جميع الوسائل التي تؤمن له المال : ففي ١٥٢٢ ولاول مرة طلب فرانسوا الاول من رعيته ان يقرضوه المال على ان يدفع لهم فائدة بسعر ٨٪ ويعتبر هذا القرض أول نموذج لقروض الدولة وبداية لما يسمى « الدين العام » .

وهنالك وسيلة اخرى لحصول على المال ، وكانت مطبقة في القرن السابق ، وهي بيع الوظائف ، وذلك يكون باعلان بيع الوظائف العامة ، كوظائف الجباة والخازنين ، والقضاة ... وغيرهم . وكان شراء هذه الوظائف يعود على اصحابها بالفوائد ، فمن ذلك انهم يعفون من الضرائب ، ويحصلون على فوائد شرفية ، ويصبحون نبلاء . ولذا اشتهرت

هذه الوظائف البورجوازيين . ولاشك في ان بيع هذه الوظائف له نتائج سياسية واجتماعية خطيرة . والنتيجة المباشرة له ازدياد عدد الموظفين إلى حد عظيم ، حتى اصبح الميل إلى الوظيفة صفة مميزة للشعب الفرنسي ، وادى الامر إلى ضياع الثروة العامة ، لان البورجوازيين تخلوا عن الاعمال المنتجة كالزراعة والصناعة والتجارة واتجهوا نحو الوظائف . وادى الامر ايضاً إلى كثرة الوظائف الممتازة التي كانت تثقل كاهل المكلفين بالضرائب .

ومن جهة ثانية كان هؤلاء الموظفون يدفعون ثمن وظائفهم نقداً ، ولذا يعتبرون أنفسهم مالكين لهذه الوظائف ويحاولون أن يورثوها ابنائهم كجزء من ارثهم ، وكان الموظف يستقيل من وظيفته لصالح ابنه ، او يحصل على سماح خاص يستطيع به نقل وظيفته اليه . وهكذا ادى بيع الوظائف بالتدريج إلى وراثة الوظائف وتأليف نوع من طبقة وراثية أخذت سلطتها تنمو مع الزمن وتنزع إلى الاستقلال وتعارض الملكية نفسها .

الحالة الاجتماعية والنشاط الاقتصادي . — لقد حكمت الملكية فرنسا في هذا العصر حكماً استبدادياً مطلقاً واستطاعت ان تلحق بها جميع الطبقات المتنفذة في المجتمع . فقد ألحقت الطبقة النبيلة ووظفتها خادمة في البلاط ؛ والاكليروس بعد ان خولتها الكونكوردات التصرف بالمناصب الدينية وبفوائد الكنيسة ؛ والبورجوازية ، فقد استطاعت أن تسخرها لخدمتها بواسطة الرشوة وبيع الوظائف . وبنتيجة هذا التطور ، الذي بدأ منذ العصور السالفة ، تحول المجتمع الاقطاعي السائد في العصر الوسيط إلى مجتمع ارستقراطي وملكي في الازمنة الحديثة . ولم يبق

من الامر الاقطاعية الكبرى ، عندما اعتلى فرانسوا الاول العرش ، الا امرة واحدة كان باسطاعتها مناوءة السلطة الملكية وهي أمرة آل بوربون . فقد كان الدوق شارل بوربون ، زوج حفيدة لويس الحادي عشر ، يملك تقريباً كل فرنسا الوسطى ، التي تضم بوربونيه ، أوفيرن ، لامارش ، لوبوجوليه . وقد عينه الملك فرانسوا الاول قائـــداً أعلى للجيوش الفرنسية ، وكان هذا الدوق في اراضيه ملكاً حقيقياً ،عاصمته مدينة مولـّنْ ، وله بلاط وحرس وحكومة وقضاة . غير أن زوجته سوزان توفيت في العام ١٥٢١ فقامت الملكة لويز سافوا تنازعه في قسم من أملاك سوزان هذه فغضب بوربون وتفاوض سراً مع شارلكان لعقد حلف معه ، وكاد الملك يقبض عليه لولا انه فر الى ايطاليا (١٥٢٣) وانحاز إلى صف الامبراطور ، فصودرت أملاكه وضمت إلى اراضي الملك . وهكذا أنهت خيانة بوربون وحدة الارض الفرنسية .

ولما مات شارل بوربون لم يعد باستطاعة أحد من الأمراء ان يحاول منازعة الملك السلطة . بل انهم على العكس فكروا بالتقرب منه والدخول في خدمته ؛ وأخذوا يسمون **الاشراف** .

ويرجع هذا التحويل إلى ثلاثة أسباب أساسية :

١ - **إن استقلال الأمراء على أراضيهم** ، أي ممارسة سلطتهم العليا ، لم يكن ممكناً . فقد كانوا محاطين بالموظفين الملكيين ، يراقبونهـــم ويتدخلون بينهم وبين تابعيهم ويقيمون العدل باسم الملـك عندما تستأنف الدعاوى لديهم .

٢ - **فقر الطبقة النبيلة** ، وقد ظهر للعيان منذ آخر حرب المائـة عام وما زال بازدياد ، وما فتئت تفتقر في القرن السادس عشر بسبب

تدفق المعادن الثمينة من العالم الجديد وانخفاض قيمة الفضة ، وتفاقم خطر التضخم النقدي .

٣ - **حاجة الأمراء الى المال** ، لأن حملات ايطاليا فتحت أمامهم حياة سهلة رخصة ناعمة ومزخرفة ، وأبدعت موضات جديدة وغالية فأرادوا تقليدها ، وأخذوا يتقربون من الملك لأن الحياة حوله كانت زاهية مزدهرة . ومن جهة ثانية ، كانوا يطمعون بالتقرب من حضرته لينالهم من كرمه هدايا ورواتب ومخصصات يستطيعون بها تأمين المال الذي يعوزهم .

وكان من نتيجة ذلك أن تحولت "طبقة اقطاعية الامراء إلى طبقة نبيلة مخلصة الملك ، وأصبح الملك يوزع حسب مشيئته القاب النبل بعد أن كانت في السابق متعلقة بتملك بعض الاقطاعات . فمن ذلك أن الملك جعل كلودغيز دوقاً بعد أن كان أحد أمراء اللورين ، وجعل من آن" مونمورانسي ، البارون البسيط ، أميراً وحاجباً الملك ثم قائداً أعلى لجيشه ، ونال هذا حظوة واسعة وأصبح يملك ما يقدر بـ ٦٠٠ اقطاع .

وكما كان الملك سيد الطبقة النبيلة كان أيضاً سيد الاكليروس ، وذلك بفضل الكونكوردات التي وقعها فرانسوا الاول والبابا ليون العاشر في العام ١٥١٦ . ودامت هذه الكونكوردات سارية المفعول حتى الثورة الفرنسية ، وتقضي أحكامها الاساسية بالا ينتخب الاساقفة والآباء من قبل الاكليروس بل ان الملك يعينهم تعييناً ويقرهم البابا في وظائفهم .

ويبدو لنا من هذه الكونكوردات أن المناصب الكنسية أصبحت توزع حسب هوى الملك على محظييه ومقربيه ، حتى ولو كانوا علمانيين ، وكان هؤلاء يتصرفون بموارد الأسقفية أو الأبوية ، باعتبارهم مديرين لها ،

دون أن يقوموا بأي وظيفة دينية . ويأتي بعدهم الاكليروس الحقيقي وكان يعيش في حالة فقيرة بائسة ولا يكتم استياءه من هذه الأعمال المفضوحة ومن العيشة الضنك التي يحياها .

على أن الكونكوردات وان كان منها أن أفادت الملك واعترفت بسلطته على الكنيسة ، فقد نجم عنها نتيجتان خطيرتان .

الاولى : انها ساعدت على توسع حركة الاصلاح في فرنسا ، لأن رجال الدين كانوا يهملون وظائفهم الروحية وينصرفون إلى حياة العصر .

الثانية : انها قسمت الاكليروس إلى طبقتين مختلفتين . فمن جهة الاكليروس الأعلى الارستقراطي الداخل في حاشية الملك . ومن جهة اخرى الاكليروس الادنى الشعبي المعروف بميوله الديموقراطية .

وتحت هاتين الطبقتين الممتازتين ، الاكليروس والنبلاء ، تأتي الطبقة الثالثة وتضم سواد الشعب الفرنسي من بورجوازيين وعمال وفلاحين ولم تتبدل في هذا العصر شروطهم الاجتماعية كثيراً . وتخلص الفلاحون من نظام القنانة ولم يبق منه الا القليل في بعض المناطق . وتفاقم الانفصال بين المعلمين والعمال في الحرف ، فقد كان هؤلاء العمال في شروط منحطة ومن الصعب بل ومن المستحيل عليهم الخروج منها . واستمرت البورجوازية في عملها ونشاطها الاقتصادي وزيادة ثروتها ونفوذها . ومما لا شك فيه أن هذه الطبقة لم يكن لها تلك المكانة السامية في مجالس الحكومة في عهد فرانسوا الاول وهنري الثاني ، إلا أنه كان باستطاعتها أن تشتري الوظائف والقاب الشرف . فقد اتصلت بالملكية اتصالا وثيقاً ، وفي الوقت ذاته ، أخذت تتدخل في حلقة اصحاب الامتيازات . ومن جهة اخرى كانت بعض الوظائف ، مثل وظائف الحكام في البرلمان تخول صاحبها النبل ، وكان هذا النبل من حيث المبدأ متعلقاً بالوظيفة ولا

يتحول عنها . غير أنه في الواقع كان ينتقل كالوظيفة نفسها . وتشكلت ، بالتدريج ، إلى جانب طبقة نبل السيف ، طبقة نبل اللباس (روب) البورجوازية الأصل التي أخذت تحتل شيئاً فشيئاً مكانتهـــا في المجتمع وفي الدولة .

النشاط الاقتصادي . — كان من نتائج السلام الداخلي في المملكة الفرنسية ، بعد القضـــاء على الاقطاعية ، ان نشطت حركة التوسع الاقتصادي . فقد كانت فرنسا بلداً زراعياً والزراعة فيه متقدمة ، والسطح المزروع بازدياد يوماً عن يوم . وكانت تنتج من الحنطة ما يجعلها تصدر قسماً منها ومن الفواكه وخمر بوردو وبورغونيا واورلئان .

ولم يكن النمو الصناعي بأقل أهمية من النمو الزراعي . فقد كانت مدينة ليون من انشط المدن واغنـاها ، وأصبحت وباريس مركزين رئيسين للطباعة . وفي عهد فرانسوا الاول أصبحت مع مدينة تور مركز صناعة الحرير . غير ان أهمية ليون تأتي عن مصارفها ومعارضها . كان أصحاب المصارف فيهـــا من كل جنسية ، ويأتي في الدرجـة الاولى الفلورانسيون ، الذين جعلوا ليون من أكبر أسواق أوربة المالية . وكانت أسواق هذه المدينة ملتقى للفلاماندين والالمـان والاسبانيين وذات أهمية خاصة في عمليات القطع التي تتم فيها .

ولكن هذا النمو الاقتصادي لم يخل من الازمات . وهذا يرجع إلى ارتفاع سعر الحياة الناشيء عن تدفق المعادن الثمينة وانخفاض سعر النقد المستمر ، بينا لم تزد اجور العمال بالنسبة نفسها . ومن هنا نشأت خلافات شديدة في بعض الاحيان ، أشهرهـا اضراب ليون عـام ١٥٣٩ . وقد دام هذا الاضراب أربعـة أشهر . وانحاز ممثل الملك إلى جانب أرباب العمل وقضى على اضرابات العمال وتجمعاتهم بالقوة تحت طـائلة العقوبات

الشديدة من سجن وتعـــذيب . وحلت جمعيات العمال ، التي تسمى اخويات ، بمرسوم صدر عام ١٥٣٩ .

وتجلى النشاط الاقتصادي أيضاً على متن البحر . فبينا خولت الامتيازات الأجنبية التوسع في التجارة مع بلاد الشرق ، الذي أفادت منه مرسيليا ، كانت موانىء الاطلسي تحاول الافادة من الاكتشافات البحرية الجديدة . ولم يكن ميناء لوهافر ، الذي أسسه فرانسوا الأول عام ١٥١٧ ، سوى ميناء حرب ، وكانت الاهمية لميناءي بوردو ولاروشيل ، والنشاط البحري بيد بحارة دييب وسن مالو . ومن أصحاب السفن الاغنياء آنغو وهو من دييب ، حاول بتشبثه الخاص منازعة الاسبانيين والبرتغاليين تجـارة الهند والعالم الجديد ، وذهبت سفنه حتى سومطره (١٥٢٩) واستحوذت على عـدة سفن اسبانية . غير أن آنغو لم يلق أي تشجيـع أو دعم لمشاريعه من قبل فرانسوا الاول أو من هنري الثاني ومات منكوباً عام ١٥٥١ .

بيد أن فرانسوا الاول كان يهتم بالرحلات الاستكشافية بين حين وآخر . ففي ١٥٢٣ — ١٥٢٤ اكتشف فلورنسي يدعى فيرازانو شاطىء امريكا الشمالية ، وكان يؤمل أن بالامكان ايجاد طريق للهند كما فعل ماجلان في الجنوب . وبعد ستة أعوام كلف نوتياً من سان مالو يدعى جاك كارتيه باكتشاف أصقاع الأرض الجديدة ، التي كان يرتادها صيادو سمك المورو من بروتانيين ونورمانديين ، فاكتشف مصب نهر سان لوران وتوصل إلى كندا (١٥٣٤ — ١٥٣٥) . وكانت الفكرة متجهة آنذاك إلى استعمار هذه البلاد ، التي تشبه الأرض الفرنسية والتي سموهـا فرنسا الجديدة . وكلف جاك كارتيه عام ١٥٢١ أن يسوق اليها المستعمرين ذوي الارادة الطيبة ممن اشتهروا بالمهارة الفنية والصناعية . ثم عدل عن هـذه

المؤسسات الاولى عام ١٥٤٤ ، إلا أن جاك كارتيه دل على الطريق التي سلكها الاستعمار الفرنسي في بداية القرن السابع عشر .

مظاهر النهضة في فرنسا . — لم يكن التجديد ، الذي تم في القرن السادس عشر في فرنسا ، في عالم الفكر والآداب والفن ، بأقل منه في العالم السياسي والاجتماعي والاقتصادي .

لقد كان الفكر في القرن السادس عشر يمتاز باصلاح مزدوج ، الاصلاح البروتستانتي والاصلاح الكاثوليكي ، وقد وقف كل منهما في وجه الآخر وأفاد كل منهما الحياة الروحية ، غير أن حركة أخرى قديمة الجذور ارتسمت وزادت النهضة في تسارعها واندفاعها وهي الحركة الواقعية أو الوضعية ، وقد وجدت هذه الحركة بعد ليوناردو فانتشي تعبيرها عند اناس مشهورين يأتي في الدرجة الاولى منهم بودن وكوبرنيك وفيزال .

أما جان بودن (١٥٢٠ — ١٥٩٦) فقد ولد في آنجه وأسس ما نسميه اليوم « العلوم الانسانية » وآثاره ترسم منهج التاريخ وتلقي على الحوادث الاقتصادية أنواراً تزيد في وضوحها وتجعل التنبؤ بها ممكناً .

وكوبرنيك البولوني ، كما رأينا ، ولد في تورن في ١٩ شباط ١٤٧٣ ومات في ٢٤ أيار ١٥٤٣ ولم يكن فلكياً عبقرياً فحسب بل انه لامس كل شيء بصورة فائقة . فقد بحث في الطب والاقتصاد السياسي وجميع الافكار الموجهة التي تحرك العالم .

وآندره فيزال ولد في بروكسيل عام ١٥١٤ وتوفي ١٥٦٤ . جدد التشريح بالملاحظة ودشن مذهب التجريب الحقيقي وبدأ بعلم الحياة الجديد . وكانت هذه العقول متقدمة سابقة لعصرها فلم تقبل افكارها ولم تستقبل بارتياح . غير أن هنالك بجانبهم أقل جرأة منهم ولكن عملهم كان مباشراً

وظاهراً مثل روندليه صديق رابليه ، فقد شاد في مونبليه أول مدرج للتشريح . ودرس جورج آغريكولا طبقات الارض والمعادن . ووضع آمبرواز باريه (١٥١٧ — ١٥٩٠) الجراحة في مرتبة العلم الحقيقي ودشن عَصْبَ الشرايين . وأوجد آندره باليسّي مر صناعة الخزف وتعمق في « العمل » وعارض به « النظر » . وكان أحد هذين الرجلين كاثوليكياً والآخر هيغنوتياً (بروتستانتياً) ويمثلان بحق اسهام فرنسا في الحركة الدولية لعصر النهضة . ويضاف إلى هؤلاء اتين دوليه المشهور بآرائه الجريئة (١٥٠٩ — ١٥٤٦) وجان بواسونيه وغليوم بوديه .

وقد تحسنت الآداب الفرنسية بهذا الجو العام لعصر النهضة . ومن الادباء كالفن وكان يكتب الفرنسية بوضوح ورشاقة . واليه يجب أن نضيف مؤلفين ناثرين عظيمين وهما رابليه ومونتين .

ولد فرنسوا رابليه حوالي العام ١٤٩٤ بالقرب من شينون وكان عقلاً واضحاً متزناً . دخل الدير شاباً ودرس فيه أكثر مما صلى ، ثم صار راهباً فرنسيسكانياً وفي آخر العام ١٥٢٠ تعمق في دراسة الاغريق وراسل بوديه الذي يعتبر أكبر رجال جيله في الدراسات الهلنية . ثم استاء من قساوة الحياة الفرنسيسكانية وحصل من البابا كليمان السابع على السماح بالانتقال إلى أبوية البنديكتين (طريقة القديس بندكت) في مايوزه ، وحماه الاسقف جورج ايستيساك واصطحبه في رحلاته ، ولبس لباس الكاهن العصري وذهب لدراسة الطب في مونبليه (١٥٣٠ — ١٥٣١) حيث يرى تسجيله في سجل الكلية . ثم ذهب في العام ١٥٣٢ إلى ليون وتعاطى فيها مهنة الطب . ثم عاد في العام ١٥٣٧ إلى مونبليه . ويدل دفتر السجل على نواله درجة الدكتوراه . وقد اجتمع فيه علم الطب بالانسانية ، وكانت رسائله نشيطة مع رجال الحركة الانسانية وخاصة

مع ارزموس زعيم هذه المدرسة . وقد نشر في ليون لأول مرة كتابه « غارغانتوا » وبداية « بانتا غرويل » وكان أثره الاول مغفلا . والثاني كان باسم منتحل (الكوفريباس نازيه) . ولاقى هذا الكتاب نجاحاً عظيماً وأعيدت طبعته مراراً . وهكذا انتشرت كتب رابليه برواياته الخالدة التي جعلت منه علماً من أعلام الأدب الفرنسي بل الأدب العالمي . نرى في آثاره هجاء تاماً لمجتمعه ، ونقداً جريئاً لجميع الافكار والنزعات والرذائل والعيوب والاخطاء ، ومسلاة انسانية للقرن السادس عشر كما هي حال آثار بالزاك في القرن التاسع عشر . وفي الوقت الذي يخدم فيه أفكاره كان يخدم السياسة الملكية أي السياسة القومية فيؤمن لنفسه بذلك سنداً وعضداً . كان مع الملك ضد البابا ومع الملك ضد الامبراطور . وشجع على حركة فرنسا نحو كندا والقارات الجديدة . والمغامرات التي يتحدث عنها تدعو الى الاهتمام بأراضي المحيط الاطلسي . وأهاجيه لاذعة تتناول عدم التسامح والرياء وتكافح في سبيل الحرية وتفيد في المناقشات الفلسفية في الحضارة والاخلاق .

أما مونتين فقد ولد في بير يغور من اسرة غنية ، وقد شاء ابوه ان يجعل منه عالماً فقيهاً ، فرباه تربية كلاسيكية ، وتثقف ثقافة متينة ، وقضى حياته بالقراءة والمطالعة والتأمل ، وشغل عدة مناصب في الدولة ثم اعتزل اخيراً في قصره . ومات على أثر التهاب شديد في اللوزتين في ١٣ ايلول ١٥٩٢ .

صدر له في العام ١٥٨٠ في بوردو كتاب « المحاولات » وفيه يتجلى جهد التفكير والثقافة الفكرية والقلق المعنوي في القرن السادس عشر .

وإلى جانب هذين العلمين يأتي فريق من المؤلفين الناشرين يسير في

ركابها ونخص بالذكر منهم الاسقف الصالح آميو الذي ترجم بلوتارك وبطرس شارون مؤلف كتاب « العقل » وغيرهم .

وفي عالم الشعر انطلق الفكر التحرري في الآداب الفرنسية بقوة ووضوح . ويأتي في درجة الشرف في هذا الحقل رونسار وحلقة الشعراء السبعة .

ولد رونسار في قصر لابوا سونيير بالقرب من فاندوم في ١١ ايلول ١٥٢٤ . كان حاجباً ، ثم أصيب بالصمم فعكف على الدراسة وتعمق في دراسة المؤلفين القدماء . وغدا زعيم حلقة الشعراء السبعة . واكتسب بتأثيره على الحلقة ملكية ادبية ، فثمل بنشوة الظفر وتوصل إلى الشعر الغنائي والملحمة بقصيدته الشهيرة المسماة الالياذة الفرنسية « لافرانسياد » . ولكن هذه الآثار كانت ضئيلة ، واعترف الشاعر بذلك . غير أنه كان شاعراً حقاً رقيقاً شريطة الا يقحم شيطانه الشعري المختص « بالانواع الصغيرة » ولا يضاهيه أحد في هذا الحقل . فالهامه العذب واسلوبه الطلي يذكراننا بفكرة النهضة في نقاوتها الخالصة وشبابها الحبيب . ونلمس في آثاره حسن الايقاع والقافية والموسيقى . ولم يكتب أحد ماكتبه رونسار في الحب والاسف والورد والشيخوخة والزمن الفاني والشباب وما إلى ذلك من هذه الأغراض .

الفن . — كانت النهضة الفرنسية بنت النهضة الايطالية وتعتبر من هذه الناحية نتيجة هامة من نتائج حروب أيطاليا . فقد أخذ كل من شارل الثامن ولويس الثاني عشر وفرانسوا الاول وفرسانهم بجمال الحضارة الايطالية . وعندما عادوا إلى فرنسا ارادوا أن يروا فيها ما شهدوه في ايطاليا . لقد اشترى شارل الثامن من فلورنسا تحفاً فنية بما يقدر بنصف مليون فرنك ، كما اصطحب معه ٢٢ فناناً . واخذ فرانسوا الاول من

ايطاليا مجموعة من الرخام القديم ، وطلب إلى رافائيل ولؤناردو فانتشي عدة لوحات ، وجذب معه لؤناردو إلى فرنسا . وكان قصره في فونتينبلو يضم جالية من الفنانين الايطاليين مثل فرانشيسكو بريماتيكشيو وروسو وبينفينوتو تشيلليني . وكان أفراد الرعية يشاركون الملوك في حماسهم للفن ورجاله . وغدا الفن موضة أخذت بلبهم وتملكتهم ، الأمر الذي أثر على الفن الفرنسي فحوله .

وفي الحقيقة كان التحول بطيئاً ولاقى مقاومة . وسبب ذلك أن فرنسا كانت بلداً فنياً له تقاليده الفنية ورجاله . ويمكن أن نميز فيها آنذاك مدرستين فنيتين ودورين فنيين هامين . ففي الدور الاول ، الذي يمتد حتى منتصف القرن ، كانت المدرسة ، التي تستوحي فنها من التقاليد الفرنسية ، عظيمة التأثير ، ولم تتأثر بالفن الايطالي إلا قليلا . أما في الدور الثاني فقد طغى الفن الايطالي مع المدرسة التي تستوحي من التقاليد القديمة ، وأصبح الفن الفرنسي فناً كلاسيكياً دون أن يفقد صفاته الخاصة الفرنسية من تذوق للوضوح والضياء والبساطة والرشاقة . وحس القياس .

وترجع فرنسا في مجدها الفني في عصر النهضة ، كما في العصر الوسيط ، إلى مهندسيها المعماريين ونحاتيها . ولم يكن فيها مصورون ، عباقرة ، كما في ايطاليا . فقد اشتهر مصوروها برسم الاشخاص مثل فرنسوا كلويه . وكانوا يرسمون صوراً صغيرة بالالوان الزيتية أو بقلم الرصاص ولكنها كانت عجيبة الصنع في الدقة والوضوح .

البناء . — كانت النهضة الفنية في فرنسا بنائية عمرانية بني خلالها قليل من الكنائس ، لأن الاتجاه كان منصرفاً نحو بناء الابنية

المدنية ، مثـل القصور البلدية والقصور الفخمة التي تصلح لاقامة الحفلات والاعيـاد .

كان فن البناء في أوله اميناً على التقاليد القومية ، ولم يخرج عـن اطاره هذا إلا قليلاً . وكان المهندسون المعماريون يستوحون فنهم ، في بناء القصور الجديدة ، من القصور القديـــة الفرنسية وخاصة في وادي اللوار في منطقة آنجو وتورين الملقبة بحديقة فرنسا . ومن هذه القصور قصر آمبواز الذي بدىء ببنائه في عهد شارل الثـامن ، وقصر بلوا في عهد لويس الثـاني عشر ، وقصر شامبور قصر فرانسوا الاول وقصر شينونسو وغيرها .

ومع هذا فقد ظهرت منذ ذلك الدور موضة جديدة في تفصيلات التزيين وتيجان الأعمدة والسطوح أو في زخرفة المنازل . وقد ظفر الفن في اسلوبه القديم في عهد هنري الثاني .

وكانت آثار هذا الاسلوب البديـع المسمى « اسلوب النهضة » من عمل ثلاثة فنـــانين معماريين : بيير ليسكو ، جان بولان ، فيليبر دولورم ، وقد ذهب الثـلاثة إلى ايطاليـا ودرسوا الاوابد القديـة واستوحوا منها .

كان بيير ليسكو باريسياً نبيل اللباس ومعماراً موهوباً . رسم مخطط قصر اللوفر وبدأ ببنائه . وقد قرر الملك فرانسوا الاول ان يقوم هذا القصر حوالي العام ١٥٤٧ مقام قصر شارل الخـامس القديم . ولم يتم قصر اللوفر الا بعد مائة وخمسين سنة أي في عهد لويس الرابـع عشر ، فكان أثر النهضة الاصيل ، وفيه تتجلى دقـــة البناء والتناظر وجميـع العناصر المستوحاة عن القديم ممتزجة بالرشاقة النادرة والاهتمام بالاسلوب ونقاوة الخطوط .

وكان فليبر دولورم ابن فنان من ليون ، وقد تمتع بشهرة زائدة ، إلا أن آثاره العظيمة فقدت . بنى قصر التويلري للملكة كاترين دوميدتشي بمعونة جان بولان ، إلا أن هذا القصر احترق عام ١٨٧١ ولم يبق منه شيء . وقصر آنيت بالقرب من مدينة دروو وهو قصر ديانا بواتيه وقد حرق أثناء الثورة الفرنسية .

وكان جان بولان بناء عند مو نمورانسي القائد العام للجيش ، ثم أصبح مهندساً معماراً عند الملكة كاترين دوميدتشي . وقد بنى لمونمورانسي قصر ايكوَن بالقرب من باريس . وقد استوحى فنه من معبد جوبيتر في روما .

النحت . — وكان النحاتون كالمعماريين على فئتين : بعضهم ظل اميناً للتقاليد الفرنسية والآخرون تأثروا بالفن القديم الايطالي . ومن أشهر النحاتين : ميشيل كولومب ، وهو بروتاني نحت ثانت ضريح دوق بروتانيا أبي الملكة ؛ وليجيه ريشيه ، وهو من بلاد اللورين ، نحت دفن المسيح في ضريحه في كنيسة سن ميهيل ؛ وبيير بونتان وقدعرف بالواحه النافرة وتماثيل ضريح فرانسوا الاول في سن دوني ؛ وجان غوجون وكان معاوناً إلى فيليبر دولورم في انيت ، وبيير ليسكو في قصر اللوفر وكان مثلهما كلاسيكياً قحاً ، ويبدو أن مجموعة الاسلحة ، التي نحتها على واجهة اللوفر ، وقد أخذ فنها عن أقواس الظفر الرومانية. أما أشخاصه : ديانا آنيت و إلـهات نبع الابرياء » في باريس فتبدو عارية أو لابسة البسة فضفاضة متموجة مرنة على الطراز القديم ؛ وجرمن بيلون نحات شارل التاسع وكاترين ميدتشي . وفنه مستوحى من القديم في التماثيل البرونزية التي تزين ضريح هنري الثاني ، كما أنه يرجع ، في بعض الاحيان ، إلى الفن الفرنسي المألوف . وبعض آثاره ، كتمثال المستشار بيراغ ، معروفة بواقعيتها القوية .

الحروب الدينية

كان الاصلاح الديني في اوربه حادثاً من الحوادث الرئيسية الهامة في تاريخ القرن السادس عشر فقد قاومت الكنيسة جميع هرطقات العصر الوسيط ، غير أنها مالبثت أن تمزقت دون مقاومة . ولاشك في أن الاصلاح الكاثوليكي أتى متأخراً وبطيئاً ، ولكنه أفاد الكاثوليكية ، على أي حال ، وادخل في حظيرة الكنيسة قسماً من المحتجين ، أو على الاقل ، ابقى وحافظ على البلاد التي مازالت تعتنق الكاثوليكية ديناً . وبالرغم من أن مجمع ترانت يسجل نقطة انطلاق في نشاط الكنيسة واسترداد مافقدته من قوة ، فقد أخذت الاوضاع الدينية تتعارض مع بعض ، وقامت الخلافات المسلحة وسط غليان الافكار واصطدام العقائد والمذاهب وتنافس الاطماع ، وانبعثت عنها الحروب الدينية .

لقد بلغت الشدة في هذه الحروب منتهى العنف والفظاعة وأصاب فرنسا ما أصابها من أخطار جسيمة مع أنها لم تكن عاملاً وموطناً لها . كان لوثير ألمانياً . وكان كالفن فرنسياً ، غير أنه وان يكتب بالفرنسية ويعتبر من اكبر الكتاب باللغة الفرنسية ، ففي جونيف ، أي في خارج فرنسا ، كان مركز عمله وقطب انتشار مذهبه . ولقد اجتاحت العاصفة الدينية فرنسا ولكنها تماسكت و « ظلت ابنة الكنيسة البكر » ولم يمنع ذلك من حدوث اثنينية دينية بعد الوحدة .

بوادر الحروب الدينية . — لم تمض ثلاث سنوات على توقيع معاهدة كاتو – كامبريزي إلا ودخلت فرنسا في حروب أهلية فظيعة ، مبعثها الاهواء والاحقاد الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت أو كما يسمون

أنفسهم بابويين وهوغنوت (١) . وقد دامت هذه الحروب اكثر من ثلاثين عاماً من (١٥٦٢ — ١٥٩٣) .

انتشرت الديانة الكالفنية بسرعة في فرنسا في عهد هنري الثاني ، واعتنقت هذا المذهب الأصناف المتواضعة والبورجوازيون المسالمون مع عدد عظيم من الأشراف وخاصة في جنوب فرنسا وغربها . واعتناق النبلاء فكرة الاصلاح يعتبر حدثا عظيم الاهمية ، لأن العمال والصناع والبورجوازيين لايمكنهم مقاومة الاضطهاد إلا بالاستسلام والرضا بالأمر الواقع . أما النبلاء ، وهم جنود من ولادتهم ، فيقاومون بالسيف . وبعد أن توطد السلام بين فرنسا واسبانيا قل نشاطهم الحربي وأصبحوا بدون عمل . وباعتناقهم الكالفنية ديناً أصبح الحزب الكالفني حزباً سياسياً عسكرياً متهيئاً للحرب في سبيل الذود عن إيمانه . ومن هنا نشأت الحروب الدينية .

وفي مثل هذه الظروف القلقة المضطربة كانت فرنسا بحاجة إلى مليك قوي الشكيمة ، ولكن بعد أن توفي هنري الثاني فجأة عام ١٥٥٩ شهدت فرنسا عهدي وصاية متواليين ، ذلك لأن فرانسوا الثاني كان حدث السن وله من العمر عشر سنين . ولاشك في أن هذه الظروف توقظ حتما الاطماع والتنافس والمكايد لتملك السلطة وتشكل الاحزاب التي تمثل المنافع الشخصية والسياسية والدينية . وقد وجدت آنذاك ثلاث أسر كانت تدعي باسهامها في حكم المملكة ، وهي : آل بوربون ، آل مونمورانسي ، آل غيز .

أما آل بوربون فهم من أنسال القديس لويس (لويس التاسع) أي امراء الدم . وكان كبيرهم انطوان بوربون ضعيف الشخصية متردد

---

(١) ان كلمة هوغنوت Huguenots لقب اطلق على البروتستانتيين من اتباع كالفن ، وهو مأخوذ عن الكلمة الالمانية Eidgenossen وتعني « المتحدين » .

الطبع ، وقد أصبح ملك نافار بزواجه من جان البريت بنت مارغريت انغوليم . وكان الابن الثاني شارل مطران روان وكاردينالا . وكان الثالث لويس طموحاً مشاغباً يلقب بأمير كونده وقد اعتنق واخوه انطوان الكالفنية منذ عام ١٥٥٨ .

وكان آل مونمورانسي عريقين في نبلهم وثروتهم وعلاقاتهم الزوجية ويؤلفون أعظم اسرة وأقواها بين أسر الامراء في المملكة ويسمون انفسهم باعتزاز وفخر « بارونات المسيحية الأوائل » . وزعيم هذه الاسرة القائد العام مونمورانسي الشيخ وكان مشاوراً للملك فرانسوا الثاني الذي يسترشد برأيه ويعمل بنصيحته ، وكذا الحال في عهد هنري الثاني . وكان هو واولاده كاثوليكيين متحمسين وغيورين على كاثوليكيتهم . غير أن اثنين من ابناء أخيه وهما الاميرال كوليني وآنديلو زعيم المدفعية العام اشتهرا بحبهما للجندية واعتنقا ، كأمير كونده وأخيه انطوان ، المذهب الكالفني (١٥٥٨).

وكان آل غيز احفاد ادواق اللورين ، فهم إذاً من أصل أجنبي ، لأن اللورين كانت مرتبطة بالامبراطورية الجرمانية ، ولكن أراضيهم كانت في فرنسا ، وأمهم من آل بوربون أميرة الدم ، وسبق لأبيهم أن خدم فرانسوا الاول بشجاعة وبسالة . وكسب كبيرهم فرانسوا غيز مجده بالدفاع عن ميتز وأخذ كاليه . وكان أخوه الاصغر منه شارل ، كاردينال اللورين مطران رنس ، ويعتبر أغنى حبر في فرنسا . وقد رأينا في عهد هنري الثاني كيف ان الاخوين تقاسما مع مونمورانسي ثقة الملك والسلطة . وكانا شديدي التعلق بالكاثوليكية ولا يقل طموحهما الشخصي عن هواهما الديني . وقد قربت وحدة الايمان آل بوربون من كوليني ، واعترف بهم الكالفنيون زعماء عليهم . كما أن وحدة الايمان يمكن أن

تقرب آل مونمورامي من آل غيز . غير أن تنافس الاطماع حال دون هذا الاتحاد . وكان لكل امرة سياستها الدينية . وقد ظهر آل غيز منذ البدء كاثوليكيين متعنتين ، وآل مونمورانسي على الأكثر معتدلين متسامحين .

فرنسوا الثاني ومؤامرة آمبواز . — ان اعتلاء فرانسوا الثاني بن هنري الثاني عرش المملكة جعل آل غيز سادة فرنسا . فقد تزوج فرنسوا الثاني ماري ستيوارت قريبتهم ، واستطاعت هذه أن تسيطر على الملك فترك إلى عميه الدوق والكاردينال التبعة في كل شيء . وكان آل غيز يطبقون المراسيم الصارمة الشديدة ضد البروتستانتيين . فمن ذلك ان آن بورغ ، أحد المستشارين في برلمان باريس ، ندد بسياسة الاضطهاد في حضرة هنري الثاني ، وتجرأ على لومها بشجاعة فكان جزاؤه الشنق والحرق. غير أن البروتستانتيين لم يستسلموا للاضطهاد يعمل فيهم دون مقاومة ، ودبروا مؤامرة يتزعمها شريف بسيط يدعى لا رينودي وزعيمها السري أمير كونده ، وكانت هذه المؤامرة ترمي إلى خطف فرنسوا الثاني لاقصائه عن نفوذ آل غيز . وقد علم كالفن بمجريات الامور في هذا المشروع وعبثاً حاول تعنيفه ، وقال في هذا الصدد « ان نقطة الدم التي تسفك ستسيل منها انهار تغمر فرنسا » . وبالرغم من ذلك فان هذا المشروع ظل حياً ، ولكنه أخفق لخيانة أحد المتآمرين . وعند ذلك وضع آل غيز الملك في قصر آمبواز آمناً وقبض على المتآمرين وأغرق من أغرق وقتل من قتل (١٥٦٠) . وسلك آل غيز سياسة صارمة ليقطعوا دابر كل خطر يهدد بالحرب الاهلية ، واوقفوا كونده ، واحالوه إلى المحكمة ، فحكم عليه بالموت للخيانة العظمى ولم ينج إلا بموت الملك الفتى ،

الذي أودى إثر مرض مفاجيء وله من العمر خمسة عشر عاما (كانون الاول ١٥٦٠) .

أحدث هذا العمل استياء عاماً وهدم سلطة آل غيز . وكان الملك الجديد شارل التاسع ، الابن الثاني لهنري الثاني ، حدث السن وله من العمر عشر سنوات . واستطاعت الملكة الأم كاترين دوميدتشي بحذاقتها ان تقصي أمير النسب ، انطوان بوربون ، وتستولي على الوصاية وحتى هذا التاريخ لم تلعب كاترين دوميدتشي أي دور سياسي ، وكان لها من العمر أربعون سنة وتتمتع بشهرة طيبة ، ولكنها تحب السياسة التي ابعدت عنها ولاتعرف الدين أي وازع ولا رادع . وكانت عاطفتها المسيطرة عليها وحبها الاموي وارادتها تدفعها إلى جعل كل شيء في مصلحة أولادها، وأرادت أن تؤمن لنفسها كل ذلك بهدوء فسلكت سياسة التوازن ، واعتمدت على آل بوربون ضد آل غيز وقربتهم اليها بعفوها عن أمير كونده . وادركت من جهة ثانية بأن الاهواء الكالفنية والاهواء الكاثوليكية يمكن أن تهدد السلطة الملكية ، فحاولت أن تسلك سياسة مصالحة وتساهل . وكان مشاور الملكة في هذه السياسة الجديدة ميشيل دولوبيتال ، وكان رجلاً عاقلا معتدلا انضجته السنون وحنكته التجارب ،مخلصاً للملكة . وجعل همه توطيد احترام السلطة الملكية .

ولتهيئة المصالحة الدينية عقد الاساقفة والرعاة مجمعاً دينياً في بواسّي (ايلول ١٥٦١) وكان ممثل الكالفنيين تيؤدور دوبيز صديق كالفن ، وممثل الكاثوليك كاردينال اللورين . غير أنهم اختلفوا في نقطة اساسية تتعلق بالعقيدة في الافخاريستيا فجعلت كل تفاهم غير ممكن . ومع هذا فقد أذاعت كاترين مرسوم التسامح في (كانون الثاني ١٥٦٢) وبموجبه منح البروتستانتيون حقوق الاحتفال علانية بعباداتهم في خارج المدن وفي الارياف .

ولكن سياسة الاعتدال لم تنجح أيضاً كسياسة الشدة والصرامة ، فضلاً عن ان فكرة التسامح والتساهل كانت غريبة ولم يرض عنها عدد عظيم من الكالفنيين والكاثوليك . ففي جنوب فرنسا ، حيث كانت الاكثرية بروتستانتية ، أعمل الكالفنيون القوة ضد الكاثوليك . ففى مونبليه جدفوا الكنيسة واغلقوها وقتلوا فيها خمسة عشر شخصاً (تشرين الاول ١٥٦١) ، وكانت المشادات الدموية تقوم في كل مكان . وبعد شهر تقريباً من اعلان مرسوم التسامح الآنف الذكر أي في آذار ١٥٦٢ ، مر دوق غيز في فاسّي في مقاطعة الشامبانيا ، فأعمل رجال حاشيته السيف في جماعة من الكالفنيين يحتفلون بعبادتهم في أحد الانبار . وما لبثت هذه المشادة ان انقلبت إلى مذبحة وقع فيها اكثر من مائة كالفني مابين قتيل وجريح .

ومذبحة فامي ، التي احتفل بها الكاثوليك كنصر وظفر لهم ، اثارت الاحقاد والكراهية وكانت بادرة للحرب الاهلية .

صفات الحروب الدينية . — يقدر عدد الحروب الدينية بثماني حروب : أربع منها في حكم شارل التاسع (من ١٥٦٢ إلى ١٥٧٣) ، واربع منها تحت حكم هنري الرابع (من ١٥٧٤ إلى ١٥٩٣) وكانت هذه الأخيرة اكثر تعقيداً من الأولى لأن القضايا السلالية تدخلت في القضية الدينية .

كانت هذه الحروب ، وخاصة الاولى ، فظيعة بالغة منتهى الهمجية والفظاعة . لأن كلًا من الجانبين يحاول أن يثأر لنفسه ولا يتوانى عن ارتكاب القتل دون اشفاق ، وكانت هذه الاعمال تقوم فيها بشكل مذابح وشنق وقتل اكثر منها في واقعة حربية حقيقية . ومن جهة ثانية كانت لهذه الحروب الدينية صفة سياسية ، لأن مبدأ السلطة الملكية قد

اختلف فيه وأصبح منازعاً . ففي بعض مناطق الجنوب كانت الحركة البروتستانتية في الوقت ذاته حركة حرة ديمقراطية . وعندما تشكلت العصبة قامت افكار مماثلة عند الكاثوليك وزعموا بانهم يريدون أن يعيدوا إلى المملكة حرياتها القديمة .

واندفعت الاهواء الدينية فبلغت الذروة وكسفت أمامها العاطفة القومية . لأن كلا الجانبين كان يدعو الاجنبي لنجدته ، وذلك يكون إما بطلب معونة الملوك مثل اليزابيث وفيليب الثاني وامراء المانيا ، واما باستئجار المرتزقين الايطاليين والسويسريين والالمانيين ممن لا يبالون بالدين ولا يتورعون من الانتقال من معسكر لآخر في سبيل اجر اعلى . ففي واقعة ايفري كان نصف فرقة الفرسان في الجيش الكاثوليكي يتألف من فرسان خفاف من الفلاماندين والايطاليين والالبانيين والاسبانيين ورماحة الفالون والالمانيين .

ولم تؤد أي حرب من حروب الدين إلى نتائج حاسمة لأن كلا الخصمين لم يكن في حالة يستطيع معها الاجهاز على الخصم وضربه الضربة القاضية . فقد كان الكالفنيون أقلية ولم يستطيعوا أن يظهروا على سواد الأمة الكاثوليكية . ولم يستطع الكاثوليك أن يقضوا على الكالفنيين لأن هؤلاء كانوا موزعين في كل انحاء فرنسا . وكان جنوب فرنسا ، ويضم حوض اكيتانيا واللانغدوك ، موطن مقاومتهم الاصلي . وفيما عداه نجدهم في الاوفيرن وبورغونيا ونيفرنيه . ولم يكن هنالك مركز حيوي يمكن لضربة واحدة أن تقضي عليهم . وهذا ما ساعد على استمرار مقاومتهم .

الحرب الاولى . — دامت الحرب الاولى عاماً من ١٥٦٢ إلى ١٥٦٣ . وفيها شايعت كاترينا دوميدتشي حزب الكاثوليك وطلبت مساعدة ملك اسبانيا . كما طلب زعيما الجيش البروتستانتي ، كونده وكوليني ، نجدة

اليزابث ملكة انكلترا ، ومقابل هذه المساعدات أخذت ميناء لوهافر في ايلول ١٥٦٢ . وجرت العمليات الاساسية بين نهر السين واللوار . أما ملك نافار فقد ارتد إلى الكاثوليكية وأصابه جرح وقضى نحبه في حصار روان . ووقعت الواقعة الكبرى في درو وكان غيز فيها غالباً وكونده أسيراً .

وبعد بضعة أسابيع وبينما كان فرانسوا غيز يحاصر اورلئان رماه بروتستانتي اسمه بولترو دو ميره بسهم فأرداه قتيلاً ، وقام هنري غيز ابن الضحية واتهم كوليني بتدبير هذه الجريمة ، فاحتج كوليني مستعلياً ولم يمنعه هذا من الفرح بموت خصمه . وانتهت الحرب بمرسوم آمبواز (آذار ١٥٦٣) ، وكان هذا المرسوم أقل حرية من مرسوم كانون الثاني الذي سبق ذكره ، إلا أنه جعل فرنسا تتمتع بالسلام خلال أربع سنوات . ولتوثيق الصلح بين الكاثوليك والبروتستانت اندفع الجانبان لاسترجاع لوهافر من أيدي الانكليز .

الحرب الثانية والثالثة . — غير ان تحاسد الزعماء الكاثوليك والبروتستانت وسوء ظنهم ببعضهم في البلاط الملكي أدى في العام ١٥٦٧ إلى معاودة الحرب . وقتل مونمورانسي في واقعة سن دوني لتخليص باريس بعد أن حاول كونده حصارها . وعاد السلام في العام ١٥٦٨ وما لبث أن انفصمت عراه . وتجمع الكالفنيون في هذه المرة في جنوب غربي نهر اللوار وغلبوا على أمرهم مرتين في جارناك وفي مونكونتور ١٥٦٩ . وظلت الحرب دون نتيجة . وقد جرح كونده في جارناك واستسلم ، إلا أن ضابطاً من ضباط دوق آنجو اخو الملك شارل التاسع ، قتله . ولكن كوليني بقي متين الاعصاب متماسكاً وأصلح جيشه وعاود الحرب ، ثم حصل اعياء عام ، وملت كاترينا فعادت إلى سياسة السلام .

وفي ٨ آب ١٥٧٠ وقعت مرسوم سان – جرمن وخولت بموجبه البروتستانت أربعة مواقع أمينة يقيمون فيها حامياتهم وتسمى « مواقع الأمن » وأهمها مونتوبان و لاروشيل التي أصبحت عاصمة فرنسا الهوغنوتية .

ويبدو ان كلا الطرفين جنح لسياسة التسامح والسلم ، وجرت مفاوضات ادت إلى عقد زواج مارغريت فالوا اخت الملك وابنة كاترين بالملك الشاب هنري نافار زعيم الحزب الكالفني وله من العمر خمسة عشر عاماً . واستدعى الملك شارل التاسع كوليني إلى مجلسه . واستطاع هذا بما أوتيه من خبرة سياسية وحنكة في الحروب وبعد نظر ان يزيد في نفوذه لدى الملك الشاب .

وكان من جملة المشاريع ، التي يغذيها كوليني لدى الملك ، المشروع الذي يرمي إلى معاودة النضال ضد آل هابسبورغ . وكما كان الماريشال فييفيل قبل عشرين عاماً يشير على هنري الثاني ، كذلك اشار كوليني على الملك أن يلقي بجنوده في آرتوا والفلاندر ويضع يده بيد الثوار في البلاد المنخفضة . فلاقى هذا المشروع تحبيذ شارل التاسع . الا ان هذا المشروع أخاف كاترين دوميدتشي ورأت أن من التهور مهاجمة ملك اسبانيا القوي . والذي أخافها أكثر من ذلك هو أنها فقدت كل نفوذ على ابنها كما فقدت سلطتها . فاتفقت مع هنري غيز عدو كوليني الألد ولم تتردد في الالتجاء إلى الجناية في القضاء على هذا الخصم . وفي يوم الجمعة الموافق ٢٢ آب ١٥٧٢ أي بعد أربعة أيام من زواج هنري نافار بمارغريت فالوا أطلق عيار ناري على الاميرال كوليني إلا أنه اخطأه ، فحنق الملك من هذا العمل وأقسم لينتقمن له دون رأفة أو رحمة .

مذبحة سان بارتلمي . – وعن محاولة الاغتيال هذه خرجت جريمة من أفظع الجرائم التي عرفها التاريخ . فقد أمر الملك باجراء تحقيق

للكشف عن المسبب بالضرر ، وخافت كاترينا أن يعرفها التحقيق فلم تر بداً ، للخلاص من هذه المشكلة ، من مذبحة عامة لزعماء البروتستانت . ووسوست للملك حتى جعلته يعتقد أن الهوغنوت يدبرون المؤامرة على حياته وان السلام غير ممكن ان لم يبدهم جميعاً . وبعد أن قاوم الملك طويلا انتهى به الأمر إلى أن قال « اقتليهم بل اقتليهم جميعاً حتى لا يبقى أحد منهم يؤاخذني على ذلك » . وعندئذٍ اتفق دوق غيز مع بلدية باريس واتخذ جميع الاستعدادات الضرورية على أن تبدأ المذبحة في الساعة الرابعة صباحاً من يوم الأحد في ٢٤ آب ١٥٧٢ ، يوم عيد القديس بارتلمي . وفي الليل ، حوالي الساعة الثانية صباحاً ، ارتاب بعض البروتستانتيين من حركة الجنود ، التي كانت تجري ، فاقتربوا من قصر اللوفر فاطلقت عليهم النار وكانت هذه اشارة الخطر .

وفي اللوفر أمر شارل التاسع بقتل أشراف البروتستانت الذين كانوا في ضيافته لحضور زواج هنري بوربون دونافار بمارغريت فالوا أخت الملك . وسيق هنري نافار إلى غرفة شارل التاسع وخير بين الموت والكاثوليكية فارتد لانقاذ حياته . وكانت الخطة مدبرة لقتل الزعماء إلا أن الاوباش من الشعب انضموا إلى الجنود واعملوا القتل بالبروتستانت وأصبحت المذبحة عامة ، ولم يستثن منها النساء والاطفال . وما حل وقت الظهر إلا وبلغ عدد القتلى الالفين وصحب النهبُ والسلب أعمال القتل . وحاول الملك عبثاً إيقاف هذه الفظائع التي دامت إلى يوم الثلاثاء في ٢٦ منه .

وحذت المدن الاخرى حذو باريس : فقد دام القتل في اورلئان ثلاثة أيام . وفي ليون كان عدد القتلى بين ٧٠٠ و ٨٠٠ قتيل . ومن الصعب تحديد عدد القتلى جميعاً ، ولكن عددهم يتجاوز ثلاثة آلاف

ضحية . على أن بعض حكام الملك رفضوا تنفيذ اوامره فحالوا دون سفك الدماء .

الحرب الرابعة . — ولكن هذه المذابح لم تأت بالنتيجة المتوخاة منها وهي القضاء على الحروب الاهلية . وبالرغم من أن الكالفنيين حرموا من زعمائهم فلم يفت ذلك في عضدهم ، بل شكوا السلاح ودافعوا عن أنفسهم واضطر شارل التاسع أن يعقد معهم الصلح ويمنحهم الحرية الدينية (١٥٧٣) . وبعد ذلك بعام واحد أي في ٣٠ أيار ١٥٧٤ توفي شارل التاسع ، اثر نزاع بينه وبين نفسه من جراء مذبحة بارتلمي التي بقي تحت ضغط كابوسها ، وهدد السل كيانه حتى قضى عليه .

هنري الثالث والعصبة . — وبعد وفاة شارل التاسع اعتلى العرش هنري الثالث ثالث أولاد هنري الثاني وهو دوق آنجو سابقاً ، وكانت كاترين ميدتشي تفضله على غيره من أخوته . وقد انتخب ملكاً على بولونيا ، وعندما علم بنبأ وفاة أخيه غادر كراكوفيا بسرعة وعاد إلى فرنسا وأخذ اسم هنري الثالث .

كان عمر هنري الثالث آنذاك ثلاثاً وعشرين سنة . كان ذكياً روحانياً متحدثاً جيلا معروفاً بذوقه السليم وثقافته الفكرية ، إلا أنه كان ، جشعاً لاحول له ولاقوة ، متنقلا من حياة التقى والزهد إلى حياة الخلاعة والمساخر ، وقد أدت رقة طباعه ووقاحة محظييه الذين يسمون « مينيون » الى كره الناس له واحتقارهم اياه .

الحرب الخامسة . — وبالرغم من نصائح كاترين ميدتشي ، فان المملكة وقعت في ظل هذا الملك الضعيف في فوضى تامة . وزادت الامور تعقيداً منذ مذبحة سان برتلمي وانفجرت عن حرب دينية خامسة (١٥٧٤ — ١٥٧٦) .

فمن جهة ، نظم الكالفنيون قواهم ليحسنوا الدفـــاع عن أنفسهم ، والتفوا حول « الاتحاد الكالفني » . وكان هذا الاتحاد ينقسم إلى عدة « حكومات » ولكل حكومة زعيمها الحربي ومجلسها المكلف بادارتها وجباية ضرائبها . وهنالك مجالس عامة تعقد لتأمين الارتباط بين مختلف الحكومات . وكان البروتستانتيون على هذا النحو ، يؤلفون في داخل المملكة ، نوعاً من جمهورية اتحادية .وكما قال من بعد ريشيليو « دولة داخل دولة » .

ومن جهة ثانية ، انقسم الكاثوليك إلى قسمين : فالى جانب الكاثوليك المتعنتين ، الذين يوجهم آل غيز ويريـــدون ابادة البروتستانيين ، قـام كاثوليك آخرون معتدلون اثارتهم المذابح وخافوا على المملكة من الدمار والخراب من وبال الحروب الاهلية . وكان هؤلاء الوطنيون المتبصرون بعواقب الأمور يرغبون بالعودة إلى نظام التسامح والسلام الديني ، فالفوا حزب المستائين أو السياسيين ، ومن زعمائهم أحد ابناء مونمورانسي واسمه دامفيل حاكم اللانغدوك ، وفرنسوا دوق آلنسون آخر اخوة هنري الثالث وكان يلقب بـ « السيد » وهو لقب منح في القرن السادس عشر إلى أخ ملك فرنسا ومن تبعه في الولادة .

وتألب السياسيون والبروتستانتيون واشتد ساعـــدهم واستطاعوا أن يفرضوا على هنري الثالث موسوم السلم في بوليو (١٥٧٦) وبموجبه يخول البروتستانتيون حرية العبادة في كل فرنسا ، عـدا باريس وثمانية مواقع على أن يكون عددهم في البرلمانات نصف عدد الكاثوليك . وفوق ذلك قلد هنري نافار حكومة غويين ، وأمير كونده الشاب حـــكم بيكارديا . كما حصل دوق آلنسون على آنجوو تورين وبيري . وما علمت اكثرية الكاثوليك بمرسوم بوليو إلا واعتبروه مجحفاً وضاراً بمنافع المملكة ومصالح

الدين . فمن ذلك أن سكان بيكارديا اعتصبوا ليحولوا دون دخول كونده وتولي حكم المقاطعة ، ودعوا في الوقت ذاته جميع كاثوليكيي فرنسا لتأليف « الاتحاد المقدس » المسيحي لخدمة الله المقدسة وطاعة صاحب الجلالة » . وهذا هو أصل تشكيل العصبة (١٥٧٦) .

واستجيب لداعي عصبة بيكارديا . وتشكلت الرابطات في كل مكان وتكتلت في اتحاد فدرالي ، وكان زعيم العصبة هنري غيز فارساً لامعاً وزعيما صالحاً وقد لقب بـ « الاشج » اثر جرح أصابه في وجهه خلال الحرب السابقة . غير أن هنري الثالث رأى من الحكمة أن يعترف بالمنظمة الجديدة وينادي بنفسه زعيماً لها . ومما لاشك فيه ان تشكل هذه العصبة يؤلف خطراً على المملكة ، لأن رجال العصبة الفوا حزباً سياسياً يرمي إلى تحديد السلطة الملكية وتهديم الحكم المطلق . وكانت لهم منظمتهم العسكرية وزعماؤهم المختارون وقد بايعوهم على الطاعة التامة ، وحاولوا كالبروتستانتيين تأليف « دولة داخل دولة » .

الحرب السادسة . — ودفعت العصبة هنري الثالث ولكنه استأنف القتال ضد البروتستانتيين دون حماسة . وكان على رأس هؤلاء البروتستانتيين الملك الشاب هنري نافار ، فقد فر من البلاط ، في شباط ١٥٧٦ بعد تهديده ، وارتد الى الكالفنية وكان عمره آنذاك ثلاثاً وعشرين عاماً وعنده من الشجاعة والقوة والجرأة مايجعله الزعيم المنشود دون منازع .

وكان من الصعب الحفاظ على الاتحاد بين البروتستانتيين والسياسيين وقامت حرب سادسة (١٥٧٧) وسابعة (١٥٧٩ — ١٥٨٠) دون نتيجة . واضطر البروتستانتيون إلى قبول سلم أقل فائدة من مرسوم بوليو . ومع هذا فقد دام السلم أربعة أعوام . غير أن موت دوق آلنسون عام ١٥٨٤ اثار جميع الاهواء . وبموتـه أصبح هنري نافار

المرطقي المرتد وريثاً شرعياً للتاج ، واضطرب لهـذا الاحتمال جميع الكاثوليك .

وبالمقابل نمت « العصبة » وعظم شأنها وأخذ سكان المدن بتأثير الدعاة يدخلون فيها أفواجاً . وأخذ هنري غيز على عاتقه أمر تنظيمها وادارتها وعارض الوريث البروتستانتي بوريث شرعي كاثوليكي وهو الكاردينال بوربون . أما في الواقع فكان غيز يحلم بالتاج لنفسه . وأخذ ينشر لوائح يذكر فيها صلة القربى البعيدة بين أمراء اللورين وشارلمان ، وان الكابسيين اناس غصبون . وفي الوقت ذاته كان غيز يفاوض فيليب الثاني وعقد معه حلفاً سريا ، واستحصل من البابا سيكست الخامس على مرسوم يصرح فيه أن هنري نافار غير أهل لتسنم عرش فرنسا . وأخيراً ارسلت العصبة إلى الملك انذاراً واجبرته على منع الديانـة الكالفنية في فرنسا (١٥٨٥)

الحرب الثامنة ويوم المتاريس . – وانطلقت من هـذا الانذار الحرب الثامنة والأخيرة ودامت ثماني سنين (١٥٨٥ – ١٥٩٣) وتدخل الاجنبي فيها بصورة نشيطة . ولم تمر فرنسا منذ حرب المائة عام بازمة كهذه الازمة التي اجتازتها لأن وحدتها واستقلالها وسلامتها القومية كانت عرضة للخطر .

وما فتيء نفوذ هنري غيز وشعبيته في ازدياد عظيم . وقد قال أحد المعاصرين « ان فرنسا كانت مأخوذة بهذا الرجل ، ومن القليل جداً أن نقول انها كانت عاشقة له » . وقد ظفر هنري نافار على جيش الدوق جويوز أحد محظيي الملك في واقعة كوترا (١٥٨٧) ، إلا أن هنري غيز أحرز انتصارين على البروتستانتيين في شامبانيا ومجده الفرنسيون كأنه

مكابة (حامي الدين اليهودي وقاهر ملك سورية انتيوخوس في القرن الثاني قبل المسيح) الجديد و « سند الكنيسة » .

وفي باريس خاصة ، حيث كان العصبويون كتلة قوية ، فكر كثير منهم بخلع هنري الثالث . وقد أحس الملك بالخطر فمنع الدوق من المجيء إلى « باريس » ولكن انصاره دعوه سراً . وتخطى غيز منع الملك ، واستقبلته باريس استقبال الظافرين . وعندما اتى الملك بجنوده وادخلهم المدينة قامت فيها مشادة حقيقية . ففي ١٢ أيار ١٥٨٨ الذي سمي « يوم المتاريس » شكا الباريسيون السلاح وأقاموا المتاريس في الشوارع واحاطوا بجند الملك وقتلوا منهم مايقرب من ستين رجلاً ودفعوا بمتاريسهم حتى أبواب اللوفر . واضطر هنري الثالث ، لتهدئة الحالة ، إلى الاستنجاد بدوق غيز ، ثم فر من باريس وذهب إلى شارتر .

وفقد الملك نفوذه على عاصمته واعيته الحيلة أمام قوة منافسه بعد أن أخذ شأن هذا الأخير يعظم يوماً عن يوم . ولم يكن في وسع هنري الثالث إلا ان لجأ إلى الخداع وطلب الصلح وسمى دوق غيز نائب المملكة العام .

وكان هنري الثالث بحاجة إلى المال فاضطر إلى دعوة مجلس المملكة العام في بلوا (تشرين الاول ١٥٨٨) . وبدا فيه هنري غيز ملكاً حقيقياً . وكانت اخته السيدة مونبانسيه تظهر ، كما يقولون في كل مناسبة ، المقص الذي ستجز به ناصية هنري الثالث يوم خلعه واسكانه الدير . وشاعت الأقوال عن خطف الملك ونقله إلى باريس . غير أن هنري الثالث وجد أنه لا يستطيع الامان على نفسه إلا بالجناية . وقبل وقفة عيد الميلاد ، في ٢٣ كانون الاول ، دعا هنري غيز إلى مجلسه فقام اليه اشراف حرسه وطعنوه بخنجر ارداه قتيلا .

وفي يوم الجناية كتب هنري الثالث إلى مفوض البابا « أنا الملك الآن وقد صممت الا احتمل السباب والاذى والاكراه » . وفي مساء اليوم الثاني قامت ثورة باريس وتألفت فيها حكومة ثورية من ستة عشر عضواً يمثلون احياء المدينة وعقدوا مجلساً اعلنوا فيه سقوط هنري الثالث الخائن ، القاتل ، المجدف ، الهرطقي ، السيموني ، الساحر ، مبدد الخزينة العامة وعدو الوطن ، واعترفوا بالكاردينال بوربون ملكا ، ولما كان هذا سجيناً عند هنري الثالث لذا عينوا أخ هنري غيز ، دوق ماين، نائب المملكة العام . وانضم القسم الاعظم من المقاطعات إلى هذا القرار الذي اتخذوه (١٥٨٩) .

ولم يبق أمام هنري الثالث الا ان يتصالح مع هنري نافار ، وتم الاتفاق بينهما وأتى الملكان لحصار باريس . وفي غرة آب ١٥٨٩ تقدم راهب متعصب اسمه جاك كليان ودخل على هنري الثالث وطعنه طعنة نجلاء في بطنه كانت القاضية . واعتبر هذا الجرم ثأراً للعصبة .

وبموت هنري الثالث انطفأت اسرة فالوا . وقد اعترف الملك قبيل وفاته بأن وارثه الشرعي هو هنري بوربون ملك نافار . واخذ الناس يتساءلون أي العاطفتين أقوى وأعلق في نفوس الفرنسيين : التعلق بالملك الشرعي أو التعلق بالديانة التقليدية ؟

هنري الرابع والعصبة . — حاول الملك الجديد ، هنري الرابع ، عبثاً بتصريح رسمي اعلن فيه عزمه على بقاء الديانة الكاثوليكية والاستئناس برأي « مجمع صالح شرعي » . وقد تخلى عنه كثير من الامراء الكاثوليك ، كما تخلى عنه نظراً لتصريحه ، وقسم من الكالفنيين . وتناقص عدد جيشه فبلغ النصف واضطر إلى رفع الحصار عن باريس .

وكان خصمه ، فيليب الثاني ، يدعم العصبة ويقدم لها الجنود والمال فأصبحت أقوى من قبل . وكانت إلى جانبها باريس ومعظم المدن الكبرى في المملكة مع البرلمانات . ولكن هنري الرابع لم يكن بالرجل الذي يدخل اليأس قلبه . فقد كان يضم ، إلى صفاته الروحانية والحربية ، حساً دبلوماسياً تاماً وجرأة عسكرية ، واستطاع أن يتغلب على اكبر المصاعب بفضل قوته وصبره واعتداله ومرونته .

فكر هنري الرابع اولاً بالانسحاب نحو الجنوب حيث كانت قوى الكالفنيين الاساسية . غير أن احد ضباطه قال له : « ومن يظنكم ملك فرنسا عندما يرى إرادتكم مؤرخة في ليموت ؟ » وعندها انسحب إلى نورمانديا . وهذا ماجعله في متناول المساعدات الانكليزية ، وفي متناول باريس أيضاً ، لأن امتلاكها كان اساسياً بالنسبة اليه لأنها عاصمة المملكة وحصن خصومه .

ولاحقه دوق ماين إلا انـــه كسر في آرك بالقرب من دييب (ايلول ١٥٨٩) وحاول بعدها هجوماً على باريس إلا انه اخفق . وفي السنة التالية (آذار ١٥٩٠) أحرز نصراً مبيناً في ايفري ، وفي حملة شديدة خرق صفوف ماين وجعله في حالة لا يستطيع معها القتـــال . وهذا الظفر ساعد هنري الرابع على التقدم لمحاصرة باريس . ورأى أخذ المدينة بقطع طرق المواصلات وتهديدها بالمجاعة . غير أن جنوده كانوا قليلي العدد لفتحها عنوة . ودام الحصار أربعة أشهر ، ولم يكن لدى الباريسيين من المؤن مايكفيهم سوى شهر واحد فاستماتوا في الدفاع ، وهذا ماساعد دوق بارما الكسندر فارنيز على المجيء من البلاد المنخفضة مع جيش اسباني لنجدة الباريسيين ؛ الامر الذي اضطر هنري الرابع الى الانسحاب إلى نورمانديا مرة ثانية .

ولم يكن كل من الحزبين على درجة كافية من القوة ليستطيع بها سحق الآخر ، ودامت العمليات العسكرية مدة عامين . واستفاد الاسبانيون من ذلك فأقاموا في فرنسا . وبطلب من مجلس الستة عشر اقاموا حامية في باريس (١٥٩١) . وقام الكسندر فارنيز بحملة ثانية ضد هنري الرابع في نورماندیا وأجبره على رفع الحصار عن روان (١٥٩٢) ولكنه لم يستطع أن يفيد منه بشيء حاسم ، وجرح في واقعة كوديبك ومات متأثراً بجراحه . وظلت الحالة مضطربة . ومات ملك العصبة ، شارل العاشر ، كاردينال بوربون في عام (١٥٩٠) . وحمل فيليب الثاني مافي وسعه للمناداة بابنته ايزابللا ملكة ، وكانت هذه حفيدة هنري الثاني . وانقسم رجال العصبة على انفسهم أمام هذه المزاعم الأجنبية . فقد كان المتعصبون يقدمون الدين على الوطنية ، ولكن الاكثرية لم تر هذا الرأي

على ان هذه المزاعم الاسبانية كان منها ان اذكت العاطفة القومية وقسمت رجال العصبة فأفاد من ذلك هنري الرابع . وعندما انعقد مجلس المملكة العام في باريس عام ١٥٩٣ ، بناء على دعوة ماين ليقيموا خلفاً لشارل العاشر ، رأى هنري الرابع ان يفيد من هذه الفرصة السانحة . وبينما كان فيليب الثاني متعنتاً في دعوته إلى انتخاب ايزابللا ولم يقبل بزواجها بامير فرنسي قبل أن تتوج ملكة ، قام هنري الرابع واعلن ، على لسان مطران بورج ، عزمه على اعتناق الكاثوليكية . وفي ٢٣ تموز ١٥٩٣ صبأ علناً بين يدي مطران بورج في كنيسة سن ـ دوني .

وبدلت الردة كل شيء ، فقد هدمت آمال فيليب الثاني واحدثت الاضطراب في صفوف العصبة . أما فرنسا فلم تكن لتريد شيئاً اكثر من

السلام ، وما كان منها الا أن رحبت بهذا الخبر السار ، واعترف قسم كبير من المملكة بالملك هنري الرابع . وقد رأى هـذا الا يستمر في القتال واشترى خضوع الباقين بالمال ولو كلفه غالياً . فمن ذلك أن دوق بريساك حاكم باريس سلمه المدينة مقابل عصا الماريشالية ومائتي الف ليرة ، ودخل هنري الرابع باريس دون حرب .

أما فيليب الثاني فلم يحارب في فرنسا حتى الآن الا كمساعد للعصبة ، ولكنه أخذ بعد ذلك يقاتل لحسابه الخاص فأعلن هنري الرابع عليه الحرب وانقلبت الحرب الدينيـة إلى حرب نزاع بين البيت الفرنسي والبيت النمساوي ، ودامت هذه الحروب ثلاثة أعوام وكانت ميادينها بورغونيا حيث هاجمها الاسبانيون من فرانش - كونته ، ثم في بيكارديا . وبالقرب من ديجون في فونتين فرانسيز در هنري الرابع حملة الاسبان المستبسلين (١٥٩٥) ، غير أن الجيش الفرنسي غلب في دوللان في بيكارديا . ونضبت قوة الخصمين ، ولم يعد بالامكان متابعة القتال للحصول على نصر حاسم ، ففضلا المفاوضة وعقدا معاهدة فيرفن (في ١٣ أيار ١٥٩٨) التي وطدت من جديد بنود معاهدة كاتو - كامبريزي .

السلام الديني ومرسوم نانت ١٣ نيسان ١٥٩٨ . — ولكن القضية الدينية ما زالت بحـــاجة إلى حل . وكانت تسويتها من اصعب المشاكل ، لانه كان من الصعب تهدئة الخواطر في داخل المملكة بعد اربعين عاماً في الحروب الأهلية والكره والقتل والدماء . وانفض الاتحاد الكاثوليكي من حول هنري الرابع ، بعد ان ارتد عن دينه ، ووقف منه موقفاً معادياً . وبعد مفاوضات شاقة دامت طويلاً توصل هنري الرابع إلى اقتناعه بقبول مرسوم نانت .

لقد اذيع المرسوم قبل صلح فيرفن بشهر أي في ١٣ نيسان ١٥٩٨ . وهو يضمن للبروتستانتيين حرية الوجدان وحريه العبادة في جميع المملكة ، والمساواة المطلقة مع الكاثوليك في الوصول إلى جميع الوظائف ، وايجاد مجالس نصفية في البرلمانات مؤلفة من قضاة نصفهم كاثوليك والنصف الآخر بروتستانت .

وتنازل هنري الرابع للبروتستانتيين عن ضمانات سياسية وعسكرية . فقد ترك لهم الحق ، خلال ثمانية اشهر في احتلال مائة موقع حصين لهم ، وعقد مجالس عامة للحزب . وهذه الامتيازات ، التي لم تذكر في مرسوم نانت ، لاتخلو من الخطر لأنها كانت تساعد الكالفنيين على بقائهم حزبا منظماً في قلب المملكة .

لقد قيل عن مرسوم نانت أنه يستحق أن يعتبر تاريخاً في تاريخ العالم لأنه دشن عهد التسامح والتساهل الديني وفي الواقع ان الرعايا في جميع الدول : في المانيا وانكلترة واسبانيا كانت مضطرة ، تحت طائلة النفي ، إن لم يكن تحت طائلة الموت ، ان تدين بديانة مليكها كاثوليكية كانت ام بروتستانتية . أما فرنسا فكانت الاولى التي تبنت نظام الحرية الدينية ولقد قبلت فرنسا بهذا النظام ، لا عن احترام حقيقي لحقوق الوجدان ، بل لأنها كانت مضطرة لقبوله بحكم العقل والفطنة اللذين امتاز بهما هنري الرابع . على ان مرسوم نانت ، وان كان عادلا وموفقاً في أحكامه الاساسية ، إلا انه لم يلق حسن القبول من كثير من الكاثوليك ، حتى ان هنري الرابع بذل كل مافي وسعه من رجاء وتهديد لدى البرلمانات حتى حصل على حق التسجيل لهذا المرسوم . واضطر ان يمنح الكاثوليك امتيازات ، كما هي الحال في عام ١٦٠١ عندما استدعى اليسوعيين إلى العودة إلى المملكة بعد ان طردوا منها .

حالة فرنسا بعد الحروب الدينية . — لقد قال الفقيه الحقوقي باسكيه اثر انتهاء « الحروب الدينية » : « من نام اربعين عاماً ثم استيقظ لايرى فرنسا وانما يرى جثة فرنسا » وهذا القول غير مبالغ فيه ، لان السنوات التي قضتها فرنسا في الحرب الاهلية جعلتها خرابا واستنفدت قواها المنتجة والنشيطة .

كانت الخسائر المادية جسيمة، لان الاعمال الحربية دمرت البلاد . ولقد قال هنري الرابع في العام ١٥٩٥ : « ان المزارع واكثر القرى خلو من السكان خاوية » . فقد ترك الفلاحون أعمال الزراعة والفلاحة وانصرفوا إلى السلب والنهب وطغت حركة العصيان في عدة مناطق وتهدمت الطرق والجسور والمعابر . وتعطلت الصناعة والتجارة في المدن ، وكثر المتسولون والمرضى والعجز والمقعدون وامتلأت بهم المستشفيات ، وعظم دين المملكة ، ولا تكاد الضرائب توفي الدائنين حقوقهم . ولم يبق شيء لنفقات الحكومة الضرورية .

وإلى هذه الخسائر المادية يجب أن نضيف الخسائر السياسية : « إذ لم يبق شيء من سلطة فرانسوا الاول وهنري الثاني المطلقة . وكان الحكام في الاقاليم كالملوك يقيمون الجنود ويجبون الضرائب ويحولون وظائفهم إرثاً لأولادهم ، وهذا نوع من اقطاعية جديدة . وكان أعضاء البرلمانات من رجال العصبة يسلكون تجاه الملكية مسلكاً استقلالياً معارضاً . وطردت المدن الموظفين الملكيين وجعلت تدبر امورها على يد منتخبيها . وبينما كان الناس لايفكرون قبل خمسين عاما بمناوءة السلطة الملكية ، ظهرت عدة كتب تقول أن الامة فوق الملك ولها الحق بقتله . حتى ان كتاباً كانوا يفاخرون بجناية جاك كليمان ، قاتل هنري الثالث ، ويعتبرون فعله « عملاً بطولياً والهياً » .

العمل التنظيمي . — ومنذ ان اقر مرسوم نانت ومعاهدة فيرفن السلام في الداخل والخارج انصرف هنري الرابع الى تنظيم فرنسا وارجاع السلطة الملكية .

كان هنري الرابع في ذلك الحين في عنفوان قوته ونضج عقله . وله من العمر خمس واربعون سنة . اشتهر بشجاعته ومواهبه كرجل حرب وبساطته واندفاعه وحماسه ودقة تفكيره وسرعة فهمه للرجال . ولقد قال : « كثيرون من خانوني بجبن ولكن قليلون من خدعوني » وما كان ليحمل الحقد على أحد ، ولا يسعه الا ان يستعمل اعداءه بالامس إذا اعترف بمواهبهم وفكر ان باستطاعتهم ان يؤدوا اليه خدمة جيدة . جمع حوله اناساً من مختلف الاحزاب : من الهيغنوت ، مثل سوللي ، ومن الكاثوليك المعتدلين ، مثل الكاردينال اوسّا ، ومن رجال العصبة مثل الرئيس جانن وفيللروا .

وعرف انه يكره أعمال السلطة ، وهذا ما ساعده على القيادة والامر . فقد كان يعرف كيف يعطي إلى اوامره مظاهر الرجاء ولا يألو جهداً في شكر من يطيعه . ولكنه كان يملي ارادته ويريد أن يكون مطاعاً مهاباً .

ارجاع السلطة الملكية . — لقد سلك هنري الرابع في سياسته مسلكاً رشيداً دون ان يترك مجالاً للحوادث تفاجئه . وكان يغدق الكلام الطيب والوعود دون أن يتمسك بشيء ، واستطاع على هذا النحو أن يسترجع جميع الامتيازات الممنوحة سابقاً ويوطد سلطته المطلقة في جميع المملكة .

أما مجلس المملكة العام الذي اجتمع عدة مرات أثناء الحروب الدينية ووعد هنري الرابع بانعقاده فلم يدع ابداً . واكتفى امراء

الدم بوظائف البلاط بعد ان اقصوا عن مجلس الملك الذي ينظر بشؤون الحكم . وذكر الملك حكام الاقاليم بان وظائفهم عسكرية وعليهم ألا يحشروا انفسهم في القضايا المالية أو العدلية ، ولم يعلق أي أهمية على حريات المدن بل قيدها حسب هواه .

وهنالك مثال يدل كبار المملكة على ان زمن الفوضى والاضطراب قد مضى : فمن ذلك ان المارشال بيرون ، حاكم بورغونيا ورفيق هنري الرابع في الحرب ، استهواه الطموح فتآمر اولا مع دوق سافوا ثم مع ملك اسبانيا . فسامحه الملك في المرة الاولى . واشترط عليه في المرة الثانية الاعتراف بكل شيء ، غير أن بيرون انكر فحكم عليه بالموت واعدم (١٦٠٢) .

سوللي . — وكان اكبر مساعد الملك هنري الرابع في عمله التنظيمي ماكسمليان دوبيتون ، وقد سماه الملك دوق سوللي ، وكان رفيق الملك منذ صباه ثم أصبح أخلص أصدقائه . وكان سوللي رجل حرب إلا أنه كان في الوقت ذاته رجلًا عمليًا ، وعنده ما يكفي من الحس العملي وتفهم القضايا . وكانت الحروب الدينية فرصة سانحة له تخوله القيام بكثير من العمليات المفيدة . وكان هنري الرابع بحاجة إلى المال ومعجباً برفيقه وبتدبيره وحسن تصرفه بالامور فعهد اليه في عام ١٥٩٨ بادارة المالية مع لقب مفوض .

ثم تقلب سوللي في المناصب بين كبير مصلحة الطرق في فرنسا ومفوض أعلى للحصون والانشاءات وسيد المدفعية ، وهذا ما جعل سوللي وزيراً للمالية والاشغال العامة والحربية .

المالية . — كان سوللي ادارياً شريفاً ومقتصداً شديداً ، وقد استطاع بما اوتيه من حسن ادارة ان يوطد النظام في المالية . فقد أغلق صندوقه

في وجه المستبدين والملك نفسه عندما يرى أن مصاريفه لامبرر لها أو مبالغ فيها . وطلب أن تكون الحسابات مقيدة بدقة ، كما منع الموظفين من كل سرقة مالية ودب في قلوبهم الرعب وحال دون ارتكاب جريمة من هذا النوع . ولم يتردد في الالتجاء إلى الطرق المعتادة في جباية الاموال والبحث عن موارد جديدة مثل الرسم السنوي ، الذي فرض على موظفي العدلية والمالية مقابل تحويلهم نقل وظائفهم إلى ورثتهم . وهذا اعتراف صريح منه بوراثة الوظائف . وعهد بجباية الرسم السنوي إلى جاب يدعى بوليه ، وسميت هذه الضريبة باسمه ضريبة البوليت ودامت حتى الثورة الفرنسية .

الزراعة . — اهتم هنري الرابع بالفلاحين ، وربما كان اهتمامه في هذه الناحية يرجع إلى أنه عاش بين ظهرانيهم في بيارن ، ولكن الاهم من ذلك يرجع إلى أنه كان يعتبرهم القوة الأساسية في الدولة لأنهم يطعمونها ويمدونها بالجنود . وكان سوللي يشاركه هذا الرأي ، ولقد قال « الرعي والفلاحة ثديان يغذيان فرنسا ، وهما مناجم بيرو وكنوزها » ولذا اتخذ عدة تدابير لصالح الفلاحين . فقد خففت عنهم التكاليف ، واجل دفعهم للضرائب ، وخفضت ضريبة التاي ، وحرم على عمال الجباية مصادرة الحيوانات والادوات الزراعية لعدم دفع الضريبة ، وعلى النبلاء الصيد في حقول الحنطة والكروم ، وضرب على ايدي رجال السلب والنهب وقطاع الطرق .

وفي الوقت ذاته حاول الملك ابعاد النبلاء عن البلاط واعادتهم إلى حياة الحقول ، لانه لم يشأ أن يكونوا عاطلين عن العمل يصرفون الاموال في البذخ والترف . وسعى أن تكون حياة الريف موضة عصرية . وقد

الف المهندس الزراعي اوليفيه دومبر بناء على طلبه كتابه « مسرح الزراعة والعناية بالحقول » عام ١٦٠٠ وكان يقرأ عليه كل يوم قسماً منه .

الصناعة . — وأراد هنري الرابع أن يجعل من فرنسا أيضاً بلداً صناعياً . فحاول أن ينشط الصناعات القديمة ، التي وقعت في حالة انحطاط ، مثل صناعة الاجواخ والاقمشة ، ولكنه اهتم خاصة بصناعات الزينة . وكان يصغي إلى نصائح لافيما وهو رجل أعمال تعلق بالدار الملكية وعينه الملك عام ١٦٠٢ مراقباً عاماً للتجارة . واسس معامل للسجاد والزجاج والبلور والجلود المذهبة والأقمشة الناعمة وامدها بالمال والجوائز ونشط صناعة الحرائر التي كان لها منذ القديم أهمية كبرى في ليون وتور . واتخذت عدة تدابير لادخال اغراس التوت في فرنسا لتربية دود القز . ولكن هذا العمل كان موقتاً ، ولما مات هنري الرابع زالت معظم صناعات الزينة .

التجارة والاستعمار . — واتخذ سوللي عدة تدابير تفيد التجارة الداخلية : عبد الطرق وبنى الجسور والمعابر وشرع بحفر قناة بريار التي أريد منها وصل نهر السين باللور عن طريق نهر اللوانغ . ولكن الملك كان أكثر جرأة من وزيره ، ولذا كان يرغب أن تهتم فرنسا بالتجارة البحرية أيضاً ، وأن يكون لها مستعمرات كاسبانيا والبرتغال . فعقد معاهدات تجارية مع انكلترة وتركيا وتشجع على تشكيل شركة تجارة الهند (١٦٠٣) واستأنف محاولات استعمارية جديدة في امريكا الشمالية وخاصة في كندا .

صعد قبطان البحرية الملكية صاموئيل شامبلان نهر سن لورانت واكتشف جنباته حتى البحيرات الكبرى ، وبنى حصنا ومخزناً على هضبة صخرية تشرف على النهر وعلى مضيقه عند مصبه . وقد سمي هذا المسكن

الذي بني كيبيك (١٦٠٨) ، ويعني ذلك باللغة الهندية لأهل البلاد « الضيق » . وكانت هذه الاعمال بداية الاستعمار الفرنسي المتواضع في كندا . كانت هذه البلاد مغطاة بالغابات وبالمراعي ترتادها الجواميس ، وتخترقها الانهار الغزيرة المياه الغنية بكلاب البحر التي يبحث عنها لفرائها ولكن لايوجد فيها مناجم ذهب أو فضة . ولذا لم تستهو كندا سوى الصيادين وتجار الفراء والمبشرين .

السياسة الخارجية . — لقد سلك هنري الرابع بعد معاهدة فيرفن سياسة سلمية رشيدة رائدها المصلحة القومية . ولكنه كان يهتم أيضـاً برفع اسم فرنسا عالياً في الخارج ، ففي عام ١٦٠٠ حصل نزاع بينه وبين دوق سافوا أدى إلى حرب قصيرة كان منها ضم بريس وبوجيه إلى فرنسا .

واكتفى هنري الرابع بدعم الأقاليم المتحدة السبعة في البلاد المنخفضة والأمراء البروتستانتيين ضد آل هابسبورغ في اسبانيا والنمسا . إلا أن الامبراطور صادر ارث آل كليف في المنطقة الرينانية عـام ١٦٠٩ ، فاحتج هنري الرابع بحرارة واشتد الخلاف حتى ان حرباً عامة بدت محتملة الوقوع في فاتحة العام ١٦١٠ . وذكر سولي ان الغاية من هذه الحرب تحقيق المشروع الاكبر الذي يرمي إلى تهديم البيت النمساوي وطرح الاتراك في آسيا ، وإلى تعديل عام في الدول لتأسيس دول متحدة حقيقية في اوربه ، غير ان هذا المشروع الكبير لم يوجد إلا في خيال سولي وحده ، ولم تجر أي مفاوضة لتحقيقه ، وكل مايمكن قوله في هذا الصدد هو أن هنري الرابـع يعتبر النضال ضد اسبانيا والنمسا ضرورة قومية ، ولكنه يدرك الاخطار التي تتأتى عنه ، وتردد بالقيام في الحرب ، ولم يقرر ذلك عام ١٦١٠ إلا استجابة منـه لداعي الهوى .

ورفضت انكلترا وهولنده الاشتراك مع فرنسا . وقد قال ريشيليو عن هذا المشروع انه « مجرد مخاطرة وتهور » .

مقتل هنري الرابع . - وبالرغم من هذه الاعمال ، التي قام بها هنري الرابع ، فلم تهدأ حمى العصبة لأن العصبويين لا يغفرون للملك أنه كان هيغنوتياً وتسامح مع الهيغنوت في المملكة . وزاد هياجهم عندما علموا أن هنري الرابع تحالف مع البروتستانتيين في المانيا وهيأ الحرب ضد الدولتين الكاثوليكيتين : اسبانيا والنمسا . ومرت اشاعة في الاوساط الشعبية مؤداها ان الملك يريد محاربة البابا .

وملأت هذه الاشاعات فكر متهوس من آنغوليم يدعى رافياك ، فأتى إلى باريس ، وفي الطريق سرق مدية من أحد الفنادق . وفي يوم الجمعة الموافق ١٤ أيار خرج الملك في الساعة الرابعة بعد الظهر في عجلته لزيارة سوللي . وفي الطريق اعترضت سبيله عربة تحمل تبناً فوقفت عجلة الملك أمام دكان نحاس . وكان رافياك يلاحقه فاقترب منه وطعنه بالمدية طعنتين نجلاوين اصابتا منه القلب . وتمتم الملك « لاشيء » ، غير ان الدم ملأ فاه فسقط قتيلاً . وكان لموته أثر بالغ في المملكة . ونسي الشعب الحرب ولكنه لم ينس حسنات هذه الاثنتي عشرة سنة في حكم هنري الرابع بعد أن نعم فيها بالسلام والنظام والنهوض بعد طول الاعياء .

الملكيات الاوربية المماثلة للملكية الفرنسية . - لقد كان في أوربة بعض الملكيات التي تشبه الملكية الفرنسية في ظروفها وفي شكل حكمها . فمن هذه الملكيات اسبانيا في عهد شارلكان (١٥١٦ - ١٥٥٥) وفيليب الثاني (١٥٥٥ - ١٥٩٨) ، وعدة دول ايطالية كدولة نابولي التابعة لاسبانيا ، ودولة البيمونت - سافوا ، وكثير من الامارات

الالمانية ، في الامبراطورية المقدسة ، التي تطورت عن طريق تجديد الجيش والرأسمالية والحقوق الرومانية إلى دول ملكية مطلقـــة وبوروقراطية (ديوانية) مستقلة في الواقـع ، بالرغم من جهود شارلـكان لتوحيد الامبراطورية والسير بها قدماً نحو المركزية .

الملكية الاسبانية

الملكية الاسبانية . — كانت اسبانيا تؤلف جزءاً هاماً من امبراطورية شارلـكان الكبرى ، غير أن هذا الامبراطور ولد في البلاد المنخفضة ولم يتعلم الاسبانية إلا في وقت متأخر . وقلما كان يقيم في شبه الجزيرة الايبرية ، بل انه خول حكم اسبانيا إلى ابنه فيليب . وعندما تنازل عن العرش في العام ١٥٥٦ ، أخذ فيليب ، بعـد أن أصبح ملكاً باسم فيليب الثاني ، عدا اسبانيا وامبراطوريتها الاستعمارية ، البلاد المنخفضة والفرانش — كونته وميلانيا ونابولي . وهذه الممتلكات وان كانت أقل امتداداً من ممتلكات شارلـكان ، إلا أنها كانت على الأقل واسعة مترامية . ولكن فيليب الثاني على نقيض والده كان قبل كل شيء ملكاً اسبانياً .

فيليب الثاني . — ولد فيليب الثاني عام ١٥٢٧ ، وعندما أصبح ملكاً كان عمره ٢٩ سنة . كان تقياً عميق الايمان ، جعل همه الدفاع عن الـكاثوليكية ولم يميز بينها وبين المصالح الاسبانية ، بل جعلها شيئاً واحداً . وكان أبوه الامبراطور شارلـكان يجوب أوربه باستمرار ، أما هو فعلى العكس كان ملكاً « بوروقراطياً » يريد أن يهتم بكل صغيرة وكبيرة ويحكم العالم دون أن يغادر مكتبه وقصره .

كان كثير التردد ، عظيم الجثة ، قاسي الملامح ، زاهداً بالحياة حتى لقب بـ « الملك الراهب » ، يكره أبهة البلاطات ، ومع ذلك فقـد

ظلت الحياة فيها عظيمة في ظل حكمه . وكان يبتعد عن المقامات الملكية القديمة ، مثل طليطلة وبلد الوليد (فالادوليد) وفي أسفل القصر ، الذي أمر فيه الملك فرانسوا الأول ، بعد واقعة بافيا ، بنى عاصمته الجديدة ، مدريد ، وسط سهب منعزل في قشتالة الجديدة . وليس لهذا الموقع من فائدة سوى أنه يقع في وسط اسبانيا تقريباً .

وقلما كان فيليب الثاني يقيم في مدريد ، بل انه وجد على ٦٠ كيلو متراً منها في الاسكوريال ، إطاراً لحياته . فعلى هذا الموقع الصخري المقفر في أسفل سلسلة جبال وادي الرملة ، وعلى ارتفاع ١٠٠٠ م أمر في العام ١٥٦٣ ببناء قصر ديري عظيم واهداه إلى القديس لوران وجعل بناءه على شكل المشواة ، أداة شهادة هذا القديس ، وأسكن فيه الرهبان ، ونقل إليه توابيت أعضاء امرته ، ثم أقام فيه ولبس السواد ، وجعل يقرأ كل يوم كتاب الصلوات ، ويحضر القداسات الرهبانية التي تقام في كنيسة القصر .

حكومة فيليب الثاني . — كان فيليب الثاني ملكاً « كاثوليكياً » وملكاً « بيروقراطياً » يتطلع إلى الحكم المطلق . وكانت الحريات والمجالس « كورتيز » موجودة في مختلف الممالك ، التي تتألف منها اسبانيا ، مثل قشتاله واراغونه وفالنس وغيرها ، وفي الممتلكات الخارجية ، وخاصة في البلاد المنخفضة . وقد حاول فيليب الثاني أن يحد من الحريات المحلية وألا يعقد المجالس . غير أنه كان يريد أن يدرس كل شيء ، ويقرر بنفسه كل شيء ، وكانت المجالس تساعده في عمله ، ولكنه في الواقع كان يحكم بمفرده مع عدد صغير من مقربيه .

لقد وقف فيليب الثاني نفسه لخدمة الايمان الكاثوليكي ، فمن ذلك

أن محاكم التفتيش كانت تتابع الهراطقة البروتستانتيين وتحاكمهم وتنفذ الحكم فيهم علناً في الساحات العامة ، وأحياناً بحضرة فيليب الثاني . ودامت الاضطهادات عشر سنوات ، وما فتئت تعمل عملها ، حتى لم يبق بروتستانتي واحد في اسبانيا . أما العرب المدجنون ، الذين بقوا في اسبانيا بعد استرداد الفتح الاسباني واجلاء العرب عنهـا ، فكان عددهم يقارب ٥٠٠٠٠٠ نسمة ، وقد ارتدوا عن دينهم ظاهراً ورسمياً ، وكانت كثرتهم فلاحين وصناعا ممتازين ويثيرون حقد السكان عليهم ، حتى ان فيليب الثاني كان يشك في حقيقة اعتناقهم الكاثوليكية ، بعد أن اجبروا عليه بالقوة ، فاضطهدهم وبعثر قواهم . وفي العام ١٦٠٩ اجلاهم عن اسبانيا والحق بالبلاد اضراراً وخسائر فادحة بسبب نقص الأيدي العاملة الماهرة ، ولكن فيليب الثاني توصل بهـذه السياسة إلى ما يريد وهو تحقيق الوحدة الدينية .

الحالة المالية والاقتصادية . — ولم تكن الحالة المالية في المملكة على درجة من الأهمية التي بلغها الحكم المطلق . ومما لا شك فيه أن اسبانيا كانت دولة قوية وتعتقد بأنها دولة غنية ، لأن السفن كانت تأتيها من أمريكا بذهب بيرو وفضتها ، وتنزل محمولها على أرصفة قادس وأشبيلية ، ولكن البلاط والادارة والجيش والتجريدات (الحملات) الخارجية كانت تكلف الدولة غالياً ، فضلاً عن أن نفقات الدولة كانت بازدياد مستمر ، ولتدارك الوضع اثقل فيليب الثاني ايطاليا والبلاد المنخفضة بالضرائب .

أما اسبانيا نفسها فكانت فقيرة الموارد . فهي تتألف من كتل جبلية صخرية وهضاب سهبية ، ومناخها جاف شديد ، وسهولها الزراعية نادرة وموجودة في أطراف شبه الجزيرة ، والنشاط الأساسي فيها يقوم على تربية الحيوانات ، التي تعتمد على الانتجاع ، وتشرف على تنظيمها شركة قوية

من المربين وتدعى « ميستا » . وخراف « المرعز » تجعــل اسبانيا أشهر البلاد الاوربية المنتجة لهذا النوع من الصوف .

وكانت في اسبانيا عدة صناعات ، وأهمها صناعة الحرير والصوف ، ولكنها آخذة بالافول .

وظلت التجارة التقليدية في الاسواق الكبرى نشيطة ، وخاصة التجارة الخارجية ، تجارة « الهند » التي تجعل الحياة صاخبة في الموانىء الاسبانية ، ويأتي في الدرجة الاولى منها ميناء اشبلية .

المجتمع . — كان المجتمع الاسباني يفيد القليل من موارد البـلاد ، قليل النشاط ، فقيراً . وكان الشعب قاسياً ، نبيلا ، كريماً ، ولكنه شعب متغطرس متكبر أيضاً . فقد كانت ١٥ أسرة من « كبار » اسبانيا تضم شعباً من ابناء الاشراف (هيدالغوس) . وفي بعض الاقاليم كان الناس كلهم هيدالغوس ويريدون أن يحيوا حياة النبلاء .

وكان سكان اسبانيا قليلي العدد ، وتناقص عددهم في آخر القرن . فقد كان يقدر آنذاك بسبعة ملايين . وهذا ما يفسر لنا بؤس الشعب وشقاءه . وكان الهيدالغوس العاطلين عن العمل يتجولون شامخي الأنوف ، وبكل كبرياء ، وهم يلبسون أرديتهم المهلهلة المرقعة ومعداتهم خاوية جائعة . ومن الممكن أن يعزى نقص السكان إلى كثرة الهجرة إلى « الهند » .

وهكذا كانت الملكية الاسبانية في ذروة قوتها ، ولكن اسبانيـا كانت تلهث وتزداد فقراً يوماً بعد يوم ، وكانت مضطرة أن تشتري كل شيء من الخارج لتعيش وتؤمن حياتها . حقاً لقد كان ذهب بيرو وفضتها يحطان الرحال في اسبانيا ويغذيان فيها الوهم بالغنى ، ولكنهما ، في الواقع ،

كانا يمران من اسبانيا مرور الكرام ليذهبا منها إلى أوربة ويغذيا أصحاب حقول الحنطة الواسعة وأصحاب المشاغل (الورشات) العديدة .

السياسة الخارجية . — ان النشاط الطموح العظيم ، الذي كان عليه فيليب الثاني ، نصره نصراً عظيماً وكان سبباً في اخفاقـــه اخفاقاً ذريعاً ويبدو ذلك فيما يلي :

كفاح المسلمين والسيطرة على البحر المتوسط . — لقد لاقى فيليب الثاني في كفاح المسلمين والسيطرة على المتوسط اكبر نجاح له . ففي اسبانيا وجزر الباليئار وايطاليا ، التي يحكمها ، جعل من غربي البحر المتوسط بحـــراً اسبانياً تقريباً . فقد كان مقيما في ميلانو ونابولي وصقلية ، وله حاميات على شواطىء طوسكانا ويمارس نفوذه واشرافه على شبه جزيرة ايطاليا كلها ، إلا أن جمهورية البندقية تخلصت من نفوذه . على أن البندقية وان ظلت ميناء كبيراً وموطناً لحضارة أصيلة مشرقة ، فقد أفل نجمها ، وأصبحت سيطرتهـــا على شرقي البحر المتوسط ضعيفة ومهددة بعد أن استقر الاتراك العثمانيون على شواطئه .

بسط فيليب الثاني ساحة عمله إلى هذا الجزء من المتوسط ، وكان يريد في آن واحد أن يكافـــح الأتراك العثمانيين ويطهر المتوسط من « قرصان البربر » ، الذين كانوا ينطلقون من شواطىء افريقية الشمالية ويضايقون المواصلات حتى الشواطىء الاسبانية . وشن الملك فيليب الثاني « حرباً صليبية » حقيقية ، « كفاح الصليب للهلال » ، وأعد لذلك اسطولاً كبيراً مؤلفاً من ٢٠٠ سفينة حربية اسبانية وبندقية وجنوية ، وأحرز نصراً مبيناً على الاسطول التركي في ليبانت عام ١٥٧١ . وفي الواقع كان هذا النصر دون غد ، إلا أن اسبانيا ظلت ، على الأقل ، مسيطرة

على المتوسط ، فضلاً عن انها كانت تملك قواعد في افريقيا الشمالية ، في وهران وفي تونس ، التي أخذها شارلكان في عالم ١٥٣٥ .

ضم البرتغال . — لقد توفي ملك البرتغال دوم هنري عام ١٥٨٠ دون وارث . وهذه الوفاة جعلت فيليب الثاني ملك البرتغال . وهـذا الضم وحـــد الامبراطورية الاستعمارية البرتغالية والامبراطورية الاسبانية الواسعة لمدة ستين عاماً وجعل اسبانيا مسيطرة على العالم .

وأراد فيليب الثاني أن يمتد بنفوذه في البلاد المسيحية كلها ، ويسحق الاصلاح البروتستانتي ، وينصر الكاثوليكية المتجددة بعمل مجمع ترانت غير انه كان طموحاً جداً ، وفي الغالب فظاً ، فطاش سهمه وخاب ظنه ، ولم يتوصل إلى ما أراد .

ثورة البلاد المنخفضة . — لقد كانت « البلاد المنخفضة الاسبانية » جزءاً من الارث البورغوني وتضم البلاد التي تؤلف اليوم البلاد المنخفضه وبلجيكا واللوكسمبورغ وشمال فرنسا . وهي تتألف من عدد عظيم من الامارات والمدن متجمعة في ١٧ اقليماً . وقد كونت الادارة البورغونية ثم الاسبانية وحدة هذه البلاد ، إلا أنهـا كانت متعلقة بحريتها شديدة الحرص على أعرافها .

كانت البلاد المنخفضة غنية آهلة بالسكان ، تفيض بالنشاط ، وكانت منذ العصر الوسيط مركزاً من أهم المراكز الاقتصادية الكبرى في أوربه وتشتهر بالزراعة وخاصة بصناعة الصوف الفخمة التي تنتج الأقمشة الصوفية وتشتهر بها بلاد الفلاندر .

ومنذ الاكتشافات الكبرى أصبحت انفرس اكبر ميناء بل اكبر سوق تجارية في العالم .

هذا بالاضافة إلى أن الامبراطور شارلكان ولد في مدينة غاند ، ولذا كان يداري البلاد المنخفضة ويحترم حريتها ، ولم يول فيها اسبانياً أمر القيادة ، ودحر فيها « المرطقة اللوثرية » تدريجياً ودون شدة .

أما فيليب الثاني ، على العكس ، كان اسبانياً قحاً . فقد امتد بحكمه المطلق إلى البلاد المنخفضة وحكمها بأسبانيين وايطاليين أو بفرانكونتي وهو الكاردينال غرانفيل ، فأثار من حوله الامراء والمدن . وقاوم تقدم الكالفنية بالاضطهاد الشديد . وعرفت هذه الثورة التي قامت عليه باسم « **ثورة المعوزين** » وكانت ثورة مزدوجة : قومية ودينية معاً .

وأقام فيليب الثاني في البلاد المنخفضة نظاماً ارهابياً : ارسل في عام ١٥٦٧ دوق الب إلى بروكسيل ، وأقام « محكمة الشغب » التي يوجهها الاسبانيون ، واكثر من الأحكام بالموت ، وأوقف أميرين كبيرين وهما الكونتان ايغمونت وهورنز وأعدمها في ساحة بروكسيل الكبرى عام ١٥٦٨ ، كما اعدم ٨٠٠٠ شخص من ١٥٦٧ إلى ١٥٧٢ . ولكن هذه الفظاعات ، التي قام بها دوق الب ، أفقدتـــه اعتباره ، فاستدعي إلى اسبانيا في ١٥٧٣ . وفي العام ١٥٧٩ أبرم جنوب البـلاد المنخفضة الصلح في غاند وبقي في اكثريته كاثوليكياً أما شمال البلاد فقد تابـــع ثورته بدافع من غليوم اورانج الملقب بـ « غليوم الساكت » أو « قليل الكلام » . وقد سمي « شتاتهولدر » أي حاكم أقاليم هولنده وزيلانده .

وفي السنة ، التي تم فيها صلح غاند ، جرى « **اتحاد اوترخت** » ، وبموجبه الفت الاقاليم السبعة في الشمال ، وأهمهـــا هولنده ، جمهورية « الأقاليم المتحدة » ، وترأسها « مجلس الدولة العام » وأعلن في ١٥٨١ سقوط فيليب الثاني . وتلا ذلك حرب حامية الوطيس . وكان قائـد الجيش الكاثوليكي الاسباني الجنرال الكسندر فارنيز ، وقد أحرز بعض

النجاح . ورأى غليوم اورانج أن الحرب غير متكافئة فتماسك ، ولكنه قتل في العام ١٥٨٤ في دلفت من قبل أحد رسل فيليب الثاني . وفي العام ١٥٨٥ حاصر جيش فارنيز انفرس ونهبها ، ودافعت الاقاليم المتحدة دفاعاً مجيداً حتى اضطرت اسبانيا عام ١٦٠٩ إلى توقيع « هدنة الاثني عشر عاماً » . ولم تستأنف الحرب بنشاط وأضاعت اسبانيا شمال البلاد المنخفضة بصورة نهائية .

وقد أثرت الاقاليم المتحدة من الصيد والتجارة وستصبح في القرن السابع عشر أول دولة بحرية وتجارية في العالم . بيد ان انقسام البلاد المنخفضة أصبح أمراً واقعاً ، وظل الجنوب ، وهو بلجيكا الحالية ، كاثوليكياً واسبانياً ، وغدا الشمال جمهورية تجارية كالفنية .

التدخل في انكلترا . — كان هذا التدخل شؤماً على فيليب الثاني . فعندما توفيت الملكة ماريا تيو دور عام ١٥٥٨ ، استلمت الملكة اليزابث زمام الاصلاح الذي بدأ به أبوها هنري الثامن ، ومن بعده أدوار السادس . ففكر فيليب الثاني أن يقوم بحملة لازاحة الملكة عن العرش ليقيم مكانها في لندن ملكة ايكوسيا (سكوتلانده) الكاثوليكية ، ماريا ستيوارت .

ومن جهة ثانية تقدمت التجارة والأسطول الانكليزيان واخذا ينافسان اسبانيا في المحيط الأطلسي ، حتى ان محاولات هجوم انكليزية جرت في الشواطىء الاسبانية . ودعا نبأ اعدام ماريا ستيورات عام ١٥٨٧ فيليب الثاني إلى القيام بحملة ضد انكلترا وحشد لهذه الحملة اسطولاً عظيماً في مصب نهر التاج تجاه لشبونة ، وكان يضم ١٣٠ سفينة تحمل ما ينوف على ٣٠٠٠٠ رجل . وقد أطلق على هذا الاسطول اسم « ارمادا الذي لايقهر » غير ان القيادة كانت سيئة ، وضاعفتها العاصفة . ودمر الاسطول

الاسباني في بحر الشمال على يد الرياح والانكليز والهولنديين ولم ينج منه سوى خمسين سفينة استطاعت العودة إلى اسبانيا بعد الهزيمة . ولم يعد بالامكان مهاجمة انكلترا ، وأصبحت اليزابت أقوى منها في أي وقت مضى .

التدخل في فرنسا . – وتدخل فيليب الثاني في فرنسا ليدعم العصبة ويثير القلاقل لاضعاف الملكية المنافسة . فقد تحالف مع العصبويين في العام ١٥٨٤ وأمدهم بالمال ، وبعد مقتل هنري الثالث ١٥٨٩ ، بالجيوش فقد أرسل من البلاد المنخفضة جيش فارنيز لحماية باريس ضد هنري الرابع ، حتى أن فيليب الثاني أراد أن يخرق « **القانون السالي** » الذي يمنع النساء من الحكم في البلاد ويضع في العام ١٥٩٣ على عرش فرنسا ابنته ايزابيلا من اليزابت فالوا وحفيدة هنري الثاني . غير أن يقظة العاطفة الوطنية وصبر هنري الرابع قوضا هذا المخطط . وبعد بضع سنين من الحروب مني ملك اسبانيا باخفاق جديد ، واضطر في معاهدة فيرفن عام ١٥٩٨ إلى الاعتراف بهنري الرابع ملكاً على فرنسا ومعاودة توطيد بنود معاهدة كاتو – كامبريزي

وبالرغم من ان اسبانيا كانت في عهد فيليب الثاني اقوى منها في أي عهد آخر ، فان امارات الأفول بدأت تظهر عليها ، لأن فيليب الثاني قدر قوى اسبانيا بأكثر مما كانت عليه في الحقيقة . وعندما توفي عام ١٥٩٨ خلف وراءه بلداً مجيداً ومهاباً من كل أوربه ، وغادره إلى الدار الآخرة وهو واثق بثروة امبراطوريته وقوة جيشه . ولكن الواقع كان يكذب هذه الأوهام ، لأن اسبانيا كانت مدينة تشكو الفقر والضعف وقلة السكان بسبب المجهودات التي فرضت عليها باستمرار دون هدنة أو فترة استجمام .

الحضارة الاسبانية في « العصر الذهبي » . — لقد كانت اسبانيا في عهد النهضة موطناً حياً من مواطن التجديد الديني والاصلاح الكاثوليكي . فقد وجد فيها صوفيان عظيمان من صوفيي المسيحية يعيشان في قشتالة القائظة بحرارة الشمس ، وكانت روحهما تحترق اسيرة بحب الله وهما : القديسة تيريزا آفيلا ، وكانت صوفية وامرأة عمل في آن واحد ، ومصلحة لطريقة الكرمليين ؛ والقديس يوحنا الصليبي وكان قديساً كبيراً وشاعراً عظيماً .

الازدهار الأدبي . — لقد كان المسرح من أعظم الأشكال الأدبية وأنشطها في اسبانيا . فقد كتب لوب دوفيغا (١٥٦٢ — ١٦٣٥) اكثر من مائة ملهاة (كوميديا) أصيلة . وكان غيلهم دوكاسترو في « طفولات السيد » عام ١٥٥٩ نموذجاً ملهماً لغيره وخاصة للشاعر الفرنسي كورني . ولقد تأثر المسرح الفرنسي في القرن السابع عشر بالمسرح الاسباني .

وتصف لنا « **رواية المغامرة** » ، بواقعية ، اسبانيا المتكبرة والبائسة وحالة الهيدالغوس المتشردين والجائعين .

ولكن الادب الاسباني بكامله يسيطر عليه وجه **سرفانتس** العظيم (١٥٤٧ — ١٦١٦) . فقد قضى حياة مغامرة قادته من ليبانت ، حيث فقد يده ، إلى الجزائر ، حيث أخذه البربر وأسروه خمس سنوات قبل أن يعود إلى اسبانيا ويعرف فيها السجن كان خصب القريحة ، وكتب كثيراً . ومن روائعه الخالدة « **الهيدالغو الاديب دون كيشوت المانش** » ، فقد كتبها من ١٦٠١ إلى ١٦١٥ ، وفيها يسخر من رواج روايات الفروسية ، ولايخلو ذلك من بعض العطف على الحياة الغريبة التي يحياها الهيدالغوس القشتاليون .

الفن . — لقد كان لفن البناء والتزيين البرتغالي مكانة خاصة في اسبانيا . وهذا النوع من الفن ذو أسلوب تركيبي وتزيين مثقل للغاية ، وفيه يمتزج فن الباروك باصداء الفن الهندي وبأشكال مستوحاة من نباتات البرازيل المدارية .

ولقد أثر فن الباروك الايطالي ، فن الاصلاح الكاثوليكي ، على البناء الاسباني ذي الاسلوب الغني بالتزيين . وكان المهندس المعمار العظيم في اسبانيا هيريرا الذي بنى الاسكوريال . وهذا القصر الواسع قاس في ملامحه ، منسجم مع اطاره الطبيعي ومع وجه الملك الذي أمر ببنائه . ومثله قصر طليطلة الذي أصبح اليوم أطلالا . فهو يشرف بكتلته العظيمة الرمادية على المدينة المتراصة فوق نهر التاج .

وقد وصف المصور الكريتي لوغريكو بعمق اسبانيا في القرن السادس عشر . فقد أقام في البندقية ونفذ فنها إلى قلبه ثم استقر في طيطلة . وكان عبقرية مدهشة مضطربة اشتهر بتطويل (سلب) الاشكال والوجوه واستطاع أن يجسد الصوفية والحماسة الشديدة في قشتالة « العصر الذهبي » .

نموذج الملكية المعتدله

انكلترا في عهد الأسرة التيودورية

١٤٨٥ — ١٦٠٣

كانت انكلترة منذ منتصف القرن الخامس عشر دولة صغيرة نحيلة . ولم تكن لتضم سوى جنوب بريطانيا العظمى ووسطها وشرقها مع بلاد الغال (ويلز) . ولم تكن ايرلنده مرتبطة بها برباط وثيق . وسكانها

قلائل ، وثرواتها طبيعية وأهمها الصوف . ولم يكن لها سوى تأثير بسيط نظراً لموقعها الجغرافي ، خارج أوربـه ، بعيدة عن طرق المواصـلات الكبرى ، وعن أسواق الغرب الهـــامة ، ولم يظهر دورها الهام بعد في الناحية السياسية والاقتصادية . وبينما كانت الدول الاوربية الاخرى تشغل مكانة ممتازة في القارة ، لم تكن انكلترا على شيء يسمح بالاعتقاد في ذلك الحين ، بان سيكون لها شأن كبير في اوربـه ، ولا شيء يدعو إلى التنبؤ باحتياطي الفحم والسيطرة على البحار . ومع هذا فان الطور الداخلي يسمح بالقول بأن انكلترة وفرنسا كانتا على شيء مما نسميه اليوم بالعاطفة القومية . فقد نشأ هذا الشعور في حرب المـــائة عام (١٣٣٧ - ١٤٥٣) بين البلدين . ففي آخر الحرب أضاعت انكلترا ممتلـكاتها القارية ولم يبق لهـا سوى ميناء كاليه وتحررت من كل رابطـة نورماندية أو أنجفية (بالنسبة إلى مقاطعة آنجو) أو أكتينية ، كما تخلصت من كل عبء فرنسي .

ولكن انكلترا لم تكد تنتهي من حرب المائة عام الا ووقعت في حرب تسمى حرب الوردتين (١٤٥٥ - ١٤٨٥) نسبة إلى الوردة الحمراء التي كانت شعاراً لبيت لنكاستر ، والوردة البيضاء شعـار بيت يورك ، اللذين كانا من اسرة بلانتاجونه . وبلغت الفظاعه البشرية في هذه الحرب درجة قصوى ، ولم تكن حرباً شعبية لأن الطبقات الشعبية لم تشترك فيها ، بل ان النبلاء وحدهم كانوا يتقاتلون فيها معاً . وأخيراً فاز بالعرش آل يورك سنة ١٤٧١ . غير ان حكمهم كان قصير الأمد ، وذلك لأن موت الملك ادوارد الرابع أحدث أزمة جديدة . فقد ترك طفلين صغيرين عهد بهما إلى أخيه ريتشارد ، ولكن هذا طمع في الملك وأخذ الطفلين وسجنهما في برج لندن ، وليزيد في اطمئنانه أوعز بقتلهما .

إلا أن هذه الجريمة جعلته بغيضاً في عين الشعب . وصح أن بقي امير تتصل قرباه بآل لنكاستر وهو هنري تيودور ، وكان لاجئاً في بلاط فرنسا ، واستطاع بما أمده آل بوجو في فرنسا من مال أن يجهز جيشاً صغيراً ويحمل به على انكلترا ، فالتف حوله المستاؤون من حكم ريتشارد الثالث . وجرت بينه وبين هذا الاخير واقعة في بوزورث (١٤٨٥) وفيها قتل ريتشارد وأصبح هنرى ملكاً باسم هنري السابع ، وأسس أسرة حكمت انكلترا خلال القرن السادس عشر (١٤٨٥ - ١٦٠٣) عرفت باسم اسرة تيودور .

نتائج حرب الوردتين . - كانت نتائج هذه الحرب هامة من الوجهة السياسية والاجتماعية وذلك لأنها قوضت نفوذ الارستقراطية الانكليزية ووسعت سلطة الملك . لقد قضت الحرب على حياة الالوف من الأمراء الاقطاعيين ، وهدمت كثيراً من الأسر التي لم يبق لها إلا عدد قليل يمثلها . وعلى العكس قوي نفوذ الملكية أكثر من ذي قبل ، نظراً لضعف الاقطاعية والطبقات الأخرى التي ليس لها من القوة الكافية مايجعلها تستطيع تحديد سلطة الملك . يضاف إلى ذلك أن الشعب مل حياة الفوضى والحرب وأصبح متهيئاً للخضوع إلى مليك يعيد اليه السلام والنظام .

وزاد في قوة الملكية أيضاً غناها العظيم ، لأن الملكية أصبحت أغنى بكثير مما كانت عليه في السابق . فقد وجد خمس الارض الانكليزية دون ملاكين عندما تولى هنري السابع عرش انكلترا . وهذه الأراضي ،

التي ليس لها وارث ، أصبحت بموجب القانون ملكا للملك ، بالاضافة إلى الاراضي ، التي ضمت إلى أملاكه بطريق الحجز . وقد أصبح بهذه الصورة ملك انكلترا أكبر ملاك فيها ، كما هي الحالة في زمن غليوم الفاتح .

وضعفت سلطة البرلمان ، وبعد أن كان في حرب المائة عام يشارك الملوك في الحكم أصبح نسياً منسياً حتى أن هنري السابع خلال حكمه (١٤٨٥ — ١٥٠٩) أي خلال أربع وعشرين سنة لم يدعه للاجتماع سوى سبع مرات ، وفي كل مرة يفرض عليه ارادته . واتبع خلفاؤه السياسة نفسها ، وهم وإن لم يلغوا البرلمان إلا انهم لم يدعوه إلا قليلا ومتى شاؤوا ولا يسمحون بأقل معارضة . وبالرغم من أن الوثيقة الكبرى (١٢١٥) وانظمة اوكسفورد الأساسية (١٢٥٨) مازالت في حيز الوجود ، فقد كان آل تيودور في الواقع يحكمون حكماً استبدادياً مطلقاً كملوك فرنسا . وعوضاً عن أن يدعو البرلمان للنظر في القضايا المالية ، كانوا يلجأون إلى وسائل أخرى كالغرامات والهبات المجانية التي هي في الواقع رسوم اجبارية ، حتى أن مورتون ، وزير الماليه لدى هنري السابع ، وجد وسيلة غريبة لابتزاز المال ، فمن ذلك أنه كان يقول : « انك تصرف كثيراً ، إذاً فأنت غني تستطيع الدفع » أو : « انك تصرف قليلا ، إذاً فأنت تقتصد واذا تستطيع الدفع » . وكما قيل ، لم ينج أحد من منجل مورتون . وكـذا العدالة لم تتبع القواعد التقليدية المتعارفة ، بل إن المحاكم المحلية أي محاكم بداية الجزاء خولت الحق في اعطاء الحكم في اجرام الخيانة دون الاستعانة بالمحلفين .

وقد تحمل الانكليز هذا الحكم الاستبدادي من آل تيودور لانهم

عرفوا كيف يحمون مصالحهم ويساعدونهم في كسب المال والثروة . وسبب ذلك يرجع إلى تطور انكلترا الاقتصادي منذ القرن الرابع عشر . فبعد أن كانت بلاد زراعة وتربية حيوانات ، أصبحت مع الزمن بلاداً تجارية وصناعية . وقد ازدادت أهمية صناعة الصوف خاصة في بعض المدن مثل نورفيك ، وامتدت الانوال إلى الارياف وزاحم التجار الانكليز التجار الالمان والفلامان ، الذين كانوا في السابق سادة التجارة في انكلترا ، وألفوا على طرازهم رابطات مثل « جمعية التجار المغامرين » التي انشئت عام ١٤٠٤ واخذت تتاجر في بحار الشمال .

حث آل تيودور هذا التطور . واتخذ هنري الثامن تدابير من شأنها حماية التجارة والصناعة الانكليزيتين ضد المنافسة الاجنبية ، وعقد معاهدات تجارية مع البندقية وفلورنسا وبلاد الشمال وخاصة بلاد الفلاندر . وشجع الملك المنشآت البحرية وحمل البرلمان على التصويت على مرسوم الملاحة ، وبمقتضاه تنقل الخمور الفرنسية إلى انكلترا على سفن انكليزية .

ولم يهمل هنري السابع وخلفاؤه شؤون القارة . لأن بقاء ميناء كاليه في أيديهم كان يساعدهم في أي وقت على انزال جيش فيها . ونظرا لهذا الوضع الجغرافي كان ملوك فرنسا وأعداؤهم يرغبون في التحالف مع الانكليز ، ولذا كان هؤلاء يستفيدون من وضعهم للانحياز إلى هذا الجانب أو ذاك ، ويلعبون دور الحكم في قضايا اوربه الغربية .

هنري السابع (١٤٨٥ — ١٥٠٩) . — بعد واقعة بوزورث (٢٢ آب ١٤٨٥) التي انتهت بها حرب الوردتين اعتلى عرش انكلترا هنري السابع تيودور بالنسبة إلى جده لأبيه أوين تيودور ، وهو أمير من بلاد الغال تزوج أرملة هنري الخامس ومات وهو يقاتل إلى جانب آل لنكاستر (١٤٦١) . وهو بالنسبة لأمه يعتبر وارثا لآل لنكاستر ،

وبزواجه ، في كانون الثاني ١٤٨٦ ، اليزابت يورك ، بنت ادوارد الرابع جمع بين الفرعين المتخاصمين . ولكن البرلمان عندما اعترف به ملكاً في ٧ تشرين الثاني ١٤٨٥ اكتفى بأن صرح ان العرش يرجع اليه بصورة شرعية دون أن يتعرض للصفة التي نال بها العرش ، وذلك لأن النساء حتى ذلك الحين لم يكن وارثات للعرش . على أن الشيء الذي أمن بقاء السلطة بيد هنري السابع هو عمل الحرب التي ذهبت تقريباً بجميع المطالبين بالعرش وبالقسم الاعظم من طبقة النبلاء القديمة . ولكن هذا لم يمنع هنري السابع من الدفاع مدة طويلة ضد مؤامرات اليوركيين ، التي كانت تدبر في الخارج : في الفلاندر ، حيث كانت مرغريت يورك أخت ادوار الرابع ؛ وفي ايرلنده عند آل فيتزجرالد ؛ وفي ايكوسيا ، إلا أنه استطاع أن يظفر على كل هذه المؤمرات .

وجهد هنري السابع في توسيع الانظمة الملكية حتى قال فيه شاهد اسباني معاصر يسمى آيالا : « انه يريد أن يحكم انكلترا كالملوك في فرنسا ولكنه لايستطيع ذلك » وهو وان لم يستطع ذلك إلا أنه حاوله . فقد كان يختار مستشاريه من بين رجال القانون والمشرعين بعيداً عن طبقة النبلاء التي أضعفها بما حجز من أملاكها . وأدخل هنري السابع أشياعه إلى مجلس اللوردات فغدوا في يده آلة طيعة . أما مجلس العموم فكان في جانبه لأن أعضاءه يرون فيه الملك الذي يحكم بالعدل ويوطد السلام في مملكته . وقد كتب فيه أحد الايطاليين مايمكن أن يكون صحيحاً : « لم تر انكلترا منذ غليوم الفاتح ملكا حكم بسلام اكثر منه ، فقداستطاع بما اوتي من حكمة ان يجعل الكل يخشونه في كل مكان » .

وعظم في عهده الدور الذي كانت تلعبه « غرفة النجوم » ، وهي محكمة تنظر في القضايا الهامة في الحق العام . ولم تكن هذه المحكمة

بالشيء الجديد ، إلا أن الملك وضع لها في العام ١٤٨٧ نظاماً بين فيه وظيفتها وعدد أعضائها . وكانت أداة الانضباط تراقب الشرفاء ، والشريف حاكم اداري يمثل الملك في الكونتية ، وتكافح رشوة المحلفين ، وتضرب على أيدي العصاة والاجتماعات التي لايسمح بها القانون .

وعرف هنري كيف يجمع المال . فقد قبل البرلمان باعطاء الملك الاموال الضرورية ليحارب فرنسا وايكوسيا عـــام ١٤٩١ و ١٤٩٦ . غير أن له طرقاً أخرى كان يجمع بها المال : فمن ذلك أن كل مؤامرة أو ثورة كانت عذراً ينتحله لحجز الأملاك وفرض الغرامات الثقيلة . على أن هنري السابع وان لم يترك ذكرى مليك عظيم ، إلا أنه كان على الأقل عاقلاً فطناً ، فقد نضج في منفاه وعرف كيف يدخر الأمـوال دون أن يصرف كثيراً منها . وواتاه الحظ ، أن جاء في وقت قربت فيه ساعة انتهاء حرب الوردتين ، واستطاع ان يوطد النظام دون شدة وترك لابنه هنري الثامن مملكة يسودها السلام وسلطة ملكية قوية الدعائم وموارد كثيرة .

السياسة الخارجية . — كانت انكلترا في ذلك الحين في نجوة من الاهتمام بالممتلكات والمطامع القارية التي تشغل ذهن الملوك القدماء . ولذا تقيدت سياستها بوضعها في جزيرتها وأخذت طابعاً قومياً وصارت سياسة توازن بالنسبة إلى الدول الأخرى في القارة ؛ ومن جهة أخرى ، سياسة دفاع وتوسيع لنشاطها البحري . إلا أن هنري السابع ، كهنري الثامن في أول عهده ، لم يعدل عن تقليد من تقاليد انكلترا وهو الحرب ضد فرنسا ، فقد تحالف مع ماكسمليان النمسا ليدعم دوق بروتانيا فرنسوا الثاني ثم ابنته الدوقة آنّا ضد شارل الثامن . وكان فطناً يعرف من أين تؤكل الكتف : تفاوض مع شارل الثامن لقاء المال الذي قدمه

اليه ، عام ١٤٩١ . وفي عام ١٤٩٢ قام الدجال بركن وربك ، وهو فلامندي من تورنيه ، ادعى أنه ريتشارد يورك ، أحد أولاد ادوارد الرابع وانه استطاع الفرار باعجوبة من البرج ، ولكن قبض عليه وزج في السجن وأخيراً أعدم . وقد لاقى بركن مساعدة من الفلاندر حيث كانت مرغريت أخت ادولرد الرابع يورك لذا قطع علاقاته مع حكومة البلاد المنخفضة ونقل أسواق الصوف الانكليزية عام ١٤٩٣ من آنفرس إلى كاليه . وتقرب من فيليب الجميل عندما تخلى هذا عن المطالبة بالعرش وعقد معه ١٤٩٦ اتفاقاً تجرياً ، واتفاقاً مع ماكسمليان بعد أن ألقى القبض على وربك وأرجع السوق الصوفية إلى آنفرس .

وفي عام ١٥٠١ زوج أكبر أولاده آرثر من كاترين آراغون بنت فرديناند ملك اسبانيا ، وابنته البكر مرغريت من ملك ايكوسيا جاك الرابع (١٥٠٢) وهذا الزواج سيجعل ، بعد قرن ، من جاك السادس من آل ستيورات آخر أحفاد مرغريت وارثاً لاليزابث ،ملكة انكلترا ، آخر ملكة من اسرة تيودور .

أما الزواج الأول فكان لتوطيد العلاقات بين انكلترا واسبانيا لتساعده على فرنسا . ولكن هذا الزواج لم يدم طويلاً لأن آرثر مات (في نيسان ١٥٠٢) . غير أن أباه هنري السابع أراد أن يجعل من أرملته ضماناً للتحالف الاسباني واستحصل من البابا جول الثاني على السماح الضروري لخطبة كاترين إلى ابنه الثاني هنري الذي أصبح وارثاً للتاج ولم يكن له من العمر سوى ١٢ سنة . إلا أن زواجه لم يتم إلا بعد أن اعتلى العرش بشهرين .

وفي عهد هنري السابع امتطى أصحاب السفن في بريستول متن البحر

نحو الشواطىء الغربية من افريقية والارض الجديـــدة حيث أسسوا لهم مراكز الصيد . وفي بريستول استقر جان كابوت ، وهو جنوي الأصل صار بندقياً وعاش في لشبونه ، وقد جعله هنري السابع أميرالاً وأمده بالمال في رحلتيه الاكتشافيتين اللتين قادتاه إلى شواطىء لبرادور وايكوسيا الجديدة (١٤٩٧ — ١٤٩٨) . أما ابنه سيباستيان فكان اللولب المحرك للمشاريع التي قامت في عهد ادوارد السادس وماريا تيودور . أما في عهد هنري السابع فقد كانت المشاريع متواضعة ونتائجها الاقتصاديـــة ضعيفـة .

الملكيات العقارية في القرى . — لقد قوت حرب الوردتين العادات العسكرية عند الطبقة النبيلة ، إلا أنها لم توقف التطور الذي كانت تمر فيه انكلترا وأدى بها إلى الخلاص من مظهرها كبلد اقطـــاعي . لأن الأمير أصبح ملاكاً كبيراً لايتناول ممن يتركهم يتصرفون بالأرض سوى اتاوات مالية ، وعوضاً عن ان يشغلهم بزراعة حقله ، كان يؤجره بالمال إلى كبار المزارعين . يضاف إلى ذلك أن شراء الحقول من قبل البورجوازية الحديثة الغنى زاد في هذه العادة التي انتشرت في الاوساط الريفية . ولم يعد الفلاح الانكليزي يشكو الاتاوات الاقطاعية أو السخرة بل امتداد الملكية الكبرى المستمر الذي أخذ يجرده من أراضيه بالتدريج . وقد ازداد هذا الاحتكار في النصف الثاني من القرن الخامس عشر بعمليات التسوير التي امتدت حتى القرن التاسع عشر ، لأن تقدم صناعة الأجواخ شجع الكثيرين على تربية الأغنام وتحويل حقولهم الزراعيـة إلى مروج مسورة . ولكن الامراء أساءوا استعمال هذه الاتجاه في الزراعة ، فكانوا يستولون في القرى على الاراضي المشاع ويطردون من عليها بغير حق ، واذا وجد لأمير منهم أراضي في أقسام مختلفة من القرية كان لا يتواني

عن الاعتداء على غيره وأخذ حقله المجاور لأرضه . ولاتخلو هذه الاعتداءات من أعمال الاختلاس والاحتكار ، ولذا قل عدد المتصرفين بالأرض أو عدد الملاكين الصغار بنتيجة ابدال الزراعة بتربية الحيوانات ، وقلت الحاجة إلى الأيدي العاملة وقلقت الحكومة الملكية من هذه الحركة التي كادت تودي بحياة هذه الطبقة المسماة يومن ، لأنها تعلق اهمية كبرى عليها من ناحية الضريبة والناحية العسكرية ، وتخشى أن تنقلب إلى طبقة كادحة زراعية تتعرض دوماً للسقوط في مهاوي العوز والتشريد . فأصدرت قانوناً سنة ١٤٨٩ حرمت فيه تخريب البيوت في المزارع التي تكون مساحتها ٢٠ آكر أي مايعادل ١٠ هكتار . ودشن هذا التشريع ، الذي وضعه هنري السابع ، هذه السياسة الدائمة لآل تيودور وآل ستيورات في أول عهدهم . ولكن تكرار التحقيق والقوانين يدل على استحكام اساءة الاستعمال . ولم تكن أعمال التسوير في القرن الخامس عشر ، والقرن السادس عشر كثيرة إلا في كونتيات الوسط ، كما لم يبلغ خطرها الحد الذي بلغه بعد ثورات القرن السابع عشر .

ايرلنده في عهد هنري السابع . — عندما اعتلى هنري السابع العرش لم تكن سيادة انكلترا على ايرلنده إلا في حدود اطار ضيق من الأراضي يمتد على طول الشاطيء من دندالك في الشمال إلى قرب دبلن في الجنوب ، ويحده من جهة الداخل بعض الحصون والقلاع . وعلى رأس هذا القسم المحتل المسمى (البال) وجد النائب مع مجلس لادارة شؤونه ، ويحتوي على برلمان على نسق برلمان انكلترا وله نفس السلطات . واحتفظ سكان القسم المحتل بظاهرهم الانكليزي ، أما في باقي الجزيرة فان السكان الأصليين مثلوا بالتدريج المهاجرين الانغلو — نورمان . الذين أتو اليها بعد الفتح في القرن الثاني عشر . وبقي الشعب محافظاً على لغته وطباعه

وعاداته وخاصة نظام الملكية الذي لا يقبل الامتيـاز في التوريث كما هو متعارف عليه في انكلترا . وفي جنوب الجزيرة ووسطها كانت الأراضي مقسمة بين العائلات القديمة لزعماء الانغلو — نورمان مثل فتزجيرالد ، وفتزموريس وبتلر وبورك وغيرها . وفي المناطق الجبلية وفي الاولستر كانت الأقوام القديمة من السكان الأصليين تعيش مع زعمائها مثل اونيل، اودونيل ، اوكنور . وكان النزاع دائماً بين الزعماء ولكنهم جميعاً كانوا يكرهون الحكم الانكليزي . إلا أن هناك بعض الزعماء الأنغلو — نورمان كانوا يعترفون بسيادة ملك انكلترا للفوائد التي يحصلون عليها . فمن ذلك أن اللورد النائب كان يؤخذ منهم . ومساندتهم إلى سيمنل ووربك جعلت هنري السابع في عام ١٤٩٤ يعين عسكرياً اسمه جون بوينينغز ، وقام هذا بادارة (البال) بشدة وجعل البرلمان الايرلندي يصوت على القانون الذي عرف باسمه والذي يحرم على البرلمان التصويت على أي قانون ما لم ينل موافقة مجلس الملك في ايرلنده .

هنري الثامن (١٥٠٩ — ١٥٤٧) . — اعتلى هنري الثامن عرش انكلترا وهو شاب له من العمر ١٨ سنة ، وبدا أنه لايختلف عن أبيه بصفاته الفكريه فحسب بل بشدته وقساوة طباعه . فقد كان ظلوماً غاشماً وأنانياً لايعرف الرحمة ويضحي حتى بأحسن خدمه واشياعه عندما لاينالون هوى من نفسه ، ودون أي اعتبار لخدماتهم . ولا يحترم المعارضة التي تخالف رأيه ولو أتت عن رجالات عرفوا بوجدانهم السامي من أمثال توماس مور وجون فيشر . وقد استطاع أن يحتفظ بجاهه وتأثيره حتى النهاية لأنه كان أميراً ذكياً متعلماً انسانياً وفنانا ولاهوتيا معا . وعلى الرغم من شدته وانفعاله ، لم يعدم الحس بالواقع ، فقد سـير سياسته بذوق شغف بالمجد والسلطة .

احتفظ هنري الثامن بمعظم المستشارين المجربين الذين تركهم والده ، وقتل « أمبسن » و « ددلي » ارضاء لمن ابتز منهم المال في عهد والده ، فاكتسب بذلك شعبية عظيمة بالرغم من أن الجريمة التي وجهت اليهما ، وهي خيانة الملك ، لم تثبت عليهما . وولى ثقته إلى كنسي شاب ، يسمى توماس ولزي ، وكان هذا ابن تاجر صوف في ايبسويتش قاعدة كونتية سوفولك . دخل البلاط بصفة كاهن ملحق بالملك واكتسب عطفه وعطف الوزراء واصبح من أقدر مستشاري الملك نفوذاً وتولى منصب رئيس أساقفة يورك ، وصار كردينالا عام ١٥١٥ وبقي خلال ١٥ عاماً يوجه السياسة الانكليزية على ما هو عليه من أبهة الامارة . كان محسناً وساعد على تجديد الثقافة القديمة والدينية وذلك بأن أسس في اوكسفورد كلية الكاردينال ، وافتتحها طبقاً لأنظمة الانسانيه الجديدة . وفي ١٥١٨ عينه البابا مندوباً عنه في انكلترا تلبية لرغبة الملك وبذلك أصبح السيد الحقيقي للكنيسة الانكليزية .

وكان الملك يغدق عليه كل هذه النعم والألقاب طمعاً في الخدمات التي يقدمها اليه في سياسته الخارجية . وبفضل ولزي احتفظت انكلترا بمكان سام في المنازعات الاوربية أكثر من اعتمادها على جنودها . ودخل هنري الثامن عام ١٥١٢ في العصبة المقدسة ضـد لويس الثاني عشر ، وانتهزت ايكوسيا الفرصة وغزت انكلترا ، إلا أن جيوشها هزمت هزيمة منكرة في واقعة فلوددن (١٥١٣) وقتل ملكها جاك الرابع وبقي ابنه جاك الخامس تحت وصاية أمه مرغريت أخت هنري الثامن . ثم اجرى ولزي مفاوضات مع لويس الثاني عشر وانتهت بتقارب بين انكلتراوفرنسا وزواج لويس الثاني عشر بماريا اخت هنري الثامن .

لقد كانت سياسة ولزي ترمي إلى جعل انكلترا حكماً في أوربة، وهذا ما كان يريده هنري الثامن . وتوصل في ١٥١٧ إلى عقد الصلح وتأليف عصبة من ملك فرنسا وانكلترا والامبراطور والبابا . واستطاع أن يحصل من فرنسوا الاول على استدعاء دوق الباني ابن أخ جاك الرابع الذي سمى نفسه وصياً على العرش وحرم الملكة مرغريت أم جاك الخامس من سلطتها . وعندما شغر عرش الامبراطورية وافتتحت المنافسة بين شارلكان وفرانسوا الأول فكر هنري الثامن جدياً أن تكون الامبراطورية له وتاج البابا لولزي عند وفاة ليون العاشر وادريان السادس . ولكن هذه الأطماع لم تتحقق . ويبدو ان السياسة التي سلكها الملك والكاردينال كانت سياسة توازن بين الأسرة الفرنسية والأسرة النمساوية . فقد دعما في أول الأمر شارلكان ، ثم تقربا من فرنسوا الاول بعد واقعة بافيا (٢٤ شباط ١٥٢٥) .

أما مهمة ولزي في الداخل فقد كانت سهلة . ولم يكن هنالك سوى بعض اضطرابات قام بها العمال اللوندنيون ضد العمال الأجانب ، ولم تأخذ أي طابع سياسي . غير أن الأشراف كانوا يحسدون ولزي شرفه ويأبون ان يسيطر عليهم رجل من الطبقة المتوسطة ، ولكن هراءهم قد صمت ودب في قلوبهم الرعب عندما أعدم في العام ١٥٢١ ادوارد ستافورد ، دوق بكنغهام من نسل ادوارد الثالث ، بدعوى طموحه إلى العرش .

لقد كان ولزي يعمل على تحقيق نظام مطلق . فقد أراد أن يستغني عن البرلمان ، غير انه كان بحاجة إلى المال لدعم الحروب ، فدعاه ولبى طلبه عام ١٥١٣ . وفي العام ١٥٢٣ كان بحاجة إلى ٨٠٠،٠٠٠ جنيه ،فلم يعط إلا جزءاً منها . وأرسلت لجان الكونتيات لحصول على $\frac{1}{6}$ الواردات.

كـ « قرض ودي » يؤخذ من الناس الميسورين . ولكن هذا التدبير أثار احتجاجات شديدة وأدى الأمر إلى حذف اللجان . وهذا الحادثان يساعدان على معرفة الحـــدود التي يمكن أن يمارس فيها الحكم المطلق سلطته .

ولكن السياسة الـــتي اتبعها ولزي وسلطته الاستبدادية ومحاولاته أقامت حوله جواً من الاستياء والسخط ، ولم تلبث هذه الضوضاء أن لقت اذناً صاغيــة من الملك . ولم يكن اخفاق ولزي في قضية طلاق الملك السبب الوحيد في زوال حظوته ونكبته وموته .

قضية الطلاق . — لقد رأينا أن هذه القضية ألقت بانـــكلترا في الاصلاح الديني . ويمكن أن يكون للملك هنري الثامن عذر وجيه في فسخ زواجه من كاترين آراغون . فقد أنجبت له خمسة أولاد لم يعش منهم سوى بنت واحدة وهي ماريا التي لقبت « أميرة غال » عام ١٥٢٥ . وحتى ذلك التاريخ لم تحـكم انـكلترا امرأة ولذا كان من الطبيعي أن يكون له ولد . غير أن السبب الحقيقي الذي حمله على الطلاق هو هواه لآن بولين واصرار هذه على أن تكون ملكة . والحجة التي اتخذها هنري الثامن ذريعة أمام البابا ليبرر فسخ الزواج هي بطلان السماح الذي الذى حصل عليه من قبل البابا جول الثاني للزواج بأرملة أخيه وكان من الصعب قبولها .

وقد أفسدت هذه القضية علاقاته مـــع شارلـكان ابن فيليب الجميل وحنا المجنونة أخت كاترين آراغون وقربته من فرانسوا الاول الذى سعى للحصول على فتوى ملائمة من لاهوتيي باريس .

ومهما يكن من أمر فقد أصبح من المستحيل الفصل بين سياسته الدينية وسياسته العامة ، كما أصبح تفوق الملك أداة لسيطرته وغناه . فقد هدم قوة الاكليروس الاقطاعية وعصر املاك الكنيسة وأخذ وارداتها ووزعها على المخلصين له ، وحول كثيراً من الأديرة الى معامل ومصانع .

وفي كانون الثاني ١٥٣٣ تزوج الملك سراً من آن بولين وجرّد ماريا بنت كاترين من حقوقها ، ثم حمل البرلمان على التصويت على قانون الاستئناف الذي يحرم رفع الأحكام ، التي تحكم بها محكمة رئيس أساقفة كانتوربري ، إلى روما . وفسخ كرانمر ، رئيس الأسقفية ومستشار الملك ، زواج كاترين وهنري . وأعلن عندئذ زواج الملك بآن بولين ، وقد رزقت منه بنتاً سميت اليزابث . وقبل نهاية هذا العام صدر قانون يجعل العرش وراثياً في أبناء الملكة الجديدة . وفي بحر عام ١٥٣٤ تم انفصال انكلترا عن روما بسلسلة قوانين هيئت لهذا الغرض .

الحرب مع ايكوسيا وفرنسا (١٥٤٢ - ١٥٤٦) . — تأثر ملك إيكوسيا جاك الخامس ، ابن اخت هنري الثامن ، بأسقف سنت أندراوس ، الكاردينال بيتون ، وكان هذا عدواً للاصلاح الديني . واتبع جاك سياسة ايكوسيا التقليدية في بغضها لانكلترا وتحالفها مع فرنسا ، وتزوج ماريا غيز بنت فرانسوا الأول ، وحارب هنري الثامن عام ١٥٤٢ ومات عقب انكساره في سولوي موس في الوقت الذي ولدت بنته ماريا ستوارت (كانون الأول ١٥٤٣) . وتابعت أرملته سياسته دون نجاح . وتحالف هنري مع بعض الامراء الايكوسيين وقتلوا الكاردينال بيتون وساعدوا الانكليز على غزو ايكوسيا واضطرت أخيراً ماريا غيز إلى الصلح (١٥٤٦) .

وفي السنة نفسها أي في العام ١٥٤٢ بدأت الحرب مع فرنسا واضطر هنري الثامن أن يتمم الحرب وحده لان شارلكان عقد صلح كربيي (١٥٤٤) دون أن يستشيره وانتهت الحرب بمعاهدة أبقت لانكلترا بولون بعد أن سبق وفتحها عام ١٥٤٤ .

قضية الوراثة . — في سنة ١٥٣٦ أعدم هنري الثامن آن بولين واتهمها بالفجور ، غير أن هذا الاتهام لا يخلو من شك . ويبدو أن جرم الملكة الحقيقي أنها لم تعقب منه ولدا . وتزوج جان سيمور التي ماتت وخلفت له ولداً إسمه ادوارد ، وتزوج بعدها عام ١٥٤٠ آن كليف بنت جان كليف الثالث من أمراء ألمانيا . وكان المحبذ لهـذا الزواج كرومويل الذي خلف ولزي في حظوته لدى هنري الثامن . فقد طمّعه في هذا الزواج مدعياً أنه يحدث تقارباً بين الأمراء البروتستانتيين في ألمانيا وبين هنري الثامن . ولكن خاب رجاء الملك لقبح هذه الأميرة ولتقارب البروتستانتيين مع شارلكان . وكان من ذلك أن طلق الملك زوجته بعد بضعة أشهر وغضب على كرومويل وأقيمت عليه دعوى الخيانة للملك وأعدم في (تموز ١٥٤٠) . ثم تزوج بعدها كاترين هوورد وبعث بها إلى المشنقة لسوء سلوكها (١٥٤٢) . وفي السنة التالية تزوج هنري الثامن آخر زوجاته وهي كاترين بار وكان من حظها أن عاشت بعده .

إذا فوارث العرش الشرعي هو ادوارد ابن جان سيمور . إلا أن الملك لم يشأ أن يدع للصدفة وراثة العرش في المستقبل ، فحمل البرلمان على الاعتراف له بحق تنظيم هذا الأمر ، وجعل لابنته ماريا واليزابت الحق في وراثة العرش بعد أدوارد السادس . إذا مات ولم يكن له ولد . وإذا لم تعقبا أولاداً بعدهما فإن العرش لا يرجع إلى أنسال أخته الكبرى مرغريت ايكوسيا ، بل إلى أنسال أخته الصغرى ماريا دوقة سوفولك .

وفي الحقيقة ، ان وراثة العرش ، بعد موت أدوارد السادس ، لم تتعلق بإرادة هنري الثامن بل بالظروف . وإذا رأى الملك الشيخ حقاً أن ترث ماريا واليزابت فلم يكن في سلطته أن يقصي آل ستوارت عن العرش .

ومن الحوادث الهامه في عهد هنري الثامن ضمه بلاد الغال (ويلز) إلى انكلترا عام ١٥٣٦ .

ادوارد السادس (١٥٤٧ — ١٥٥٣) . — توفي هنري الثامن في ٢٦ كانون الثاني ١٥٤٧ ، واعتلى العرش ابنه ادوارد السادس وله من العمر ١٠ سنوات وقد مات وهو في السادسة عشرة . كان ادوارد تقياً يحب الدراسات الدينية ، فاتجه نحو أفكار الاصلاح الديني سواء بميوله الطبيعية أو بتأثير حاشيته . ولم يحكم هو بنفسه ، بل كان خاله دوق سومرست وصياً عليه . وقد اعترف له البرلمان بهذه الحماية . ولذا فان الارستقراطية الجديدة التي أصبحت سيدة مجلس الملك ، وكان يدعمها البرلمان ، وسعت نتائج الانفصال عن الكنيسة الرومانية وتركت لعلماء اللاهوت البروتستانتيين حرية متابعة الاصلاح في المذهب وفي العبادة ، ووجه كرانمر السياسة الدينية وألغى قانون المواد الست وأقر المناولة بعرضيها الخبز والخمر ، وزواج الكهان ، ونشر كتاباً خاصاً للصلوات اعترف به رسمياً وطبع باللغة العامية ١٥٤٩ واسمه « **كتاب الصلوات** ». يضاف إلى ذلك أن كثيراً من المؤسسات الدينية جردت من أموالها بعد أن تركها هنري الثامن دون أن يمسها بشيء . وأصبحت انكلترا ملجأ للبروتستانتيين المضطهدين في القارة . وكثير منهم من أمثال فيرميغيلي عام ١٥٤٧ وبوسر عام ١٥٤٨ كان يعلم في اوكسفورد وكامبردج .

وحلم سومرست بتحقيق اتحاد ايكوسيا مع انكلترا وذلك بزواج

ادوارد السادس بماريا ستيوارت فرفضت ، وغزا ايكوسيا فأثارها ضده وأرسلت ماريا غيز ابنتها إلى فرنسا حيث خطبها فرانسوا الثاني ملك فرنسا آنذاك ، وتداخلت فرنسا واضطرت انكلترة إلى الجلاء عن ايكوسيا وأضاعت بولون في فرنسا .

واذا أحدث كتاب الصلوات عصياناً دينياً في جنوب غربي انكلترا ، فقد سبب التسوير وشقاء الفلاحين عصياناً آخر في نورفولـــك ، ورأى مجلس الملك ضعف سومرست فعزله من منصبه ورفع عنه لقب « الحامي » حل محله في إدارة الحكومة جون بودلي كونت ورويك .

حكومة ورويك (١٥٤٩ — ١٥٥٣) . — لقد كانت حكومة سومرست إلى حد ما معتدلة وبقيت معادية للتسوير حتى ان « الحامي » تردد أمام ثوار نورفولك . أما ورويك فكان طموحاً لايعرف الهوادة والتردد . جعل الأرستقراطية تسعى لخدمته الخاصة ، وضرب على أيدي كل من عارض سياسة التسوير . ومن جهة أخرى ، أخذ الاصلاح الديني في عهده طابعاً بروتستانتياً وبديء بتبسيط العبـــادة وفرض كتاب ثان للصلوات راديكالي النزعة وذلك بموجب قانون التوحيد (١٥٥٣) وفي السنة نفسها نشر اعتراف بالايمان مؤلف من ٤٢ مادة اشترك به المصلح نوكس مستمداً وحيه من كالفن . واستمر نهب أموال الكنيسة ولكن في هذه المرة كان منصرفاً نحو الكنيسة العصرية وذلك بحذف الأسقفيات الغنية ، مثل أسقفية وستمنستر وغلوستر ودرهام ، وخلع كثير من أساقفة هنري الثامن عن كراسيهم . وليؤمن ورويك سلطته استصدر حكماً بالاعدام على سومرست لخيانته بالرغم من أنه كان شعبياً ومنحه الملك لقب دوق نورثمبرلاند .

وكانت صحة الملك معتلة ، فخشي دوق نورثمبرلاند أن تعتلي العرش أخته ماريا تيو دور التي بقيت كاثوليكية ، لذا حمل الملك ادوارد السادس على تبديل وصية أبيه بالارث دون أن يأخذ رأي البرلمان وعين العرش وارثة وهي جـــان غري حفيدة ماريا دوقة سوفولك . ثم زوج جان قري هذه من ابنه .

ماريا تيو دور (١٥٥٣ - ١٥٥٨) . — مات أدوارد السادس ولم يكن باستطاعة الدوق نورثمبرلاند أن يقاوم ماريا تيو دور التي تعتبر الملكة الشرعية . وقد ألقي القبض على جان غري وزجت في السجن ، وأعدم نورثمبرلاند .

وما اعتلت ماريا العرش إلا وأعادت تطبيق قانون المواد الست الذي وضع في عهد أبيها وعرفت بموجبه العقيدة الجديدة بعد الانفصـــال عن الكنيسة الرومانية ، وألغت القوانين الدينيـــة التي صدرت في الحكم السابق ، وأعادت الأساقفة المعزولين إلى مناصبهم وطردت البروتستانت اللاجئين . وحاولت العودة بالبلاد إلى الكنيسة الكاثوليكية والاتحاد مع روما ، وهذه المحاولة أظهرت قوة حركة الاصلاح في المملكة . ولكنها أرادت قبل ذلك أن تعقد الزواج الذي اقترحه عليها شارلكان وهو أن تتزوج من ابنه فيليب الأرمل ، ولكن هذا المشروع اصطدم بمعاكسة البرلمان والرأي العام الذي يكره الاسبانيين . ولم تحفل ماريا بذلك وتزوجت فيليب على أن تكون انكلترا مستقلة تماماً عن اسبانيا ، والا يكون فيليب ملكاً على انكلترا . ولكن ماذا يحدث عندما يأتيها وارث يقرن التاجين ؟ . وفي الحقيقة لاقى الزواج استياء وعصياناً في انكلترا في سوفولك وميدلاندز والديفون ولكن هذه الحركات أخمدت بسهولة . وهددت اليزابت واعتقلتها بداعي أن لها يداً مع المؤتمرين . وبعد هذا

سعت ماريا في توطيد السلطة البابوية في انكلترا . وكانت الصعوبة الكبرى في إعادة الأموال التي أخذت من الكنائس في عهد الحكمين السابقين . وتألف برلمان عمل على الغاء التشريع الذي سن في عهد هنري الثامن . وجاء إلى انكلترا الكاردينال بول ليشغل وظيفته مفوضاً عن البابا ، وحمل بين يديه العفو البابوي (١٥٥٤) عما حصل . ولم تحدث لذلك ثورات حتى ان العودة إلى الكاثوليكية الرومانية في الشمال والغرب قوبلت باستحسان . أما في الشرق فقد ألف الناس النظام الجديد وبقي من استحوذوا على أملاك الكنيسة في قلق واضطراب بالرغم من الضمانات التي صوت عليها البرلمان . يضاف إلى ذلك أن الأفكار البروتستانتية قد انتشرت بين قسم عظيم من المؤمنين . ولكن الاضطهاد الذي نظم عام (١٥٥٥) سود وجه الرجعية الكاثوليكية . فقد ألفت لجنة خاصة لمحاكمة الهراطقة ، وبلغ عدد الضحايا ٢٨٦ نفساً خلال ٤ سنوات ، حتى لقبت الملكة ماريا بماريا السفاحة . وتبقى انكلترا كاثوليكية وفي طاعة روما كان على الظروف أن تساعد ماريا فتمد في عمرها وتجعل خلفاءها كاثوليك ، ولكنها ماتت بعد حكم قصير في تشرين الثاني (١٥٥٧) ولم يترك حكمها في انكلترا من ذكرى سوى « عهد الشهداء » .

أما زوجها فيليب الثاني فلم يطب له المقام بقربها كما يطب له العيش في انكلترا ، وغادرها إلى البلاد المنخفضة ، بعد أن اعتزل والده الملك ، وتوج عليها ملكاً ، ولم يعد لانكلترا الا عندما أتى يطلب العون من زوجته ماريا للحرب ضد فرنسا .

اليزابث (٢٧ تشرين الثاني ١٥٥٨ - ٢٤ آذار ١٦٠٣) . — اعتلت اليزابث ، بنت آن بولين ، عرش انكلترا ولها من العمر ٢٥ سنة وحكمت انكلترا حتى السبعين . ويعتبر هذا الحكم الذي دام ٤٥

سنة من أعظم عهود انكلترا في التاريخ . ففيه رسخت قدم السياسة القومية التي تأسست على قوة البلاد البحرية ، وفيه توطد نهائياً نظام الكنيسة الانغليكانية واتسع نشاط البرلمان وازدهار الحركة الأدبية . وليس من السهل أن نميز المشاركة الفعلية التي قامت بها الملكة في تسيير الأعمال ، فقد عمل مستشاروها وشعبها كثيراً في عهدها . والشيء الذي يجدر ذكره بشأنها هو أنها استخدمت رجالا اكفاء ولم تتنازل أمامهم عن دورها كمليكة . فقد كانت مستبدة مغرورة فخورة تحب السلطة وتنزع إلى الحكم بنفسها ، ذكية ومتعلمة وواقفه على جميع المشاكل . ويبدو أنها لم تكن قادرة على وضع الخطط الكبرى والقيام بالمحاولات الجريئة ، بل كانت على الاكثر مترددة خجولة ، ضيقة التفكير . ولكن فطنتها وخجلها وأنانيتها كثيراً ما أفادتها . ولت ثقتها إلى مستشارين يتصلون بالقربى من آل بولين وإلى وزراء من أصل متواضع ولم تغدق عليهم الأموال ولا الشرف . وكان أمناء سر الدولة عندها وليام سيسيل الذي ولته ادارة المالية (١٥٧٢) وفرانسيس ولزنكهام ، وروبرت سيسيل ابن وليام بعد ١٥٩٠ ، وغيرهم . إلا أنها لم تتبع سياستهم على العمياء ، وألحقت بالمجلس الملكي بروتستانتيين إلى جانب المستشارين الكاثوليك في الحكم السابق ، واحتفظت بوجود ممثلين للنزعات المتضاربة وتركت وحدة الحكم في شخصها ، ولم تعرف إلا السلطة المطلقة . وكان عليها ان تحسب حساباً للبرلمان بعد أن أصبح بالتدريج صعب المراس . وكانت بحاجة اليه لدعم سياستها الدينية والقومية ، ولذا عرفت كيف تداريه . أما علاقتها مع محظيها فكانت علاقة امرأة فخورة مغرورة غنجة ولكن دون أن تعترف بأحد سيداً عليها ، ولهذا السبب لم تتزوج ولم يكن محظيها روبرت ددلى ، الذي جعلته كونت ليستر ، على درجة

من قوة الفكر تجعله يلعب دوراً هاماً . وكذا والترر والي ، رغم قيمته ، وكونت ايسكس ، محظيها في السنوات الأخيرة ، لم يستطيعا أن يعدلا من نفوذ آل سيسيل .

ارجاع الكنيسة الانغليكانية . — لم يكن لاليزابث ميل ابيها في المسائل الدينية ، ولم تستهوها العواطف الدينيـة ، وتهيأت للرجعية ضد الكاثوليكية وظن البروتستانت أنهم عادوا لعهد ادوارد السادس . على أن الملكة وان كانت تحتفـظ بذكرى مريرة عن الحكم السابق وعاشت مشبوهة تحيط بها العيون والجواسيس ، وهددت بالموت ، وان كان لنظام أبيها هنري الثامن مرجحاته ، إلا أنها لم تكن عجلى في قطع العلاقات مع روما ، ولم تشأ أن تحشر نفسها في سياسة بروتستانتية كما يريد ويليام سيسيل ، وبدا منها أنها لاترفض خطبة فيليب الثاني لها ورغبته في زواجها وهو الذي نصح إلى ماريا تيودور أن تعينها وارثة للعرش . وكان من الممكن أن يجد كلا الاثنين في هذا الزواج ضماناً ضد الوفاق الفرنسي — الايكوسي . ولكن الشروط الدينية التي فرضها البرلمان حالت دون هذا الزواج الاسباني . ونصحها سيسيل أن تحمل البرلمان على التصويت على قانون التفوق (١٥٥٩) الذي لم يجعل من اليزابث الزعيم الأعلى ، ولكنه على الاقل جعلها حاكمة الكنيسة الانغليكانيـة . وبتأثير باركر رئيس أساقفة كانتوربري صوت على قانون التوحيد وأقر كتاب الصلوات الذي نشر في عهد ادوارد السادس وثبت العقيدة في ٣٩ مادة . إلا أنها أجلت تبليغه إلى ١٥٧١ . وهي وإن كانت لاتبالي بقضايا العقيدة إلا أنها تمسكت بالمظاهر والأعمال كتسلسل المراتب الكنسية وأبهـة العبادة ، وخشيت من الحركة البريسبيتيرية (المشيخية) التي انتشرت في ايكوسيا كما نظمها نوكس ، ونزعة الأطهار إلى التزمت والتقشف ، وذلك لأنهم

كانوا يكرهون تدخل السلطة الملكية في القضايا الدينية . يضاف إلى هذا أن الهجوم الكاثوليكي ضد اليزابث سبب لها مشاغل كثيرة وساعد على توسع البروتستانتية .

قضايا ايكوسيا . ماري ستوارت . — انتشرت في ايكوسيا الديانة البروتستانتيه البريسبيتيرية وكانت الملكة ماري ستوارت تقيم في فرنسا حيث تزوجت فرانسوا الثاني . وكان الحكم في ايكوسيا مؤمناً من قبل أمها ماريا غيز (أو ماريا لورّين) ولكن هذه ماتت ومات أيضاً فرانسوا الثاني زوج ابنتها ماريا ستوارت فاضطرت إلى العودة إلى ايكوسيا وتسلمت السلطة بنفسها (١٥٦١) . وكانت أميرة فتية عمرها ١٩ سنة جميلة جذابة ومثقفة مملوءة نشاطاً وحيوية ، ولكنها كانت متحمسة ومندفعة وغير قادرة على اتباع سياسة ذكية .

استاء منها قسم عظيم من الايكوسيين وخاصة البريسبيتيريين لأنها كاثوليكية ولأنهم رأوا فيها ملكة خليعة تحب الملذائذ والدسائس . وقد تزوجت أميراً من عائلتها يسمى هنري دارنلي ، إلا أنها لم تتفق وإياه ، وأتاها منه ولد أسمته جاك . ومات هنري ميتة مفجعة (١٥٦٧) ولم تنتظر نهاية الحزن عليه ، وتزوجت على مرأى من الكاثوليك والبريسبيتيريين الكونت بوتول وكان متزوجا ومتهماً بأن له ضلعاً في قتل هنري . لذا أزيحت عن العرش ونودي بجاك السادس ملكاً على ايكوسيا . والتجأت ماريا إلى انكلترا حيث وضعتها اليزابث تحت المراقبة وظلت سجينة مدة ثماني عشرة سنة .

وصادف في سنة ١٥٦٩ أن قامت ثورة كاثوليكية في شمال انكلترا واتخذ القائمون بها عذراً في أن ماريا ستوارت متحدرة من الملك هنري السابع ليعارضوا بها اليزابث ولكن قضي على هذه الثورة بكل فظاعة ،

حتى ان اليزابت ، التي وقفت حيال الكاثوليك ، منذ عشر سنوات ، موقفاً عدائياً صريحاً ، أخذ الرأي العام الاوربي ينظر لها نظره إلى المملكة البروتستانتية الكبرى . وطردها البابا من الجماعة (١٥٧١) وأصبحت منذ ذلك التاريخ حليفة البروتستانت ، بينما كان كاثوليك القارة ، وخاصة فيليب الثاني ، يؤملون في قلب اليزابث بأي شكل كان ، ووضع ماريا ستوارت ملكة على انكلترا وايكوسيا وإرجاع المملكة إلى الكاثوليكية .

ولكن اليزابث منذ أن اعتلت العرش حاولت ألا تزج انكلترا في المنازعات الدينية والسياسية في القارة . وإذا رأيناها عام ١٥٦٢ تتدخل املا باسترجاع كاليه إلا أنها رفضت التدخل بعد ذلك ، وكانت المؤامرات تحاك في داخل انكلترا وفي ايرلندة وخارجها للقضاء على اليزابث وتنصيب ماريا ستوارت . ولكن كل هذه المحاولات باءت بالخيبة ، وآخرها مؤامرة دبوت بزعامة بابنغتون وقد اكتشفت هذه المؤامرة واتهمت ماريا ستوارت بالاشتراك فيها ، فحكم عليها بالاعدام في (شباط ١٥٨٧) ،

واشتد التنافس بين الاسبان والانكليز حتى اعتبر هؤلاء الاعتداء على سفن الاسبان أمراً عادياً مألوفاً .

والتمس فيليب الثاني عذراً في اعدام ماريا ستوارت وأراد غزو انكلترا ، ولكنه ، في الحقيقة ، كان يبغي تهديم هذه القوة الناشئة التي أصبحت خطراً على التفوق الاسباني في البحار . وأعد لذلك اسطولا عظيماً في لشبونة يسمى : « **ارمادا الذي لا يقهر** » . وبينا كان يتأهب لذلك انقض القرصان دراك خلال ثلاث حملات على الشواطىء البرتغالية ودمر أكثر من ٣٠ سفينة في قادس . وفي حزيران ١٥٨٨ ذهب الارمادا ليأخذ

الجنود من الفلاندر لانكلترا . وفي المانش أمام غرافولين كانت الواقعة ودمر الارمادا وتشتتت قطعه وعاد الباقي منها إلى اسبانيا بعد أن طاف من الشمال حول الجزر البريطانية . وكان لانكسار الاسبانيين صداه في تقويض الكاثولكية في انكلترا . فقد حصل اتجاه في صفوف الكهان الكاثوليك واتباعهم بالخضوع إلى السلطة الزمنية مقابل الاعتراف لهم بحرية الوجدان .

حكم آل تيودور

تقدم الوحدة الادارية والسياسية . — لقد قضى هنري الثامن واليزابث على الاقطاعية القديمة وأصبح نظام الكونتية حقيقة واقعة في انكلترا . وفي عهد الاسرة التيودورية كانت سلطة الحكام تخول من قبل الملك ويختارهم التاج من الارستقراطية المحلية ، ولم يكن في ذلك عقبة ضد المركزية الملكية لصالح الحكم الذاتي المحلي بل كان يساعد على تأثير السلطة المركزية على حساب قوة الأمراء . ففي عهد ادوارد السادس يشاهد في كل كونتية ، إلى جانب الشرفاء وقضـاة الصلح والشرطة القضائية ، اللورد النائب المكلف بجمع الشرطة الأهلية وقيادتها .

المجلس الخاص والوزراء . — ان الجهاز العادي للحكومة هو المجلس الخاص ويتألف من ٢٠ عضواً ينتخبهم الملك كما يريد ويجبرون على اليمين . ولم يكن وضعه كوضع الوزارة لأن موظفي الملك الخلص وامناء سر الدولة ويحضرون جلساته ، وفي زمن هنري الثامن واليزابث كان يدعى أهل الرأي إلى هذا المجلس .

ولم يكن الملك مقيداً برأي المجلس ، بل ان وسيط الملك وموظفيه وامناء سره يمارسون سلطته التنفيذية . وكان لبراءات هذا المجلس أهمية

كأعمال البرلمان ، ويسير الحكم بتعاون مشترك ودائم بين الملك والوزراء والمجلس دون أي توزيع واضح في الصلاحيات بين هذا المجلس والوزراء الذين لايقرون شيئاً خارجاً عنه . وبازدياد دور المجلس على البرلمان ظهر الحكم المطلق ، وقد انتظم هذا الدور واتسع في عهد آل تيو دور ، وكان قضائياً أيضاً كما كان سياسياً لأن « غرفة النجوم » أخذت سلطتها تنمو حتى أصبحت رمزاً عظيماً للاستبداد الملـــكي ، وضمت في عهد اليزابث المستشارين الخاصين . كما ازداد شأن امناء سر الدولة وجعلت القضايا منوطة بهم ، وكانوا يختارون غالباً لكفاءتهم لا لاسمهم .

البرلمان . — ونما دور البرلمان أيضاً إلى جانب نمو السلطة الملكية وذلك لأن هنري الثامن ، بعد أن أقصى ولزي ، كان بحاجة إلى مجلس العموم ليدعم سياسته الدينية . وقد يكون من الصعب أن نبين الدور الذي لعبه في التأثير على انتخاب النواب . ولكن ليس من الحق في شيء ان يقال ان المجالس كانت آلة طيعة في يده . وقد ساعدت الملكيـة فيه ، دون اختيار منها ، على تقدم الفكر الاستقلالي . وهذا التقدم ساعد على زيادة عدد النواب في مجلس العموم الذي كان ٣٠٠ عند تولي هنري السابع العرش وأصبح ٤٥٠ عند موت اليزابث . ولم يعد الجلوس في قصر وستمنستر سخرة بل شرفا يبحث عنه ، وهذا مادعا إلى التنافس والمنازعات عند تصويت الناخبين . وقد احتفظ هنري الثامن ، أثناء الانفصال الديني ، بالبرلمان من ١٥٢٩ — ١٥٣٦ ، فدشن بذلك الطريقة التي يمكن للبرلمان فيها عقد دورات متعددة إذا احتفظ به خلال سنوات . وبهذه الصورة يستطيع أعضاء مجلس العموم أن يتعارفوا ويكتسبوا خبرة ويحدثوا طريقة وتقاليد برلمانية . ثم ان انتخاب النائب على مرات متعددة في برلمانات متوالية يساعد على ايجاد أعضاء مختصين في قضـــايا معينة .

وأعضاء المجلس الذين يمثلون في البرلمان يكونون فيه باعتبار الأصوات التي انتخبتهم لا باعتبار القابهم أو اوضاعهم . ولهذا يستطيع الوزراء أن يدافعوا عن سياسة الحكومة كأعضاء عاديين في المجلس .

أما مجلس اللوردات الذي صار فيه أعضاء مستحدثون عوضاً عن النبلاء الأقدمين فلم يكن آلة طيعة في كل مرة . ومذ حذفت الأديرة ساد فيه الشيوخ العلمانيون . ففي عهد اليزابث نجد فيه ٢٦ شيخاً روحياً على ٨٦ عضواً . وقد استغنت اليزابث عن البرلمان ، كما كان يفعل أبوها ، ولم تدعه للانعقاد سوى ١٣ مرة خلال ٤٥ سنة ولكن اكثر المجالس عقدت اكثر من دورة ، وابقت الملكة ذات مرة مجلس العموم نفسه اكثر من ٩ سنوات . وكانت بحاجة للبرلمان لارجاع الانغليكانية . ولكن بروتستانتية مجلس العموم كانت اكثر راديكالية من بروتستانتيتها ، حتى ان القلق ، الذي أحدثته الحالة الدينية والسياسية ، جعل مجلس العموم يقف من الملكة موقفاً حازماً لاترغب به الملكة . فقد كان يطالب بزواجها بالحاح شديد . على ان اكثر مايخشى على السلطة الملكية هو ان البرلمان كان يدافع بقوة عن مصالح الملاكين والبورجوازيين المالية والاقتصادية التي كان يمثلها . فمن ذلك أنه صوت في بدء الحكم على رسوم المكاييل والموازين التي تعتبر حتى ذلك التاريخ من الحقوق الملكية ، واجبر الملكة على التخلي عن القروض الاجبارية (الهبات المجانية التي عرفت منذ هنري السابع وهنري الثامن) ، ووقف بشدة في آخر حكمها ضد امتيازات الحصر التجاري التي كانت تعطى إلى رجال البلاط فيتاجرون بموجبها بصورة مفضوحة ! وقد وعدت اليزابث بالعدول عن ذلك . والشيء الأساسي بالنسبة للبرلمان هو سلطاته المالية . وبتوطيد هذه السلطات كان يصون وجوده الخاص . وموقفه المستقل في الصعيد الاقتصادي

والديني يدل على تقدم الطبقات التي يمثلها ويبشر بالمنازعات الكبرى التي عرفها القرن السابع عشر .

التقدم الاقتصادي . — كان التقدم مطرداً في الصناعة والزراعة والتجارة الخارجية في انكلترا خلال عهد آل تيودور وخاصة في عهد اليزابث وذلك يرجع إلى نهوضها البحري وتدفق المعادن الثمينة وهجرة اللاجئين الفلاماندين اليها . وقد ظهر هذا التقدم في نمو صناعة الجوخ التي انتقلت إلى ايدي متعهدي الأجواخ الذين يستعملون الأيدي العاملة في القرى ؛ والصناعة المعدنية التي نشطتها الامتيازات التي أعطيت إلى أصحاب معامل الحديد لاستثمار الغابات الكنسية والمناجم ؛ واستثمار مناجم الفحم الحجري الاولى ؛ والمشاريع الجديدة التي قام بها « التجار المغامرون » الذين كانوا يحاولون منذ القرن الرابع عشر فتح الاسواق الأجنبية . وقد أسسو عام ١٥٥٣ أول شركة تجارية مساهمة (شركة موسكوفيا) للتجارة مع روسيا . وفي ١٥٣٤ فقد البنادقة امتيازاتهم التجارية في لندن وباشرت عام ١٥٨١ شركة انكليزية تجارتها مع بلاد الشرق . وأدى الخلاف مع مدن الهانس عام ١٥٩٧ إلى حذف مستودع الألمان في لندن .

وبدأت منذ عهد اليزابث قوة انكلترا البحرية تظهر شيئاً فشيئاً ، حتى ان القرصان الانكليز كانوا يهاجمون السفن الاسبانية . ودل جون هوكنز و دراك أبناء وطنهما على طريق المستعمرات الأسبانية . وقام الأول برحلات من افريقية إلى أمريكا ليبيع العبيد الأرقاء إلى الاسبانيين الذين يهتمون بشؤون الأغراس . ولم يكن في هذه الرحلات التي قام بها عام ١٥٦٢ ، ١٥٦٤ ، ١٥٦٧ أقل اعتداء على المؤسسات الاسبانية . ووصل الثاني إلى برزخ داروين وأطل من جبل هناك على المحيط الهادىء ،

البحر الاسباني ، وقرر ان تمر في هذا البحر السفن الانكليزية ، وبعد سنوات دخله من مضيق ماجلان وصادر قافلة سفن تحمل الذهب والاحجار الثمينة ، وعاد بها إلى انكلترا بعد ان استراح في جزر الملوك . وعندما وعندما وصل إلى بليموث (١٥٨٠) صعدت الملكة متن السفينة وسلمته سلاح الفرسان .

وأمدت الملكة بالمال مارتن فروبيشر للقيام بحملة إكتشافية فوصل إلى خلجان لبرادور (١٥٧٨) . واكتشف بعده بقليل ديفز المضيق الذي يسمى باسمه وطرح همفري جيلبرت عام ١٥٨٠ فكرة البحث عن مستعمرات الاستيطان ، وحاول ذلك في الارض الجديدة عام (١٥٨٣) كما حاول والتر رالي ، محظي الملكة تأسيس مستعمرة فرجينيا (الملكة العذراء) على شرف اليزابث . وتوصل جمس لانكاستر (١٥٩١) إلى جزر الهند الشرقية بطريق الكاب . وفي عام ١٦٠٠ وقعت اليزابث ميثاق أول شركة انكليزية لجزر الهند الشرقية . وقد شجع هذا الجهد الصناعي والبحري ويليام سيسيل ، فقد كان يرمي إلى سياسة اقتصادية نشيطة دؤوبة تحمي المنتجات الوطنية وتحب التجارة والكسب . كما أفاد هذا الجهد في نمو البنوك واتساعها بفضل أناس مثل توماس غريشام الذي ساعد على تأسيس البنك التجاري في لندن . وتخلصت انكلترا من القروض الخارجية . ومع هذا كله فقد بقيت انكلترا بلداً زراعياً ، وظهر تقدمها في هذه الناحية بنمو تربية الحيوانات الكبرى والزراعة ، حتى أن التسوير، وان لم ينقطع ، خفت الشكوى منه ، على ما يظهر ، في آخر القرن . وغدت التجارية البحرية الكبرى مصدراً من مصادر الثروة في انكلترا لأنها ساعدت على تشكل رؤوس الأموال الضرورية للقيام بالمشاريع الصناعية وشراء الاراضي واستثمارها .

التشريع الاقتصادي والاجتماعي . — لقد اقتضت ظروف انكلترا ، في مناسبات عدة ، تدخل الحكومة في الصعيد الاقتصادي والاجتماعي ، واتسع هذا التدخل بكثرة في عهد آل تيودور وخاصة في عهد اليزابث. وسعت هـــذه بعد استشارة غريشام في صهر العملة الفضية لتخفف من ارتفاع الاسعار الذي سببه انخفاض سعر المعدن الثمين . غـير أنهـا لم تتوصل إلى تخفيض الأسعار ، ولكن انكلترا لم تعرف منذ ذاك الحين خللاً في عملتها ، وأفادت من ذلك تجارتها فائدة كبرى . لقد أدى غلاء الأسعار إلى نقص قوة الشراء لدى العمال المأجورين فكان ذلك داعياً إلى نشر قانون الصناع ١٥٦٣ وهذا القانون يعهد إلى حكام الصلح ، بمساعدة الخبراء ، بمهمة تحديد سُلّم الاجور . وعلى هـذا الشكل نظمت سياسة تدخل الحكومة في هذا الشأن . وقد طبق تحديد الاسعار خلال قرن ، وساعـد على منع تدني الاجور بصورة فاحشة . وغاية هـذا القانون أن يعالج انحطاط الاصناف المهنية وعـــدم كفاية التعليم الفني عند صناع القرى ، إذ كان يفرض لتعاطي مهنـة من المهن ٧ سنوات على الأقـل يقضيها المرء في تعلم المهنة على معلمه في الارياف أو في المدن . ويظهر أنه تلافى انحطاط المدن القديمـة التي تعمل فيها الأصناف دون أن يضر بنمو الصناعات الجديدة الرأسمالية . ولا تختلف سياسة آل تيودور عن سياسة الحكومات الاوربية المعاصرة من حيث المبادىء والأصول ، فقد كانت استبدادية وتدخلية تجنح إلى اخضاع النشاط التجاري والصناعي إلى نظام ضيق وجعله مصدراً لدخل التاج بواسطة الامتيازات والحصر ، مدعية في ذلك أنها تريد مراقبة الصناعة وتأمين الانتاج الجيد وحماية المشاريع الجديدة. غير أن الحكومة الانكليزية كان يعوزها ، لتطبيق هذه السياسة ، عمال

مطيعون ومخلصون لأنها لا تستطيع الاعتماد على مساعدة « **الأصناف** » الآخذة بالانحطاط ، ولا على غيرة السلطات المحلية التي تعتبر مستقلة بالنسبة اليها ، والتي كثيراً مايكون لممثليها منفعة وعلاقة في المشاريع التي تريد التدخل فيها . على أن التقدم العظيم الذي شهدته انكلترا في هذا العصر في الصناعة والتجارة ، انما يرجع في الحقيقة إلى تشبث أصحاب المشاريع أكثر منه إلى عمل الحكومة ، وإلى مزاجهم الاستقلالي ،لأنهم كانوا متهيئين للدفاع عن حريتهم ومنافعهم ضد تدخل السلطات العامة ، ويعتمدون على البرلمان لصيانة مصالحهم . أما الحصر والامتيازات والتنظيم فتفيد عندما يقصد حماية نمو صناعات الزينة والفن .

وعملت الحكومة على مكافحة التسول والتشرد لأن حذف الأديرة حرم الفقراء من صدقاتهم ، وجعل تدخل الدولة أمراً ضرورياً . وقد صدر أول قانون في هذا الشأن في عهد هنري الثامن ١٥٣٦ أي في السنة التي حلّت فيها الأديرة . واتبع هذا القانون بسلسلة قوانين أدت إلى **قانون مساعدة الفقراء** ١٦٠١ في عهد اليزبث . وهذا القانون يفرض على كل خورية مساعدة المعوزين والقضاء على التشرد بشدة وصرامة . وقد اعتمدت الحكومة على لم المساعدات من السكان بطريق التطوع الارادي ، إلا أنها انتهت بأن فرضت رسوماً اجبارية منذ (١٥٦٣ و ١٥٧٢) وكلف حكام الصلح بتطبيق هذه الطريقة في الاسعاف العام . وكانت الحكومة الانكليزية أول من حقق هذا المشروع في أوربة . ولم يطبق بصورة منتظمة إلا في غياب البرلمان أي في عهد شارل الأول (١٦٢٩ — ١٦٤٠) . ودام تطبيق هذا القانون مايقارب القرنين وأدى مع الزمن إلى اساءة الاستعمال ، وأخيراً الغي عام ١٨٣٤ .

* * *

توفيت اليزابث في ٢٤ آذار ١٦٠٣ وبموتها انتهى حكم آل تيودور في انكلترا واعتلى العرش آل ستوارت . وانتهى دور تأسست فيه الكنيسة الانغليكانية ونشأت أمامها البروتستانتية المتزمتة وقويت سلطة التاج وتعاظم روح الاستقلال في البرلمان . ففي عهد اليزابث تهيأت منازعات القرن السابع عشر . إن خراب الطبقة النبيلة الاقطاعية القديمة واثراء الوجهاء (الجنتري) والبورجوازية ، بفضل التقدم الاقتصادي ، أحدثا حالة اجتماعية في عهد اليزابث أدت إلى ظفر البرلمان على البلاط .
وظهر أثر التقدم الاقتصادي والحوادث السياسية بصورة جلية على النهضة الانكليزية . فقد بدأت النهضة في انكلترا متأخرة عن القارة لأن ازدهارها لم يبدأ إلا في عهد اليزابث أي في العقود الأخيرة من القرن السادس عشر . وذلك لان اللغة الانكليزية لم تنضج بعد وبقيت انكلترا متعلقة بالعصر الوسيط ، ولان جو التزمت كان مخيما عليها فجعل النهضة ، وهي تطلع نحو أشكال الجمال وعبادة القوة ، في حالة قلق واضطراب . لقد عرفت النهضة في انكلترا انسانيين مثل جون كوليت استاذ ارزموس. على أن أكبر أثر للانسانية الانكليزية هو « الطوبائية » (يوتوبيا) لتوماس مور ، وقد تأثر بالاكتشافات الكبرى وجمهورية أفلاطون وانتقد السكولاستيكية (الفلسفة المدرسية) ووضع مخططاً للحكومة المثالية .

يبدأ عصر النهضة الاكبر في انكلترا حوالي ١٥٧٨ بغنى الفكر الانكليزي بالمصادر القديمة وبترجمة الالياذة وقصيدة « خلق العالم » لمؤلفها الفرنسي بارتاس وبلوتارك ونفوذ الآثار الايطالية (بوكاشيو) والاسبانية (آماديس ولازاريلّو تورم) .

ونما في هذا العصر النظم والمسرح . أما النثر فقد نما في القرن

السابع عشر . وأشهر الشعراء ثلاثة : جون ليلي مؤلف « يوفوس » والسير فيليب سيدني مؤلف « اركاديا » وادمون سبنسر مؤلف « تقويم الراعي » و « حكايات الام هوبارد » وأثره النفيس « ملكة الجنيات » .

وكان ازدهار المسرح الانكليزي يدعو إلى الاعجاب . فقد وجد في لندن ثمانية مسارح عامة ترتادها على السواء الطبقات المنعمة والشعبية . وأشهر المسرحيين ويليام شكسبير (١٥٦٤ – ١٦١٦) . فقد كانت له خصائص معاصريه ، ولكن أثره ارتفع إلى درجة جعلته في صف العبقريات العالمية . وهو وان لم يستطع ان يتجرد من المؤثرات الخارجية ومؤثرات القديم ، إلا ان أصالة عبقريته جعلت العثور على هذه المؤثرات أمراً صعباً . ويمثل شكسبير الحماسة الوطنية بعد واقعة الارمادا ، كما يظهر ذلك في مسرحيتيه (ريتشارد الثالث) و (هنري الخامس) . ثم كتب بعدها مآسي فظيعة وتشاؤمية مثل (هملت ١٦٠٣ ، عطيل ١٦٠٤ ، مكبث ١٦٠٦) . وآثاره كثيرة ومتنوعة تلمس فيها الحقيقة والقوة ومختلف العواطف وتلاعب الاهواء . وقد ترجمت اكثر هذه الآثار إلى جميع اللغات ومثلت على مسارح العالم .

على أن النهضة الانكليزية ، وان أتت متأخرة يديرها الاجانب ، فقد كان لديها من الوقت مايكفي لانتاج ثمارها قبل أن تجتاحها موجة التزمت فتغطي على الفكر الانكليزي ، لاسيما وان الحوادث ، التي وقعت بعد ذلك ، وجهت الافكار نحو مشاغل جديدة وعواطف جديدة .

* * *

نموذج الجمهورية البورجوازية

البلاد المنخفضة

كانت البلاد المنخفضة تتألف من عدة أقاليم تخضع لسيادة أمير واحد بالقاب مختلفة : دوق في برابان ، كونت في فلاندر . . . ولقد حاول الامبراطور ماكسمليان وابنه فيليب الجميل أن يوحدا هذه البلاد تحت سلطتهما المطلقة ، ولكنهما اصطدما بالنعرة الاقليمية التي كانت تتملك الامراء والمدن ، ونزعتهم الى الاستقلال . وبفضل حماية الدولة للتجارة ضد أرباب الصناعات ظفرت الرأسمالية . وعلى هذا النحو تغلبت آنفرس على بروج وصنعت الوحدة الاقتصادية في البلاد المنخفضة التي أصبحت مجهزاً لها وزبوناً .

وكانت الطبقة النبيلة تحاول أن تتميز عن كبار البورجوازيين الاغنياء وتحافظ على تفوقها الاجتماعي ، معتمدة على الوظائف والامتيازات التي يخولها اياها الامير . غير ان قيام النهضة ، التي رافقت النهوض الاقتصادي كان داعياً لنمو الفردية . وادخل التعلق بالحق الروماني كثيراً من روح الحكم المطلق ، حتى ان شارل غاند ، وهو شارلكان المستقبل ، حاول توطيد نظام الحكم المطلق ، فأقام على كل إقليم ممثلين مباشرين له أي حكاماً وزودهم بسلطات غير معرفة جيداً ، كما أقام مجالس عدلية ، ودواوين محاسبات وقضاة في المدن من بين البورجوازيين المقربين من الحكومة بحكم تربيتهم ومصالحهم ، وربط الاقاليم بالحكومة المركزية . وحكمت البلاد بالوصاية ، ولهذه الوصاية مجلس . وقسم هذا المجلس ، على مثال فرنسا ، إلى ثلاثة فروع مختصة : مجلس الدولة للسياسة ويتألف

من النبلاء ؛ والمجلس الخاص ومجلس المالية ، ويتألفان من الحقوقيين بورجوازيين ونبلاء صغار للعدلية والادارة (١٥٣١) . وفرض شارلكان على الاقاليم ارسال ممثلين إلى المجلس العام (مجلس الطبقات) . وأنشأ في العام ١٥٤٧ جيشاً دائماً وطلب منه حلف يمين الولاء . وتدخل موظفوه في الحياة الاجتماعية كلها « ونظموا الاستثمار ، البورصة ، والترسانات ، والاسعاف العام ، وسجلوا الاعراف ، وأدخلو الحقوق الرومانية . وهذه النظم العامة جعلت من الـ ١٧ إقليماً وحدةً تامة وأيقظت فيها العاطفة الوطنية .

والملاحظ أن هذا الحكم الاستبدادي الذي ملكه شارلكان كان استبداد واقع ولم يكن استبداد حق ، ولم يتوصل لادخال ضرائب دائمة في البلاد وفرضها حسب هواه ، لان المجلس العام حافظ على حق التصويت عليها .

غير أن نهوض البورجوازية السريع جعل الحكم المطلق مستحيلا ، لان دور هذا الحكم ، الذي وجد بين الدور الاقطاعي والدور البورجوازي كان قصيراً جداً ولم يتوطد حقوقياً .

ولقد أراد فيليب الثاني بن شارلكان ، كما رأينا ، ان يجعل من البلاد المنخفضة ملكية مطلقة ، لأن وضعها الجغرافي ومواردها تساعده في السيطرة على أوربة ، ولكنه أخفق في مسعاه .

التجارة والمستعمرات . — لقد كانت الملاحة ، منذ عهد طويل ، عاملا أساسياً في الرفاه الاقتصادي في البلاد المنخفضة . فقد استطاعت هذه البلاد في فترة بضع عشرات من السنين أن تصبح من أعظم الدول الاقتصادية والاستعمارية في العالم . ففي البحر أصبحت الجمهورية وارثة

لاسبانيا والبرتغال . وأطلق الهولانديون نشاطهم على أرض تشمل أوربة وأمريكا والهند ، وكانت سفنهم تمخر عباب البالطيك والمتوسط والأطلسي والهادىء .

وأصبحت امستردام مركز الحياة الاقتصادية الهولاندية فقد بدأ العصر الذهبي لهذه المدينة سنة ١٥٨٥ وهي السنة التي استسلمت فيها آنفرس لجنود الكسندر فارنيز وذهب تجارها زرافات ووحدانا إلى أمستردام وجعلوا من هذه المدينة مراكزاً من اكبر المراكز التجارية في أوربة

وفي العام ١٥٩٥ انطلقت أربع سفن من أمستردام بقيادة كورنوليس هوتمان ، وجعل هذا الاسطول الصغير يحاذي شواطىء افريقية الغربية ومر برأس الرجاء الصالح وتوصل إلى جاوة . واستطاع هوتمان بعد لأي أن يقيم فيها مركزاً تجارياً ، وعند عودته إلى أمستردام أعلم الحكومة بالامكانيات التي تفتح أمام هولاندة في المياه الهندية .

وسجلت هذه الرحلة بداية عمل قوي للهولانديين في طرد البرتغاليين من مستعمراتهم . وفي العام ١٥٩٨ انطلقت ثمانون سفينة هولاندية نحو جهات العالم الأربع ، وحط بعضها الرحال في غينه ، وعلى شواطىء افريقية الغربية ، وأخرى سايرت الشاطىء الأفريقي واتجهت شطر المياه الهندية . وعاد القبطانات الهولانديون إلى البلاد بالسفن ملأى بالعاج واللؤلؤ والقهوة والشاي والتوابل والمحاصيل الأخرى التي دلت بوضوح على مايمكن أن يأتي به الاستعمار المنظم في المناطق النائية . وأخذ اولدنبارنوفيلت على عاتقه مهمة التنظيم ، وألف في العام ١٦٠٢ « **شركة الهند الشرقية** » الشهيرة التي حصلت على حصر التجارة الهندية وعلى سلطات واسعة

للفن الهولاندي في القرن السادس عشر . — لقد كانت النهضة في هولاندة هبة من ايطاليا . ومما يدعو إلى الاعجاب حقاً أن أوربة ،

بالرغم من المنازعات السلالية والحروب القومية ، كانت موطناً للمبادلات الفكرية والثقافية التي تؤمن استمرار الحضارة وبقاءها .

ففي البناء تسربت عناصر التزيين الايطالية في الفن الغوطي الساطع ، وبدت الظاهرة على معظم الأوابد والقصور الهولاندية ، مثل قصر الامراء أساقفة ليبج وغيره ، وقصر مرغريت النمسا في مالين وغيرها ، حيث تمتزج التقاليد الغوطية بجلوبات النهضة . ولكن النهضة انتصرت أخيراً في دارة الهانس وهي القصر البلدي الحالي في آنفرس .

وتطور منحنى النهضة في البلاد المنخفضة ، وظهر ذلك في النحت في العصر نفسه . بيد أن هنالك فناناً فرض نفسه على عصره بحساسيته التي رفعته فوق مهارة معاصرية وهو جاك دو بروك . فقد اتيح له أن أقام عدة سنوات في روما وتأثر بفنها . وهو يعتبر بحق « رجل النهضة » بالطنين العميق الملموس في آثاره ، وبفرديته الظاهرة ، حتى انه تجاوز النهضة ذاتها ببعض نواح من شخصيته ، وبانتقائه العريض ونظرته التعبيرية في بعض الاحيان .

وفي التصوير كان أشهر الرسامين جان غومرت وبرنارد فان اورليه ، ولكنهما لم يبلغا درجة ميكيل آنجيلو وليؤناردو فانتشي ورافائيل .

وهنالك رجلان ظلا بعيدين عن المد الروماني ، ولم يرفضا الفكر الجديد ، واحتفظا بشخصيتهما دون أن تمس :

الاول ، ليس له مطمح سوى « أن يرسم العالم في سعته وتنوعه » واسمه جواكيم باتينيه . فقد كان يحب الطبيعة في بلاده ومسقط رأسه : كالصخور المتكسرة ، والغابات المعلقه على سفوح الربا ، والطرق التي تقطع حقول الحنطة

والثاني ، كانت تلبسه العبقرية واسمه بيتر بروغيل ، وكسائر رسامي عصره ، ساح طويلا في ايطاليا ، وزار روما ونابولي وصقلية ، ولكنه

كان أقوى من أن يغرق تحت كل هذه المؤثرات . حقاً لقد أثرت فيه مناظر الاساتذة البنادقة ، ولكنه تخلص من التقليد الخاضع للايطاليين بفضل حبه للحياة الواقعية . فقد شغف بتمثيل النشاط والرغائب عند كل من يحيط به من رفاقه في العربدة ، وفتيات الكباريهات والملاهي ، والفلاحين في العمل ، والصيادين في الثلج . والقرى الفرحة ؛ ولم يحاول أن يصف الانسان كما يرى فحسب ، بل كان ينتقيه أيضاً كما هو في أعماق نفسه وكما يجهل نفسه . ففي آثاره تتجلى فلسفته ورصانته . انها فلسفة حدس حقاً ، قريبة من فولكلور القديس توماس الاكويني . لقد نشأ فنّ بروغيل في التراب الفلامندي ، لا في تفكير الادباء الانسانيين . ولكن هذا لا يمنع وجود بعض أفكار مستمدة من عصره ، كالفكرة التي يذكرها ارزموس : « ارفعوا قناع سيلين تجدوا نقيض مارأيتم » . وانا لنرى في بعض آثاره أكثر من قصيدة واضحة الالوان ، وارادة في ألا يخول لطموح الانسان ، الذي لا حد له ، إلا مكاناً صغيراً لاشأن له أمام نظـــام الطبيعة الازلي : كالحراث في حقله ، والراعي بين شياهه ، والسفينة في بحر هادىء ، والسحب المتلاحقة الظلال دوماً في سماء البلاد المنخفضة .

البلاد الاسكاندينافية

البلاد الاسكاندينافية واوربة الغربية . — كانت البلاد الاسكاندينافية ترتبط قليلاً ببلاد اوربة الغربية ، بيد أنها كانت ترتبط بها برابطة الهانس وتدور في فلك نشاطها التجاري . فقد كانت مدن الهانس تهيمن على البحر البالطيك في القرن الخامس عشر ، وتسيطر على الميناء النورفيجي برغن ، وتتصل بايكوسيا وانكلترا بواسطة جزر اوركاد وفاراور ،

وحدث في العام ١٤٤٨ أن توصلت عائلة آل اولدانبورغ إلى عرش الدانيارك ، وفي ١٤٦٠ أصبح الملك كريستيان الاول دوق شلزفيك وكونت هولشتاين ، وازدادت العلاقة مع المانيا وثوقاً واتصالاً .

انحلال اتحاد كالمار . — كانت البلاد الاسكاندينافية مرتبطة ببعضها نظرياً باتحاد كالمار الذي عقد عام ١٣٩٦ . وظلت حضارة هذه البلاد عامة ، ولكنها لم تتقدم كثيراً . فقد طبعت الكتب الاولى متأخرة في ستوكهولم ١٤٨٣ ، وفي الدانيارك ١٤٩٣. وكان يعارض هذا الاتحاد نظام الانتخاب في الملكيات الاسكاندينافية واختلاف المصالح الاقتصاديه ، حتى ان القرن الخامس عشر كان مطبوعاً بطابع العداوة بين السويد من جهة ، والدانيارك والنورفيج من جهة أخرى .

التفوق الدانياركي . — لقد كان وضع الدانيارك متفوقاً في البلاد الاسكاندينافية . فقد كانت تقبض بواسطة المضائق على مفاتيح البالطيك: فهي تحتل ايلزينور في جزيرة سيلاند وهيلسنغبورغ في سكانيا . وتقرر في صلح مالمو (١٥١٢) أن يكون لها حق فتح مضيق الصوند لكل الملاحات ، وجباية الرسوم من جميع السفن التي تنفذ منه .

الملكية الدانياركية والطبقات الممتازة . — لقد كانت المعارضة قائمة في الدانيارك بين الملكية والنبلاء ، وكان هؤلاء ينتهزون فرصة كل عاهل جديد ويفرضون عليه « امتيازاتهم » ولذا كان الملوك يحاولون انتخاب خلف لهم في حياتهم . ولكنهم كانوا يحسبون حساب الدياط (ريغزراد) أيضاً . ويتألف أعضاء هذا المجلس من الطبقة النبيلة والاكايروس ، وتتمتع هذه الطبقة الاخيرة بثروة أرضية كبيرة ، حتى ان الفلاحين ، الذين كانوا في الماضي أحراراً ، آلت بهم الحال إلى القنانة

وأصبح محظوراً عليهم مغادرة الدومين التابعين له ، كما فرضت عليهم ، مع الزمن ، السخرات الاميرية .

كريستيان الثاني ملك الدانيمارك . — لقد كان كريستيان الثاني (١٤٨١ — ١٥٥٩) ملكاً طموحاً ، مخاتلاً ، فظاً ، شرساً ، وكان يمثل الطاغية في القرن السادس عشر . اعتلى عرش الدانيمارك عام ١٥١٣ وتزوج ايزابلا بورغونيا ، أخت شارلكان عام ١٥١٥ . فتح السويد عام ١٥١٨ واستعمل الارهاب وسيلة لتوطيد سلطته ، واستطاع في تشرين الثاني ١٥٢٠ ، بناء من اشارة المطران غوستاف ترول أن يتخلص من خصومه باعدامهم ، واباد « حمام الدم » في ستوكهولم ٦٠٠ ضحية .

وفي الدانيمارك ناضل ضد النبلاء بعزم وقوة ، وحاول اضعاف القنانة واعتمد على البورجوازية التي اخذت ثروتها بالازدياد والنمو وجعل من كوبنهاغن مرحلة بالطيكية . بيد ان الثورات قامت عليه من كل جانب وطرده ابن عمه فريديريك هولشتاين فغادر البلاد فاراً إلى البلاد المنخفضة عام ١٥٢٣ .

السويد

غوستاف فازا واستقلال السويد . — في ١٥٢٠ استطاع غوستاف أريكسون المسمى فازا (١٤٩٠ — ١٥٦٠) أن يعقد حلفاً مع لوبيك ، ولم يستطع كسب الجنوب ، غير أنه تمكن من إثارة الفلاحين وعمال المناجم في داليكارليا ، في شمال السويد ، ضد النفوذ الدانيماركي . وفي العام ١٥٢١ استولى على اوبسالا ثم ستوكهولم . وفي ١٥٢٣ أخضع آخر حامية للدانيمارك ، وهي حامية كالمار ، وانتخب ملكاً على السويد من قبل دياط سترينغنس في ٦ حزيران ١٥٢٣ ، وقام لاسترداد فنلانده ومحاربة القرصان الذين يعيثون الفساد في البالطيك .

الضائقة المالية والاصلاح الديني . — بعد أن اجتاحت الحرب السويد وجبت اعادة الأمور إلى نصابها ، وكان غوستاف فازا بحاجة إلى المال ليدفعه لمدينة لوبيك الهانسية ، مقابل مساندتها له ، فخولها في العام ١٥٢١ حصر التجارة الخارجية ، وتخلى عن فتح الصوند للسفن السويدية ، وطلب من الأكليروس منحه المساعدات المالية ، فرفض ، فأجبره الملك على ذلك . وفي العام ١٥٢٦ ترجم العهد الجديد إلى اللغة السويدية . وفي مجلس فيستيراس ، وبالرغم من معارضة المطران براسك (١٥٢٧)، ومن ثم في مجمع اوريبرو (١٥٢٩) أقر في السويد الاصلاح اللوثري ، الذي بشر به منذ عدة سنوات اولاوس بيتري . وانتشر الاصلاح بفضل لوران اندريا رئيس كهنة اوبسالا ، ولم يخل الامر من مقاومة الأرياف ، وقامت الثورات من كل جانب ، ولكن قضي عليها بقوة ، وكنتيجة لكل ذلك وضعت أموال الكنيسة تحت تصرف فازا .

الحكم المطلق في عهد الملك غوستاف فازا . — لقد حكم غوستاف فازا عاهلا مستبداً ، ولم يكن للدياط استقلال حقيقي . وفي العام ١٥٤٠ خص التاج بعائلة فازا ، وحصل الملك في العام ١٥٥٤ على حصر وراثة العرش السويدي في الخط الذكر .

النظام الاقتصادي . المركانتيلزم . — لقد دأب غوستاف فازا على تسوية النظام الاقتصادي كله ، وخاصة طريقة التبادل مع الخارج . فقد كانت السويد تصدر كثيراً من الأخشاب والحديد ، وكان خشبها يساهم بنسبة كبيرة في تموين أوربة عامة . وستقدم السويد وحدها في القرنين السابع عشر والثامن عشر ٣٠ ٪ من الانتاج الكلي . وقد انتشرت في القرن السادس عشر طريقة جديدة في التنقية ، وبدأ استغلال المناطق

الشمالية ، أن السويد التي ساد فيها « الاقتصاد الطبيعي » طويلا ، بدأت تظهر فيها طبقة الفلاحين الملاكين .

اضطراب الاحوال بعد غوستاف فازا . — لقد ألم المرض بالملك غوستاف فازا فتنازل عن العرش في ٢٥ حزيران ومات في ٩ ايلول ١٥٦٠ . وفي عهد ابنه البكر ايريك الرابع عشر (١٥٦٠ — ١٥٦٨) قامت اضطرابات بل وحروب أهلية حقيقية . وكان هذا الملك في اول عهده حامياً للفنون والحياة الاقتصادية ، ثم أصبح مجنوناً فظاً والعوبة بيد أحد محظييه وهو جوهران بيرسون . وفي العام ١٥٦٨ سجن ايريك ثم قتل عام ١٥٧٧ بأمر من أخيه جان ، وأصبح هذا الأخير ملكاً باسم جان الثالث (١٥٣٧ — ١٥٩١) ، وتزوج كاترينا جاجيللون بنت ملك بولونيا ، سيغيسموند ، وأراد أن يعيد الكاثوليكية إلى البلاد ، أو على الأقل أن يقيم ليتورجيا جديدة (١٥٧٦) ، فأثار الاستياء من حوله وانتخب ابنه سيغيسموند ملكاً على بولونيا عام ١٥٨٧ ، وعندما مات جان الثالث أراد سيغيسموند ابنه أن يحكم ، وبدأ الاضطراب بتحريض من اتحاد بروتستانتيي السويد واتفاق اوبسالا ١٥٩٣ ، فأفاد من ذلك شارل سودرمانيا عم سيغيسموند وأصبح ملكاً باسم شارل التاسع .

الاضطراب في الدانيارك ونهاية كريستيان الثاني . — عندما فر كريستيان الثاني إلى البلاد المنخفضة ، أصبح عمه فريدريك هولشتاين ملكاً على الدانيارك (١٥٢٣ — ١٥٣٣) . ولم يدعم كريستيان إلا القرصان سورن نوربي المتحصن في فيسبي في جزيرة غوتلاند ، فحاربه الهانسيون واستولوا على الحصن . ومع ذلك فقد غادر كريستيان الثاني هولاندة عام ١٥٣١ صحبة ٢٥ سفينة و ٧٠٠٠ رجل ونزل في النورفيج

وأيده الأكليروس والفلاحون . غير أنه غلب على أمره أخيراً ، ووقع أسيراً ، وظل سبعاً وعشرين عاماً في قصر سوندربورغ في جزيرة آلسين .

جورغن فولنفيفر . — وعندما توفي فريدريك الاول ١٥٣٣ ساءت الحال فحاول عمدة لوبيك ، جورغن فولنفيفر ، أن يفرض إرادته على المطالبين بعرش الدانيمارك ، وانتزع من أحدهم ، وهو كريستوف اولدانبورغ ، وعداً بالا ينتخب في المستقبل ملك للدانيمارك دون رضى لوبيك ، وبان يغلق مضيق الصوند في وجه الهولانديين .

كريستيان الثالث (١٥٣٤ — ١٥٥٩) . — غير أن الدياط نادى بابن فريديريك ، وهو كريستيان شلزفيك ، وأصبح هذا ملكاً باسم كريستيان الثالث ، وقضى على ثورة جوتلند ، وحاصر لوبيك واضطرها للتعاهد معه (١٥٣٤) ، وحكم على العمدة فيلنفيفر بالموت تعذيباً ، وبذا انتهت سيطرة لوبيك على البالطيك (١٥٣٧) . ثم استولى كريستيان الثالث ، بعد حصار طويل ومجاعة ، على مالمو و كوبنهاغن مقابل التخلي عن كل مطالبة بمملكة السويد ، وأصبح منذ ذلك الحين ، سيد الصوند وبامكانه أن يثري بالرسوم التي يجبيها من السفن التي تعبر البـــالطيك . وقد اعترف شارلكان في صلح سبير (١٥٤٤) بكريستيان الثالث ملكاً على الدانيمارك والسويد وشلزفيك — هولشتاين .

الاصلاح الديني في الدانيمارك والسيطرة على النورفيج . — في عام ١٥٣٦ وطد كريستيان الثالث الاصلاح اللوثري في الدانيمارك ، وساعده ذلك على وضع يده على قسم من أموال الأكليروس . وفي النورفيج ثار مطران تروندجيم ، ولكنه غلب عام ١٥٣٧ وخضعت البلاد نهائياً للدانيمارك . ولكن بلاد النورفيج مازالت بلاداً بدائية ويختلف تركيبها الاجتماعي عن تركيب البلاد الاسكانديناڤية الأخرى ، ولم يفقد الفلاحون

فيها حريتهم الشخصية بيد انهم كانوا مزارعين وارباحهم تزداد بنسبة ٥٠٪ على الاكثر ، بينما كان سعر الحياة يتضاعف . وعلى اثر التعصير الذي تم في البلاد ، لم تعد ضريبة العشر المقسمة إلى أوبع حصص ، احداها للاسعاف ، سوى ثلاث حصص : للأسقف والـكاهن والكنيسة . ولذا قامت ثورة الفلاحين واجتاحت البلاد .

أهمية البالطيك الاقتصادية . — ان الحادث العظيم الذي يجب تسجيله هو أن البالطيك أخذ أهمية اقتصادية عظيمة ، فازدادت على اثر ذلك المنافسات بين الدول المحاذية لشواطئه وهي الدانيمارك والسويد وبولونيا حتى ان دولة روسيا دخلت في المنافسة ، وكانت تهدف من وراء ذلك امتلاك فنلانده وليفونيا . وقامت بسبب فنلانده حرب طويلة بين غوستاف فازا والقيصر (١٥٥٤ - ١٥٥٧) .

الفصل السابع

ملكيات العصر الوسيط

بولونيا ، روسيا

لقد كانت البلاد ، التي لم تعظم فيها طبقة البورجوازية الكبرى ، في مرحلة أقل تطوراً من مرحلة الملكية المطلقة . ونذكر منها بولونيا وروسيا .

بولونيا . — لقد تطورت بولونيا وأصبحت جمهورية ارستقراطية يرأسها الملك ، في عهد أواخر آل جاجيللون ، جان الاول البرت (١٤٩٢ — ١٥٠١) والكسندر الأول (١٥٠١ - ١٥٠٦) ، وسيغيسموند الأول (١٥٠٦ — ١٥٤٨) ، وسيغيسموند الثاني أوغست (١٥٤٨ — ١٥٧٢) . وثم في عهد هنري فالوا ، وهو ملك فرنسا في المستقبل باسم هنري الثالث (أيار ١٥٧٣ - حزيران ١٥٧٤) ، واتيين باتوري (١٥٧٦ — ١٥٨٦) وسيغيسموند الثالث فازا .

عجز الحكومة . — كانت بولونيا دولة غير متجانسة تتألف من أربعة أقسام أساسية :مملكة بولونيا ، ليتوانيا، بروسيا الملكية،بروسيا الدوقية، متحدة فيا بينها اتحاداً رخواً تحت زعامة الملك . وكان الملك ينتخب انتخاباً ، وكان انتخابه يؤدي إلى حروب بين الأحزاب ، كما حدث في العام ١٥٨٧ بعد موت اتيين باتوري . وكانت الدياطات ، حيث كانت الطبقة

النبيلة الممثلة الوحيدة في البلاد ، تصوت على القوانين الجديدة والضرائب لاعاشة الجيوش ، وكان ينبغي لذلك الحصول على الاجماع ، وهـذا ما يجعل اتخاذ كل قرار صعباً . ولم يكن الملك جيش أو مالية أو ادارة ، بل كان يعيش من أملاكه الخاصة ، ويدفع نفقات الدولة من واردات هذه الاملاك . كان أول الأمراء ، ولم تصبح هذه الملكية الوسيطة ملكية مطلقة حديثة .

سيطرة الارستقراطية . — لم يكن في بولونيا بورجوازية عـدا بعض الالمان في المدن . وكانت التجارة الكبرى ، الوحيدة لهـذا البلد الواقع على هامش أوربة الرأسمالية ، تقتصر على تصدير الحنطة إلى الغرب الاوربي . وكان الامراء الكبار يلبون الطلب بفضل أملاكهم الواسعة ، ويستعيضون عن رؤوس الاموال باليد العاملة ويستعبدون الفلاحين في سبيل الانتاج . ولقد استطاعوا ذلك بتحديد سلطات الملك وتضحية الطبقات الاجتماعية الاخرى . وكان الانتخاب الملكي يقتضي من المرشحين القيام ببعض التعهدات ، كما أن الملوك لم يستطيعوا مجابهـة الامراء الكبار بالطبقة النبيلة الفقيرة ، لان هذه الطبقة لم تكن لهـا قوة البورجوازية الكبرى ، التي كانت في الغرب ، لتستطيـع الوقوف في وجه الطبقـة النبيلة الغنية . وهذا الوضع شجع محاولات الماغنات (كبار الدولة) على التمادي في عتوهم وتسلطهم .

ومنذ حكم جان الاول البرت ، في ١٤٩٣ و ١٤٩٦ كانت قـدرة الفلاحين على الانتقال ضعيفة جداً . وكان الامير يحتفظ بهم على أراضيه ويجبرهم على العمل ، ويمثلهم في القضاء ويضع نفسه حاجزاً بينهم وبـين القضاء الملكي ، الذي لا يبلغهم مطلقاً . لقد كان سيداً حقيقياً لرجاله . وفي العام ١٥٢٠ — ٢١ ربطت الدياطات الفلاحين بالارض وألزمتهـم

بفلاحتها ، وأصبح باستطاعة الامراء كسب الاموال على حساب الجماعات الريفية التي فقدت استقلالها القضائي وخضعت لمحاكم الطبقة النبيلة التي غدت سيدة مطلقة في أملاكها .

وفي ١٤٩٣ و ١٤٩٦ صرحت الطبقة النبيلة بأنها معفاة من الرسوم الجمركية والاتاوات المالية ، ونحت البورجوازيين عن المهن العسكرية والمناصب الدينية العليا ، واختصت هذا الحق بنفسها ، ونادت في عهد سيغيسموند أوغست ، بعد ١٥٦٤ ، بمبدأ المبادلة الحرة المطلقة للحصول على أفضل الاسعار والمنتجات الاجنبية الفاخرة .

وخضع التجار لانظمة تفرض حداً أعلى للسعر ، وحظر عليهم أن يذهبوا بأنفسهم للبحث عن السلع في الخارج ، لأن الطبقة النبيلة تفضل أن تأخذها مباشرة من التجار الاجانب الذين يأتون اليها للبحث عن الحنطه . وفي الوقت نفسه كان لاحتلال القسطنطينية من قبل العثمانيين ، وبلاد البحر الاسود من قبل التتر أثره ، فقد أغلق في وجه البولونيين طرق الجنوب التجارية . وهكذا وضعت العوائق أمام التجارة ، وضحت الطبقة النبيلة بالبورجوازية ولم تستطع هذه الاخيرة أن تنمو أو تتوسع .

وفي عام ١٤٩٣ و ١٤٩٦ خص النبلاء أنفسهم بحق تشكيل « الدياطات الاقليمية » لتعيين الضرائب التي يجب فرضها في حال الحرب . وأعطت هذه الدياطات الاقليمية لنوابها تفويضاً مطلقاً في الدياط ، ولكنها تركت لنفسها الحرية في طرح قراراته أو تنفيذها . وهذا يعني أن المصالح المحلية تفوق المصلحة العامة للدولة . ووسع امتياز ميلنيك (١٥٠١) سلطات مجلس الشيوخ أو مجلس الملك ، المؤلف من الأساقفة والنبلاء من أصحاب المناصب العالية . وكان الملك ملزماً باتباع نصائحهم واقامة العدل حسب

هواهم ، وإلا كانوا في حل من يمين الولاء له . واحتفظ مجلس الشيوخ بالتاج والشارات الملكية ، وكان على الحكام أن يشاوروه في الأمر كلما مست الحاجة . ولم يسمح دستور نهيل — نو في (١٥٠٥) للملك باقامة شيء جديد دون رضى مجلس الشيوخ ونواب الاقاليم . وفي عهد سيغيسموند الأول أمن الدستور المسمى « **الجناية على الجلالة** » حرمـــة الشيوخ والنواب في الدياط ، وممارسة مجلس الشيوخ السلطة الملكية . وهذا يعني تنازل الملك عن كل شيء . وفي العام ١٥٧٣ فرض « **اتفاق الملك والنبلاء** » على هنري فالوا بألا يعلن الحرب أو يبرم الصلح دون مجلس الشيوخ ، وألا يأمر بالنفير العام دون موافقة الدياط ، وأن يستعين بمجلس مؤلف من ١٦ شيخاً ، وأن يدعو الدياط للانعقاد كل عامين . واذا خرق هذه الشروط أصبحت رعيته في حل من طاعته . وفي ١٥٩٢ ذهب دياط التفتيش إلى أبعد من ذلك وأخضع شخص الملك وأعماله إلى تحقيق صارم .

ضعف الأمة . — وفي الوقت نفسه ضعف الشعور بالخطر الخارجي . وفي ١٥١٢ ، ١٥١٤ ، ١٥٢٧ رفض الدياط فرض ضرائب نظاميـــة لاعاشة جيش دائم . بيد أنه اعتمد على النفير العام الذي يقوم به النبلاء ، وترك سيغيسموند البرت براندبورغ ، سيد فرسان الطريقة التوتونية ، يعصر أملاك الكنيسة ، ويعتنق البروتستانتية ، وينادي بنفسه أميراً وراثياً في بروسيا تحت سيادة بولونيا عام (١٥٢٥) . وعلى هذا النحو نشأت بروسيا . وفي ١٥٢٦ وضع البيت النمساوي يده على هونغاريا وبوهيميا ، وتوسعت موسكوفيا وقويت ، ولم يبق للملك بولونيا دورٌ يلعبه بين الامراء المسيحيين . وهكذا أصبحت بولونيا دولة ضعيفة دون حصون ودون جيش تقريباً ، بالرغم من أن بروسيا الملكية قبلت في العام ١٥٦٩ أن تسهم في الدياط البولوني وبالرغم من أن ليتوانيا ، مع محافظتها

على موظفيها وخزائنها وجيشها جانباً ، عملت الشيء نفسه ، وبالرغم من أن بروسيا الدوقية جددت ولاءها وتبعيتها . لقـــد ماتت بولونيا من فرط الحرية .

موسكوفيا . — موسكوفيا دولة نصف آسيوية . بيد أنها تعتبر بعرقها السلافي وديانتها المسيحية الارثوذكسية وكرهها المسلمين ، في عداد الدول الأوربية . وقد أصبحت في القرن السادس عشر ملكية مطلقة . وكانت البورجوازية فيها ضعيفة ، وغير قادرة على منازعة الطبقة النبيلة ، وما كان سادة أوربة ليهتموا بها .

روسيا بلد ريفي منعزل . — لقد كانت روسيا في عهد ايفان الثالث (١٤٩٢ – ١٥٠٥) دولة منعزلة ، دون منفذ مباشر على البحار الاخرى ، باستثناء بحار الشمال المتجمدة ، وواقعة بين أعدائها التتر من جهة ، وجيرانها الأوربيين الذين يكرهونها من جهة اخرى . وكانت بولونيا وليتوانيا والمدن الهانسية (روفيل و ريغا) تعيق دخول السلع والفنيين الاوربيين إلى روسيا للحيلولة دون تمثل الروس لهم ، لانها تعتبر هؤلاء أعداء وراثيين لكل الامم الحرة وتسلح الغرب وفنـــه العسكري ،

كانت روسيا بلداً زراعياً ، وكانت كثافة الفلاحين ضعيفة . فقـد كانت القرية تتألف من ١٠ – ٤٩ داراً ، ويشتغل هؤلاء الفلاحون في مستغلات صغيرة بزراعة الحبوب ، ويستعملون الدورة الزراعية كل ثلاث سنوات مع ترك الارض بوراً ، وفي الغالب مع زراعة نصف – متنقلة على أراضي الغابة وذلك بحرقها وزراعتها مؤقتاً ، وكان المردود ضعيفاً . وكانت المدن ، وعددها ستون مدينة في العام ١٤٠٧ ، متاريس وأسواقاً

ريفية المظهر مع مراعي في الوسط ، والتجارة قليلة ، وهي تجارة ترانزيت ، والمنتجات نادرة وغالية وبكميات قليلة ، كالاحجار الكريمة ، والاسلاك الذهبية والفضية ، والعقاقير وتوابل الشرق ، والفراء ، والعسل والشمع نحو الغرب ؛ والاقمشة الفاخرة وقصدير آنفرس والتنتنة والاسلحة نحو الشرق . ومراكز هذه التجارة مدن تتمتع بالاستقلال الذاتي ، مثل نوفغورود الكبرى ، وهي مدينة هانسية ، وبسكوف . وتتم التجارة في دكاكين صغيرة ، ويعمل معظم الصناع وحدهم على آلة واحدة . وكانت البورجوازية قليلة العدد ، فقيرة ضعيفة .

وكانت المدن والقرى واقعة على الأملاك الأميرية الكبرى العلمانية أو الكنسية ومنتشرة على طول الأنهار أو الدروب . وكان احتلال السكان للأرض ضعيفاً جداً . ولذا كان لكل أمير مطلق السلطة على أملاكه ، ويتمتع الكثير منهم بالحصانة : فهم معفون من كل تدخل يقوم به موظفو الأمير ، ومن الضرائب والخدمات ، وليسوا مسؤولين إلا أمام الأمير وحده . وهكذا كان الأمراء الاقطاعيون ينوبون مناب موظفي الأمير القليلي العدد . وفي حال العوز إلى الرجال ونقص الموارد كان هؤلاء الأمراء يمارسون بعض امتيازات الدولة مقابل التخلي عن الموارد التي ترتبط بهم .

وكانت كل أمارة تضم ملك الأمير وأملاك السادة والأمراء و « الأراضي السوداء » التي يحميها الأمير بعد أن أصلح طرقها وأقيمت فيها الجماعات الحرة التي تساهم في الدفاع بضرائبها وخدماتها . وكان الأمير يمثل في خارج ملكه ، في المدن ، بممثلين يدعون ناميستنيكي ، وفي المناطق الريفية ، بممثلين يسمون فولوستيلي ، وكان هؤلاء واولئك يختارون من بين أتباع الأمير ، من رجال السلاح الموالين : من الأمراء القطاعيين

ومن امراء ضعاف ، وأناس من الطبقات الدنيا عرفت بمواهبها العسكرية . وكان لهؤلاء الاتباع جميع حقوق وواجبات الاتباع في الغرب ويتعهدون أيضاً بحرية بخدمة الامير الذي يختارونه .

تقدم أمير موسكو الأكبر . – كان أمير موسكو الأكبر الامير الاصلي في البلاد . وكانت موسكو في معزل عن طرق الغارات الكبرى ، تحميها الغابة في ملتقى الطرق . وكان المعمرون (المستعمرون) ورجال السلاح يتوافدون اليها منذ زمن بعيد . وقد أصبحت منذ ١٣٢٧ عاصمة دينية ، ومنذ ١٣٥٣ أصبح للأمير الاكبر ، بتفويض من خان قوم الذهب ، سيد روسيا ، سلطة القضاء على الامراء ، وكانت له الثروة والجاه .

وهكذا تحول ايفان الثالث من أمير إلى رئيس دولة ، وأصبح أقوى من غيره ، ودخل كبار الأمراء (بويار) جملة في خدمته . وتخلى الأمراء الضعاف عن استقلالهم ، ولم يبق إلا عدد قليل من الأمارات المستقلة . وتحققت على هذا النحو وحدة الأرض . واجبر ايفان بحروب ١٤٩٢ و ١٥٠٠ – ١٥٠٣ ، أمير ليتوانيا ، على الاعتراف بامتلاك الأراضي الواقعة على نهر الدنيبر والدونا ولقب « عاهل جميع روسيا » . وأخيراً أفاد ايفان من تفتت وتجزئة قوم الذهب ، فرفض دفع الجزية إلى التتر واحتفظ بها لنفسه ، واعلن نفسه حاكماً مستبداً (اونوقراطياً) مستقلاً عن كل سيد أجنبي ، ومثل بشخصه ، في أعين جميع الروس ، المقاومة المسيحية والقومية لكل كافر عميل للشيطان .

العقيدة الامبراطورية البيزنطية ورسالة روسيا المقدسة . — وكان نجاحه وديانته الأرثوذكسية سبباً في زواجه بصرفيا ابنة أخ آخر أمبراطور بيزنطي . وقد جعل المعاصرون من هذا الزواج رمزاً سياسياً ، وصاغت الكنيسة الأفكار ، التي فرضت على عقل الروس وقلبهم ، وهي أن

روسيا المرتبطة وحدها بالايمان الحق ، بلد مقدس « روسيا المقدسة » ، وان الشعب الروسي « اسرائيل الجديدة » قد اختاره الله لتكون له الأولوية على جميع الشعوب المسيحية وليعمل فيها على نصر مملكة المسيح وستبقى الدولة الموسكوفية حتى آخر العالم ، وستسيطر على جميع شعوب العالم ؛ وان موسكو « روما الثالثة » هي العاصمة الأخيرة والوحيدة في العالم المسيحي ؛ وإن عاهل موسكو ورث هذه الروح الالهية من الاباطرة البيزنطيين ؛ وانه مسيح الرب ولا يجيب عن أعماله إلا أمام الرب ؛ وان معارضة مشيئته ذنب ؛ وان الجميع ، حتى الكنيسة وزعيمها ، ملزمون بطاعة الأمير ، وليس للفرد حق التصرف بنفسه . وأخيراً كانت الاكثرية متفقة على التفكير بأنه يجب على الأمير ان يؤمن سلام كل فرد بفرض المراقبة الدقيقة على الطقوس الدينية والتسليم الحرفي لكل كلمة في الكتاب المقدس ، وحذف الفكر الحر الذي يؤدي إلى الهرطقة .

وتبنى ايفان الثالث الشارات التي ترمز إلى سلطته المطلقة ، وترجع إلى أصل إلهي وهي : النسر ذو الرأسين والصولجان والكرة والعرش ، وتخلى عن طراز حياته كملاك كبير صاحب أطيان في سبيل مراسم البلاط البيزنطي ، وانعزل عن رعاياه ، وأقام كشكاً من نوع سام لايستطيع الناس القانون السذج ان يقتربوا من حضرته إلا إذا كانت جباههم على الارض .

دولة موسكوفيا العسكرية المطلقة . — لقد كان ايفان الثالث زعيماً مطلقاً . قام بحملة ضد التتر وضد الغربيين الهراطقة ، واضطر لمجابهة هجمات التتر على حدود طويلة بنفوس قليلة وضعيفة ، وانشأ مستعيناً بمدربي الغرب القطعات الاولى من الجنود المرتزقة ، وجهزهم

بالبنادق والمدافع ، ودربهم على النمط الاوربي . وقد أوجد هذا العمل مشاكل ضريبية . ويبدو أن ماعمله ايفان الثالث يدل على أنه لم يكن غريباً عن فكرة انشاء دولة موسكوفية منظمة على شكل معسكر حربي وحسب نظام حديدي ينفي كل أثر للحرية الشخصية .

ولكن وسائل العمل كانت تنقصه لأن الطبقة النبيلة التي استخدمها كانت قليلة المران . أما الأمراء الذين أخضعهم وأصبحوا له اتباعاً فكانوا يأتون بجنودهم في حال الحرب ويؤدون المهام التي يكلفون بها ، ويأخذون مكانهم في مجلس البويار ولكنهم كانوا يحتفظون باستقلالهم الذاتي في أماراتهم الوراثية . لقد كانت روسيا تشبه اتحاداً ارستقراطياً ، وكان للنبلاء ، من حيث المبدأ ، الحق دوماً في اختيار سيد آخر ، أمير آكبر ، من ليتوانيا أو بولونيا .

وقام بين ايفان الثالث وهؤلاء الارستقراطيين نزاع طبقات ، حتى انه استخدم بوروقراطية من صغار الناس ودون ماض وجعل منهم كتاباً وأمناء وغيرهم ، وأنسأ طبقة عسكرية دنيا من رجال السلاح انتقاها من بلاطات الأمراء المنحلة ، ومن صغار الملاكين المعفون من الضرائب في الاراضي الملحقة ، ومن الفلاحين والمشردين . وخرطهم في الخدمة العسكرية مدى الحياة وجزاهم أرضاً ، **بوميستيا** ، ومن هنا أتى اسم **بوميتشيك** . وجعل من أفاضلهم طبقة موظفين نبيلة دانت له بكل شيء ودخلت في المجلس ، وساهمت في اخضاع الطبقة النبيلة القديمة . واستطاع بذلك أن يحول دون اعتراف التابع به والانتقال إلى خدمة أمير آخر ، وحول اتباعه إلى رعايا خاضعة للخدمة العسكرية الاجبارية للدفاع عن البلاد .

ومن جهة أخرى ، عارض ايفان الثالث الطبقة النبيلة بطبقة الفلاحين .

وكف عن دفع الجزية بالمعدن الثمين إلى التتر ، فنما على أثر ذلك الاقتصاد النقدي . واستعيض بالتدريج عن الاتاوات عيناً والسخرة بالاتاوات نقداً . وثقلت ضرائب الامراء بالحروب . واضطر الفلاح لبيع حصاده بسرعة ، وأفاد من ذلك تجار الحبوب . وكان أقل حادث يضطر الفلاح إلى الدين بفوائد ضخمة حيال الأمير . وإذا لم يستطع سداد الدين وجب عليه أن يشتغل لحساب هذا الأمير . وعلى هذا النحو فقد حريته وعلقه دين الامير بالتراب . وكان المزارع المدين يعتبر تابعاً للدومين ويباع معه . وكان الفلاح يلجأ إلى الفرار ، وكانت هذه الوسيلة ممكنة في بلد ينقصه الرجال . وإذا حرم الامراء والبوميتيشيك من اليد العاملة لم يستطيعوا القيام بالتزاماتهم حيال العاهل . وكان هذا العاهل ينحاز اليهم ضد الفلاحين . وعندئذ يبدأ بمنع المزارعين من مغادرة الدومين وباقطاع « الاراضي السوداء » مع فلاحيها الذين كانوا في السابق احراراً ، واصبحوا على هذا النحو معلقين بالطين وملزمين بطاعة الملاك الاقطاعي ، بوميتشيك .

وهكذا أمن نزاع الطبقات لايفان الثالث طبقة نبيلة جديدة طيعة .

وأخيراً ازدرى ايفان نظام التوريث التقليدي ، وهذا ما لم يفعله ملوك فرنسا ، وحرم الورثة المتحدرين من زواجه الاول من حقوقهم ، وسمى باصيل ابنه من صوفيا عاهلاً ومساعداً وخلفاً ووراثياً حقيقياً للامبراطورية البيزنطية .

ايفان الرابع الفظيع زعيم الكفاح . — وبعد باصيل الثالث (١٥٠٣ — ١٥٣٢) الذي تمم سياسته بقوة جرت تحولات كبرى في عهد حفيده ايفان الرابع الفظيع (١٥٣٣ — ١٥٨٤) . فقد

توج هذا عام ١٥٤٧ وله من العمر ست عشرة سنة وأخذ لأول مرة رسمياً لقب « قيصر » ونادى بنفسه خلفاً للقياصرة وألحق الكنيسة بالدولة أي تبنى مبدأ اليوسفيانية .

تابع ايفان الرابع مكافحة التتر بشدة عظيمة وأراد من ذلك أن يؤمن لنفسه الطرق التجارية الكبرى . وفي ١٥٥٢ قام بفتح خانات (بلاد) قازان ، واستولت الجيوش الروسية على استراخان وأصبح مجرى نهر الفولغا بكامله تحت اشراف موسكو ، وغدت استراخان نقطة اتصال بين اوربة وآسيا ، يفد اليها التجار من القوقاز وتركستان وايران . وبسط فتح خانات سيبريا ، في عام ١٥٨٢ ، النفوذ الروسي حتى نهر ينسائي وجبال التاي على « كاليفورنيا القرو » . ثم عاد ايفان الرابع إلى البالطيك على هراطقة الغرب الذين يعزلون روسيا . وفتح ليفونيا من ١٥٥٨ إلى ١٥٦٠ . ولكن دول السويد والدانيمارك وليتوانيا وبولونيا تدخلت في الامر وامتدت الحرب حتى ١٥٨٢ واضطر ايفان الرابع أخيراً إلى التخلي عن ليفونيا .

وفي الحقيقة لقد قلبت ثلاثون سنة في الحرب المجتمع والنظم في موسكوفيا . فقد زادت نفقات الدولة ازدياداً عظيماً . ونمى ايفان الرابع جيش حملة البنادق ، ونظم جيش المدفعية والهندسة والمرتزقة الأجانب . وزاد في سلاح الفرسان ، وأقام على طول الحدود المتطاولة خطوط مدن جديدة وحصوناً وقلاعاً . وكل ذلك كان يستلزم النظام والمال .

نمو الاقتصاد النقدي . — لقد نمت التجارة . وساعد التحالف مع خان القرم على الاتصال بأوربه عن طريق البحر الأسود . وكان التجار والصناع يأتون من المانيا وايطاليا وهونغاريا عن طريق القرم . ومنذ

رحلة تشانسلو عام ١٥٥٣ بلغ الانكليز روسيا وآسيا بطرق رأس الشمال والبحر الأبيض والمحيط المتجمد الشمالي . وكان لشركة موسكوفيـــا الانكليزية منذ ١٥٦٧ الحرية التجارية في كل روسيا ، في قازان واستراخان وحرية المرور إلى إيران ، وميناء أساسي في جزيرة ياغري عند مصب نهر دفينا الشمالي ، ومستودعات ومكاتب في المدن الروسية الأساسية . ثم تبع الانكليز الهولنديون والانفرسيون والبروكسليون ، وبعد موت ايفان الرابع ، الفرنسيون في ١٥٨٦ . ومن ١٥٥٨ إلى ١٥٨١ تصرف الروس بميناء نارفا . وأتى إلى هذا الميناء سبعون سفينة في العام ١٥٦٧ . ولكن السويديين استرجعوا هذا الميناء في العام ١٥٨١ ، وعندئذ أسس ايفان اركانجلسك عام ١٥٨٤ .

وانطلق التجار الانكليز والهولنديون حتى الأقاليم النائية ، واحتكوا بالتجار المحليين واشتروا مباشرة منهم ، واحيوا الداخل ، وأقبل المال على روسيا . وأضيفت الى تجارة الزينة تجارة المحاصيل الزراعية من حنطة وكتان وقنب ولحم وجلود وزفت وقطران وسمك . وظهر تجار كبار في موسكو وبسكوف وقازان . وكان الواحد منهم يملك عشرة دكاكين فأكثر . بيد أن هذه البورجوازية ظلت قليلة العدد وضعيفة وذلك لعدة أسباب :

١ - منافسة المؤسسات الكنسية ومنافسة التجار الأجانب . وكان كلا الطرفين معفى من الضرائب .

٢ - منافسة البوميتشيك الذين يتاجرون في الغالب قليلاً ، والحصر القيصري للأسماك المخمرة والكافيار والتبغ .

٣ - تحديد عدد الأسواق ليساعد على مراقبة عمال الضريبة وعددهم قليل جداً .

٤ - الضرائب الثقيلة جداً .

أزمة المجتمع الروسي . ـ لقد أفاد القيصر من ازدياد تداول النقد ، واستطاع بذلك دفع مرتبات الجنود المرتزقة . وفرض على أغنياء التجار وظائف وجعلهم مسؤولين بها عن ثرواتهم : جباية ضريبة تجارية أو استثمار حصر حكومي . كما أفاد أيضاً من الأزمة الواسعة في المجتمع الروسي الذي تكون بالفتح . فقد استدعت الاراضي الجديدة الرجال من كل جانب وحصلت الكنيسة وعائلات التجار الكبرى ، مثل آل ستروغانوف ، على أراضي من الحكومة في حوض الفولغا الاوسط والادنى وحوض الكاما الذي يتصل بسهولة بالاورال الغني بموارده الطبيعية ونودي بالمزارعين . وكثرت الاديرة والمدن الجديدة ، مثل اوفــا ، ساماراً (١٥٨٦) ، ساراتوف (١٥٩٠) . وفي جنوب الاوكا ، في السهوب ، ألف الفارون شركات كوزاكية حرة من الصيادين والسماكين وقطاع الطرق . وأقام وراءهم فلاحون ، وحمتهم خطوط من المدن مثل بريانسك (١٥٦٠) ، اوريل (١٥٦٤) ، فورونيج ، ليفني (١٥٨٦) .. الخ .

ولكن افتقد الرجال ، وفرغت أراضي الوسط من السكان ، وفر الفلاحون المدينون أو الذين ضايقتهم الضريبة . وبعد ١٥٧٥ وجد في منطقة موسكو ٧٦ – ٩٦٪ من الاراضي بوراً ، وخلت القرى من السكان ، ولم يستطع البوميتشيك القيام بخدماتهم ، كما لم يستطع الامراء دفع الضريبة . وفقدت الدولة الرقابة على المكلفين وفرغت خزانة الدولة . ولكن كبار الملاكين والبوميتشيك كانوا يتنازعون على المزارعين ولا يجدون حلاً لمنازعاتهم ودعاواهم إلا باللجوء إلى السلطة المركزية .

الانتقال من الادارة الأميرية إلى ادارة الدولة . ـ لقد وضع ايفان الرابع ادارة الدولة إلى جانب الادارة الاميرية . فتحت القيصر ومجلسه أصبح **الرازرجاد** وسيطاً بين القيصر وجميع الإدارات : خزانة

الدولة ، المتميزة عن الخزانة الخاصة ، بريكاز أو دواوين الاختام ، والعرائض ، والشرطة ، وحملة البنادق ، والمدفعيين والمرتزقة ، و « قصر قازان » الذي أحدث في العام ١٥٥٨ وهو نوع من وزارة مستعمرات للاراضي المفتوحة ؛ وأمانه الشؤون الخارجية ١٥٤٩ ، وديوان السفارات (١٥٦٤) .

ونظمت براءة ١٥٥٦ خدمة البوميتشيك . وكان عددهم ٢٠٫٠٠٠ وعليهم أن يأتوا بفارس مجهز ومسلح عن كل ٥٠ هكتار من الارض . وكان مستغل الواحد منهم على العموم من ١٤٠ إلى ٢٣٠ هكتاراً . ولكن وجد من بينهم من كان انتفاعه ٣٠٠ ، ١٠٠٠ ، ١٣٠٠ هكتار . وكان وضعهم هذا يدوم مدى الحياة ثم أصبح وراثياً ، ولكنهم لم يستطيعوا التخلي عن خدمة القيصر ليصبحوا اتباع أمير آخر . وكانت موارد مستغلاتهم قليلة . ونكب التسلح البوميتشيك فأخذوا يعتصرون الفلاحين الفارين بالضرائب .

وأصبحت الخدمة العسكرية اجبارية على جميع الملاكين العقاريين . بيد أنه كان بامكانهم استبدال الخدمة بالضريبة . وزالت قطعات الاتباع ، ووحد الجيش ، وفرض القيصر من أجله ضرائب حسب هواه ، ضريبة الملح وضريبة البنادق . الخ ... ومنذ ١٥٥٤ لم يخول أحد أي امتياز حصانة . وفلت الحصانة القديمة ، وفي ١٥٨٠ علقت حصانة الضريبة الخاصة بالاكليروس .

الدولة البوليسية . — لقد لاقت الاصلاحات معارضة الطبقة النبيلة القديمة . وفي ١٥٦٥ أنشأ ايفان الرابع الحرس الملكي (الاوبريتشنينا) وكلف بالسهر على القيصر والقضاء على كل خيانة في البلاد . وكان الحرس (اوبريتشنيك) يبذلون ذاتهم ويتفانون في خدمة الملك . ودخل في هذا

الحرس بعض أعضاء الطبقة النبيلة القديمة ، وخول اقطاعات في وسط روسيا ، وحصل على أثر ذلك نقل في الملكية . فقد اضطر الامراء أصحاب الاطيان أن يتخلوا عن دوميناتهم التي ورثوها عن أجدادهم ويأخذوا دومينات جديدة في المناطق المحيطية ، زمتشينا ، والافضل بالقرب من الحدود على الاراضي المفتوحة حديثاً . وانقطعت الروابط القديمة التي كانت تربطهم بسكان الوسط فقد وجدوا منعزلين في وسط مجهول ، ولم يكن ليطيعهم إلا بصفتهم عمال القيصر ومعرضين بالقرب من الحدود لهجمات لامفر منها إلا بحماية القيصر . وكان للحرس الملكي الرقابة البوليسية على المناطق المحيطية التي فقدت الحظوة وأصبحت مشبوهة بالخيانة . وكان لهذا الحرس الملكي الحق في فرض كل شدة ممكنة عليها ، حتى ان عدة عائلات أميرية أبيدت عن بكرة أبيها . وفي ١٥٧٠ نهبت نوفغورود الكبرى وفاض النهر بالجثث .

ولكن ايفان من جهة أخرى ، تعلق من أجل البوميتشيك والحرس الملكي (اوبريتشنيك) بتثبيت الفلاحين بالأرض وتحويلهم إلى أقنان . ولقد نص قانون ١٥٥٠ على تسليم المدين غير المليء إلى دائنه واجباره على العمل حتى وفاء الدين . وفي العام ١٥٧٤ فرض ايفان على كل فلاح « أسود » ، مقيم على الأراضي السوداء ، أن يزرع لحساب الدولة ٤ هكتارات في السنة . وكانت هذه السخرة واسطة موقتة لتغطية فرار الفلاحين . وفي ١٥٨٠ و ١٥٨١ حرم القيصر نكران المزارع للأمير ، ولم يستطع المزارعون مغادرة الدومين دون ترخيص من الأمير . وكان المزارعون الهاربون يلاحقون بشدة .

الملكية الموسكوفية والملكية في الغرب . — وهكذا تبدو موسكوفيا ملكية مستبدة مطلقة . فقد كان القيصر يملك في الحق

والواقع جميع امتيازات السيادة : السلطة التشريعة والتنفيذية والقضائية والمحاكم الخاصة ، وفرض الضرائب حسب هواه ، وجيشاً دائماً تحت تصرفه ، وتسمية الموظفين . وتختلف الملكية الموسكوفية عن الملكية المطلقه في أوربة الغربية بسعة حقوقها : ويبدو أنه لم يكن هنالك قوانين أساسية يمكن أن تناهض استبداد العاهل ، مثلاً ، فيما يختص بوراثة العرش ، أو حقوق خاصة للافراد وهيئات الدولة ، مثل حق الملكية . وبالمقابل ، ربما كانت سلطته في الواقع ، محدودة في الظروف العادية بوجود الحصانة وفقدان بورجوازية متمولة لمعارضة الطبقات الأخرى . لقد كانت الملكية المطلقة الموسكوفية تؤلف نوعاً من أكبر أنواع « الملكية المطلقة » في اسرة « الملكية » ؛ فهي تقترب من الملكيات المطلقة الآسيوية الخاصة بالمجتمعات التي يكون فيها ضعف الرأسمالية صفة سائدة . ولكن كانت لها نفس الشروط الأساسية التي تمتاز بها الملكية المطلقة في اوربة الغربية في القرن السادس عشر : من مثل أعلى قومي خاص تشجعه نهضة المذاهب القديمة المتكيفة مع الحاجات الجديدة ، واعتقاد الشعب برسالته ، وطموح فردي لأمة مسيطرة متجسدة في عاهل ، صورة الآله ، وبطل قومي منتصر ، وحرب دائمة ضد الأجنبي على حدود مهددة جداً ، واقتصاد نقدي في طريق النماء ؛ ونزاع طبقات يختلف نوعاً عن نزاع الطبقات في الغرب ، إذ لا يقصد هنا معارضة بورجوازية — نبيلة ، بل نزاع طبقتين نبيلتين متشابهتين نوعاً ما ، لأن كل من هو أمير اقطاعي من طبقة نبيلة أو من أخرى ، يعارض فلاحاً مسلحاً بصورة أفضل في موسكوفيا مما في الغرب بسبب المسافات وامكانيات الفرار والمساومات بين أميرين . وكان نزاع الطبقات ، باعتباره نزاعاً ، ينتج نفس النتائج : وهي أن تبقى الدولة حكماً وسيداً ؛ وكانت الدولة ، كما في الغرب ، تضرم النزاع بين الطبقات ، وتولد نزاع الطبقات . ولذا فان الشروط الاساسية تبقى نفسها وجود الملكية المطلقة يبدو مشروعاً .

الفصل الثامن

خطر الأتراك العثمانيين على أوربه

في العام ١٤٥٣ دخل السلطان محمد الثاني القسطنطينية فاتحاً ، واعتبر هذا الحادث فاتحة عهد جديد في توسع الامبراطورية العثمانية . وأحرز هذا السلطان انتصارات مبينة في أوربة وآسيا : فتح آثينا عام ١٤٥٦ والبيلوبونيز في ١٤٥٨ وأخضع البوسنة وقسماً من الهرسك . ووضع يده على طربزون في آسيا الصغرى ، وكان من أهدافه تجهيز الامبراطورية باسطول بحري قوي . واستطاع العثمانيون بفضل هذا الاسطول ، بعد حربهم الطويلة ضد البندقية ، أن يهيمنوا على البحر المتوسط الشرقي .

وتوفي محمد الثاني عام ١٤٨١ وخلفه ابنه بايزيد الثاني ، وحكم الامبراطورية ثلاثين عاماً ، وكان محباً للسلام والفلسفة والفنون ، واشتهر بشعره . وكان عهده فقيراً بالحوادث بالنسبة إلى عهد أبيه . فلم يقم بالحرب إلا إذا رآها ضرورية لأمن الامبراطورية . وهكذا فتح باقي بلاد الهرسك لتأمين حدوده .

وفي العام ١٥١٢ تخلى بايزيد الثاني عن الحكم لابنه سليم الأول الذي عرف بنزاعه مع الشيعة وحبه للفتح كجدة محمد الثاني . فقد استطاع في ثماني سنوات من حكمه أن يضاعف رقعة الامبراطوارية بغامزاته الجريئة .

هاجم السلطان سليم دولة فارس وكانت منافسة قوية للامبراطورية

العثمانية في آسيا ومركزاً قوياً للشيعة ، وكان يحكمها الشاه إسماعيل الاداري الصالح والمحارب الباسل الذي استطاع أن يوسع امبراطوريته بسلسلة معارك ناجحة .

انطلق السلطان سليم للحرب ضد فارس في خريف ١٥١٤ وحشد على الشاطىء الآسيوي للبوسفور جيشاً مزوداً بالرجال والعتاد والتقى بخصمه بالقرب من تبريز العاصمة وسحق جيشه . ثم شكا السلطان سليم السلاح ثانية عام ١٥١٦ ضد سلاطين المماليك ، وأعلن عن نيته في أخذ مكة والمدينة . وكان أول صدام له معهم في سورية بالقرب من حلب في مرج دابق ، ودامت هذه الحرب بضع ساعات وأحرز السلطان سليم بعدها نصراً جديداً . ثم دخل دمشق ونظم ادارة سورية وتهيأ للقيام بحملة جديدة على مصر .

وغادر السلطان سليم دمشق في كانون الأول ١٥١٦ ، وفي أوائل كانون الثاني ١٥١٧ وصل القاهرة حيث كان ينتظره جيش المماليك فلم يلق مقاومة في سحقه ، واستولى العثمانيون على القاهرة وأعملوا فيها السلب والنهب والتخريب .

وبعد أن قهر العثمانيون والمماليك أصبحوا سادة شبه جزيرة العرب . وانتزاع السلطان من الخليفة العباسي لقب خليفة المسلمين .

وتوفي السلطان سليم عام ١٥٢٠ في ظروف مرية وخلفه على العرش ابنه السلطان سليمان .

سليمان يهدد أوربة . — اعتلى السلطان سليمان العرش في آخر شهر أيلول ١٥٢٠ : وبعد شهر من هذا التاريخ توج شارلكان امبراطوراً في اكس — لا — شابل . وستقوم بين العاهلين حرب لا هوادة فيها

خلال عشرات السنين . فقد كانت للعاهلين مطامع واحدة وكان كل منهما يطمح إلى تأسيس امبراطورية واسعة .

وقد استطاع السلطان سليم في حياته حل جميع مشاكل الامبراطورية في آسيا ، ولذا كان باستطاعة ابنه السلطان سليمان الانصراف إلى أوربة . فقد هيأ مشاريعه ، وقضى شطراً كبيراً من حياته في القسطنطينية ، وظل على مقربة من الاوضاع السياسية في أوربة .

قرر سليمان أن يهاجم أوربة من نقطة ضعيفة ، فاجتاح هونغاريا وامتد بهجومه إلى قلب أوربة المجزأة . وفي ٢٦ حزيران ١٥٢٢ أحاطت الاساطيل العثمانية بفرسان القديس يوحنا ، حماة جزيرة رودس . وبعد ستة أشهر من الحصار فتك الجوع والطاعون بهؤلاء الحماة ، وتحت ضغط السكان ألقى السلاح فيليب ايل آدم ، سيد فرسان طريقة المستشفى (فرسان القديس يوحنا) ، وغادر الجزيرة في العام ١٥٢٣ ومعه فرسانه مع عدد كثير من الرودسيين . وبعد بضع سنوات على هذا الاستسلام تلقى هؤلاء الفرسان من الامبراطور شارلكان السماح لهم بالاقامة في طرابلس الغرب ومالطة . وكان الامبراطور يؤمل بهذه المساعدة أن يسد طريق البحر المتوسط الغربي في وجه الملاحة العثمانية .

وحدث في عام ١٥٢٥ أن سقط ملك فرنسا ، في واقعة بافيا ، أسيراً بيد الجيوش الامبراطورية الجرمانية ، فأثار هذا الحادث نشاطاً سرياً له أهميته العظيمة في المستقبل . فقد كانت أم فرانسوا الاول الملك الفرنسي تقوم بادارة شؤون الدولة نيابة عن ابنها ، وعندما علمت بنبأ أمره أرسلت أحد دبلوماسييها إلى القسطنطينية وحملته رسالة إلى السلطان ترجوه فيها أن يتدخل لخلاص ابنها فرانسوا ، فأجاب السلطان بالقبول

وعرض مشاريعه الكبرى ، وذلك بأن يتحرك الاسطول العثماني صوب اسبانيا ، بينما تتجه في الوقت نفسه جيوش السلطان البرية إلى ايطاليا وتزحف على ميلانو . بيد أن نتائج هذه الخطط كانت على غير ماتوقع لها ، فقد أطلق سراح الملك فرانسوا الأول قبل أن يباشر السلطان عمله . ولم يبق أمام سليمان أي حجة لاجتياح ايطاليا ، فما وسعه إلا أن وجه حملته نحو هونغاريا عوضاً عن ايطاليا واسبانيا . وكان للامبراطور الجرماني مصالح في هذه البلاد ، لأن ملكها لويس الثاني الضعيف كان زوجاً لماريا أخت شارلكان .

ولم تكن ماريا الرابط الوحيد بين بيت آل هابسبورغ وهونغاريا . فقد كان الارشيدوق فرديناند ، أخو شارلكان ، زوجاً للاميرة آنا أخت الملك لويس . ولما لم يكن للويس هذا خلف فان فرديناند يعتبر وارثاً هونغاريا .

وكان الامبراطور شارلكان يخشى طموح أخيه فرديناند ويعامله بذكاء وحيطة . وفي عام ١٥٢١ وضع أراضيه الوراثية في النمسا تحت ادارته ومنحه كامل الاستقلال وحمله مسؤوليات كبرى .

وفي ربيع ١٥٢٦ علم في هونغاريا ان السلطان العثماني يهدد البلاد من جديد . فأرسل الملك لويس دبلوماسييه إلى عواصم اوربه لطلب النجدة والعون . ولكن نشاطه وقف عند هذا الحد .

زحف الجيش العثماني في آخر تموز ، وبعد الاستيلاء على حصن يقع على الحدود ، اندفع باتجاه قرية صغيرة تدعى موهاكز على الدانوب ، حيث كانت مواقع الجيش الهونغاري . وكانت المعركة حاسمة في ٢٩ آب . فقد هلك فيها الالوف من الامراء الهونغاريين ، وقتل الملك

لويس في الملحمة . ثم زحف السلطان نحو العاصمة الهونغارية ، بودا ، فاستسلمت دون مقاومة ، واحتفل السلطان بانتصاره في القصر الملكي .

لقد كانت واقعة موهاكز ثقيلة بنتائجها على هونغاريا ، فمن ذلك أن موت لويس جعل من فرديناند أقرب مطالب بالعرش الهونغاري . وفي الحقيقة لقد انتخب الملك فرديناند ملكاً على بوهيميا ، وكانت جزءاً من هونغاريا ؛ وفي شهر كانون الأول ١٥٢٦ ملكاً على هونغاريا نفسها . ويعتبر اعتلاء فرديناند عرش هونغاريا بداية لاتحاد بين النمسا وهونغاريا ، كما يعتبر هذا الحادث عظيم الاهمية في تطور اوربه في المستقبل .

غير ان فرديناند أدرك بعد قليل أن ليس من السهل البقـــاء في هونغاريا ، لأن البلاد تكره كل ماهو ألماني كرهاً عميقاً . ولمقاومة هذا الملك النمساوي تقدمت الطبقة النبيلة الصغرى بمرشحها وهو جان زابوليا ، أمير تزيفنبورغ ، وتوصلت إلى انتخابه ملكاً على هونغاريا . وبعد هذا الحادث مضت سنوات مليئة بالاضطراب والدسائس والمنازعات والمحادثات وكان فرانسوا الأول عدو آل هابسبورغ يدعم زابوليا ، ودعمه السلطان العثماني وكان يفكر بحملة كبرى على اوربة .

وعندما علم فرديناند بمشاريع سليمان أوفد إلى القسطنطينية نفراً من أفضل دبلوماسييه ليقنعوا السلطان بالعدول عن مشروعه ، ولكن الوفد عاد بخفي حنين واستمر السلطان بالتعبئة .

اخفاق الأتراك امام فينّا . — كان وضع سليمان قوياً من الوجهة الدبلوماسية . فقد كان يرى بان اوربه مجزأة ومنقسمة على نفسها أكثر من أي وقت مضى ، ويتابع بكل دقة وانتباه تطور الحالة السياسية والدينية في المانيا . وربما كان على علم بثورة البروتستانتيين في دباط

سبير عام ١٥٢٩ ، قبل الزحف على فينا ، ويقدر مدى النزاع الديني . وعندما أكد سفراء فرديناند في القسطنطينية ان شارلكان يستطيع الاعتماد على رعاياه ، تساءل السلطان بتهكم ماإذا كان الامبراطور استطاع ان يعقد الصلح ويسوي السلام مع لوثير .

وفي أيار ١٥٦٩ انطلق سليمان في حملته على فينا في ميدان واقعة موهاكز ، حيث غلب لويس هونغاريا ، قبل ثلاثة أعوام ، وكان في انتظاره زابوليا وأنصاره . وقد رافق هذا الأخير السلطان إلى بودا وشارك في احتفال تتويجه ملكا على هونغاريا في ١٤ ايلول ١٥٢٩ ، وبعد اسبوع بلغ الاتراك في تقدمهم أسوار فينا وكان عددهم يقدر بثلاثمائة الف رجل .

كانت حالة الملك فرديناند بائسة ، وقد حاول عبثاً طلب النجدة من الامبراطور . ولم يكن لرعاياه أي رغبة في القتال في سبيله . وأخيراً اضطر فرديناند ، باتفاق مع البابا إلى استملاك قسم من أموال الكنيسة لتمويل الحرب .

دام حصار فينا أربعة أسابيع ، وحاول الاتراك خلال أربع مرات الهجوم على المدينة ، وكانوا يردون على أعقابهم في كل مرة . وكانت اوربة تمسك بأنفاسها وتنتظر بقلق نهاية هذا النزاع الذي سيقرر مصير القاره . ولم يحالف الطقس الاتراك ، بل كان سبباً في اخفاقهم . فقد كان المطر يهطل ليل نهار ، وكانت خنادق المحاصرين تفيض بالماء ، ثم جاء البرد القارس ، ففت ذلك في عضد الاتراك فلم يندفعوا في القتال . وفي ١٦ تشرين الأول رفع سليمان الحصار ، وقفل الجيش العثماني راجعاً وعاد السلطان إلى القسطنطينية .

وفي ١٥٣٢ تهيأ السلطان سليمان ثانية للانطلاق لحرب الامبراطور

شارلكان واجتاز هونغاريا على رأس جيش قوي واجتاح الاراضي الوراثية التابعة لآل هابسبورغ في النمسا . ولم يوات الحظ هذه الحملة كالحملة السابقة . لأن الامبراطور عقد الصلح مع اللوثريين في نورامبرغ ، وأصبح مطلق اليدين في محاربة الفاتح .

ووالت الامبراطورية العثمانية توسعها في قسم آخر من العالم . ففي عام ١٥٣٤ ولى السلطان ظهره أوروبة وانطلق في حرب فارس . وأتاحت هذه الحرب لسليمان عدة انتصارات جديدة ، فاستولى على بغداد . وهكذا اتسعت رقعة الامبراطورية العثمانية في جنوب شرقي اوربة إلى الخليج الفارسي وأصبحت دولة من دول العصر الكبرى .

وفي هذه السنة نفسها أحرز سليمان نصراً مبيناً آخر في سياسته الأوربية . فقد أدت المباحثات بين ملك فرنسا والسلطان إلى عقد ميثاق هجومي مري . وبعد سنتين اتبع هذا الميثاق بعقد اتفاقية تجارية بين فرنسا والدولة العثمانية وبموجبها أصبح للتجار الفرنسيين المقيمين في بلاد الشرق الحقوق نفسها التي يتمتع بهـا الأتراك . وبالمقابل ان جميع التجار الأتراك في فرنسا يتمتعون بنفس الامتيازات التي يتمتع بها رعايا الملك فرانسوا الأول . وهذه السياسة كانت في أساس « الامتيازاتا لأجنبية » .

ولقد كان لفرنسا ، منذ عهد بعيد يرجع إلى أعلى العصر الوسيط ، علاقات وتقاليد مع بلاد الشرق الأدنى ، بيد أن سياسة التقارب الجديدة خولت فرنسا نفوذاً معنوياً في هذا القسم من العـالم ، ورأى العالم المسيحي في هذه الاتفاقات جريمة وخيانة للايمان المسيحي ، واعتبر الملك فرانسوا الأول خارجاً عن المسيحية على حين أنه كان ينعت نفسه بالملك المسيحي جداً والابن البار بأمه الكنيسة الرومانية التي يعزها ويعمل جاهداً لخدمتها .

وظلت سياسة السلطان سليمان الخارجية خلال السنوات الأخيرة من حكمه شبيهة بسياسة السنوات ١٥٢٠ — ١٥٤٠ . وبعد وفاة زابوليا في العام ١٥٤٠ انطلق السلطان للحرب عدة مرات ليؤكد نفوذه في هونغاريا وليمنع فرديناند هابسبورغ من اتخاذ وضع مسيطر في البلاد قد تكون له نتائج خطيرة في المستقبل على الامبراطورية العثمانية الناهضة .

وفي العالم ١٥٤٨ — ١٥٤٩ قام بحملة ضد ايران وأعلن عند عودته على سادة أوربه بانه استطاع أن يفتح إحدى وثلاثين مدينة بقوة سلاحه وتنظيم جيشه وحسن بلائه ، وسرعة حركاته ، وانقضاضه على خصومه .

وقضى سليمان السنوات الأخيرة من حياته بتقوية مواقعه العسكرية في هونغاريا والبحر المتوسط حفاظاً منه على مكاسبه ودفعاً لهجوم مفاجىء من أعدائه .

ومهما اختلفت وجهات النظر في سليمان ، فما لا شك فيه أنه كان عاهلاً عظيماً . فقد برهن على ذلك بسياسته العظيمة في الخارج ، وحسن ادارته وتنظيمه في الداخل . وقد أضفى التاريخ عليه لقب « الفاخر » أي « العظيم » ، وسماه التاريخ العثماني « سليمان القانوني » لأنه استطاع بذكائه ونظره الثاقب أن يوطد النظام في امبراطوريته ويؤمن الرخاء لرعاياه بقوانين مطبوعة بطابع الحكمة والعقل . كما يعتبر شخصية عظيمة من شخصيات القرن السادس عشر ، ويتمتع بمكانة خاصة وهامة بين عظماء الرجال الذين كان لهم دور كبير في تقرير مصير اوربه والعالم أجمع في ذلك القرن .

أما في البحر المتوسط فقد عادت العمليات إلى نشاطها ، حتى ان حملة ج - آ . دوريا J. - A. Doria ، بالرغم من كثرة سفنها الاسبانية والجنوية والحبرية ، لم تتوصل إلى الاستيلاء على جزيرة جربه التي تعتبر

مفتاح البحر المتوسط الشرقي (١٥٥٩ - ١٥٦٠) . وفي العام ١٥٦٦ انتزع العثمانيون جزيرة كيو من أيدي الجنويين .

واقعة ليبانت . - أبرم السلطان سليم الثاني (١٥٦٦ - ١٥٧٤) الصلح مع الامبراطور لمتابعة الفتوحات العثمانية في آسيا ، بعد أن وضع الوزير الاعظم صقلي مشروعاً للاستيلاء على قناة السويس وقناة الدون والفولغا ، وفي البحر المتوسط استولت جيوشه على قبرص ، بالرغم من أنها كانت تابعة لحليفته القديمة ، البندقية ، وارتكبوا فيها الفظاعات (١٥٧١) . وحاول البابا بيوس الخامس عندئذ أن ينظم حملة صليبية مع اسبانيا والبندقية ، وعهد بقيادة الاسطول إلى دون خوان . وتم اللقاء مع الاسطول التركي في ٧ تشرين الاول ١٥٧١ في ليبانت عند مخرج خليج كورنث . وخسر العثمانيون في هذه الواقعة ١١٧ سفينة و ٤٥٠ مدفعاً . ولكن المسيحيين لم يتوصلوا لاسترداد قبرص ، وظلت ليبانت نصراً دون غد ، وفي ١٥٧٣ تخلت البندقية عن قبرص ، وازدادت جزية زانت بثلاثة أضعافها . وفي الحقيقة استولى دون خوان على تونس التي استردها الاسطول العثماني عام ١٥٧٤ . وظلت الجزائر مقراً للقرصان ومأوى للأسرى المسيحيين .

أما السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٦) بن سليم الثاني فقد قتل اخوته الخمسة وترك وزراءه يعملون ما يريدون ، وأرسل عدة سفارات إلى اوربه ، وحاربت جيوشه على الدانوب واستولت على راب (١٥٩٤) وحاصرت عبثاً كومورن ، وضربت الفرس في توريس بعد فتح جيؤرجيا .

وأما ابنه محمد الرابع (١٥٥٦ - ١٦٠٣) فقد قضى على اخوته التسعة عشر وأخفق في هونغاريا وخسر موقتاً راب وكيو واضطر إلى

الضرب على أيدي الباشوات الثائرين عليه في آسيا . بيد أنه استطاع على الأقل مع صقلي باشا أن يحرز نصراً في موقعتي آنغـريا وكاريسْتْ في هونغاريا ١٥٩٦ .

تركيا عنصر من عناصر السياسة الأوربية . — لقـد أصبحت تركيا بهذا الفتح عنصراً من عناصر السياسة الاوربية . وفي الحقيقة ، ان فكرة الحرب الصليبية ما زالت قوية في آخر القرن الخامس عشر وفي بداية القرن السادس عشر ، بيد أن الارهاب ، الذي أوحى به الاتراك ، أخذ يضعف بسرعة ، ولم يعد الخلفاء العثمانيون في نظر الاوربيين زعماء عصابات شرسة ، بل خلفاء أباطرة بيزنطة وأهلًا لتنظيم حكم دائم .

الاتراك في البحر المتوسط الغربي . — واستطاع الترك أن يستقروا في البحر المتوسط الغربي بعـد أن نادى خير الدين أو بربروس قرصـان الجزائر الشهير بنفسه تابعاً للباب العالي وأصبح قبطان باشـا ١٥٣٦ ، وتوصل إلى التماسك في الجزائر ، بالرغم من هجوم شارلـكان (١٥٤١) ، حتى انه أخذ يهدد الأوربيين ، لأن القرصـان الجزائريين كانوا يهـاجمون اسبانيا بين حين وآخر ، ويعودون منها بالأسلاب والغنـائم ، ويهـددون حوض البحر المتوسط الغـربي . ولم يستطع شارلـكان أن يردهم . وقام بعده ابنه فيليب الثاني بحملة صليبية حقيقية ضـد الترك ، وأراد بذلك حماية جزر الباليئار ومملكة فالانْسْ ، والحفاظ على مواصلاته مع نابولي وصقلية وكانت هذه المهمة صعبة لأن الاسبانيين لم يكن لهم في افريقية الشمالية سوى بعض مواقع وموانىء كالمرسى الكبير ووهران وبوجه .

وفي أول القرن السابع عشر بدت الدولة الامبراطورية العثمانية دولة منظمة تنظيماً قوياً ، وأصبح خطرها يخشى حقاً ، وبلغت نقطة الأوج بين موت سليمان وصقلي باشا (١٥٧٨) . وضمت في هذا العهد قبرص

وتونس واليمن وأقساماً أخرى من آسيا . وامتدت الامبراطورية العثمانية على ٧٠٠٠ كم من الغرب إلى الشرق ، وعلى ٥٠٠٠ كم من الشمال إلى الجنوب بمساحة قدرها ٨ مليون كم٢ ، وتضم أكثر من ٥٠٠,٠٠٠ قرية ، على ما فيها من تناقضات بين السواد الأعظم من السكان الفقراء وكبار الملاكين الأغنياء . فقد كان التجار المسيحيون أو المسلمون في بغداد وطربزون وتوكات والقسطنطينية يجنون أرباحاً عظيمة ويجمعون ثروات ضخمة . وتمتع كبار الموظفين بمرتبات كبيرة ، فقد كان وارد الباشا يتجاوز ٥٠٠,٠٠٠ دوقاً ، والوزير الأعظم أكثر من مليون . وترك محمد الرابع ثروة تقدر بمبلغ ٥٠ مليون دوقاً . وساعدت هذه الثروة على تقدم الحضارة . فمن ذلك أن المهندس المعمار سنان شاد جامعي شـــازهاده ١٥٤٨ ، والسليمانية . وانتشر فن هذين الجامعين في العالم الاسلامي كله ، كما عم صنع الخزف التركي نصف القاشاني دون طلاء .

ولكن هذا الوجه المنير في تاريخ الامبراطورية العثمانية كانت تقابله بعض الظلال ، لأن الفساد كان يفتك في الجيش وفي الولايات . وقد قامت ثورات في القرم ١٥٨٣ ، وفي أوساط الانكشارية ١٥٨٩ الذين فرضوا مرشحهم أميراً على البغدان (مولدافيا) ١٥٩١ ، وثورة الدروز في سورية ١٥٩٣ وثورات ترانسلفانيا والبغدان والافلاق (فالاخيا) ومن هنا يبدو السبب في توقف تقـــدم الامبراطورية ، وهو أن هذه الامبراطورية قد شيدت بالقوة ، ولذا كان من الصعب كسب البلاد بادارة اصلاحية .

الحياة في الامبراطورية العثمانية . — يتبادر إلى الذهن سؤال وهو كيف استطاعت الامبراطورية العثمانية أن تحقق هذا التوسع العظيم في

النصف الأول من القرن السادس عشر ؟ لقد نسب بعضهم هـذا التوسع إلى الوضع الاقتصادي الملائم في الامبراطورية . فقد كانت تنتج ماتحتاجه من المواد الاولية والسلع الغذائية من حنطـة ولحم وأخشـــاب وملح ومعادن . ولم تستورد سوى السكر والتوابل . أما الصناعة فكانت ضعيفة . لقد كانت صادرات الامبراطورية من منتجاتها ، وخاصة الحنطة ، تأتيها بالموارد الغزيرة . وكانت الحكومة تستعملها في تمويل الحـروب . ولقد برهن النقد التاريخي على أن السلاطين لم يهملوا مطلقـاً مصالح بلادهم التجارية ، بل انهم على العكس كانوا محرضين لهـا ودافعين ومشجعين . ومع ذلك فان الانتصارات السياسية والحالة الاقتصادية الملائمة لا تكفي لايضاح التوسع العجيب الذي لاقته الاسواق التركية في فاتحة العصور الحديثة . ويبـــدو أن هذا النمو العظيم مدين إلى تنظيم الامبراطورية وتركيبها الاجتماعي اللذين اهتم بها الخلفاء العثمانيون وأولوهما عنايتهم بكل ما أوتوا من قوة وثبات . لقد كانت سلطة السلطان لا تعرف حداً أو قيداً ، وكانت رعاياه تذعن لمشيئته ، وكان يعتبر خليفـة رسـول الله ، وجنوده وموظفوه بحكم الارقاء الشخصيين . وكان أكثرهم يؤخذون من أطفال المسيحيين ويربون تربية اسلامية ويثقفون ليكونوا موظفين في خدمة السلطان والامبراطورية . وهكذا كان يساق الجنـود والموظفون في المملكة . وكان رسل السلطـان في كل أربع سنوات يجوبون الأقاليم المسيحية في شبه جزيرة البلقان وهونغاريا وشواطىء آسيا الصغرى الغربية ، ويعودون منها ومعهم عدد من الشبان الفقراء الموهوبين بين سن العاشرة والعشرين من عمرهم . وعندما يأتي الموظف المختص إلى قرية من القرى ، كان على الكاهن فيها أن يسلمه قائمة بأسماء الصبيان المعمدين في السنوات الاخيرة . ثم يدعى هؤلاء الفتيان ويقدمون لرسول السلطان ، فيختـار

منهم من كان أصلح من غيره ، ثم ينزع هؤلاء من أهليهم وأوليائهم ، وفي غالب الأحيان تكون فرقتهم إلى الأبد .

كان هؤلاء الفتيان المصطفون يتلقون تربية خاصة تجعل منهم موظفين ممتازين وذلك بأن يتعلموا القراءة والكتابة واستعمال السلاح وقيادة الجنود . وما كانوا ليجبروا على اعتناق الاسلام ، ولكنهم يرون من الخير لهم أن يرتدوا عن دين آبائهم وأجدادهم ولو ظاهراً ، ومنهم من أسلم وحسن اسلامه ودافع عن الامبراطورية العثمانية والاسلام بقوة وعزم .

وكانت هيئة الموظفين تختار من بين الأسر المسيحية الدنيا لأن السلطان كان يريدهم خداماً طيعين لا يعصون له أمراً .

وقد اشتهر بين هذه الهيئات جيش الانكشارية ، وكانت وحداته تؤلف نخبة الجيش العثماني . وقد لعبت هذه الوحدات دوراً هاماً في حراسة السلطان الشخصية . وكان الانكشاريون يدربون تدريباً رياضياً عنيفاً وقاسياً جداً ويلزمون بأن يحيوا حياة فقيرة . وبالمقابل كانوا يتمتعون بنفوذ سياسي عظيم . وكان جيش الانكشارية في عهد سليمان يتألف من ١٢ — ١٤ الف رجل . ومع الزمن أخذ طابع التشكيل السياسي ، وأصبح أداة للفوضى والخطر على أنظمة الدولة وقوانينها ، وذلك عندما تسرب اليه الفساد وانصرف إلى ما لا يعنيه من أمور الحكم وترتيبات السياسة . وبعد أن كان مصدر قوة للامبراطورية أصبح بؤرة للاضطراب وعدم الانصياع ، وظلت هذه حاله إلى أن قضي عليه القضاء المبرم .

الفصل التاسع

نهضة السياسة الخارجية

لقد شهد عصر النهضة منازعات دائمة بين الدول . لأن سادة أوربة ، بعد أن تم لهم ما أرادوا ووطدوا نفوذهم في ممالكهم ، أصبح بامكانهم أن يعملوا في الخارج ، حتى ان الحرب المتعارف عليها بين الامراء الاقطاعيين في غضون العصر الوسيط انقلبت إلى حرب بين الدول ، وكما يقول ماكيافيلي ، لقد كانت الحرب فكرة مستحوذة على سادة اوربة وهدفاً من أهدافهم . ومن كان منهم أعظم شأواً من غيره حاول أن يسيطر على الآخرين ، فيقوم عليه هؤلاء ويعتصبون ضده للحفاظ على التوازن بينهم . وهذه السياسة ، التي عرفتها ايطاليا في شبه الجزيرة في القرن الخامس عشر ، امتدت إلى اوربة . وهكذا كانت ايطاليا استاذة أوربة في السياسة الدولية كما في غيرها . ولم يقتصر النزاع على اوربة وحدها ، بل وصل إلى المحيطات أيضاً لأن الاوربيين أخذ ينافس بعضهم بعضاً على أمواجه . وكانت الحروب متوالية ، حتى ان السلام لم يكن سوى هدنة للاستعداد لحرب مقبلة ، وان هذه الهدنة ليست سوى تحول في اسلوب الحرب ووسائلها أكثر مما هي تحول في المحاربين . ومن الممكن تمييز ثلاث حروب :

١ – حروب ايطاليا من ١٤٩٤ إلى ١٥١٦ .

٢ - النزاع بين البيت الفرنسي والبيت النمساوي من ١٥٢٢ إلى معاهدة كاتو - كامبريزي ١٥٥٩ .

٣ - الحروب الدينية حتى صلح فيرفن ١٥٩٨ .

الشروط العامة

الدبلوماسية المستديمة . - لقد اقتضت شروط الحياة الجديدة ، في عصر النهضة ، وسائل عمل جديدة ، وتبنت دول اوربة ، على نمط الايطاليين في القرن الخامس عشر ، فناً جديداً وهو الدبلوماسية المستديمة . وحتى آخر هذا القرن كانت لها سفارات رسمية يوجهها أمراء وكرادلة ووزراء ، تظهر عليهم سيماء الأبهة والفخامة ، ويذهبون ليفاوضوا في قضية من القضايا ثم يعودون أدراجهم . وجرى التعامل على هذه الطريقة في القرن السادس عشر في قضايا الولادة والزواج وأحزان الأمراء ، ووصول السادة إلى السلطة وتصديق المعاهدات . ولكن هذا الأسلوب لم يكن ليعطي إلا معلومات متقطعة عن الجيران .

ومنذ ١٤٩٥ والتألب الكبير ضد شارل الثامن فرضت ضرورة الاتصال بين الحلفاء ، ومع المحايدين ، ومع خصوم الغد ، وجود ممثلين مستقرين ودائمين في عواصم الدول ، ثم قلد هذا الاختراع البندقي في اوربة كلها ، وتشكلت عائلات سفراء حقيقية . وكان يرافق هؤلاء « المقيمين » ، من نبلاء اللباس والنبلاء الصغار والكنسيين ، في بعض الأحيان ، أمير كبير يقوم بدور الأبهة والظهور . وكانوا يفاوضون ويهيئون الاتفاقيات والاتفاقات ويزودون ملكهم بالمعلومات . ولذا كانوا يراقبون ويصغون ويرفعون التقارير والرسائل التي أصبحت فيما بعد برقيات . وفيها نجد معلومات متنوعة ومختلفة الأصل . وكان السفير الدائم جاسوساً ممتازاً

يشرف على شبكة استعلامات ، وعاملاً سياسياً يتصل بالجواسيس ويوزع المرتبات والمنح والمعاشات ، ويتخذ ترتيباته مع مشاوري الدولة والمبشرين والاعضاء المؤثرين في الهيئات والطوائف المختلفة في المملكة ، فمن ذلك أن كان للملك فرنسوا الأول ممثل في البندقية يدعى بيليسيّه ، وقد امتد نفوذه إلى الشرق . وفي عهد فيليب الثاني أبدى الاسبانيون اندفاعاً كبيراً ومهارة في سير عمليات التجسس وشبكاتها ؛ ومن أشهر هذه الشبكات شبكة دوق آلب في فرنسا . وكانت حياة السفير شاقة وراتبه ضئيلاً ، وحمايته ضعيفة ، وكثيراً ما كان يتعرض للاخطار بسبب بطء المواصلات .

وإلى جانب هؤلاء السفراء كان فرانسوا الأول وفيليب الثاني يستعملان عملاء سريين ومغامرين وفرساناً وأطباء في المفاوضات السرية ، وشخصيات قميئة يمكن البراء منهم ويمكنهم أن يفيدوا في علاقاتهم السيئة .

وكانت طريقة الدبلوماسية ايجابيــة ، والمعول عليــه هو النتيجة ، والاهتمام الاخلاقي يتنازل عنه لحساب علاقات القوة . وعلى هذا فالدبلوماسية حرب في ميدان آخر يختلف عن ميادين القتال . أسلحتها العادية الكذب والخداع والمكر . وعلى السفير أن يعرف جيداً التاريخ « سيد المخاتلة والغش والنكث والحنث » كما يقول كومين ، وأن يظهر نفسه انساناً خيراً ، مخلصاً ، أميناً ، صريحاً ، حراً ، ليحظى بثقة محدثيه ويعرف كيف يخدعهم في الوقت المناسب على حد تعبير ماكيافيلي ؛ وان يطمئن بأنه مهتم بالأمر ويريد أن يعمل شيئاً بينا يريد أن يعمل شيئاً آخر . وقد أصبحت هــذه الطرق والأساليب اتباعيـــة وألفت أدوات مهنة الدبلوماسية . فلتطمين حليف عن لقاء لم يقبل فيه ، يجب على السفير أن

يؤكد بأن ليس لعاهله يد في هذا اللقاء ، وانما الذي دعا اليه هو الفريق الخصم في صالح السلام . ولدب الحماسة والغيرة عند حليف ، عليه أن يوحي إلى هذا الحليف أن بالامكان أن يفضل عليه أمير آخر أصبح الاتفاق معه وشيكاً . والسيطرة على متحدث مقاوم ، على السفارة أن تتظاهر بعزمها على القطيعة واخراج أعضائها كأنها تريد أن تنصرف من حضرته .

وفي المفاوضات الرسمية يتكلم عضو واحد باللاتينية عن جميع أعضاء السفارة . فاذا ماانتهى ، عقد المتحدثون مجلساً في ركن ما قبل أن يكلفوا خطيبهم بالاجابة . ويتراسل السفراء مع هيئات مختصة في الحكومة المركزية : الملك ، مجلسه السيامي ، وقليلا قليلا مع أمناء الدولة . وكان على سفراء البندقية أن يقدموا عند عودتهم تقريراً مكتوباً يقرأ في جلسة رسمية في مجلس الشيوخ بحضور الدوج ، ثم يحفظ هذا التقرير في سجلات « المكتب السري » . وتعتبر تقارير السفراء البنادقة اليوم مصدراً تاريخياً ثميناً .

الملاحة . — لقد بدل اكتشاف العالم الجديد ، في مطلع القرن السادس عشر ، أهمية البحار ، وأصبح المحيط الاطلسي يفوق البحر المتوسط مكانةً . وبعد أن كانت الحضارة والسياسة الاوربية قاصرتين في السابق على البحر المتوسط وبحار الشمال الضيقة : البالطيق وبحر الشمال والمانش ، أصبحت اطلسية في النصف الثاني من القرن السادس عشر . ونجم عن ذلك نزاع بين سفن المتوسط والسفن الجديدة الصالحة للملاحة في المحيط الاطلسي . وهذا مادعا إلى تقدم صناعة السفن نوعيةً واستيعاباً طبقاً للحاجات الجديدة لم كما بدأ دور السفن المسافرة على خطوط بحرية ولمسافات بعيدة .

الجيش . - ان أحسن مثال يضرب للجيش الأوربي في أول القرن السادس عشر هو الجيش الفرنسي ، جيش شارل الثامن ، ويتألف من قطعات مختلفة .

١ - جنود مجهزون بأسلحة الرمي لاعداء الهجوم وخفض معنويات الخصوم .

٢ - جنود مجهزون بأسلحة يدوية صالحة لاختراق صفوف العدو أو لصد هجومه .

٣ - جنود مجهزون بأسلحة خفيفة للاستطلاع والاتصال ومتابعة النجاح واستغلاله ، وأسلحتهم الرماح والسكاكين والأقواس .

٤ - الجنود المشاة ونصفهم مجهزون بالحراب وآخرون بالرماح ، وقسم بالبنادق .

٥ - حاملو الأقواس والسهام وهم فرسان ومشاة .

٦ - سلاح المدفعية ويضم ١٤٠ فوهة مدفع نارية .

الجنود المرتزقة . - وهي جيوش ممتهنة للقتال والحرب . وقد تخصص بعض البلاد بنوع من القتال . وكانت قوى الأمن الداخلي تنتقى من النبلاء . ويغدق الملك عليهم اعطياته ، ويعتمد عليهم في الصدام العنيف . أما المدفعية فتؤخذ من سويسريي الوديان العليا أو الالمان أو البورجوازيين الصغار والفلاحين الموسرين الذين يجهزون أنفسهم على نفقتهم الخاصة . وكان كل من هؤلاء تحت إمرة زعيم عسكري قوي الشكيمة يتقاضى من الامبراطور أو الملك مرتباً خاصاً ينفقه على نفسه وعلى جنوده . وكان جيش المرتزقة قوياً مدرباً ، ويكلف غالياً ، وليس في استطاعة أي دولة اعاشة مثل هذا الجيش . ولذا كان يلجأ اليه في

الاوقات الخطرة ويتعاقد مع زعيمه على مبلغ معين من المال لقاء الاعتماد عليه في معركة من المعارك .

اسلوب الحروب . — من الممكن أن يدوم أجـــل الحرب طويلاً لان القتال يقوم برضى الطرفين . وكان الجيش يقاتل بصفوف مرصوصة بعضها وراء بعض ، تتقدم ببطء ، وعندما تصل الى مقربة من العدو تحمل عليه . وإذا بدأ القتال فمن الممكن ألا ينتهي ، ولذا كان يلجأ إلى طرق استراتيجية أخرى مساعدة وذلك بأن يحاول الاستيلاء على المدن واحدة بعد أخرى ، أو على مخازن تموين العـدو ، أو اجتياح الريف ، واعاثة الفساد والتخريب لاجبـار العدو على التخلي عن القتال لنقص التموين . وفي مثل هذه الاحوال كان القتـال يعتمد على قوى الفرسان ، باعتبارها اسرع حركة ، للحيلولة دون الحصار .

وكان من حروب ايطاليا ان ساعدت على تقدم صناعـــة الاسلحة وخاصة صناعة المدافع وقوتها على الضرب والاطلاق في تهديم الاسوار . وهذا ما دعا إلى تقوية المدن ببناء استحكامات أمام الاسوار وخلفها بشكل تنفذ منها كرات المدافـع دون زعزعة الاسوار . وقد كانت المدافـع تستعمل ، حتى ذلك الحين ، خاصة في الحصار ، ثم مالبثت ان استعملت في ميادين القتال مع الاسلحة الاخرى . وكانت موقعة ماربنيان أول موقعة كبرى في العصور الحديثة التحمت فيها الاسلحة الثلاثة : المدفعية والفرسان والمشاة . وكان لقـــاء الخصوم في الحرب يدعوهم إلى تقليد بعضهم بعضاً والافادة من تجاربهم الحربية لتحسين اسلحتهم وطرقهم التعبوية وتحصيناتهم العسكرية .

ومع الزمن تقدمت صناعة المدافع وبسطت ، كما نوعت قطـع

الاستعمال . وبدا أن الرطوبة توهن التحصينات الترابية فعوض عنها بأسوار رقيقة ، تستطيع القنابل أن تنفذ منها بسهولة دون تخريب كبير . وفي آخر القرن ساد استعمال الكمين والهجوم الصاعق الجريء عوضاً عن العمليات الكبرى ، وأصبحت الجيوش أقل عدداً وغنى بالعتاد وذلك لأن ازمة الرأسمالية وارتفاع الاسعار والعوائق التي أقيمت في وجه الانتاج ، بسبب الحروب الأهلية ، والتجزئة المتزايدة لأوربة وانقسامها إلى أمم وشيع وأحزاب ، إن كل هـــذه العوامل قللت موارد الدول وانتهى العصر بأفول .

الحروب الاقتصادية والمالية . - وكانت الحرب حرب اعتاد وثقة أيضاً . غير أن تعبئة رؤوس الأموال النائمة وتحويل رؤوس الأموال المستعملة في المشاريع الأخرى كانا يساعدان سادة اوربه على تجهيز جيوشهم بالتسليف على مردود الضرائب الذي يأتيهم في المستقبل . ولذا كان من المهـــم أن يحرم الخصم من الحصول على الاعتاد اللازم لتعبئة جيوشه .

وكانت الحرب حرباً اقتصادية أيضاً . فقد كان سادة اوربة يقومون بتشكيل قومية اقتصادية ، ويريدون بذلك تحقيق نوع من اكتفائية اقتصادية على الصعيد القومي فيما يتعلق بانتاج المراد الأولية الضرورية لعتاد الحرب والمؤن من معادن وأملاح معدنية كملح البوتاس والكبريت وانتاج هـذا العتاد نفسه . وكان يراد حفظ وجذب القدر الاعظم من النقد الذهبي والفضي الضروري للحيـاة الاقتصادية ودفع رواتب الجنود وثمن العتاد والسياسة الكبرى . ولم تكن الحكومات لتعمل إلا قليلاً بالحماية الجمركية ، بالرغم من أن رسوم الجمرك في الدخول على المنتجات المصنوعة ، وفي الخروج على المواد الاولية ، قـد استعملت في بعض

الحالات . لم يكن عندها عدد من الموظفين الضروريين لاقامة خط جمركي كما كانت تعوزها التجربة لتحويل الحماية إلى نظام أو مذهب . وسلكت طريق المنع في الدخول بتحريم الاشياء الأجنبية ، وفي الخروج ، بوضع القوانين ضد تهريب النقد ، ولجأت إلى تحديد النفقات وسياسة التقشف والحصر . وكان الشعب ، وخاصة تجار المدن ، يفضلون في الغالب أن تفرض الحكومة حرية المبادلات . غير أنهم ، في فترات أزمة اقتصادية او انحطاط أو أزمة افراط وتهديد خارجي ، كانوا يقبلون أو يطلبون إلى سادتهم هذه القومية الاقتصادية ، كما في انكلترا في عهد اليزابت قبل ١٥٨٨ ؛ وفي فرنسا عام ١٥٧٦ . وكانت القومية الاقتصادية في البدء سلاحاً بيد الحكومة في نزاعها السياسي .

الامبراطوريات والامبرياليات

إن الفكرة القائلة بوجود سلطتين تحكمان العالم المسيحي في اوربة والسائدة في العصر الوسيط مازالت باقية في مطلع العصور الحديثة وفي بداية القرن السادس عشر . وكان كل من الزعيمين البابا والامبراطور يدعي بالسلطة العليا .

كان البابا يتطلع إلى سيادة العالم ، وحقه في حل الرعايا من يمين الولاء لملوكها ، وخلع هؤلاء الملوك ، وتتويج الامبراطور ، وارشاد الملوك . ولكنه ، في الواقع ، كان قليل التأثير . فقد حاول عبثاً التبشير بالحرب الصليبية وتنصيب نفسه حكماً في الخلافات إذا لم يكن للملوك مصلحة في احترام تحكيمه . حتى ان عصرنة السياسة والاصلاح قللا نفوذه وجعلاه يقتصر على النفوذ الزمني الذي يستطيع أن يمارسه باعتبارة رئيس دولة وزعيم حزب .

وكان الامبراطور يتطلع لأن يكون في آن واحد وريث الاباطرة الرومانيين ويتلقى سلطاتـه من الله مباشرة ، أي أن يكون في القضايا الزمنية زعيماً وقاضياً ووسيطاً وحكماً . فقد كان يسمو على جميع التيجان ، وكان الملوك تابعين له ، وتتوجب الخدمــة الاقطاعية عليهم تجاهه . وله وحده الحق في أن يسمي نفسه صاحب الجلالة ، وان يصنع وحده ملوكاً . وباستطاعته وحده أن يقيم في جميع الممالك كتاب عدل رسوليين وامبراطوريين ، وله أن يوجه الشؤون العامة للبلاد والشعوب المسيحية ، وبخاصة أن يكون زعيماً ضد الكفرة والهراطقة والقائد الأعلى للجيوش في الحروب الصليبية .

التسلطات القاوية . — ان مذهب الامبراطورية العـالمية يستجيب لعواطف حية وعميقة ، ولذا لايفكر أحد بهاجمته علناً . غير أن الواقع كثيراً مايبدل الأفكار ويكشف عن حقيقتها . ومفهوم الامبراطورية ، من حيث المبدأ ، يحترم التنوعات القومية ، ويمكن اعتباره اداة اتحاد بين الشعوب ، ولكنه لايلبث أن يتحول إلى مفهوم تسلط أي فكرة هيمنة أمـة فاتحة تحاول ابتلاع البلاد والشعوب دون مهادنة ، وتجبر الآخرين على الخضوع لارادتها .

التسلط الالماني .— من الملاحظ في اوربة وجود تسلط الماني ظاهر . لأن الامبراطورية ، بحسب التعريف ، ليست لشعب من الشعوب ، بل هي فوق الشعوب ، ويجب أن تنتقل منطقياً من عاهل لآخر ، وأن يعهد بها تارة لشعب وتارةً لشعب آخر . ولكن الألمـــان اعتبروها شيئاً خاصاً بهم دون غيرهم وهو الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة التي اقتصرت على الأراضي الجرمانية . وفي آخر القرن الخامس عشر سميت « الامبراطورية الرومانية المقدسة » من قومية ألمانية . وفي ١٥١٨ ،

عندما رشح كل من فرانسوا الأول وشارلكان نفسه للانتخاب الامبراطوري ، أمر فيمبفيلنغ باعادة نشر معاهدة قديمة تتعلق بنقل الامبراطورية إلى الجرمان ، وأشار إلى أن الامبراطورية يجب الا تعود إلى فرنسي أو بورغوني بل إلى الماني ، وأصبحت الامبراطورية بالنسبة للألمان علامة فارقة واداة لتفوقهم على الشعوب الأخرى ، أي اداة تسلط . إلا أن نمو الامارات في الامبراطورية المقدسة دفع زعماء هذه الامارات إلى النزوع إلى السيادة ضد الامبراطورية ، ثم جاء الاصلاح الديني فقسم البلاد إلى فئتين بروتستانتية وكاثوليكية ، وقد ساعد هذان العاملان على تفتيت المانيا وحالا دون ظهور هذا التسلط .

التسلط الفرنسي . — لقد كان الفرنسيون يصرحون في البدء بأنهم بعيدون عن كل تبعية حيال الامبراطور واعتبروا « الملك امبراطوراً في مملكته » . ولكن الاحداث كذبت هذه الأقوال ، فمن ذلك ان شارل الثامن انحدر إلى ايطاليا ليزحف إلى الشرق ، ويقود حرباً صليبية ، ويوجد لنفسه القاباً في امبراطورية القسطنطينية . فقد دخل نابولي وتاج الذهب على رأسه ، وهو يمسك بيديه الصولجان والكرة الامبراطوريين ، والشعب يصرخ : « أيها الامبراطور المبارك جداً » . وهذا ما أثار الذعر في المانيا . فقد خيل أنه يتطلع إلى لقب امبراطور الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة . وظهر هذا التسلط الفرنسي بمحاولات السيطرة على ايطاليا وترشيح فرانسوا الأول نفسه للامبراطورية المقدسة عام ١٥١٩ ، وفسح مجالاً ، بعد انتخاب شارلكان ، لسياسة دفاعية مناوئة لآل هابسبورغ .

التسلط البورغوني . — لقد أخذ تسلط آل هابسبورغ شكلين كبيرين متعاقبين :

الأول ، وقد ظهر عندما كان شارلكان وريثاً لأملاك البيت النمساوي ، وأملاك ومزاعم بورغونية ، وعرشي آراغون وقشتالة ، وامبراطوراً عام ١٥١٩ . وكان شارل غاند قبل كل شيء « بورغونياً » . وكان التسلط البورغوني في البدء مسيطراً عليه ، وأراد أن يأخذ من ملك فرنسا ارث شارل المتهور وخاصة دوقية بورغونيا مع ديجون وشارتروز شامبمول حيث يرقد أجداده ، وأن يؤلف دولة بورغونية قوية ، وبذلك يسيطر على الغرب . هكذا كان يحلم ، وليست الممالك والدوقيات والكونتيات والامبراطورية إلا وسيلة لخدمة هذا الحلم . بيد أن أخفق ، ولقد رأينا أن معاهدة كامبريه عام ١٥٢٩ مع فرنسوا الاول قد كرست تقسيم ارث شارل المتهور .

والثاني ، هو التسلط القشتالي .

التسلط القشتالي . — عندئذ أخذ التوسع الهابسبورغي شكل تسلط اسباني قشتالي ومع الزمن تقشتل شارلكان ، وكانت قشتالة تضم حلمه وتطيعه ، وتجهزه بالمال والجنود أكثر من غيرها ، وشيئاً فشيئاً دفع اسبانيا إلى السيطرة على ايطاليا . فقد كانت صقلية تجهز اسبانيا بالحنطة ، وكانت قروض أصحاب المصارف الألمانية مضمونة بأملاك نابولي . وكانت منطقة ميلانيا مرحلة وميداناً لتجمع الجنود في منفذ شعاب الألب . وكانت الانتصارات في ايطاليا تخول اعتماد أصحاب المصارف الجنويين والفلورانسيين ، وبالتدريج دحر شارلكان الفرنسيين .

ثم دفع اسبانيا إلى السيطرة على الامبراطورية . فقد نصرته الجنود الاسبانية في موهلبرغ عام ١٥٤٧ على البروتستانت الالمان من عصبة شمالكلد . وأمسكت الحاميات الاسبانية بالمانيا . وأراد شارلكان تتويج ابنه فيليب الاسباني القح ملكاً على الرومانيين ووارثاً للعرش

الامبراطوري . وما كان الرأي الالماني ليخدع . بل كان يرى في ذلك محاولة هيمنة اسبانية . ودعمت أكثرية الالمان فرديناند أخا شارلكان وابنه ماكسمليان . ومنذ ١٥٢٢ تخلى شارلكان لأخيه عن ممتلكات آل هابسبورغ الوراثية في النمسا وفي المانيا ، وانتخبه نائباً عاماً له في المانيا . وأصبح فرديناند ملك الرومانيين منذ ١٥٣١ واضطرت مقاوماته ومقاومات ابنه أخاه شارلكان إلى التراجع . ومنذ ١٥٥١ سحب القطعات الاسبانية اثر نقمة السكان ، وقبل تراجع اسبانيا وتقسيم ارث آل هابسبورغ . وفي ١٥٥٨ تنازل شارلكان عن اللقب الامبراطوري وأصبح فرديناند امبراطوراً ، واحتفظ بأملاك البيت النمساوي الوراثية وطرق شعاب الالب ومداخل أوربة الوسطى . ولكن انقسام المانيا وتهديد تركيا حالا دون خطورة تسلطه .

واحتفظ فيليب الثاني بالممتلكات الاسبانية واقتصر التسلط الاسباني على الغرب . وكما استخدم شارلكان الفكرة الامبراطورية لصالح تسلطاته المتتابعة ، كذلك استخدم فيليب الثاني ، عن حسن نية ، الفكرة الدينية لصالح التسلط الاسباني وبدا بطل الكاثوليكية ضد المرطقة ، وحاول اخضاع البلاد المنخفضة وجعلها منطلقاً لجنوده يضرب بها في جميع الاتجاهات ، كما حاول الحصول على انكلترا وسيادة البحار الضيقة بزواجه من الملكة اليزابث ، ثم حاول فتحها عام ١٥٨٨ باسطول الارمادا الذي لايقهر . وبعد اخفاقه وجه جهده صوب فرنسا ، وضد المدعي بالعرش هنري نافار المرطقي ، وأعد ترشيح نفسه لعرش فرنسا . وفي عام ١٥٩٠ وضع ترشيح ابنته ايزابلا فأخفق ، وكرست معاهدة فرفن ١٥٩٧ هذا الاخفاق ، واصطدم التسلط الاسباني بالعاطفة القومية في كل مكان . وهكذا وجد التسلط ، ثمرة القومية ، حدوده في الوطنية المهددة .

التسلطات البحرية . — لقد كانت السياسة الانكليزية بخاصة سياسة توازن . ومع هذا فقد كان الانكليز يحاولون البحث عن موانىء يؤمنون بها أنفسهم ، كميناء بولون وكاليه ، ويسيطرون منها على المرور من بحر المانش وبحر الشمال ، وارتباط المحيط بالبحار الضيقة ، وبلاد البحر المتوسط ببلاد البحر البالطيك . ولكن الفرنسيين ظلوا سادة هذه المواقع .

لقد كان العصر الوسيط عصر حرية البحار . ولكن الدول منذ أن تقربت من مرحلة الدولة « الحديثة » أخذت تطمح إلى أن يكون لها امبراطورية بحر أو عدة بحار : كالبندقية منذ القرن الثالث عشر على الادرياتيك ؛ وجنوة منذ القرن الرابع عشر على البحر الليغوري ، والدانيمارك على البالطيك ؛ والنورفيج على المحيط حتى ايسلندا وغروئنلاندا . وكانت الدولة المتسلطة ترمي إلى الحصر غالباً وإلى جباية الرسوم للسماح بعبور صيادي السمك والتجار وسلام السفن واعلامها .

تسلطات البحر المتوسط . — لقد كانت التسلطات القارية تابعة للسيطرة على البحار . فالتسلط الاسباني ، مثلاً ، لايمكن أن يفهم دون سيادة البحر المتوسط الغربي الذي كان يربط بين الممتلكات الاسبانية الأساسية . وكانت الحرب فيه حرب قواعد . لأن الرياح الشديدة وصغر السفن كانت تجبر على الانزلاق طول الشواطىء وامتلاك عدة موانىء للتموين . وفي انتزاع هذه الموانىء تتعرض المواصلات للانقطاع . ولذا كان الأتراك . في كل عام تقريباً ، يرسلون اسطولاً من السفن لنهب البحر والشواطىء . وكان القرصان البربر والفرنسيون يدعمونهم مراراً ويقدمون لهم قواعدهم (مثل ميناء تولون ١٥٤٤) . ولحسن حظ الاسبانيين لم يكن المهتمون بالغنائم ليندفعوا حتى الاعماق ويفكروا بنسف مفصلة نابولي — مسّينا . وبعد وفاة هنري الثاني اختفت السفن الفرنسية من البحر المتوسط ،

ولم يستطع الترك استخدام القواعد الفرنسية ، واضطروا إلى التخلي عن العمليات الكبرى بعد أن أنهكوا بحرب إيران والامبراطورية الجرمانية والمشاكل السلالية والاقتصادية . وظفرت العصبة المقدسة المسيحية في ليبانت (١٥٧١) ، وأخرج الترك من الحوض الغربي للبحر المتوسط . وفي الواقع ، تحول الترك والأسبانيون نحو المحيطات ، لأن البحر المتوسط أصبح في معزل عن خطوط التجارة الكبرى وملحقاً لامركزاً ، وأصبحت التسلطات الكبرى محيطية .

التسلطات المحيطية . — وفي الحقيقة ، كانت التسلطات القارية تابعة للتوسع الاوربي في المحيطات . لقد شاد البرتغاليون والاسبانيون امبراطوريات فيما وراء البحار ، واعتبروا أن جميع الأراضي الجديدة المكتشفة أو التي ستكشف قد اختصها الله بهم ، وإن كثيراً من المراسيم الحبرية تحبذ اتفاقهم وتحدد مناطق عملهم وتبعد عنها الامم الاخرى . وكان البرتغاليون والاسبانيون مقتنعين بقداسة حصرهم ، ومن خالفهم باء بالحرمان ولعنة من الله ، كما كانوا يعتبرون كل حملة تجارية وكل محاولة استعمار أجنبي من غيرهم رجساً من عمل الشيطان وقرصنة .

وأصبحت هذه الامبراطوريات عاملاً من عوامل السياسة الاوربية بسبب المعادن الثمينة التي ترسلها إلى أوربة . كان ذهب العالم الجديد وفضته في البدء بكميات قليلة ، ثم ازدادت أهميتها بالنسبة لشارلكان بعد أن فتح كورتيز (١٥٢٠ — ١٥٢٢) المكسيك ، وبيزارو (١٥٣١ — ١٥٣٦) البيرو ، وأخيراً بعد اكتشاف مناجم الفضة في بوتوزي ١٥٤٥ أما الامبراطورية البرتغالية فقد كان دورها الاقتصادي عظيماً ، وهذا ما جعلها تلعب دوراً سياسياً . ولكن مالبث أن ضعف شأن هذا الدور بالنظر إلى صغر البلاد البرتغالية وقلة سكانها . وفي العام ١٥٨٠ فتح فيليب

الثاني البرتغال واعترف به ملكاً عام ١٥٨٢ . وبذا أضاف إلى امبراطوريته الواسعة جميع الممتلكات البرتغاليـــة . وانصرف بكليته إلى هذه الامبراطورية المحيطية العالمية . وكان نضاله في السنوات الاخيرة ضد انكلترا وهولندا وفرنسا ، نضالاً في سبيل سيادة الاطلسي . ثم هجرت الحرب ضد الترك البحر المتوسط وانصرفت إلى المحيط الهندي في سبيل مناجم ذهب سوفالا .

على أن المصور الجغرافي يمكن أن يجعلنا نعتقد بأن شارلكان وفيليب الثاني ، المغلوبين في أوربة ، قد استطاعا أن ينجحا على صعيد الكرة الارضية ؛ وان ممتلكهم الاسامي هو المحيط الاطلسي ؛ وان امبراطوريتهم المحيطات وأوربة والأهداف القارية لهذه الامبراطورية .

ولكن مثل هذا القول ضلال . لان وارد اميريكا لا يؤلف بعد في العام ١٥٥٤ إلا ١١٪ من مدخر الخزانـة الملكية و ٢٥٪ في العام ١٥٨٥ . لقد كانت قوة شارلكان وفيليب الثاني الاصلية في اسبانيا وايطاليا وامبراطوريتها قبل كل شيء امبراطورية قارية مع تفرعات محيطية .

التوازن الأوربي . — لقد أثارت التسلطات مقاومة الملوك الآخرين الذين يجسدون مصالح قومهم فقد حاولوا منع أقوى واحد في عصره من الظفر واعتصبوا ضده ليحققوا توازناً بين قوى الدول وميزاناً للسلطات . وأصبحت هذه الغريزة بالتدريج قاعدة التوازن الاوربي ، وقامت فكرة تسلسل أمم حرة سواسية مقام فكرة العصر الوسيط في تسلسل منظم للممالك ، وتحقق نظـام التوازن في ايطاليا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، عندما جمعت عصبة البندقية ، في آذار ١٤٩٥ ضد شارل الثامن والبابا ، البندقية وميلانو وآل هابسبورغ وآراغون وقشتالة ، أي في الوقت الذي مرت فيه سياسة التوازن من ايطاليا إلى أوربة . وأصبحت

انكلترا مختصة في هذه السياسة التي لا تخلو من أخطاء ناجمة عن كرهها التقليدي لفرنسا . وقد أدى نظام التوازن إلى عدة تألبات : كالعصبة المقدسة في ١٥١١ وعصبة كونياك في ١٥٢٦ ، وعدة أحلاف متحركة .

ولم يتحقق التوازن على المحيطات ولكنه فهم بشكل نظريات في حرية البحار والاحتلال الفعلي . وفي العام ١٥٣٣ ، حصل فرانسوا الاول من البابا كليمان السابع على تفسير للمرسوم الحبري الصادر عام ١٤٩٣ وهو أن القارات المحجوزة هي القارات المعروفة عام ١٤٩٣ ، وليست الاراضي التي اكتشفتها التيجان الاخرى فيما بعد . وفي العام ١٤٤٠ ذهب فرنسوا الاول إلى أبعد من ذلك وقال : « إن الشمس تسطع له كما تسطع للآخرين ، وانه يرغب في أن يرى وصية آدم ليعرف كيف قسم العالم » .

وصرح بأن الاحتلال وحده يخلق الحق . أما اكتشاف بلد بالعين أو اجتيازه فلا يشكل تملكاً ، وأنه يعتبر الاماكن المسكونة والمحمية فقط املاكاً اجنبية . وهذه هي قواعد الاستعمار الحديثة .

السياسة الايجابية . – إن بناء السياسة يقوم قبل كل شيء على تقدير نسبة القوى ، وان القانون الاعلى هو المصلحة المفهومة جيداً ، وان النموذج الوحيد هو النفاذ والتأثير . وفي الغالب يذكر اسم الله والاخلاق ولكنها مهملان عملياً . وقد ضرب باباوات العصر المثل في ازدراء الكلام المعطى ، وباعتبارهم يملكون سلطة العقد والحل يستطيعون الحل : وليسوا ملزمين بتوقيعهم ، وبذلك ضربوا أساس أخلاق الفروسية ، وهو الوفاء بالعهد الذي يلزم الشرف ، محرك أعمال الفارس . وهكذا فتح الباباوات عهداً جديداً .

المسيحيون والمسلمون . – لقد تطورت عقلية الحرب الصليبية مع

الزمن ، وأصبح بالامكان التفاهم مع المسلمين إذا اقتضت المصلحة وبالرغم من ذلك كانت التألبات تعقد بين حين وآخر ضد الاتراك ، كما في ١٤٠٨ و ١٥١٨ ، ولكن هذه التألبات كانت ظواهر ومناورات سياسية . وقد ضرب البابا المثل في هذه السياسة . فقد اقتطع جول الثاني من العشر المدفوع في سبيل الحرب الصليبية قسماً لانشاء كنيسة القديس بطرس في روما واعادة بنائها من جديد . وكان البابا اينوسان الثامن يطلب من السلطان بايزيد مبلغاً من المال مقابل حجره على السلطان جم في روما . وكان جم هذا منافساً لبايزيد ، كما كان البابا يستقبل علناً ورسمياً سفير هذا الاخير بحضور مجمع الكرادلة الأقدس ومختلف ممثلي الأمم المسيحية . واتخذ الملك فرانسوا الاول التحالف مع الاتراك أساساً لسياسته ضد الامبراطورية الجرمانية ، إذ كان باستطاعتهم أن يضربوا الامبراطورية من الخلف في أوربة الوسطى ، ويقطعوا خطوط مواصلات شارلكان في البحر المتوسط . ومنذ ١٥٣٤ عقد حلفاً مع الاتراك ، وفي ١٥٣٦ وضع أول عقد توطد بموجبه تفوق فرنسا التجاري في بلاد الشرق . كما تفاهم شارلكان مع المسلمين في تلمسان وفي تونس . وتعاقد أخوه فرديناند مع الترك ودفع ضريبة للباب العالي العثماني .

الرأي والدعاية . - وكان الرأي العام يتوجه باللائمة على المفاوضات مع المسلمين، وكان الملوك يشعرون بحاجة إلى مساندة هذا الرأي في سياستهم . ولذا كانوا يقومون بالدعاية وينظمونها . ففي ١٥٣٦ فرض شارلكان على البابا ، وهو في مجمع الكرادلة ، خطاباً طويلاً كشف فيه عن جرائم فرانسوا الاول واعتبره مسؤولاً عن الحرب و « تركياً » ومضطهداً للوثريين . وقد ترجم هذا الخطاب إلى كل اللغات ونشرته صحافة آنفرس في كل البلاد . وكان أنصار الامبراطور يسمون فرانسوا

الأول « التركي » . ونظم آل دوبلليه ، لصالح فرانسوا الأول ، مكتباً صحفياً مع أمناء يتقنون الفرنسية واللاتينية والألمانيـة ، ومراسلين في أوربة . وكان رئيسهم جـان سليدان يقيم في ستراسبورغ . وقـد طبع سيل من الكراريس العديدة التي تشهر بشارلـكان وتعتبره عادياً مستعدياً .

واستخدم فرانسوا الأول نظرية رضى الرعايا الحر . وكانت جميـع الاجتماعات ، التي نظمت في آخر القرن الخامس عشر ، كاجتماعات بروفانس وبورغونيا وبروتانيا ، تضمن حق الشعوب في تقرير مصيرها . حتى ان معاهدة مدريد لعام ١٥٢٦ ، التي يجب على فرانسوا الاول المغلوب في بافيا أن يتخلى بموجبها عن بورغونيا لشارلـكان ، لم تنفذ لأنه خرق هذا الحق . وفي ١٥٢٦ صرح البورغونيون بأنهم يريدون « البقـاء على طاعة تاج فرنسا لاتاج الامبراطور المزعوم » ، مذكرين بالمبدأ القائل بأنه لايحق نقل أي شعب من نفوذ إلى آخر دون رضى منه

وسادت في كل مملكة لغة واحدة . وكان امتداد هذه اللغـة يعين حدود القومية .

الاصلاح الديني والامم . — لقد فوض الاصلاح الديـني في بعض الأحيان سيطرة العواطف الدينية على العواطف القوميـــة وبخاصة بين ١٥٦٠ و ١٥٩٠ . وكان اتباع كل دين ينـــاصر بعضهم بعضاً ضد أبناء وطنهم . بيد أن الاصلاح على العموم شجع نهوض الامم : ففي اسبانيا ، الدولة الوحيدة الكبرى في الغرب الاوربي ، خنقت المرطقة بسرعة ، وكان الاسبانيون يعتبرون أنفسهم شعب الله وجنوده المخلصين . وقد اختلط التسلط الاسباني لشارلـكان وفيليب الثاني بالحرب الصليبيـة الاسبانية . كما قوت العاطفة الدينية العاطفة القومية .

وفي انكلترة ، جعلت حرب المائة عام العاطفة القومية حقيقة واقعة ، ولكن

فاترة ، لأن البلاد لم تصب في أموالها وفي رجالها . وكان الاصلاح الديني ، الذي وضعها في موقف المعارض للبابا والدول الكاثوليكية ، بمثابة خميرة كبرى للوطنية ، لأن انكلترا أصبحت بطل الاصلاح ضد فيليب الثاني وبلد التفجر العجيب للفكرة القومية .

وفي المانيا وجدت عاطفة معارضة عامة لعالم الولش وايطاليا . وقسمها الاصلاح إلى قسمين فلم تعد تحسب دولة . غير أن هذا الاصلاح ولد في المانيا أمماً ثانوية . والتفت كل واحدة منها بسبب دينها حول أميرها .

وفي البلاد المنخفضة ايضاً قوض الاصلاح الديني الوطنية البورغونية وولد أمتين مختلفتين .

ولم يأت آخر القرن إلا وسادت العواطف القومية في كل مكان في أوربة ، وتأمم الأدب الانساني ، وطغت الفردية القومية على العالمية السياسية أو الدينية .

مظاهر الحرب

الحرب المغطاة والحرب المكشوفة . — كان النذير الحربي يقوم باعلان الحرب الرسمية ، ثم يتلو ذلك هجوم مباشر من أحد المتحاربين على الآخر ، وفي بعض الأحيان كان أحد المتنافسين يكتفي بالتوفيق بين أعداء خصمه ويحضهم عليه ويقدم لهم المال ، ولا يني في أوقات السلم عن دفعهم ضده ، كما هي حال فرانسوا الأول بعد معاهدة كامبريه ، فقد كان يدفع الأمراء الالمان من عصبة شمالكلد والهونغاريين والعثمانيين ضد الامبراطور شارلكان .

الحدود الآسيوية . — كانت الحرب تقوم على القارة الأوروبية في منطقة محصنة تغطي اوربة ضد الآسيويين من ترك وتتر . وكان البحر

المتوسط مفروشاً بشريط من التحصينات : حصون البندقية على شواطىء ايستريا ودالماسيا والبانيا حتى الجزر الايونية ، وفي كانديا (كريت) وقبرص ، وقد استولى الاتراك على قسم من هذه الخطوط بسبب تقدمهم الكاسح ؛ ويأتي بعد ذلك جبهة نابولي وصقلية ومسينا وسلسلة الحصون الاسبانية على شواطىء افريقية . أما في القارة فكانت الحصون الالمانية وحصون كرواسيا والساف الاوسط ومنطقة فينا ؛ والحصن الرومي على الاوكا وعلى تخوم الغابة ، ومنطقة المدن المحصنة باتجاه الجنوب والشرق . وكانت كل هذه المناطق مزبترة بالمدافع ضد هجمات الفارس الآسوي . والمسافة تلعب دورهـا لصالح المسيحيين . لأن صعوبات التموين وطول فيالق الاعاشة وعدد حيوانات الحمل الضرورية كانت تشل هجوم الاتراك وتترك الكثيرين يموتون دون نتائج حاسمة .

العمليات العسكرية وفقدان جبهة القتال . — لم يكن هنالك جبهة بالمعنى الصحيح ، ولم تكن الجيوش عديدة بصورة كافيـة ، ولم يكن القصد تغطية الحدود ، حتى ان الجبهة كانت منطقة غير مستقرة . ومع الزمن . وبتأثير النكبات والخسائر ، اقتضت ضرورات الحرب ، خلال القرن ، انشاء خط الحدود .

ستراتيجية الملحقات . — كانت الحملات حاسمة نادراً . ولم ترم إلى تقويض جيوش الاعداء . وإذا قبل العدو القتال أمكن تقويض جيشه ، كما في مارينيان ١٥١٥ وبافيا ١٥٢٥ ، وسان كانتان ١٥٥٧ . ومن المستحيل تقريباً استغلال الفوز والنجاح ، لأن صعوبات التموين والموت في البلاد المجتاحة كانت تضطر الجيوش إلى التوقف أو التراجـع . أما الهجوم عمقاً حتى المراكز الحيوية في الممالك فتلك طريقة قلما كان يفكر بها جدياً .

لقد كانت الحرب حرب حصار ، أي أنها كانت ستراتيجية ملحقات وتوابع كأخذ المواقع الحصينة بأصول ومخازن المؤن والترسانات وانتظار نقص هذه المؤن وفقدان المال ليضطر العدو إلى التخلي أو طلب الصلح ، وكما قيل كانت الحرب تربح بآخر دينار .

الأبواب . — ولذا يجب القبض على الحصون التي كانت أبواب الممالك وعلى الطرق الطبيعية والمسالك المؤدية لها ، مثل مجاري الانهار . ومعابر الجبال وشعابها .

الطرق . — لقد بدت فكرة قطع « الطرق العسكرية » الكبرى ، طرق الجيوش والمال ، ولم تكن واضحة . وجرت محاولات عديدة خلال القرن ضد حركة النقل الكبرى من امبراطورية آل هابسبورغ من العالم الجديد إلى البلاد المنخفضة . وكان القرصان الفرنسيون يكمنون في رأس سان فانسان والجزر الخالدات وكناريا وينهبون السفن البرتغالية والاسبانية ، حتى ان شارلكان اضطر ، حوالي منتصف القرن ، إلى تبني نظام القوافل . وكانت الطريق الاساسية طريق البحر المتوسط من اسبانيا إلى ايطاليا ؛ والطريق البرية من ايطاليا إلى بلاد الراين والبلاد المنخفضة من شعاب الألب والكونتيه واللورين أو من الالزاس وبالاتينا .

ارتباط مسارح العمليات . — وكانت الموارد تفقد فلا يمكن السير بالحرب بشدة على جبهات عدة . ان كثرة مسارح العمليات وبطء المواصلات وصعوبة جلب الجيوش والمال في الوقت اللازم إلى النقاط الحساسة وتنسيق الجهود توضح الاخفاق النسبي الذي مني به كل من شارلكان وفيليب الثاني .

القتال المنفرد . — وعلى الرغم من الحرب الحديثة فما زالت تقاليد الفروسية موجودة . فمن ذلك ان شارلكان عام ١٥٢٣ اتهم فرانسوا

الاول بعدم الايمان ودعاه إلى القتال معه وجهاً لوجه . وصرح ملك فرنسا بان الامبراطور كذاب وقبل التحدي . وكثيراً ما كان زعماء الجيوش يتقاتلون على مرأى من جيوشهم وهم في حال هدنة مؤقتة .

الأسرى . — وكان المتحاربون يهتمون بالاسرى رغبة في افتدائهم ونشأ عن ذلك تجارة . وكانت « الحرب صالحة » إذا تفاهم المتحاربون على عدم قتل الأسرى وافتدائهم بالمال حسب الطبقات . وأدخل الاسبانيون تعامل تحرير الاسرى إذا وعدوا بالا يخدموا في صف أعداء غالبهم .

الخسائر . — وكان قادة الجيوش يحولون البلاد إلى صحراء ليحولوا دون تقدم جيوش العدو . وكان الجنود ينهبون ويسبون ويعذبون جذلين فرحين . ووجد لدى كل جيش من الجيوش المتحاربة « ضابط الحريق » ويوجه هذه العملية ، وما كان ليوفر القرى دون فدية . وأدخل التعامل الاتفاق بين سكان المناطق والزعماء لدفع الأذى وكانت الضريبة التي يتفق عليها مع هؤلاء الزعماء تضع المدنيين في منجاة من النهب وأعمال العنف .

الحياد . — وكان المحايدون يخولون عامة المتحاربين المرور من أراضيهم نتيجة لتجزئة اوربة . ويتعهد المتحاربون بوسائل الحياد على الا يسببوا أي ضرر للسكان . غير أن الكانتونات السويسرية كانت ترفض حق المرور .

التدخل . — كان تدخل الدول الأجنبية في الحروب الأهلية قاعدة متبعة . فالفرنسيون يتدخلون في المانيا والانكليز والبروتستانت الالمان يتدخلون في فرنسا . والاسبانيون لدى المتعصبين الفرنسيين . وقد أعطت

الملكة اليزابث نظرية هذا التدخل عام ١٥٨٥ وهي : من الواجب أن تساعد الشعوب المقهورة من قبل أميرها ، ومن الواجب أن تساعد أبناء دينك المضطهدين.

النزعة السلمية . — لقد ولدت فظائع الحرب نظريات خاصة للحيلولة دون وقوعها أو لتخفيف ويلاتها . وقد بشر ارزموس في « شكوى السلام » عام ١٥١٧ بالسلم التام ، وبان الحرب لاتليق بالناس الذين وهبهم الله العقل وأكثر أيضاً بالمسيحيين . والكل يعتبرون قضيتهم عادلة . ولذا ينبغي التحكيم . والحكم يهم قليلاً « فما من سلام ، حتى ولو كان ظالماً ، الا ويفضل على أعدل الحروب » .

الحق الدولي . — لقد قبل معظم النظريين بالحرب العادلة ، وهم يؤملون بتخفيف المنازعات بوعي الأخلاق الدولية والحق الدولي وتفهمها . وكان أهمهم ولاشك الكاثوليكي فيتّوريا ، الاستاذ في جامعة سالامنكا . فهو يرى أن السلام مثل أعلى ، وأن الحرب شر . ومع هذا نراه يسمح بها لمنع شرور أعظم : للدفاع عن الذات ، وتوطيد الحق إذا خرق ، ورفض المعتدي التعويض ، وتخليص السكان المسيحيين المضطهدين من الكافرين . ولايسمح بالحرب لنشر الدين المسيحي لأن الله لم يعط الناس رسالة ليثأروا له ، ولأن النزاع يسبب شروراً أخطر من الشرور القائمة . ان الدول الأوربية تشكل أسرة اناس سواسية يرتبط أحدهم بالآخر ، وعليهم متابعة اصلاح الظلم المرتكب بحق أحــد منهم : « ان الاسرة الدولية تصاب بالظلم من كل نوع مها كان الفاعلون ومها كانت الضحايا » . وعلى الدول أن تسمح بحرية المرور واقامة الاجانب عندها ، شريطة ألا يضروا بالمحتلين القدامى ، وعليها أن تؤلف « مجتمعاً بشرياً » و « جمهورية الانسانية » .

وحاول القرن السادس عشر تعويض نمو الفردية بالمساواة في الحقوق والتضامن والاخاء .

الفصل العاشر

العلاقات الثقافية

لابد لنا ، قبل أن نغادر عصر النهضة في اوربة من القاء نظرة سريعة على التطور الفكري في مضمار التبادل الثقافي والصلات الفكرية بين أمم هذه القارة .

لامرية في أن البلاد الاوربية في العصر الوسيط كانت تسودها وحدة ثقافية تضم تحت لوائها النخبة الفكرية من مختلف هذه البلاد ، وكانت هذه النخبة تعل وتنهل من مصدر ثقافي واحد . والفضل في ذلك يرجع إلى وحدة الثقافة الأوربية الناطقة باللغة اللاتينية لغة العمل لدى جميع المثقفين . ولقد كان الاساتذة والطلاب ينتقلون من بلد لآخر دون أن يخامرهم شعور باغترابهم عن أوطانهم ، حتى إن هذه الوحدة الفكرية دفعت إلى القول بوجود « أممية جامعية » في اوربة العصر الوسيط .

وفي آخر القرن الثالث عشر اقترح الكسندر دورروز الناشر الالماني أن تعيش السلطات الثلاث الكبرى في ذلك الحين بأمن واتفاق تام وعلاقات طيبة . وذلك بـأن تختص البابوية بالكهنوت ، والمانيا بالامبراطورية ، وفرنسا بالمعرفة ووضع مبدءاً وعرفه كما يلي : ان هذه الوحدة الفوق قومية ، التي تحلم بها الافكار والعقول ، يجب أن يتلقى فيها التعليم كالسلطة الروحية والسلطة الزمنية ، دفعاً واحداً ، وأيد ، كما شاء ، التفوق الذي يعترف به الكل لجامعة باريس .

وابتداءً من القرن الخامس عشر تأممت الجامعات بالتدريج . وكان هذا الحادث الوجيه يرافق أو يسبق تشكل الدول القومية الكبرى خلال التطور العام في المجتمع الأوربي . وفي جميع المجالات كانت الشعوب تعرب ، غالباً وبدقة أكثر مما في الماضي ، عن ضميرها وعن اعتزازها بفرديتها ، وسيقوى هذا الاحساس والشعور بانتسابها إلى إيمان جديد ومعارضتها الكنيسة العامة القديمة .

ولم يسع الدول الحديثة التي أخـــذت تمتد إلى مختلف المرافق أن تترك ، خارجاً عن حوزتها ، هذه الاماكن السامية التي يتهيأ فيها الفكر ويشع . فقد كانت تتدخل فيها بصورة مفتوحة ، وعلى خلاف الماضي أخذت سلطتها تمتد على هذه المؤسسات أكثر من ذي قبل ، ولم تعد مجرد سلطة صادرة عن حق حماية بسيط . فقد انتزعت تدريجياً من الكرسي الأقدس السلطة التي كان يمارسها في السابق ، وتوالى التطور عبر القرن السادس عشر ، ومن الطبيعي أن يكون أكثر سرعة في البلاد المصلحة أي التي دخلها الاصلاح الديني البروتستانتي ، وذلك لأن الجامعات القديمة أصبحت تابعـــة تبعية كاملة للدولة . أما الجامعات الجديدة فقد أقر تأسيسها الأمير أو الدولة لتكون لها خادماً متواضعة . وهذه هي حال جامعة جونيف في سويسرا ، وحال جامعـــة ماربورغ ، وايينا ، وكونيغسبرغ في المانيا .

وهناك بادرة جديدة تدل على العصور الحديثة : ففي عام ١٥٣٤ زعم ملك بولونيا سيغيسموند أن يمنع رعاياه من الذهاب إلى الجامعات الأجنبية خوفاً من الهراطقة . واتخذ مثل هذا التدبير شارلكان في اسبانيا في عام ١٥٥٠ ، ولم يقبل أي استثناء عدا كوايمبر ونابولي .

ومهما كانت حركة التأميم الجامعي هذه عامـة ، فما لاشك فيه أن

النتائج ، التي ترتبت عليها لم تفصل بلاد أوربة فكرياً عن بعضها ، كما كانت تفعل مؤسسة الجمارك في الدولة في العصر نفسه . فهنالك عادات قديمة العهد وتقاليد لايمكن أن تزول بسهولة . يضـــاف إلى ذلك أن حب الاطلاع والحاجة إلى التعلم ورغبـة المفكرين في نشر أفكارهم ما كانت لتشعر بأي مضايقة على الحدود بين مملكة وأخرى . وبقيت اللغة اللاتينية لغة الثقافة وبالتالي لغة التعليم . وظل الطلاب يتوافدون من كل حـدب وصوب على الجامعات الـتي تتمتع بشهرة سابقـة أو التي أخذت تلبي حاجات العصر . وحافظت حياة التنقل على جميع ملامحها وجاذبيتها عند كل من أنهى دراساته وتخصص بمهنة الآداب . فمن ذلك أن ارزموس كان يضرب به المثل في المواطن العالمي في عصر النهضة ، فقد قضى حياته متنقلاً في البـلاد المنخفضة وانكلترا وفرنسا وألمانيا ، وايطاليا ، ولم يخرج على اللاتينية في كل كتاباته . بل ظل لها وفياً أميناً ، ولم يستخدم أي لغة من اللغات الحية المعاصرة .

ومن الممكن ان نذكر بالاضافة إلى ذلك أسماء أخرى لاتقف عند حصر . ولنذكر على سبيل المثـال غليوم بوستل الفرنسي . فقد كان مختصاً بدراسة الاغريقية والعبرية . جاب أنحاء أوربـــة الغربية معلماً وناشراً في باريس ، وروما ، والبندقية وفيّنـا ، وسافر إلى بلاد الشرق مرتين باحثاً عن المخطوطات الثمينة وعند عودتـه أخذ الأمراء الحماة للآداب والفنون يتنازعون مع الملوك على رعايته وتشجيعه .

وعندما أقر الملك فرانسوا الأول ، ملك فرنسا ، تعيين أساتـذة « مقرئين ملكيين » على هامش جامعة باريس ، كان يبحث عن هؤلاء الأساتذة في كل مكان من أنحاء المملكة كما كان يبحث عنهم في الخارج ، وسيكونون في المستقبل ، أعضاء « كلية فرنسا » . نذكر منهم بول كانوسّا

الملقب بـ « بارادي » ، وكان يهوديا صبأ إلى المسيحية . نشأ في البندقية ثم أصبح استاذاً للعبرية ؛ وبارتلمي لوماسّون أو لاتوموس ، وكان لوكسمبورغياً درس في كولونيا وتريف ولوفن وجعل يُدَرِّس اللاتينية ، وجان شترازيل الفلامـاندي وكان استاذ الاغريقية وقد خلف بطرس دانيس . وعندما ذهب بارادي حل محله أحد أبناء وطنه واسمه غويداسيريو وكان استاذاً في روما . وأنشىء كرمي خاص للفلسفة الاغريقية واللاتينية للأستاذ فيكو مركاتو الميلاني ، وكرمي الطب للأستاذ الفلورنسي غويدو غويدي أو « فيدوس فيدِّيوس » . ولم تشغل الكرامي كلها أو اكثرها بأساتذة فرنسيين إلا في الجيل الثالث أو الرابع .

وكان الانتقال من بلد لآخر ، ومن جامعة لأخرى ، يجري على مقياس واحد ويشترط فيه القرب عموما . ولم تكن ألمانيا لتجتذب جيرانها من الشرق أو الشمال فحسب ، بل ان اساتذة فرنسيين كانوا يختلفون إلى جامعات المنطقة الرينانية كجامعة فريبورغ للكاثوليكيين منهم ، وهيدلبرغ وغيرها أيضاً للبروتستانتيين ، وفي عهد الملك شارل التاسع تعاقد عمدة مدينة ستراسبورغ الحرة مع فقيهين شهيرين ، أحدهما بعد الآخر ، وهما فرانسوا بودُوَنْ وفرانسوا هوتمان لتدريس الحقوق . وفي البلاد المنخفضة الشمالية تأسست جامعة ليدن عام ١٥٢٥ لتنافس جامعة لوفن ، واكتسبت بسرعة شهرة عظيمة في عالم الاصلاح الديني ، وكان الكالفنيون الفرنسيون يتوافدون عليها بأعداد ضخمة ، حتى ان سكاليجر علم فيها في السنوات الاخيرة من حياته . وخرج الألمان من بلادهم ليكونوا على اتصال باللاتينية في جامعات فرنسا وايطاليا ، وكانوا كثراً في بداية العصر في كراكوفيا . وإذا لم يظهر الفرنسيون إلا نادراً في أوربه الشرقية فليس في ذلك ما يدل على أنهم غير مرغوب بهم . فبعد أن أنشأ ملك

بولونيا اتيين باتوري مجمعاً علمياً جديداً في كراكوفيا وجامعة فيلنا استدعى في العام ١٥٧٧ انطون موريه الفرنسي المختص بالدراسات الانسانية ، وكان يدرس في روما منذ سنوات طويلة ، وتمسك البابا غريغوار الثالث عشر به ليخدم عنده .

وهكذا كانت المبادلات الفكرية دائمة مستمرة بين الأمم ، وما فتئت العلاقات الثقافية وشيجة الاتصال بين بلدان اوربة . وكانت وحدة الثقافة والتعليم عند الطبقات العليا مرتبطة خلال عهد طويل بجاذبية الدراسات الانسانية الايطالية ، وأفضل من ذلك بالحضارة الايطالية .

وبينما كانت القوة الاسبانية والبرتغالية تقوم بفتح البحـــار والقارات البعيدة ، كانت ايطاليا ، بقوة فكرها ، تبسط امبراطوريتها على كل اوربة العتيقـة . وليس بالسهل تأليف تاريخ الفكر ، إذ لا يمكن في الغالب تتبـع مصيره بسهولة الا في مؤلفات خاصة تتعلق بماضي بـلد من البلدان ، أو تبعاً لعلاقات بلدين متجاورين . وحتى في ايطاليا ، التي تعتبر فريدة في نوعها ، مازال التأليف بحاجة إلى الكثير من الامور التي تجب الكتابة فيها ، فقد وصف جاك بوركاردت حضارة النهضة في ايطاليـا في كتاب كلاسيكي له ، ولم يتقدم أحد ليعالج عموماً توسع الفكر والحضارة الايطاليين في عصر النهضة .

لقد كانت ايطاليا القرن السادس عشر مركزاً ثقافياً قوياً يشع على أنحاء اوربة كلها . ولكن لم يكن فيها مركز واحد ، ولم تكن روما مركزاً رئيسياً . وفي الحقيقة ، كتب كردينال إلى ارزموس عـــام ١٥١٥ : « ان الكتاب من كل صقع يتزاحمون في المدينة الخـالدة ، وهي لهم وطن ومرضع وحامية » . وما ذلك إلا لأن البابا ليون العاشر كان يجتذبهم اليها ويحميهم ويرعاهم ويغدق عليهم الرواتب الضخمة ، ويؤمن

لهم الحياة العريضة ويحيطهم بكل رعاية وعناية . ومن كان يرحل إلى ايطاليــا في سبيل العلم كان يقف في فلورنسا وبولونيا وبادوا وفراره وبافيا ويفيد من كل منها ما يغذي أفكاره ويمتع نفسه .

لقد كانت بادوا أكبر جامعة في منطقة البندقية يرتادها الأجانب كثيراً . والفضل في ذلك يرجع إلى الوضع الخاص الذي تتمتع به جمهورية البندقية (جمهورية القديس مرقس) وإلى استقلالها الديني وعلاقاتها الدولية . والحق يقال إن الانسانية ألفت في البندقية المناخ الذي تحتاج اليه . فقد وجد فيها العلماء جميع التسهيلات التي يرغبون فيها لنشر النصوص القديمة . لقد كانت بلد الطباعين ، وأشهرهم آلدمانوتشه . فقد التف حوله الاغريق اللاجئون فجعل من البندقية أكبر موكز للهلنية . وكان ارزموس في ضيافته عام ١٥٠٨ ثم سار الابن بول مانوتشه على منوال أبيه ولعب الدور نفسه . وفي بادوا كانت النزعات الفلسفية المختلفة تعبر عن نفسها بحرية . وكانت لفلسفة ابن رشد ، أم الفكر « الخليع » فيها مكانة الشرف . وإذا كان الطلاب الألمان يؤلفون فيها منذ زمن طويل « قوماً » أكثر من غيرهم ، فليس ذلك لأن الطرق الرئيسية في أوربة الوسطى تنفذ منها إلا سهل البندقية فحسب ، بل لأن الحرية البندقية بصورة خاصة كانت تحمي غير الكاثوليك من الاكايروس ومن محاكم التفتيش .

ولقد كان سائداً في كل بلد من بلدان اوربة المتمدنة عالياً ان الاختلاف إلى جامعات شبه الجزيرة يعتبر شيئاً متمماً وضرورياً للتربية والعناية بها . فمن بولونيا كانت الشبيبة الدارسة تقبل على ايطاليا منذ القرن الخامس عشر ، حتى ان كوبرنيك ، بعد أن درس في جامعة كراكوفيا ، قضى ثماني سنوات في ايطاليا وعلم الرياضيات في روما .

وبعد ذلك بقليل تابعت الارستقراطية بكاملها هـذه الحركة وتركت كراكوفيا لابنـاء البورجوازيين . وكان كوشانووسكي ، أكبر شاعر بولوني في عصره ، تلميذاً في بادوا عند مارك انطوان موريه ، وتعلق به ، وأخذ برونسار في صحبته ، وقبـــل أن يعود إلى بلاده مر بباريس أملًا في أن يرى فيها معبوده ، رونسار . ثم ان جان لاسكو ، وهو الذي سيكون مطران غنيزن في المستقبل ومن تابعي الاصلاح الديني أتى الى بولونيا ، في ايطاليا ، مع أخيه ودرس فيها .

وكانت بولونيا معروفة بسائق التقليد بأنها أكبر جامعة في « القوانين » ، غير أن الادب الانساني ازدهر فيها كما ازدهر في كل مكان في بـداية العصر . وقد اختارها ارزموس مقاماً ليحسن معرفته بالاغريقية . وكان « قوم » الالمان و « قوم » البولونيين فيها كثراً وفي نزاع دائم .

وحذت هونغاريا حذو جيرانها البولونيين عندما أفقرت السيطرة التركية أو هدمت فيها مراكز الثقافة الرئيسية . فمن ذلك ان الأديب الانساني الذائع الصيت اندريه دوديث ، والفقيه الكبير جان زامبوك (أو سامبوك) كانا طالبين في بادوا ويجلسان جنباً إلى جنب مع مواطنها اتيين باتوري ، ملك بولونيا في المستقبل . وكانت بافيا تستقبل الطلاب الفرنسيين بكثرة وخاصة عندما ساد النفوذ الفرنسي في منطقة ميلانو . أما جامعة روما فكان طابعها على الاكثر ايطالياً محضاً ، وقد احتل مارك — انطوان موريه فيها بالتتالي عدة كرامي بعد أن علّم في باريس وتولوز وبادوا ، واصطدم ببعض الصعوبات من جهـة السلطات الحبرية ومن جـــهة جمهور الطلاب .

أما من انكلترا فلم يأت إلا طلاب منعزلون . وكان هؤلاء يأتون ليتعلموا الاغريقية ويتأملوا عن كثب المخطوطات القديمة الوافدة من الشرق

نذكر منهم ليناكر ، غروسين ، جون كوليت ، استاذ ارزموس ، والى جانب هؤلاء الابطال الاوائل في الهلنية يجدر التنبية باسم الكردينال بول الذي وجد هنا وطنه المختار ، وسره ان ألقي وعاش طويلا في بادوا .

وفي فرنسا أخذت الاسفار والدراسات فيما وراء الجبال طابع « الموضة » أكثر من أي بلد آخر . فلقد بدأ التعلق بايطاليا وسمائها وسكانها بعد ١٤٩٤ ودام طوال القرن كله ، وفي السنوات ١٥٨٠ أيضاً ذكر المؤرخ بابير ماسّون « هذا الشعب الايطالي العذب » وكيف قضى سني شبابه بين ظهرانيه . وربما يكون من المبالغة ان يزعم أن كل من كان لهم اسم في الآداب في ذلك العصر قد ذهبوا الى ايطاليا ليتغذوا ميدانياً بالقديم الموجود فيها ويصغوا إلى دروس مفسريه وشارحيه الأقوياء . وعلى أي حال قل من لم يقم بمثل هذه الرحلات . لقد كانت الحركة حركة جماهيرية دفعت الطبقات العليا على طريق الالب . وكان أعضاء البرلمانات يوفدون أبناءهم إلى بولونيا لتحضير شهادة الدكتوراه ، والاشراف يطلبون من ايطاليا ان تعلم أولادهم ما تجيده من الوان المعارف والرقة والظرف والرشاقة وآداب السلوك والحياة الاجتماعية .

وظلت الجامعات الايطالية زمناً طويلاً منهلاً عذباً لطلاب المعرفة ، بيد أنها لاقت بعض الأفول في الدور الذي تلا مجمع ترانت ، وذلك لان الكنيسة اتخذت بعض الاجراءات لتجنب عن الايمان بعض الاضرار . فمن ذلك ان مرسوماً حبرياً صدر في عام ١٥٦٥ وفرض على المرشحين للدكتوراه القسم بالدين . وبدأ الألمان يمتنعون . ولكن الفرنسيين لم يتخلوا الا ببطء عن هذه العادة التي تأصلت فيهم ودخلت عميقة في أخلاقهم . فقد أحصى مونتين في رحلة إلى ايطاليا عام ١٥٨١ ما يقارب

مائة طالب في بادوا . وجاءها فرانسوا دوسال ١٥٨٦ ايضاً ، ولكن ليبحث فيها عن دروس أخرى مغايرة لدروس الوثني اليين دوليه التي كان يعطيها قبل خمسين عاماً .

وهذا الشغف بايطاليا يبدو بوجه آخر . وذلك ان « الاقوام » التي كانت تعجب بالأمة الايطالية المختارة كانت تبادر اليها لتبحث عندها بين علمائها وفنانيها وخبرائها عن مرشدين ونماذج . فلقد كان من شارل الثامن ولويس الثاني عشر ، اثر حملاتها الايطالية ، أن اصطحبا معهما عند عودتهما عدداً من الصناع والفنانين والمطرزين والخزافين والرسامين والنحاتين وصناع الدروع والاسلحة والمهندسين والمعمارين وكثيراً من الفقهاء الواسعي المعرفة مثل لاسكاريس ، وهو اغريقي الأصل ، ويعتبر أعظم المختصين بدراسة الهلنية في عصر .

ومثل هذا الغزو غزو آخر كان عام ١٥١٥ بعد واقعة مارينيان ، حتى ان فرانسوا الأول ، قبل ان يفسح مكاناً للانسانيين ، بين الاساتذة الملكيين في عام ١٥٣٠ ، انتخب احدهم وهو تالياكارنو المعروف باسم تيوفرين ليكون مربياً لأولاده .

وكان الايطاليون يدعون من كل مكان تقريباً في اوربة لتعليم الآداب القديمة ، وفي الغالب ايضاً لتعليم الحقوق ، كما هي الحال في كراكوفيا وانغولشتات وهيدلبرغ . وفي جامعة بورج كان السيات الميلاني سلفاً الفرنسي الشهير كوجاس . وفي أوكسفورد اتى أليبريكو جانتيلي من فيروزه ليوسع مذهبه في حقوق البشر .

وبعد الحقوقيين والقانونيين والمهندسين المعمارين كان الدور للاطباء الايطاليين . فقد اصطحب فرانسوا الاول أحدهم معه ليكون طبيبه الخاص . وفي النصف الثاني من القرن نجد منهم في فينا ، في بلاط

الامبراطور ردولف ؛ وفي كراكوفيا بالقرب من اتيين باتوري ؛ وحتى في موسكو في خدمة بوريس غودونوف .

وساهمت ظروف سانحة بتقدم النفوذ الايطالي في بولونيا ، وذلك بزواج الملك سيغيسموند عام ١٥١٨ بونا سفورزا ، بنت دوق ميلانو . ووصلت الملكة الجديدة مصحوبة بعدد من ابناء وطنها الذين اعطوا البلاد لوناً خاصاً ، كما تلقى ابنه سيغيسموند اوغست في المستقبل تربية ايطالية بقدر تربيته البولونية . وجذب تسامح سيغيسموند اوغست إلى مملكته ايطاليين غادروا بلادهم لأنهم كانوا يبشرون بافكار مضادة للثالوث ومتجددة بالاريوسية ، نخص بالذكر منهم برناردينو اوشينو العـــالم باللاهوت ، وشيليوسوتزيني أو (سوتشن) المختص بالدراسات الانسانية ، والطبيب جان بلاندراتا ، وهو تلميذ عاق لكالفن . وكان الامم العظيم امم فوستو سوتشن ، ابن أخ شيليو . فقد عاش في ليون وفي بال . عندما كانت الاقامة في فلورنسا محرمة عليه ثم جاء إلى ترانسلفانيا ، حيث تأثر جان سيغيسموند زابوليا بآراء بلاندراتا ، طبيبه ، واطرح الزونغلية في سبيل « الوحدة الدينية » . وفي ١٥٧٨ شخص إلى كراكوفيا وقضى فيها سنواته الأخيرة . وهنا أيضاً وجد كنيسة مناوئة للثالوث وهي كنيسة الاخوة البولونيين وانبرى للدفاع عنها وعن قضيتها دون أن يدخل فيها . وعمل في نشر مذهب « الأخوة » الذي هو مذهبه ، هذا المذهب الذي يستحق فيما بعد امم السوشينية الذي ينكر الثالوث الأقدس ولاهوت المسيح .

وفي الآداب ٠ر تقليد الأشكال والاساليب الايطالية الخاصة في كل مكان . وفي هذا المقام يجب أن نذكر امم فرنسا ايضاً . وكان بترارك في نظر الشعراء النموذج الذي لا يضاهى . فقد قلد ، واكثر من ذلك قلد من استغلوا بعده عبقريته . وكان مارو ، دوبلليه ، بايف ،

رونسار ، على درجات متفاوتة من أنصار بترارك وتلاميذه . وكذلك راجت قصص بوكاشيو . فقد كان كتابه « ديكاميرون » نموذجاً لمرغريت نافار في كتابها هبتاميرون . واستحوذت ملهاة الفن منذ بداية القرن على افئدة الفرنسيين . واستقدمت كاترين دومديتشي جيوشاً ايطاليـة وادخلتهم في البلاط ابتداء من ١٥٧٤ . ومن ثم أصبح بانتالون ، ترّاني ، آرلوكن نماذج معروفة وحية كما كان المعلم باثولن منذ زمن قليل . ولقـد كانت ملهاة الفن مليئة بالارتجال والهزل فلم تمر في قائمة الكوميديات الفرنسية ، وظلت مادة مستوردة . غير أن أنواعاً أخرى قريبة أتت من ايطاليا في الوقت نفسه ، مثل ملهاة الرواية ، ففسحت مجالا لترجمات وتكيفات وساهمت في تجديد مسرح الملهاة .

وفي الفلسفة تجددت الافلاطونية على يد مارسيل فيتشينو في اكاديمية فلورنسا في القسم الأخير من القرن الخامس عشر ، وألهمت لوفيفرديتابل بالذهاب اليها ليشرب روحه بها ، وكذلك مرغريت نافار . وقد ارتبط أوائل العقلانيين الفرنسيين ، الخلعاء ، بمدرسة بادوا وبعميدها بومبونازي ومنافسيه . أما ما كيافيلي ، اشهر ايطاليي عصر النهضة ، فقد ظلت شهرته كريهة زمناً طويلا ، إذ كان ينكر القوانين الالهية ويفسد الامراء ، ولذا لا ينسب اليه تأثير حقيقي إلا في القرن السابـع عشر على أقرب وقت .

وكان في اسبانيا ، في العصر نفسه كفرنسا ، محبون للايطالية . فقد أقاموا كلهم قليلا أو كثيراً في ايطاليا ، وخاصة في نابولي . وهم مؤلفو قطع مسرحية أو شعراء مثل غارتشيلازو دولافيغا ، الذي يسميه معاصروه بترارك اسبانيا . وقد قتل وهو في سن الثالثة والثلاثين من عمره ، في جيش شارلكان اثناء غزو مقاطعة بروفانس .

وتأثر الكتاب الانكليز بسحر ايطاليا بدرجة أقل من غيرهم . وكان لبترارك ، إلى جانب فيرجيل ، منذ عصر هنري الثامن ، متحمسون ومعجبون . وفي النصف الثاني من القرن ازدهر شعر الرعاة ، وظهر فيه تقليد بترارك وفيرجيل معاً ، وربمــا أكثر من ذلك تأثير شاعر معاصر وهو سبانيولي الملقب باسم مانتوان . وتتمتع قصائده بشهرة فائقة . وكانت التقاليد الأيطالية في ذلك الحين تتنافس مع آثار المؤلفين من أبناء البلاد الأصليين . وقد جرت العادة عند الطبقات العليا أن تتمم الاقامه بفرنسا برحلة إلى ايطاليا . ودخلت هذه العادة منذ عهد طويل في الاخلاق والعادات .

لاشك ان ايطاليا عصر النهضة كانت عظيمة التأثير في اوربة وتمتعت بسبب ذلك بجاه عظيم ، ولكن هذا لم يمنع من اشعاع فرنسا في اوربة أيضاً . ومن الممكن أن يكون اشراق فرنسا قد خفف نوعاً ما من اشراق ايطاليا ، ولكن إلى حين . وفي الحقيقة لم يكن هنالك تنافس بين حضارتين ، وبــين ثقافتين ، لأن فرنسا كانت أول من تأثر بمدرسة ايطاليا .

لقد أظهرت العبقرية الفرنسية قوة توسعها على صعيد الدين كما في غيره بشكل لامع ، لأن الاصلاح الكالفني ، وإن أتى متأخراً بالنسبة إلى اصلاح مارتن لوثر ، ويمكن أن يبدو وليداً له ، فقد فاقه ووجد نفسه في تنافس مباشر معه . وكانت الاتجاهات العامة لتوسعه هي نفس الاتجاهات التي دمغت توسع الحضـارة والفكر الفرنسيين . وكان من الطبيعي أن يلقى مقاومة أكثر في المانيا بعد أن تأصلت اللوثرية بقوة لاتقاوم في أرض نبتت فيها وتتفق مع بعض التطلعات العميقة للامـة الألمانية . على أن البلاد الألمانية بمجموعها وإن اعتبرت صخرة مقاومة

الكالفنية ، فلم تناهضها بكتلة لايمكن النفوذ منها . وقد استطاعت الكالفنية أن تنزلق في غربي المانيا عن طريق نهر الموزيل في وادي الراين الاوسط ، وتفتح بالاتينا ، وستعمل منها ، بعد منتصف القرن ، قلعة من قلاعها الحصينة . وستهدد منها ، خلال فترة من الزمن ، مواقع الكاثوليكية في الابرشيات المجاورة ، وسترسخ قدمها على الاقل بقوة في دوقيه كليف .

وإذا وضعنا جانباً الكتلة الجرمانية مع ملحقاتها من البلاد الاسكانديناڤية فقد انتشرت الكالفنية في كل أقسام اوربة التي مرت فيها عدوى الاصلاح . أما ميدان عملها فقد لمع في البلاد المتاخمة لألمانيا الشرقية حيث تلتقي التأثيرات الجرمانية دوماً بمقاومات العاطفة القومية التشيكية والبولونية أو الهونغارية . ولقد تأثرت هونغاريا بشكل أعمق بالكالفنية أكثر من سائر البلاد السلافية . وفي الربع الثاني من القرن ، في الوقت الذي جاء فيه الاتراك ، كان لوثر البادىء فيها بفتوحاته . وفي السنوات التالية لعام ١٥٦٠ كف زعماء الحركة عن البحث عن الهامهم في فيتامبرغ واتجهوا صوب جونيف . وفي العام ١٥٦٩ انعقد مجمع عام وتبنى مذهباً رسمياً للكنيسة الجديدة وهو المذهب الذي كتبه تيؤدور دوبيز بيده ، وبقيت ترانسلفانيا وحدها أمينة للوثر لأنها كانت ملتقى جاليات ساكسونية هامة .

وفي بلاد جان هوس ، في بوهيميا ، وجد الاصلاح أرضاً ممهدة . فقد تأصلت اللوثرية فيها منذ وقت مبكر ، واستطاعت أن تحافظ على أكثر مواقعها أمام الكالفنية الغازية . وفي بولونيا ، عاكست نجاحها ابتداء من منتصف القرن ، تشبثات الملكية القومية التي كان يوحي بها اليسوعيون . وكان تأثير الكاثوليكية فيها أعظم على اللوثرية من منافسة المرطقة الجونيفية .

وفي الغرب ، في البلاد المنخفضة الهابسبورغية تأثرت البلاد الشمالية فيها بالتأثيرات اللوثرية منحدرة من مجرى نهر الراين . وكانت انفرس ، الميناء التجاري العالمي الكبير ، قبيل منتصف القرن ، مركزاً للوثرية ، ولكن الكالفنية ، في الوقت نفسه ، أتت من الجنوب وظهرت وتغلبت بسرعة على منافستها . فقد قام رعاة تكونوا في لوزان أو في جونيف وفتحوا البلاد بصورة منظمة ، وفي الوقت الذي كانت تحكم فيه ماريا تيودور كان يساعدهم منفيون من العصر السابق تأثروا في انكلترا بكالفن ، واضطرهم رد الفعل الكاثوليكي أن يعودوا إلى بلادهم . وحوالي العام ١٥٦٠ يكاد ظفر الكالفنية أن يكون تاماً .

وتبنت انكلترا اصلاحاً من نوع خاص ، لا لوثريا ولا كالفنياً ، وهو اصلاح هنري الثامن الذي عدلته اليزابث قليلاً . وحمت نفسها طويلاً من الهرطقة واكتفت بأن تكون منشقة عن روما . ولو حق اللوثريون وأحرقوا حتى وفاة هنري الثامن . وفي عهد ادوارد السادس اتجهت البلاد نحو أشكال جذرية للاصلاح القاري . وأوحت اللوثرية بتدابير السنوات ١٥٤٧ — ١٥٤٩ وخاصة باستعمال اللغة القومية في حفلات الصلاة والعبادة . ثم استنفدت الديانة اللوثرية قوة جذبها واستعيض عنها بالديانة الكالفنية . وابتداء من السنوات المتوسطة للقرن كفت فيتانبرغ عن منافسة جونيف في بريطانيا . وفي ايكوسيا (سكوتلانده) رسخت قدم الاصلاح بشكله اللوثري أولاً ، ثم بشكله الكالفني . ولكن نجاح الكالفينية كان فيها أتم بكثير مما في انكلترا منذ أن بدأ تبشير جون نوكس الذي ذهب إلى جونيف وقضى فيها عدة سنوات . وطالبت كنيسة ايكوسيا المصلحة ، الكنيسة المشيخية ، برعاية كالفن وانتظمت على نمط كنيسة جونيف .

وإذا وضعنا القضايا الدينية جانباً ، فإن تأثير فرنسا الفكري والمعنوي ظل أساسياً في بلاد الشمال والشرق ومارس نفوذه كالمعتاد . غير أن موجة القومية ، التي صحبت الاصلاح في ألمانيا ، أثارت بحق رد فعل ضد تدخل الاجنبي بأي شكل من الاشكال في حياة الأمة ، وأقامت الرأي ضد « ولش »ايطاليا ، عملاء كنيسة روما . ولم تسجل الايطاليانية في البلاد الالمانية ، وعلى الاقل في البلاد المصلحة ، نفس الظفر الذي لاقته في البلاد الاخرى . ولكن وجاهة الادب الفرنسي ، ووجاهة حياة المجتمع الفرنسي ، لم يتأثرا بشكل رصين . فقد تمتعت « اماديس » بترجمتها الفرنسية برواج عظيم . حتى قيل بأنها كانت سبباً في غنى أصحاب المكتبات في ألمانيا . وفي فرنسا بدأت « جولة الفرسان » كما يسميها الألمان ، ويقصد بها رحلة الممارسة والتدرب على الأخلاق المهذبة التي لاغنى عنها للشاب الكريم النسب الذي يتطلع إلى حياة الشرف ليكون فارساً .

واستمر جميع الجرمانيين ، من ألمان وهولنديين واسكانديناڤيين ، بالاختلاف إلى جامعات ضفاف نهر اللوار في فرنسا حيث كانوا يدرسون الحقوق الرومانية التي أخرجت من باريس . ففي بورج واورلئان كان « القوم » الجرماني أكثر عدداً من غيره من الأقوام . وفي عهد هنري الثاني حصل على امتياز بممارسة العبادة المصلحة بحرية . وكان يفد إلى مونبليه طلاب من جميع الأنحاء لكلية الطب التي كانت تتمتع بشهرة واسعة في أوربه . وكان الفقيه الفرنسي الكبير جان بودن ظلاب جرمانيون .

وفي السنوات الأخيرة من القرن نجحت الاكاديمية البروتستانتية في سومور وكانت تستقبل الطلاب الآتين من الشمال .

أما الانكليز فلم يختلفوا إلى الجامعات الفرنسية منذ حرب المائة عام . غير أن بعضهم ، ممن تثقف ثقافة جيدة ، كان يتعلم اللغة الفرنسية ويمارسها . وفي أول القرن عرفت الهلنية في بلادهم دوراً لامعاً جداً . فعن طريقهم عرف ارزموس ايطاليا القرن الخامس عشر ، ولكن الحركة لم تدم لأن تذوق الجدل اللاهوتي أخذ بعد قليل يضر بدراسة الآداب القديمة . وعندما قام جورج شابمان ، في آخر القرن ، بترجمة هوميروس ، وهي الترجمة الانكليزية الأولى ، كان يشتغل على الأصل وعلى الترجمة الفرنسية التي قام بها الانساني الموغنوني جان دوسبوند .

وفي ايكوسيا كانت الصداقة الفرنسية تقليداً قديماً ، وكانت العلاقات الثقافية وثيقة جداً وأخذت جميع الاشكال . ففي جامعة اورلئان ، بورج ، بواتيه ، مونبليه ، كان يوجد « قوم » ايكوسي . حتى ان بعض الطلاب ممن حصلوا على درجاتهم العلمية أخذوا يفيدون منها في هذه الجامعات ، وعندما ظفر الاصلاح في ايكوسيا في النصف الثاني من القرن ، ظلوا كاثوليك متعلقين بديانتهم . وكان منهم مربون مشهورن . فقد استدعى اليسوعيون غليوم باركلي إلى جامعتهم في بونت ـ آ ـ موسّون ليدرس فيها الحقوق . وفي آخر حياته شغل كرسي الاستاذية في جامعة آنجة . واختص آدم بلاك وود بمهنة القضاء ، وظل أكثر من عشرين عاماً مشاوراً قضائياً في بواتيه . وكان أشهر هؤلاء الفرنسيين ـ الايكوسيين جورج بوشانان ، الذي عرفه مونتين وهو تلميذ ، استاذاً في كلية غوين

في بورد . فقد قام بعدة مهام تربوية ، وقضى بعض الوقت في جامعة كوايمبر البرتغالية ثم عاد إلى ايكوسيا حوالي العام ١٥٦٠ . واشتغل أميناً مترجماً لدى ماري ستوارت ثم انقطع عنها بعد مقتل دراللي وانتظم في صف خصومها وعندما هربت ، كان مكلفاً بتعليم جاك الذي سيكون ملكاً في المستقبل .

وكان اسم رونسار أشهر جميع الأسماء الكبرى التي لمعت في الادب الفرنسي في القرن السادس عشر ، وكان معروفاً أكثر من غيره في الخارج . وظهر غناؤه جديداً حتى قلد في كل مكان . وخلف الرونساريون البترار كيين . فمن ذلك أن الشاعر تل ، صديق فرنسا ، الذي أخذ اسم ميليسوس اليوناني . ترجم أشعاره إلى الألمانية وأخذ عنه شكل ومادة الاشعار التي ينظمها . ولم يستعمل جان كوشانووسكي « رونساربولونيا » دروس اللاتينية ، التي أخذها وهو شاب ، إلا ليحس ويحب بصورة أفضل الشاعر الفرنسي الذي مافتىء يحترمه استاذاً مفضلاً على غيره .

وإلى جانب رونسار اشتهر الشاعر الغنائي دوبارتاس شهرة فائقة مدهشة في عصره فقصيدته الكبرى « الأسابيع » أو « الخلق » ملحمة من الهام ديني ، وأثر لبروتستانتي معتدل ، وقد رأى فيها الاجانب من أبناء دينه ملحمة من أفضل نتاج العبقرية الفرنسية وقد ترجم دوبارتاس وقرىء ووسع في كل البلاد المصلحة كلها وخاصة في هولانده وانكلترا . فبين ١٥٨٤ - ١٦٤٠ طبعت آثاره أربعين طبعة انكليزية . واستوحى الشاعر ميلتون من « الخلق » بعضاً من إلهامه وضمنه في « الفردوس المفقود » .

أما الناثرون الفرنسيون فلم يلقوا في الخارج الرواج الذي لاقاه الشعراء . فقد طبعت آثار رابليه طبعاً رديئاً في جميع البلاد اللاتينية ،

واتهم بضرب الاحترام الواجب نحو رجال الدين والتمهيد للهرطقة . غير أن هذه النزعات نفسها كانت مدعاة لتقديره ، ولكن آجلا ، في انكلترا وألمانيا . وبدأ تأثيره يظهر في القرن السابع عشر مثل تأثير مونتين الذي ترجمت آثاره لأول مرة إلى الانكليزية عام ١٦٠٣ .

بينا إيطاليا في أوج نفوذها وفرنسا المستمرة في توكيد قوة توسعها على جميع دروب الفكر ، كانت اسبانيا القرن السادس عشر وجهاً مشرقاً ومع ذلك فلم تطمح بالصف الذي تخولها إياه في الميادين الاخرى شجاعة مغامريها الفاتحين وتطلعها إلى التفوق السياسي والعسكري وتفانيها المثالي في سبيل الذود عن الدين القديم .

لقد أسهمت اسبانيا في حياة الفكر الدولية ، بيد أنها أخذت عن البلاد المجاورة أكثر مما أعطت . وكانت جامعاتها العديدة تضم زبائن ايبريين خاصة ، ولم يكن للتعليم الذي تعطيه قيمة عامة . ومع ذلك فإن اسم فرانشيسكو فيتوريا كان معروفاً في الغرب الاوربي كله . كان دومينيكاً واستاذاً للاهوت في جامعة سالامنكا من ١٥٢١ إلى ١٥٤٦ . وكان شارلكان يستشيره ، وكذلك استشاره هنري الثامن في انكلترا أثناء طلاقه ، والبابا نفسه بهذه المناسبة . وهو وان لم يكن حقوقياً فقد استحق أن يعتبر مؤسساً من مؤسسي الحق الدولي الحديث .

أما الكتاب الاسبانيون فقد كونوا مكانهم تدريجياً ، ثم أخذ يتسع حتى منتصف القرن السابع عشر في الادب الاوربي ، ولنقل ، على وجه الصحة ، في الادب الغربي ، وذلك لان نفوذهم لم يشع كاشعاع الفرنسيين والايطاليين حتى الحدود الشرقية للقارة . فهو محسوس خاصة في فرنسا بسبب العلاقات الوثيقة المعقودة في السلام وفي الحرب بين الاسبانيين والفرنسيين ، من جنود عارض تنافس سادتهم فيما بينهم في

جميع ميادين القتال ، أو من رجال الأعمال الذين يعاونون في نانت أو في روان وقادس أو في اشبيلية في تموين العالم الجديد . هذا إلى تيار المواصلات الدائم الذي ساعد عليه أمر فرانسوا الاول في مدريد ، والذي توطد في الربع الثاني من القرن بين فرنسا واسبانيا على جانبي البيرينه . كما نمت معرفة اللغة القشتالية في بلاط آل فالوا وكثرت الترجمات . على أن ما يلفت نظر الفرنسيين بصورة خاصة هو أعمال الخيال ، وأولها رواية الفروسية التي تتمم تقاليد آماديس غاليا ، ثم الرواية الريفية ونموذجها الكامل هو ديانا لمؤلفها جورج مونتمايور . ومالبثت دون كيخوته لسرفانتس ، التي ظهرت في عام ١٦٠٥ ، ان عرفت في فرنسا .

وربما لم يتمتع مؤلف بشهرة واسعة في الخارج أكثر مما تمتع انطونيو غويفارا . فقد ترجمت آثاره الأساسية إلى الفرنسية وخاصة الرواية التعليمية ، ساعة الأمراء ، والرسائل المألوفة وازدراء البلاط . ومع ذلك فان جمهور المحبين للدراسات الايطالية لم يعارض بمحبي الدراسات الاسبانية الا في القرن السابع عشر في عصر استريه . وكان برانتوم الغاسكوني شغفاً بجيرانه الاسبانيين وحساساً بخاصة بمناقبهم العسكرية .

واهتمت انكلترا في وقت متأخر بهذه الآثار الأدبية نفسها . فقد كثر الاقتباس عن اسبانيا خاصة في عصر الايطاليانية الظافرة في عهد الملكة اليزابث . وكان لروايات الفروسية الاسبانية جمهور غفير ، ولقي فيها نوع روايات المغامرات مقلدين عديدين ، حتى كثر الكلام عن أدب حقيقي انكليزي مغامر . كما ساهم المسرح الاسباني من درامة وملهاة في تغذية خيال شكسبير .

★ ★ ★

جميع ميادين القتال ، أو من رجال الأعمال الذين يعاونون في نانت أو في روان وقادس أو في اشبيلية في تموين العالم الجديد . هذا إلى تيار المواصلات الدائم الذي ساعد عليه أسر فرانسوا الاول في مدريد ، والذي توطد في الربع الثاني من القرن بين فرنسا واسبانيا على جانبي البيرينه . كما نمت معرفة اللغة القشتالية في بلاط آل فالوا وكثرت الترجمات . على أن ما يلفت نظر الفرنسيين بصورة خاصة هو أعمال الخيال ، وأولها رواية الفروسية التي تتمم تقاليد آماديس غاليا ، ثم الرواية الريفية ونموذجها الكامل هو ديانا لمؤلفها جورج مونتمايور . ومالبثت دون كيخوته لسرفانتس ، التي ظهرت في عام ١٦٠٥ ، ان عرفت في فرنسا .

وربما لم يتمتع مؤلف بشهرة واسعة في الخارج أكثر مما تمتع انطونيو غويفارا . فقد ترجمت آثاره الأساسية إلى الفرنسية وخاصة الرواية التعليمية ، ساعة الأمراء ، والرسائل المألوفة وازدراء البلاط . ومع ذلك فان جمهور المحبين للدراسات الايطالية لم يعارض بمحبي الدراسات الاسبانية الا في القرن السابع عشر في عصر استوريه . وكان برانتوم الغاسكوني شغفاً بجيرانه الاسبانيين وحساساً بخاصة بمناقبهم العسكرية .

واهتمت انكلترا في وقت متأخر بهذه الآثار الأدبية نفسها . فقد كثر الاقتباس عن اسبانيا خاصة في عصر الايطاليانية الظافرة في عهد الملكة اليزابث . وكان لروايات الفروسية الاسبانية جمهور غفير ، ولقي فيها نوع روايات المغامرات مقلدين عديدين ، حتى كثر الكلام عن أدب حقيقي انكليزي مغامر . كما ساهم المسرح الاسباني من درامة وملهاة في تغذية خيال شكسبير .

★ ★ ★

القسم الثاني

البلاد الآسيوية

الفصل الأول

المشرق العربي

تعرضت البلاد العربية فاتحة العصور الحديثة . بعد اكتشاف امريكا وطريق الهند ، للتوسع الاوربي . فقد أخذ البرتغاليون يهددون الشواطيء الجنوبيه والشرقية من آسيا العربيـــة ، بينما استطاع الاسبانيون أن يجلوا العرب من بلادهم ، وأن يفيدوا من المنازعات الداخلية بين أمراء المغرب العربي ، في افريقية ، ويشيدوا على سواحله الحصون والمواقع ليتخذوها من بعد منطلقاً لعدوانهم على داخل البلاد .

ولقد كانت أولى هذه الحملات عندما وصل فاسكودوغاما إلى المحيط الهندي وأخذ يهاجم السفن العربية ويفرض الحصار على مدخل البحر الاحمر والخليج الفارسي ليسد الطريق في وجه السفن العربية ويحول دون وصول التوابل إلى موانيء بلاد الشام ومصر . ثم توالت الحملات تعمل في الموانئ العربية الحرق والنهب والدمار . ففي البحر الأحمر توصل البرتغاليون إلى جدة ثم قفلوا راجعين بعد أن نهبوا قمران وأحرقوا زيلع وقصفوا عدن بالقنابل واستولوا على بعض السفن العربية . وفي مدخل الخليج الفارسي قصد اسطول برتغالي جزيرة هرمز وطالب سيدها بدفع جزية سنويه ، إلا أن هذا أعلن ولاءه لشاه إيران للخلاص منهم . ولم يكن البرتغاليون في وضع يمكنهم من اغضاب الشاه بعد أن

حاول التقرب منهم وتحالف معهم عندما بدا له أن زحف الأتراك العثمانيين على البلاد العربية وإيران أصبح قريب الوقوع .

وكانت معظم الدول العربية في آسيا مع مصر تحت حكم السلطان المملوكي قانصوه الغوري (١٥٠٣ — ١٥١٦) ، وقد استنجد به الأمراء العرب ، فلم يكتم مخاوفه من هذا الخطر الاوربي الجديد الذي أخذ يتهدده ويحاول القضاء على مورد من موارده . وماوسعه الا أن شرع ببناء اسطول لمحاربة البرتغاليين وإعادة فتح طريق الهند ، وفي العام ١٥٠٨ خرج اسطول من ١٩ سفينة مزودة بالمدافع واتجه صوب الهند ، وقد أصاب بعض النجاح في لقاء البرتغاليين ، ولكنه غلب على أمره في العام التالي . وعاد البرتغاليون يردون على التحدي العربي ، ويعملون في الجزر والمدن المحاذية لشواطيء الجنوب العربي النهب والتخريب .

ثم دخل النزاع بين العرب والبرتغاليين في طور جديد بعد أن استجاب السلطان العثماني لنداء قانصوه الغوري وأمده بالاخشاب لبناء السفن وأرسل إليه مدافع وأجهزة وخبراء . ولكن فرسان القديس يوحنا في مالطة تعرضوا لهذه الشحنة ، فعززها السلطان العثماني بشحنة أخرى . ووصلت الحملة المصرية المملوكية إلى عدن عام ١٥١٦ ومالبثت أن انصرفت عن غايتها الأصلية إلى احتلال اليمن .

ولاقى التجار العرب من هذا العدوان البرتغالي تدهوراً في أوضاعهم الاقتصادية بعد أن خلصهم البرتغاليون احتكار التوابل . وكان لهذا البوار أثره على المدن العربية كجده ودمياط والاسكندرية ، ومثل ذلك على التجار البنادقة ، الذين كانوا يشاركون العرب في احتكار تجارة التوابل ، وفقدوا الأمل في استعادة أهمية طريق التوابل كما كان في السابق .

ومهما يكن فقد دلت الأحداث على أن البلاد العربية في ذلك الحين

كانت تشكو ضعفاً مزمناً ألم بها بنتيجة الغارات المختلفة التي كانت تنتابها بين حين وآخر ، فضلاً عن أن السلطان قانصوه الغوري قد كشف أمره وبدا ضعفه فكان مطمعاً لجيرانه من الايرانيين والعثمانيين بالاضافة إلى البرتغاليين . وقد بدأت في ذلك الحين قوتان ناشئتان تظهران للوجود وهما قوة شاه إيران اسماعيل الصفوي وقوة السلطان سليم العثماني ، وكان الشاه قد دخل في مفاوضات مع البرتغاليين للتحالف ضد العرب والعثمانيين . وما وسع السلطان سليم إلا أن تدخل في الأمر وتهيأ لفتح البلاد العربية قبل أن تكون لقمة سائغة في يد الأوربيين أو ايران .

وتجمل الأسباب التي دعت السلطان العثماني لهذا الفتح بما يلي :

١ ـ حالة البلاد العربية عامة وما تعانيه من ضعف مزمن بنتيجة الفتوحات والغارات المتناوبة التي زعزعتها وتركتها في حالة خور عام .

٢ ـ سياسة الدولة الصفوية في إيران ومحاولة نشر المذهب الشيعي في المشرق العربي .

٣ ـ زحف البرتغاليين الكاسح على الشواطيء العربية وتهديدهم وسدهم منافذ البحار في وجه التجار العرب وقطعهم سبل أرزاقهم وحياتهم .

٤ ـ السباق الدولي الذي دعا السلطان سليم إلى الاسراع باحتلال البلاد العربية قبل أن يأتي إليها منافسوه ويحتلوها قبله .

٥ ـ الرابطة الدينية الاسلامية التي تربط معظم سكان البلاد العربية بالأتراك العثمانيين . ولاشك في أن السلطان سليم قد استغل هذه العاطفة لصالحه ، وقام بدعاية قوية هيأت الأفكار لقبول حكمه وفتح الأبواب في سبيله دون مقاومة .

أما السبب المباشر للفتح العثماني فكان في توتر العلاقات بين العثمانيين والمماليك اثر استيلاء السلطان سليم العثماني على أمارة من أمارات الحدود

المحايدة الواقعة إلى الشمال الغربي من حلب . وقد طالب قانصوه الغوري بجلاء العثمانيين عنها فلم يفلح . وفي صباح يوم الأحد الموافق ٢٤ آب ١٥١٦ قررت معركة مرج دابق مصير البلاد الشامية بانهـــزام الجيش المملوكي وسقوط الغوري صريعاً في المعركة .

سورية . – ثم أوغل العثمانيون في بلاد الشام يتعقبون جيش المماليك والمدن تسقط في أيديهم واحدة بعد أخرى ، وهكذا فتح السلطان سليم حلب وحماه وحمص ودمشق ، وجعل الخطباء يخطبون باسمه في الجوامع. ثم وفد عليه أمراء الشام يقدمون طاعتهم وولاءهم .

وشرع السلطان سليم بتنظيم البلاد ، وكلف لجنة لمسح الأراضي بغية تقدير الضرائب وجمعها ، ونشر المذهب الحنفي الذي أصبح مذهباً رسمياً .

لقد كانت سورية في عهد المماليك مقسمة إلى منـاطق إدارية تعرف باسم « نيابات » يحكم كلاً منها نائب عن السلطان المقيم في مصر . وعندما فتح العثمانيون البلاد لم يغيروا كثيراً من أنظمتها . غير أن السلطان سليم ضم عدداً من النيابات إلى بعضها وجعل منهـا ولاية مثل ولاية أو ايالة الشام ، وتشمل البلاد السورية تقريباً وعاصمتها دمشق . وعين لها جان برد الغزالي . وكان هذا الأخير نائب السلطان المملوكي في حماه . ولكنه خرج على المماليك وانضم إلى السلطان سليم في فتح مصر وأظهر ولاءه للسلطان العثماني باعتقال الأمراء التنوخيين الذين وقفوا بجانب المماليك ، ووضعهم في سجن دمشق وأعمل السيف ببعض زعمائهم . وأفاد من سلطته الواسعة بعد وفاة السلطان سليم وخرج عن طاعة الدولة العثمانية وأعلن نفسه سلطاناً على سورية باسم « الملك الأشرف » وشجع والي مصر خير بك أن يحذو حذوه ، وتوجه إلى حلب فلم يستطـع فتحها ، وقابله جيش السلطان سليمان فقضى على ثورته ، وقتل الغزالي في القابون بالقرب من دمشق بعد

خراب مايقارب ثلث دمشق من ضياع وحارات وأسواق بسبب الصدام مع الغزالي .

ثم بدأ السلطان سليم بتنظيم سورية فقسمها الى ثلاث ولايات : حلب ، دمشق ، طرابلس . واتبع بكل ولاية عدداً من السناجق أو الألوية . وضمت دمشق عشرة سناجق من بينها القدس وغزة ونابلس وتدمر وصيدا وبيروت ؛ وحلب تسعة سناجق ؛ وطرابلس خمسة سناجق .

وكانت مناطق لبنان التي يسكنها الدروز والموارنة تتمتع بوضع خاص وتحكمها أمر يتوارث أفرادها الحكم . وكان في جملة الأمراء الذين أتوا لمقابلة السلطان سليم في دمشق ، بعد انتصاره في مرج دابق ، الأمير فخر الدين الأول المعني أمير الشوف ، رئيس وفد أمراء الجبل .

وقد أقر السلطان سليم أمراء لبنان في مناطقهم واعترف بالأمير فخر الدين المعني أميراً على الجبل اللبناني ومنحه لقب « سلطان البر » .

وكانت علاقة الدولة العثمانية بهؤلاء الأمراء عن طريق ولاة دمشق أو مباشرة . وكانوا يتمتعون باستقلال واسع ، حتى انهم كانوا يعقدون المعاهدات مع الاجانب ، فضلاً عن جباية الضرائب وعدم التزامهم بمساعدة السلطان عسكرياً .

وبالاجمال لقد أصبحت سورية بعد الفتح العثماني في مأمن من الغزو الآتي اليها من الشمال أو الجنوب أو الشرق بعد أن أصبحت البلاد التي تحدق بها عثمانية . ولكن الفتن الداخلية لم تنقطع في سورية .

وقد اتصف حكم العثمانيين في سورية بتعدد الولاة وكثرة الفتن في داخل الولاية ، والحروب بين الولاة وسائر الأمراء .

وشهد تاريخ سورية في هذا القرن ولاة عرفوا بصلاحهم وأعمالهم الجيدة . ونخص بالذكر خسرو باشا ، ومحمد باشا ، وبهرام باشا من ولاة

حلب ، ولاتزال الجوامع والمدارس الفخمة في حلب الشهباء تحمل أسماءهم . ومنهم لالا مصطفى باشا الذي ولي على دمشق عام ١٥٧٣ وظل فيها خمس سنوات وعرف عنه أن كان صاحب فضل وحسنات وعمر الخان والحمام بدمشق تحت القلعة .

ومنهم درويش باشا صاحب جامع « الدرويشية » وخان الحرير بدمشق كما عرف من الولاة السفاكين والي حلب حسين باشا المتوفى ١٥٤٢ . وسنان باشا فاتح اليمن وصاحب الجامع الذي تم انشاؤه بدمشق عام ١٥٩٠ . وقد ترك مئات الألوف من الدنانير . ويذكر المؤرخون الأتراك أن ماقام به سنان باشا من بناء الجوامع والمدارس والتكايا والخانات تقدر نفقاته بمليوني ليرة ذهباً . وأن ماعمره من معاهد ومباني في الأقطار التي نزلها تناهز المائة .

وكانت الدولة في القرن السادس عشر وكذلك في القرن الذي يليه منهمكة بالفتوح ومحاربة الدول الأجنبية وبقمع الفتن الأهلية ، بينما تعاني البلاد من ظلم الجند والولاة ومن صغار الأمراء من أهلها ومن كبار أصحاب النفوذ .

أما في لبنان فقد توطد حكم المعنيين في وسطه وجنوبه بعد الحكم العثماني ودام حكم السلالة المعنية حتى عام ١٦٩٧ ، وعرف تاريخ لبنان في هذا القرن حوادث ومنازعات مختلفة بين أمراء الجبل وأحياناً بينهم وبين الولاة في دمشق ، ومع ذلك فقد عرف لبنان نوعاً من الاستقرار النسبي أكثر من سورية تحت حكم الولاة .

ومن أشهر أمراء لبنان الأمير فخر الدين المعروف بالثاني وهو ابن الأمير قرقماز بن فخر الدين الأول . ويعتبر من أعظم الشخصيات التي عرفها تاريخ سورية . فقد استطاع أن يوسع رقعة امارته ، ويتمتع بالاستقلال مدة من الزمن نتيجة للحروب والمناورات الكثيرة . وكان عصره

عصر نهضة اقتصادية واجتماعية في لبنان . وامتد حكم الأمير فخر الدين الثاني من شمال بيروت حتى حيفا وعلى منطقة الجليل في فلسطين بما فيها منطقة طبريا وصفد والناصرة . واستطاع بفضل الموارد التي كانت تأتيه أن ينظم جيشاً مدرباً ممتهناً ويستخدم المال لرشوة كبار الموظفين العثمانيين .

شبه الجزيرة العربية . — كانت شبه الجزيرة العربية مقسمة بين عدد من الأمراء وقد نجح العثمانيون في حكم بعض مناطقها . فقد توجه والي مصر سليمان باشا بناء على أوامر السلطان سليمان القانوني من السويس لمحاربة البرتغاليين في البحار الجنوبية ، وفي عام ١٥٣٨ استولى على لحج وعدن ، وتم له ذلك بعد استيلاء العثمانيين على اليمن .

فتح العثمانيين لليمن . — لقد بلغت الامبراطورية العثمانية في العام ١٥٣٨ في ظل السلطان سليمان القانوني نقطة الذروة في قوتها وتوسعها . فقد خضعت لها أقطار المشرق العربي وافريقية وبلدان شرقي أوروبة . وكانت اليمن مطمع أنظار السلطان سليمان لما تتمتع به من موقع استراتيجي هام على شواطىء البحرين الأحمر والعربي .

أمر السلطان باعداد قوة ضخمة بقيادة سليمان باشا الأرناؤوطي والي مصر . وقد أبحرت هذه القوة من ميناء السويس في ٢٧ حزيران ١٥٣٨ باسم محاربة البرتغاليين ولكن الغرض الأساسي لهذه الحملة هو احتلال اليمن .

وكانت هـــذه الحملة العثمانية بداية لسلسلة حملات عادت على اليمن بالبؤس والشقاء وكبدت القوات العثمانية خسائر فادحـــة في الأموال والأرواح . وقد وطأت القوات العثمانية أرض اليمن لأول مرة في ٣ آب ١٥٣٨ بأسلحتها النارية فنشرت الذعر في قلوب السكان الذين لايعرفون غير السلاح الأبيض .

استولى سليمان على لحج وعدن وكان ذلك بدء استيلاء العثمانيين على اليمن . وكان الاسطول العثماني في جزر قمران عندما اتصل به عامر ابن داود آخر زعماء بني داود بعدن . وقد انتهز هذا الأمير فرصة وصول القوات العثمانية فطلب منها النجدة والعون ضد الامام شرف الدين وكتب بذلك إلى سليمان باشا قبل نزوله من السفينة إلى مرسى عدن ، أملاً منه في استعادة كيان الدولة الطاهرية . وبعث الكتاب مع وفد يحمل هدية للباشا . فرد عليه الباشا رداً مقابلاً ودعاه لزيارته بالسفينة . وبعد تردد قرر الموافقة على تلبية الدعوة ولكن الباشا غدر به وهو يغادر السفينة عائداً إلى عدن وأمر باعدامه وشنقه على عمود في السفينة . ودخل الباشا عدن وأمر بقتل من بقي من أسرة آل طاهر ومصادر أملاكهم بحجة تسليمهم عدن للبرتغاليين . ثم حصن سليمان عدن . وفي سنة ١٥٤٧ زحفت القوى العثمانية بقيادة ازدمر باشا نحو صنعاء وواجهتها قوى الامام شرف الدين وقامت عدة معارك بين الطرفين انتهت بتغلب قوى العثمانيين وتمكنت هذه القوى من دخول صنعاء بعد معارك عنيفة في ضواحي المدينة .

وغادر الأمير شرف الدين (وهو ينتسب إلى الأئمة الزيديين وهم من الشيعة المعتدلين وينتسبون إلى الامام زيد حفيد الحسين بن علي بن أبي طالب) صنعاء إلى كوكبان وأخذ يوجه منها حركة المقاومة وعهد إلى أبنه المطهر تعبئة القوى اليمنية وخطط الدفاع . التجأ هذا الأمير إلى قلعة ثلا وأخذ يشن منها الغارات ويثير أهل اليمن ، واستمرت المقاومة ضد العثمانيين حتى كانت معركة شعوب على أبواب صنعاء (١٥٦٨) انتصرت فيها قوات المطهر وحوصر الأتراك في صنعاء ثم أجلوا عن أرض اليمن ووصل المطهر بنفسه إلى تعز وعدن وتسلم جميع المناطق

اليمنية ماعدا مدينة زبيد التي احتفظ بها العثمانيون واتخذوها منطلقاً لهم . وحاول اليمنيون استردادها منهم فلم يفلحوا .

ثم أعدت الدولة العثمانية جيشاً بقيادة سنان باشا واستردت صنعاء في عام ١٥٧٠ بعد مقاومات عنيفة ، ثم أخذ الأتراك يبسطون نفوذهم في اليمن وينكلون بأعيانها ورجالها وينفون بعضهم إلى الآستانة ويوالون إخضاع البلاد . ولم تقم بعد ذلك حركة تذكر حتى عام ١٥٩٨ عندما حض الامام المنصور القاسم ابن محمد اليمنيين على الثورة فاستجابت لدعوته معظم القبائل وخاض مع العثمانيين عدة معارك كان آخرها معركة غارب أثلة عام ١٦١٣ انتصرت فيها القوى اليمنية واضطر جعفر باشا إلى عقد الصلح مع الإمام القاسم وانتهى القرن السادس عشر ولم ينته النزاع بين اليمنيين والقوى العثمانية .

عدن . استولى العثمانيون على عدن بطريق الغدر بأميرها وأهلها فما وسع هؤلاء إلا أن اتفقوا مع البرتغاليين لمحاربتهم فأرسل اليهم العثمانيون اسطولهم بقيادة القبطان بيري باشا قائد أسطول مصر فاسترد عدن فى ١٥٤٧ . وبقي الحكم العثماني في عدن ولحج حتى عام ١٦٤٤ حين تغلب عليه أئمة اليمن .

الحجاز . — لقد كان حكم الحجاز بيد الأشراف من نسل الرسول وكان الشريف يقيم في مكة قاعدة البلاد وينتخب انتخاباً . غير أنه كان لسلاطين المماليك شيء من السيادة على الحجاز . فكانت تأتيه الصدقات صحبة أمير الحج المصري . وكانت جدة تابعة للمماليك في مصر . وقد تحول قسم من التجارة عنها بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح .

ورغب البرتغاليون في الاستيلاء على جدة . ولكن المماليك دافعوا عنها وحصنوها .

وعندما فتح العثمانيون مصر أرسل الشريف بركات ابنه إلى القاهرة لمقابلة السلطان سليم وسلمه مفاتيح الكعبة ، واغتنم خطيب المسجد هذه المناسبة وسمى السلطان « خادم الحرمين الشريفين » . وأقر السلطان سليم الشريف بركات في منصبه ، وكان أول سلطان عثماني أرسل المحمل وكسوة الكعبة . وكان السلطان يرسل كل سنة في أيام الحج خلعة وسيفاً مرصعاً إلى شريف مكة ، كما يرسل مرتبات الأشراف والقبائل عن طريق الحج ، والصدقات إلى فقراء الحرمين . وخلف العثمانيون المماليك في جدة وحصنوها وجعلوها مقراً لحكمهم وأصبحت جدة ولاية تتبعها بعض موانىء البحر الأحمر مثل سواكن ومصوع . وكانت تجارتها رائجة ويقصدها الاوربيون ، غير أن سفنهم لا تتعداها إلى الشمال فتنتقل السلع على سفن إسلامية . وكان لأشراف مكة نصيب من واردات جمارك جدة ، وعليهم ، مقابل ذلك ، أن يحافظوا على سلامة الحجاج في الحجاز . غير أن القبائل البدوية إذا انقطعت عنها الرواتب أو تأخرت ، تنهب الحجاج . وعليهم أيضاً أن يوطدوا العلاقات الطيبة مع الباب العالي ووالي مصر . وعلى الشريف المنتخب أن يكون حذراً من سائر أشراف مكة الذين اختاروه . وكان لديه قوة يستعين بها عند الحاجة وتتألف من العبيد والمغاربة والاتراك . وكان الناس يقاسون من اعتداءات هؤلاء الجنود ، وظلت الحال كذلك حتى قدوم الوهابيين في العام ١٨٠٢ .

نجد . — كانت تتألف بلاد نجد الواسعة من عدة مقاطعات منها : العارض والقصيم والاحساء وجبل شمر . وقد خضعت خضوعاً اسمياً للدولة

العثمانية بعد أن استولت هـذه نهائياً على العراق في عهـد السلطان مراد الرابـع عام ١٦٣٨ . غير ان أمراءها كانوا مستقلين في شؤونهم الداخلية ولا سيطرة للعثمانيين عليهم .

الخليج الفارسي . — في هذا الخليج أمارات عمان والساحل العماني وقطر والأحساء والبحرين والكويت . وأهمها عمان . انتزع العثمانيون مسقط من البرتغاليين في القرن السادس عشر ونفذوا إلى الخليج الفارسي واتصلوا بالامارات العربية وبسطوا عليها بعض السيادة وخاصة في الاحساء والكويت .

غير أن المشايخ والامراء كانوا حذرين من العثمانيين وظلوا محتفظين بالسلطة الحقيقية وكانت سلطنة عمان على شيء من القوة ، فقـد حاربت البرتغاليين وطردتهم من الخليج الفارسي واستولى اسطولها على بعض المناطق المجاورة في شرقي أفريقية وفي الخليج . ولكنهـا ضعفت لكثرة حروبها مع النجديين في القرن الثامن عشر . كما حصلت منازعات بـين أفراد الأسرة الحاكمة . وقد اهتم الانكليز بها وفرضوا عليها حمايتهم في القرن التاسع عشر .

وكانت البحرين نهباً مقسماً بين أصحابها العرب وبين الفرس والعثمانيين .

العراق . — كان العراق مركز الخلافة العباسية وقد تمتع بحضارة زاهية ، ولكن هذه الحضارة أفل نجمها بعد غزو هولاكو زعـيم التتر واستيلائه على بغداد عام ١٢٥٨ ، وخضع العراق بعد ذلك مدة قرنين ونصف لسلالات مغولية وتركمانية حتى أتاها الصفويون من إيران عام ١٥٠٨ .

كانت العراق في الفترة المغولية والتركمانيـــة مسرحاً للغزو والنهب والتهديم حتى ضعفت البـلاد من الاضطراب والفقر وزوال الأمن وتقلب الحكم الأجنبي .

ففي عام ١٥٠٨ أرسل الشاه اسماعيل الصفوي القائد لالا حسين لفتح بغداد فاستقبل بالترحيب ، وزال الحكم التركماني تاركاً بعض الجماعات التركمانية التي مازالت آثارها باقية حتى اليوم في تلعفر ومنطقة كركوك .

وفي الحقيقة ، كانت العراق في فاتحة القرن السادس عشر منطقة جذب بين قوتين ناميتين : قوة الصفويين من جهة ، وقوة العثمانيين من جهه أخرى ، ولكن التوسع العثماني هو الذي ساد أخيراً في العراق .

الدور الصفوي الأول والدور العثماني الأول في العراق . — حكم الصفويون العراق للمرة الأولى بين ١٥٠٨ و ١٥٣٤ وقد سلك الشاه إسماعيل في العراق سياسة شيعية مناوئة للسنة صراحة . وعين الشاه إبراهيم خان حاكماً على بغداد . وشهدت العراق في هذه الفترة بعض الراحة والسلم والرفاه ؛ وتوافد التجار الفرس على بغداد ونهضوا بالأعمال التجارية .

ولكن العثمانيين في عهد السلطان سليم الاول حملوا على الفرس في واقعة تشيلديران ١٥١٤ قرب بحيرة اورمية واستولوا على مناطق كردستان الوسطى وشمالي العراق وعينوا حكاماً أتراك في ديار بكر وماردين والموصل وبقي القسم الجنوبي من العراق بيد الفرس . ثم قام ذو الفقار وهو زعيم قبيلة كردية وحاكم أطراف لورستان فقتل الحاكم الايراني في العراق واستولى على الحكم في ١٥٢٤ بعد وفاة الشاه إسماعيل وأعلن نفسه تابعاً للسلطان العثماني ، ولكنه قتل في ١٥٣٠ بعد أن حاصر الشاه طهماسب بغداد وعاد الحكم للصفويين إلى أن أتى عهد السلطان سليمان .

زحف السلطان سليمان القانوني على العراق واحتل في أول الأمر شمال فارس واجتاز كردستان ، ولحق بوزيره إبراهيم باشا الذي كان يهاجم منطقة الموصل ، وكانت قوى المدفعية تصاحب مسيرة السلطان . وقد دبت هذه القوى الرعب في النفوس وفتحت بغداد صدرها للفاتح عام ١٥٣٤

دون قتال . وقام ببعض الاصلاحات الداخلية في البلاد من إصلاح الجداول والسدود وتنشيط الزراعة والتجارة والتحبب إلى السكان ، وعين سليمان باشا والياً على العراق وهذا أول والٍ عثماني على البلاد . ثم عاد إلى القسطنطينية وأصبحت العراق ولاية عثمانية . وانتهى الدور الفارسي الأول بعد أن دام ٢٦ سنة

الدور العثماني الثاني (١٥٣٤ - ١٦٢٢) . - توالى على حكم العراق في هذا الدور عشرون والياً عثمانياً . وقد ضعف شأن بغداد بعد أن أصبحت استانبول عاصمة الخلافة العثمانية الاسلامية . وكان يساعد الوالي في ادارة العراق الدفتردار وهو محاسب يعين بموجب فرمان من العاصمة ، والقاضي ، والجيوش الانكشارية ، والقوى المحلية . وكان يمثل الرأي العام لدى الوالي ديوان أو مجلس من الأعيان يساعده في الحكم بصورة غير مباشرة . وكان الشيعة في المدن المقدسة والقبائل في الارياف يقاومون حكومة بغداد ، ولم يتمكن العثمانيون من القضاء على هذه المقاومة تماماً .

وعرف تاريخ العراق في هذه الفترة عدة ثورات : مثل ثورة البصرة ، وثورة كربلاء ، وتمرد الانكشاري الصوباشي حسن على الوالي يوسف باشا وقتله عام ١٦٢٢ .

وانشقت في هذا الدور الطائفة النسطورية على نفسها واعترف قسم منها بسلطة البابا وصارت تعرف باسم **الطائفة الكلدانية** ولها بطريك يسمى بطريك بابل . كما زار بغداد جماعة من الرحالة الاوروبيين في النصف الثاني من القرن السادس عشر وذكروا انحطاط بغداد والمخاطر التي تعرضوا لها في طريقهم .

الحكم العثماني في البلاد العربية . - حكم العثمانيون البلاد العربية منذ أوائل القرن السادس عشر . وقد حكم المماليك من قبل مصر

وسورية ، والمغول والتركمان ثم الفرس العراق . أما شبه الجزيرة العربية فكانت تحكمها سلالات محلية ، ولكن الحكم العثماني ساد معظمها ولو كان ذلك بصورة اسمية .

قسمت الدولة العثمانية البلاد العربية الى ولايات بلغ عددها إحدى عشرة ولاية . ولكن هذه الولايات لم تكن لتحكم بدرجة واحدة . فقد احتفظت بعض الولايات بأنظمتها السائدة قبل الفتح العثماني ومع ان الحكم كان مركزياً من حيث المبدأ فقد كانت مختلف الولايات تتمتع بدرجات متفاوتة من الحكم الذاتي . لقد كان الحكم مثلاً في مصر حكماً ذاتياً يسيطر فيه بكوات المماليك ، بينما كانت تحكم سورية حكماً مباشراً . أما لبنان فقد كان خاضعاً لعصبيات عائلية وسلالات محلية ، وأما في العراق فقد كان الحكم متنوع الاشكال من أمراء الاكراد وشيوخ القبائل ، كما يشكل الولاة فيه سلالات في بعض الأحيان . هذا فضلاً عن أن الولاة كانوا يحاولون التمرد على السلطة المركزية من حين لآخر .

لقد كان هدف السلاطين العثمانيين الاحتفاظ بسيادتهم على البلاد والحفاظ على الاوضاع الراهنة التي وجدت فيها عند احتلالها . وكان على الولايات تقديم الأموال والرجال للدولة ، على أن تقوم كل ولاية بنفقاتها وتعطي قسماً من وارداتها لخزانة الدولة . وكانت الوظائف المدنية الكبرى في الولايات والوظائف القضائية والدينية تباع واحياناً توضع في المزاد ، والاحتفاظ بها يحتاج إلى تقديم الهدايا لرجال البلاط . ولم يفكر إلا قليلاً باصلاح شأن البلاد من حيث التعليم والصحة العامة والزراعة والري وتحسين طرق المواصلات والمحافظة على الأمن وتحضير البدو . وفي الحقيقة كان العثمانيون يأخذون ولا يعطون دون أي اعتبار لمصلحة السكان .

وصفوة القول لقد كان للفتح العثماني في بلاد المشرق العربي نتائج هامة وهي :

١ - ان البلاد العربية كلها وقعت تحت سيادة واحدة وهي السيادة العثمانية . وتكاد النظم التي توجهها وتدير شؤونها تكون واحدة . إلا أن هذا الفتح العثماني بعد تداعي قيمة البحر المتوسط أمام مغامرات المحيطات الكبرى ، كان منه تداعي الاقتصاد العربي . فلم يعد النشاط العربي محور النشاط العالمي في السياسة والاقتصاد ، كما لم يعد على اتصال بشؤون السياسة العالمية ، بل ضرب حوله نطاق عثماني أدخله في جسم الامبراطورية العثمانية وران عليه اربعمائة سنة ، ولذا فان تاريخ هذه البلاد كان تاريخ ولايات مطبوعاً بالطابع المحلي

إلا أن هذا الحكم من جهة ثانية ، أوجد رابطة سياسية بين البلاد العربية ومركز الامبراطورية ، وهذه الرابطة العثمانية تختلف قوة وضعفاً من بلد لآخر .

٢ - ان الفتح العثماني أوقف توسع المذهب الشيعي في بلاد الشام ومصر والحد ما في العراق وجعل نفوذه قاصراً على إيران .

٣ - ان الفتح العثماني خفف من وطأة النفوذ البرتغالي في المحيط الهندي وأوقف توغله في البلاد العربية ، ولكنه لم يحل في المستقبل دون توغل النفوذ الاوربي عامة وبخاصة بعد ضعف الامبراطورية العثمانية في العصور التالية .

* * *

الفصل الثاني

بلاد آسيا الوسطى والشرق الأقصى

ايران

بينما كانت الحروب الدينية تمزق البلاد المسيحية في اوربة ، كان الاسلام يحقق النصر تلو النصر في آسيا . لقد نفذ الاسلام ، بعد انتشاره في القارة الآسيوية منذ زمن بعيد ، إلى جزر الهند الشرقية والهند الصينية واقليم يون — نان في الصين ، وكانت قوة توسعه في ازدياد . بيد أنه كان في حالة تراجع وانسحاب في اسبانيا ، وعرضة لانقسامات داخلية عميقة وخطيرة . ولقد كان يقابل النزاع بين الكاثوليك والبروتستانت في اوربة ، خصام بين السنيين والشيعة في آسيا ، حتى ان الخصام ترك أثره في مقدرات إيران .

لقد كانت مملكة إيران الشاهانية أهم الدول التي نشأت عن تفتت الامبراطورية التيمورية التي شادها تيمور في القرن الرابع عشر ودامت حتى القرن السادس عشر . وكان آخر أمرائها بابر مؤسس السلالة المغولية في الهند . وقد اتفق اعتلاء السلالة الصفوية عرش إيران مع فاتحة القرن السادس عشر . وأصل هذه السلالة من اذربيجان . وتنتسب إلى الشيخ صفي الدين المتوفى عام ١٣٣٤ . وهو من مدينة اردبيل وشيخ طريقة صوفية . ومن هذا الاسم صفي الدين أخذت السلالة اسمها ، السلالة

الصفوية . ويرجع أصل هذه السلالة إلى موسى الكاظم وهو الامام السابع وأصغر اخوة الامام إسماعيل من الشيعة الاثني عشرية .

لقد وقعت إيران في القرون الاخيرة من العصر الوسيط تحت سيطرة المغول . غير أن شخصيتها بقيت سليمة لم تمس . فقد حافظت على لغتها ودينها ومذهبها الشيعي . وانطلقت حركة استقلال إيران حوالي منتصف القرن الخامس عشر على يد السلالة الصفوية وتحققت في فاتحة القرن السادس عشر بمساعدة القبائل التركية السبع في اذربيجان التي يرمز لها بهذا الاسم المميز : قيزيـل باش أي **الرؤوس الحمراء** . فقد قـام الشاب اسماعيل الصفوي يسانده حاكم غيلان واستولى على باكو عام (١٥٠١) وشاماخا . وهذا النجاح الذي لاقاه جعله يزيد في عدد رجـاله ويهزم الوالند أمير قبيلة الحمل الأبيض (آق قيونلو) التركمانية في واقعة ناخيتشيفان ، ثم أخذ تبريز وتوج في عام ١٥٠٢ واتخذ لقب شاه .

الشاه اسماعيل (١٥٠٢ - ١٥٢٤) . - لقد كان الشاه اسماعيل بطلاً قومياً ، فعلى يده تم تحرير إيران . وكان يحلم بحكم إيران موحدة ، مسلمة ، شيعية ، متحررة من كل نفوذ أجنبي ، ولهذا استولى على غربي إيران بكامله في عام ١٥١٠ وأخذ قازرون وكرمان وهمذان وفارس ويزد وأصفهان .

وفي الشرق انهارت المملكة التيمورية بعد أن قلبها اليزبك وكان زعيمهم محمد الشيباني مسلماً سنيـاً ، استولى على خراسان وكتب للشاه اسماعيل يخطره بالرجوع إلى السنة ، فجاءه الشاه وهاجم خراسان واستولى على مشهد ووقعت واقعة كبرى في مرو قتل فيها الشيباني .

وكان بين اسرى مرو أخت الزعيم بابر التيموري . وكان هذا يعمل على تأسيس امبراطورية كبرى في افغانستان والهند . وقد عامل الشاه

أخت بابر معاملة حسنة وأعادها لأخيها وكان هـذا الفعال الحسن بداية لتحالف بين الشاه وبابر ، وهذا مادفع بابر إلى قتال اليزبك وردهم إلى بـلاد ما وراء النهر . وكان على الصفويين أن يحـاربوا في جبهة أخرى وهي جبهة الأتراك العثمانيين في آسيا الصغرى بعد أن بلغوا نقطة الأوج .

لقد كانت دول اوربة المسيحية تحاول الافادة من الخلاف المذهبي بين العثمانيين السنيين والصفويين الشيعة . وكما أن ملوك فرنسا من أسرة آل فالوا كانوا يبحثون عن حلف مع العثمانيين ليهـاجموا آل هابسبورغ من الخلف ، كذلك حـاول آل هابسبورغ عقد الصلات مع إيران ليجمدوا الترك في آسيا . ومنذ ١٥١٨ توجه لويس الثاني ملك هونغاريا إلى الشاه اسماعيل . ولا يعني هذا أن إيران والامبراطورية العثمانية كانتا مسيرتين بالاتجاهات الأجنبية ، بل كان لكل منهما مطامع خاصة تريد تحقيقها .

كانت البلاد العربية في آسيا آنذاك عرضة لخطرين قويين : المـد الشيعي ، والتوسع البرتغالي . وكانت بدورها تشكو إعياء مزمنـاً ، فانتهز السـلطان العثماني سليم الأول هذه الفرصة السانحة وطمع في الاستيلاء على البلاد قبل غيره . هاجم إيران في توسعه نحو الشرق وانتصر على الصفويين في موقعة تشالديران ، قرب تبريز عام ١٥١٤ ، حتى اضطر الشاه إسماعيل إلى التخلي عن حوض الفرات . ولكن الحرب كانت تتجدد بين حين وآخر بين العثمانيين والصفويين ، ولم تكن فترة السلم سوى هدنة موقتة بين الطرفين ، ودامت هذه الحال حتى نهاية السلالة الصفوية .

الشاه طهماسب (١٥٢٤ – ١٥٧٦) . – توفي الشاه إسماعيل عام ١٥٢٤ ، فخلفه ابنه الشاه طهمـاسب ، وكان عليه أن يجابه كأبيه خطراً مزدوجاً : العثمانيين من الغرب والتركمان من الشرق .

كان عمر الشاه عندما اعتلى العرش عشر سنوات . فكان بين أيدي

زعماء قبائل قيزيل باش الذين كانوا يتناحرون على السلطة . حمل أولاً على اليزبك وأخضعهم عام ١٥٢٧ . غير أن ثورة استدعته مريعاً إلى بغداد عندما قام زعيم قبيلة الكلهور وأراد أن يغتصب الحكم لصالحه ، وحاصر الشاه الثائر وأعدمه . ثم قام اليزبك وهاجموا إيران وحاصروا هرات ثمانية عشر شهراً ، فعاود طهماسب الكرة عليهم وما وسعهم إلا أن انسحبوا لرؤيته .

غير أن الخطر الحقيقي الذي كان يداهم إيران كان في تهديد العثمانيين لها طيلة حكم السلطان سليمان القانوني فقد هاجم إيران وكسر الشاه وأخذ تبريز ووان وبغداد عام ١٥٣٤ حتى اضطر الشاه طهماسب إلى نقل عاصمته إلى قزوين . وبموجب **معاهدة آمازيا ١٥٥٥** تخلى طهماسب نهائياً عن العراق .

وساءت الأمور بعد طهماسب ، وخلفه لمدة قصيرة اسماعيل الثاني (١٥٧٦) ومحمد خودا بندا (١٥٧٨) وكان أكبر أولاد طهماسب ، ثم أجبر على التنازل عن العرش ١٥٨٣ .

الشاه عباس الكبير (١٥٨٧ — ١٦٢٩) . — يعتبر الشاه عباس أعظم ملوك الصفويين ، ومن أعظم شاهات إيران . لقد استطاع أن يتم العمل الذي بدأ به أسلافه : طرد اليزبك من خراسان عام ١٥٩٧ ، والترك من أذربيجان (١٦٠٣) ومن بغداد (١٦٢٣) .

كان الشاه عباس معاصراً لملكي فرنسا هنري الرابع ولويس الثالث عشر ، حقق الوحدة الايرانية وأغنى المملكة وعقد الصلات الكثيرة مع أوربه . وفي شمال دوله نشأت سلالة جديدة في موسكو وهي سلالة آل رومانوف . وفي أوربة الغربية كان ملوك فرنسا في حرب

مع البيت النمساوي . وهـذا مادعاهم للتقرب من الدولة العثمانيـة وعقد الصلات الطيبة معها . حتى ان الحلف النمساوي الذي عقد مع فرنسوا الأول استمر في حـكم هنري الرابع ودام حتى منتصف القرن الثامن عشر . وفي العام ١٥٩٣ عادت الحرب بين النمسا وتركيا فكانت فرصة للشاه أخذ فيها يستجمع قواه ، وينظم علاقاته مع الدول الأوربية .

وفي عهده تطورت قضية الخليج الفارسي بعد مجيء فاسكو دوغاما إلى الهند ، فقد أخذ البرتغاليون غوا و ديو ، وخول ملك البرتغال نفسه لقب « ملك البرتغال وأمير الهند » ، وحاذى البوكرك الشواطىء العربية ووصل إلى الخليج الفارسي عام ١٥١٣ وأدرك أهمية طريق الخليج الفارسي — سورية فقرر أن يحتجزه لسيده ملك البرتغال . واحتل البرتغاليون شاطىء مضيق هرمز وجزيرة هرمز التابعة لايران ، ومسقط في بلاد العرب وجزر البحرين . وخولتهم الاتفاقية التي عقدوها مع أيران حصر التجارة الايرانية ، واحتل البوكرك أيضاً جزيرة سقطرة عند مدخل البحر الأحمر جنوباً فأدى ذلك الى خراب تجارة البندقية . وفي عام ١٥٩٨ قدم السير انطوني شيرلي الى بلاط الشاه واقترح عليه أمرين :

١ — أن يدخل الشاه في رابطة الملوك المسيحيين ضد الاتراك العثمانيين .

٢ — أن يقيم علاقات تجارية مع انكلترا .

وفي العام ١٦٠٠ عاد السير انطوني شيرلي الى أوروبة راضياً عن نجاح مهمته . وفي ٣٠ كانون الاول ١٦٠٠ أخذت « الشركة اللوندنية للهند الشرقية » صكها من يدي الملكة اليزابث . وفي ١٦١٢ كان الانكليز في سورات ، وفي ١٦١٣ وصلوا بندر عباس بالقرب من هرمز . وقد أساء البرتغاليون استقبالهم ، ولكن الشاه عباس استقبلهم بحفاوة فاقترحوا

عليه حمايتهم له ضد أعمال البرتغاليين . وفي ١٦٢٠ عقدت بين الشاه وبينهم اتفاقية على ان يأخذوا هرمز ويردوها لايران ، ومقابل هذه المساعي الحميدة يكون لهم الحق في إقامة قاعدة تجارية في بندر عباس ، وأن يعفوا من الرسوم ويتقاسموا مع الايرانين حصيلة الجمارك شريطة إقامة سفن حربية في الخليج الفارسي لتأمين حرية الملاحة للسفن التجارية .

وفي سنة ١٦٠٢ تأسست « شركة الهند الشرقية الهولندية » ، وأتى الهولنديون إلى إيران في عام ١٦٢٣ ، وأحيوا النظام التجاري القديم وهو نظام « المقايضة » وذلك أن يأتي الهولنديون بالسلع ، فيأخذها الشاه ويعطيهم بالمقابل الصوف والحرير والسجاد . غير أن عيب هذا النظام بدا ظاهراً للهولنديين لأن الايرانيين كانوا يخفضون كل عام قيمة السلع الهولندية ويزيدون قيمة سلعهم .

وفي ١٦٢٥ شعر الشاه عباس بقوة الانكليز فخاف امتدادهم وفاوض البرتغاليين بمعاهدة جديدة تخولهم حق صيد لؤلؤ البحرين ونصف جمارك ميناء بندر كونغ . فقبل البرتغاليون وأصبح باستطاعتهم مساعدة الشاه على التخلص من أصدقائه الانكليز والهولنديين .

وفي الداخل وطد الشاه عباس الأمن ، وشق الطرق ، ومازال الريف الايراني مفروشاً بأطلال الخانات التي أنشئت في عهده . وكانت كبيرة وواسعة ومجهزة بالرفاه النسبي وحامية للأمن .

وقامت في عهده أعمال الري وحفر الآبار لتزويد السكان بالماء الصالح للشرب في المناطق الصعبة . ومضى الشاه عباس في تجديد إيران على الطريقة الاوربية . وعمل بمشورة الاخوين أنطون وروبرت شيرلي وأسس جيشاً من ٦٠,٠٠٠ رجل مدربين تدريباً عسكرياً حديثاً ، كما أقام معملاً للمدافع .

وطبق الشاه سياسة التسامح مع غير المسلمين ورحب بالمبشرين الكاثوليك والرحالة والأجانب والتجار وضم لامبراطوريته شعبين مسيحيين وهما الجيورجيون والأرمن ، وأسكن الأكراد في خراسان ليقفوا حائلاً دون هجوم اليزبك .

وشهدت إيران في عهد عباس حركة عمرانية واسعة ظهرت باعادة بناء أصفهان واختيارها عاصمة للملكة ، وبالجوامع والخانات والكليات والمشافي ، حتى ان أوابد أصفهان تتمتع بشهرة عالمية ، نذكر منها الجامع الكبير وقصر الأربعين عموداً (تشهيل سوتون) والحدائق الاربع (تشادباغ) وجسر زنده — رود الكبير .

وكان الشعر الايراني يستمد إلهامه من وحي قومي وسلالي وديني ، ومن شاه نامه آي إسماعيل قاسمي ، وهي تمجيد للشاه إسماعيل ، وشاه نامه كما لي سبزفار وهي تمجيد للشاه عباس .

ومن الوجهة الفنية كان عصر الصفويين عصر تفتح للفن الابداعي الايراني . وهو مزيج من الفنون العربية والهندية والصينية ، ويمتاز هذا الفن برشاقته وانسجامه وعذوبته . فقد بلغ فن المنمنمات فيه درجة الكمال والاتقان على يد الفنان بهزاد الذي أحيا فن الرسم . واشتهر بعده قاسم قالي من هرات ، وميراك ، وقد عرف بتزيين قصائد الشاعر نظامي ، ويبدو في هذا الفن تأثير الفن الصيني وخاصة في الخزف . وكان لهذا الفن الايراني الناشىء تأثير قوي في نفوس الاوربيين لما رأوه فأعجبوا به ، ونخص بالذكر منهم الرحالة الفرنسي شاردن الذي وصف جمال تشارباغ ومبانيها الفخمة .

كما كثر اهتمام الايرانيين في هذا العصر بصناعة السجاد . وقد شجع

الشاه اسماعيل وخلفاؤه هذه الصناعة حتى انتقلت من صناعة منزلية إلى صناعة فنية راقية صوفية وحريرية .

هذا ويعتبر عصر الشاه عباس العصر الذهبي للفن الايراني ، ففيه بلغ الفن تعبيره الكامل بعد محاولات الساسانيين والسلجوقيين والمغول .

الهند

كانت الهند في القرن السادس امبراطورية قوية مزدهرة . وفي فاتحة هذا القرن قام انقلاب سيامي ، وذلك ان شمال الهند الذي ظل مجزءاً منذ القرن السابع قد توحد بفتح السلطان أكبر ، وان الجنوب الموحد منذ قرنين تحت سلطة فيجايانا غار قد تجزأ .

وكانت امبراطورية الهند الاسلامية في عهد أكبر تضم أكثر من مائة مليون نسمة ، وتذكر بامتدادها من أفغانستان إلى البنغال ، ومن كشمير إلى ضفاف غوادافاري ، بالامبراطوريات الكبرى في العصر القديم . وكانت العاصمة التقليدية دلهي منذ عصر السلطة الاسلامية الأولى ، ولكن الحكومة كانت تميل إلى الانتقال نحو أغرا عاصمة الاقامة . وفي عام ١٥٦٩ تأسست بالقرب من أغرا عاصمة جديدة أخذت اسم فتحبور — سيكري أي مدينة النصر وذلك لاحياء ذكرى فتح غوجرات عام ١٥٧٤ . ولكن اختيار هذا الموقع كان غير موفق . فقد كان هضبة صخرية قليلة المياه وهذا مادعا السلطان أكبر إلى هجرها عام ١٥٨٥ .

وفي الحقيقة كانت الهند تحكم من قبل سلالة أفغانية وهي سلالة السلاطين البهانيين (١٣٤٧ — ١٥٢٥) ثم خلفتها سلالة جديدة تعرف باسم سلالة بابر من نسل تيمور مؤسس السلالة التيمورية وقد أطلق عليه اسم المغولي الأكبر .

بابر المغولي الأكبر (١٥٠٥ - ١٥٣٠) - كان بابر سلطاناً وراثياً في فرغانة في تركستان ، قضى حياته في الحرب والقتال ، ثم توقف نشاطه الحربي في الغرب على أيدي الصفويين والشيبانيين ، فاتجه نحو الشرق والجنوب : فتح أفغانستان واستقر في كابول عام ١٥٠٦ وأخذ يعد نفسه لفتح الهند بعد أن سيطر على الشعاب المؤدية إليها . وكانت الهند تحكم من قبل سلالة لودي باسم قبيلة أفغانية قديمة تحدرت منها وهي سلالة البهانيين .

فتح بابر البنجاب (١٥٢٤ - ١٥٢٥) . وتفاهم مع كبار اتباع السلطان ابراهيم لودي في دلهي . وبفضل المدفعية التي جهز بها جيشه حاز نصراً مبيناً في بانيبات (نيسان ١٥٢٦) وهلك ابراهيم في هذه المعركة ثم أقام بابر في دلهي وأعلن نفسه باديشاه الهند في ٢٧ نيسان ١٥٢٦ . ثم هاجم اتحاد الراجبوت وكسرهم واستطاع في حملة ثلاثة أشهر أن يؤسس امبراطورية هندية واسعة تمتد من هيالايا إلى الدكن الشمالية ، ومن أفغانستان إلى البنغال واتخذ أغرا مقراً مفضلاً له . ثم توفي في ٢٦ كانون الأول ١٥٣٠ وله من العمر سبع وأربعون عاماً .

وبالرغم من هذه الفتوحات التي حققها بابر فلا يمكن القول بأنه أسس امبراطورية حقاً . وقد أوشك تاريخ هذه الامبراطورية أن يقف عند موت مؤسسها . لأن ابنه همايون طرد من الهند في (١٥٣٩ - ١٥٤٠) بعد أن تألب عليه الهنود والأفغان . ولم يعد إليها إلا بعد خمس عشرة سنة . بفضل الشاه طهماسب ، الذي كان يحلم بالتحالف معه ضد اليزبك ويحاول تشييعه . وقد دخل دلهي عام ١٥٥٥ ومات فيها في السنة التالية تاركاً الامبراطورية لابنه أكبر .

السلطان أكبر (١٥٣٨ - ١٦٠٥) يعتبر اسم أكبر من الأسماء الكبرى في تاريخ الهند . كان يمثل الفاتح الشرقي بقوته وشجاعته وشدة

بطشه ونعومته ودماثته . وسع نفوذه في جميع الجهات : شمالاً في كشمير ، وشرقاً في البنغال ، وجنوباً في قسم الدكن حتى غودافاري ، وغرباً في راجبوتانا ، والحق غوجيرات في العام ١٥٧٢ . واستطاع بذلك أن يجد للامبراطورية منفذاً على البحر ويجعلها على اتصال مع البرتغاليين في سورات غير أن اطماع أكبر كانت قارية قبل كل شيء ، فلم يحاول أن ينازع الاوربيين مواقعهم البحرية . وقد استطاع هؤلاء بفضل مواقعهم أن يحصروا التجارة الخارجية في أيديهم . ويمكن القول كذلك عن خلفائه . إلا أن سورات كانت تثير اهتمام سادة الامبراطورية لأنها كانت ميناء أساسياً لابحار المسلمين الذاهبين للحج إلى مكة .

كان أكبر إدارياً عظيماً ، أناب الادارة التركمانية بادارة منظمة استوحاها عن الطرق الايرانية . وقسم الهند إلى ١٥ منطقة (سوبا) واكثر من ١٠٠ اقليم (مركار) وحول الاقطاعية الافغانية إلى طبقة نبيلة تعمل في البلاط على ٣٣ رتبة . وأسس وزارات على النمط الاوربي : الوزير الأول ووزير المالية ، والبلاط ، وحارس الاختام وغير ذلك : وكانت وسائل عمله عظيمة لأنه استطاع بفضل غنائم الحرب والضرائب الفادحة والجمارك أن يجمع ثروات ضخمة . وهذا مايفسر لنا فخامة المدن وما كانت عليه من جمال . غير أن الأرياف كانت تشكو الفقر والبؤس .

وحاول أكبر أن يتصالح مع الهنود ، فأعاد اليهم جميع الحقوق التي سلبها الفتح منهم ، واحترم أخلاقهم وعاداتهم وعقائدهم وفسح المجال أمامهم للوصول إلى الوظائف العامة ، وشجع انتشار لغة عامة مشتركة لجميع شعب الهند وهي اللغة الهندستانية أو الاوردو . وأشرف على ترجمة

ملحمة ماها بهاراتا إلى الفارسية وشجع المؤلفـــات الشعرية التي كتبت بالاوردية في لهجة الرك — هتا .

وكان متسامحاً . بيد أنه فرض إرادته على العلماء المتعصبين وأغدق نعمه على الشيعة وخاصة على الصوفيين . وكان يتأثر بأصدقائه ويعمـل بنصحهم ونذكر منهم أبو فظل وفيظي . وكان على معرفة بمختلف المذاهب حتى أنه أراد التوفيق بين جميع الاديان . ورفع عن الاسلام امتيازه كدين للدولة عام ١٥٩٣ . ومنذ ١٥٦٥ الغى ضريبة الجزية المفروضـة على غير المسلمين ، وكان يحب البوذية ويأمر بتفسير المسيحية ، كما يعتبر مخترعاً لدين جديد « دين إلهي » ١٥٧٩ . وكان نفسه يعبد الشمس ، بينما كانت الجماهير تعبده وتتخذه نبياً وأحاط نفسه بحاشية كثيرة تضم خدماً وحشماً وموسيقيين وجنوداً . وبدا أكبر أحد كبار عاهلي عصره مع شارلكان وسلطان القسطنطينية .

الحضاره الهندية في القرن السادس عشر . — كانت البلاد الهندية منظمة تنظيماً إدارياًقوياً وبخاصة في ظل امبراطورية المغول التي نظموها كما رأينا على أساس جديد . فقد وضع الشرشاه قواعد نظـام زراعي سليم باعطاء الفلاحين قطع أراضي لاستملاكها . وأصبحت الضريبـة على هذا النحو قائمة على التحديد والتحرير : وكان على كل مالك أن يدفـع الضريبة حسب قيمة محصوله . وهذه الضريبة تمثل ثلث الانتاج الخام . وكان النظام السائد تحت حكم أكبر نظام « رايا تواري » وبموجبه يدفع مالك الأرض الضريبة مباشرة للدولة . وقام أكبر برد فعـل ضد كل تعامل قديم يقضي بتوزيع الأملاك على كبـــار الموظفين المدنيين أو العسكريين الذين يجمعون الضرائب ويحتجنون قسماً منها لأنفسهم . ورأى من الأفضل أن يدفع إلى الموظفين مالا عوضاً عن تخصيص هذه الاملاك

بهم . وكان ذلك ممكناً لأن خزانة الدولة كانت غنية بفضل الفتوحات والضرائب التي كانت تجبى بانتظام ، ولأن عملته جيدة وقوية وهي الروبية الفضية . وهذا التعامل يقتضي دفع راتب إلى الموظفين ، وهو شرط الحكم الصالح لأن الموظفين يطيعون من يدفع لهم . غير أن العدول عن هذا التعامل في عهد خلفائه أضعف سلطتهم .

وكانت للهند أولية صناعية في العالم . ويرجع الفضل في ذلك إلى صناعها في المدن والأرياف . وكان هؤلاء على طبقات وأصناف مهنية تتناقل طرق الصناعة كابراً عن كابر . وكانت منتجات الهند الأساسية : المنسوجات القطنية . وقد أفاد الهنود من اختراع الطباعة بايضاح طريقة الطباعة بالألوان على المنسوجات القطنية ؛ وكانت المنسوجات المطبوعة الهندية منتجات وحيدة في العالم استهوت الاوروبيين فجعلتهم يبحثون عنها برغبة . كما يلاحظ في الهند صناعة الجلود والجوهرات والحلي والعاج والحرير . وقد أدرك المسلمون أهمية هذه الصناعات التقليدية فلم يلحقوا بها أي ضرر ، بل ان الطبقة الغنية المسلمة كانت تكلف الصناع بكثير من الأعمال وتغدق عليهم المال وتشجعهم . ونشر أكبر في شمال الهند صناعة السجاد الوافدة من البلاد الاسلامية .

ومنذ حكم شرشاه شجع السلام الداخلي والعناية بالطرق وبالخانات وحذف رسوم الدخولية والجمارك الداخلية على رقي التجارة ، فازدهرت المدن ، وإن أفضل مثال على النهوض العمراني هو بناء الله آباد بأمر من أكبر . بيد أن التجارة البحرية كانت حصراً بيد البرتغاليين والهولانديين وكان الميناء الذي يقوم بالتجارة مع اوربه سورات ، وقد أقاموا فيها مصانع عديدة .

تطور الثقافة الهندية . — لقد وجدت في الهند بعد الاسلام ،

ثقافتان متعارضتان : الاسلامية والهندية دون أن تدخل إحداهما في الأخرى . غير أن سياسة أكبر المتسامحة وحب اطلاعه الفكري العام ساعدا على تقارب هاتين الثقافتين المتنافستين ، ودلت الحوادث في البلاد على وجود نزعة ترمي إلى التأليف بين القلوب بعد أن تهيأت في الهند ثقافة قومية تتجاوز الاختلاف الديني .

وكانت « السيخية » في المضمار الديني أوضح ظاهرة لهذا التقارب . ففي البنجاب،حول لاهور ، نشأ مؤسس السيخية، ناناك (١٤٦٩ - ١٥٣٨) ، وقد استطاع ان يجمع حوله تلاميذ يجلونه زعيماً ورئيساً روحياً . وتصر دعوته على الحقيقة العميقة في جميع الديانات ، واطراح روح الفرقة التي قسمت الهند إلى ديانات متنافسة ، والتبشير بالتسامح ، وإحياء مذهب الاوبانيشاد التوحيدي ، والتدليل على عدم وجود أي حاجز يفصل الهندوس عن المسلمين الموحدين .

وكسب هذا الدين الجديد اتباعاً بين صفوف الهندوس والمسلمين ، وانتشرت في البنجاب طائفة السيخ ، وأعطاهم السلطان أكبر أرضاً في آمر يتسار ، فبنوا فيها معبداً وأصبحت آمر يتسار ، في آخر القرن السادس عشر ، مدينة السيخ المقدسة . وفي هذا العصر جمع كتاب السيخ المقدس « آدي غرانث » (الكتاب الاول المقدس) الذي يضم آثار الرؤساء الروحانيين الأوائل وبعض الاتقياء من هندوس ومسلمين .

وأتى المسلمون إلى الهند بلغة أدبية وهي اللغة الفارسية . غير أن هذه اللغة لاقت بعض الصعوبات لدى استعمالها في الادارة ، لأن الشعب لايفهمها ، ماعدا المثقفين من أبنائه . ولهذا السبب تقدمت اللغة الاوردو (لغة المعسكر) في هذا القرن . وأساس هذه اللغة لغة الهندي وهي أكثر اللغات انتشاراً في الهند الشمالية ، وقد امتزجت فيها عدة كلمات

فارسية وعربية وتركية على أثر الغزو والفتح . ومن جهة ثانية ، إن هذه اللغة تكتب بالأبجـــدية العربية ، ولذا كانت بمتناول المفكرين والموظفين الذين اعتادوا الكتابة بالفارسية . وهكذا انتشرت اللغة الاوردو ، اللغة الادارية ، إلى جانب اللغة الأدبية ، وأصبحت الاوردو لغة المسلمين في شمال الهند ، ويمكن أن يفهمها الهندوس الذين يتكلمون الهندي نظراً لوجود كلمات مشتركة بين اللغتين ، فضلا عن أن نحوهما متشابه . ولقد كان انتشار الاوردو صفة بارزة كشفت عن ميل الطائفتين إلى التقارب لتكوين شعب واحد .

وحتى القرن السادس عشر لم تكن الثقافة الاسلامية لتحتـل سوى مكان صغير أمام الثقافة الهندية ومركزها فيجايانا غار . أما في هذا القرن فقد انقلبت الآية لصالح الاسلام بعـد أن ازدهرت الدول الاسلاميـة وتداعت فيجايانا غار .

وكانت الاضرحة من أهم آثار البناء في ذلك الحين ، وبخاصة الاضرحة ذات القبة كاضرحة غولكوند بجوار مدينة حيدر أباد الحديثة . وبالقرب من دلهي يقوم ضريح همايون ، وأسلوبه يبشر بتاج محل ، ضريح أكبر في سيسكاندرا ، على الطريق بين دلهي واغرا ، قصر حقيقي تواكبه المآذن . وفي حيدر أباد ، المدينة الجديدة ، يقوم البـاب الشهير ذي الأربعة أبراج : شارمينار .

ولكن الأثر الهام العظيم هو مدينـة فتحبور - سيكري ، وهي مدينة مبنية بالحجر الأحمر ، خالية اليوم ، بناها أكبر وتعتبر ، بقصورها وجامعها العظيم وأبوابها أهم أثر حققه الاسلام في البناء الهندي في القرن السادس عشر .

ونمت الثقافة الفارسية في الطبقات المثقفة ، ولكن الهندي ، لغـة

الهندوس ، حافظت على حيويتها وأصبحت لغة أدبيـة كبرى • ويعتبر الشاعر تولسيداس (١٥٣٢ - ١٦٢٣) أكبر كاتب بالهندي ، وقصيدته رامارشاريتا مانازا أعظم ملحمة على نمط ملحمة الرامايانا القديمـة وأخذ شيتانيا (١٤٨٥ - ١٥٣٣) عن البنغال الايمان الصوفي وانكر استعمال اللحم والمقويات .

وعلى الرغم من أن الهند تأثرت بالجلوبات الفارسية وغيرها من الجلوبات الأجنبية بطريق الفتح والغزو ، فقد ظل الهنود موالين لحضارتهم القديمة ، ولم يستطع أي حكم أجنبي أن يتمثل الهند التي « يمكن أن تنثني ولا تنكسر » .

تايلاند

إن مملكة سيام ، الواقعة في الجنوب الشرقي من آسيا في الشمال الغربي من شبه جزيرة الهند الصينية وعاصمتها بانكوك ، ظلت تحتفظ بهذا الاسم حتى عام ١٩٣٩ . ومن ثم أصبحت تعرف باسم تايلاند . بيد أنها استعادت اسمها القديم خلال فترة من الزمن من ١٩٤٥ الى ١٩٤٩ ثم عادت إلى اسم تايلاند .

لقد هاجم البرمانيون جيرانهم ملوك سيام في القرن السادس عشر وأخذوا آيوثايا (١٥٥٥) . غير أن الملك فرا - ناريت طردهم منها (١٥٥٥ - ١٥٦٧) وأخضع كامبوديا ولاوس ثم اجتاح إقليم بيغو . وعقدت سيام صلات مع البرتغاليين وعرفت الأسلحة النارية ، ومع فرنسا ابتداء من العام ١٥٨٠ . وخاصة مع اليابانيين (١٥٩٢) . وقد ساد فن سيام في كل شبه جزيرة الهند الصينية .

الهند الصينية

لقد دخلت ممالك كامبوديا وآنام وبرمانيا على اتصال مع اليابانيين وانطلقت حملتان من مانيلا (١٥٩٦ — ١٥٩٨) وحاولتا عبثاً السيطرة على كامبوديا . بيد أن هذه الأخيرة دمرتها لاؤس .

المغول

إن سيطرة المغول بنتيجة زحف تيمور ظلت قائمة في القرن السادس عشر في آسيا الوسطى وفي روسيا .

١) في روسيا ، لقد تهدم موقع الذهب عام ١٥٠٢ وأخذه خانات القرم التابعة للسلطان واستراخان التابعة للقيصر والتي دمرت عام ١٥٥٦ ، وقازان التي ضمت عام ١٥٥٢ .

٢) بين بحر الخزر وبحر آرال ونهر ايرتيش حيث ظل الشيبانيون المتحدرون من جنكيز خان وقهرهم الايرانيون في مرو (١٥١٠) يعيشون فيما وراء النهر في سمرقند وبخاري وسيبير .

٣) المغول الجغشيديون (تورفان ، كاشغاريا) كانوا يحاربون ضد الصين والتيبت .

أما المغول الشرقيون ، الذين اعتنقوا الديانة اللامابسية ، وهي شكل خاص من البوذية يدعو إلى القعود والسكينة والقناعة ، فسيقهرهم المانشوريون .

٤) المنشوريون التونغوز وقد توحدوا على يد نورهاشو ، ابن أحد زعمائهم ، الذي استطاع أن يدمج خمس قبائل مع بعضها ويبني حصون هينغكنغ (١٦٠٣) . فقوى بذلك جيشهم وأصبحوا يؤلفون خطراً على الصينيين .

الصين

سلالة المنغ (١٣٦٨ - ١٦٤٤) . - لقد نجت الصين في فجر الأزمنة الحديثة من سيطرة المغول التي ترجع بتاريخها إلى القرن الثالث عشر والرابع عشر ، وسادت الصين في هذه الحقبة سلالة المنغ الوطنية . وقد أنجبت هذه السلالة ١٦ امبراطوراً أقاموا في نانكن ثم في بكين ابتداء من القرن الخامس عشر ، واستردت هذه السلالة الصين من الخانات . وعرفت الصين في هذا العصر أدوار هدوء وأدوار ثورات ، بيد أنها من جهة ثانية عرفت رفاه حقيقاً . فقد توحد التشريع بنشر قانون آل منغ في عام ١٤٩٧ . وكانت الحكومة محبة للسلام إنسانية متسامحة . والزراعة مزدهرة .

يمتاز الصينيون بالفكر الايجابي العملي المجرد من الصوفية ، والمهتم بالأخلاق . لقد كانوا يكرهون البوذية ، ولكنهم لايعرفون التعنت الديني . وقد عرف اليسوعيون بأن لامعارضة أساسية بين الكاثوليكية وعبادة الأموات ، أساس الأخلاق الصينيه ، فانتشرت دعايتهم بسهولة .

ولم يكن الصينيون ليخشوا الأجانب والغرباء ، أو يشعروا حيالهم بأي نفور . فقد عقدوا صلاتهم مع الأوربيين وخاصة مع البرتغاليين . ففي ١٥١٤ أرسل البوكرك من ملقه الايطالي رافائيل بيريستريللو لاكتشاف الصين فوصل هذا إلى تاماؤ بالقرب من كانتون . وفي ١٥١٧ ، صعد البرتغالي سيمون اندراد نهر كانتون مع ثماني سفن محملة بالتوابل التي بحثوا عنها في جزر المولوك . فأحسن السكان استقباله بالرغم من أن البلاط الامبراطوري أظهر سوء ظنه حيال البرتغاليين الوقحين ، وهذا ماجر عليهم تهديم مستعمراتهم في نينغ - بو (١٥٤٥) وتشن - تشيئو

في فو – كين (١٥٤٩) . وفي ١٥٥٢ انطلق المبشر سان فرنسوا كزافيه من ملقه وتهيأ للنزول في كانتون ولكنه توفي في شهر كانون الأول من السنة نفسها . ومع ذلك فقد تأسس مركز برتغالي في ماكاو ١٥٥٣ وأصبح مركزاً تجارياً هاماً . ولكن ، منذ ١٥٧٣ وضع حاجز ففصل بين المركز والأرض الصينية .

الحضارة الصينية . — لقد عرفت الصين مبردخين ممتازين مثل هوانغ تشانغ (نحو ١٥٧٠) ، ورسامين ممتازين مثل تونغ كيتشانغ (١٥٥٥ – ١٦٣٦) . ويشاهد في هذا العصر انحطاط في النحت الكبير ، ولكن وجد في الوقت نفسه مصورون وأشخاص ممتازون . وأصبح الخزف أعظم فن قومي (الأواني ذات الأرضية البيضاء والزرقاء الكوبالتية أو الزرقاء الاسلامية التي أدخلت عام ١٦٠٠) ، وصار الاتجاه نحو الفن الصناعي (الأثاث المبردخ والتحف الفنية والأواني البرونزية الخ) . وظهرت في الآداب وخاصة في القصة آثار جذابة ساحرة . واشتهر فيلسوف كبير يسمى وانغ يانغ منغ بما أعطى من قيمة أخلاقية كبرى إلى الكونفوشية التي أصبحت من بعد مذهباً دينياً شعبياً .

وبالرغم من أن امبراطورية المنغ كان لها واجهة بحرية لم تكن سيدة البحر . وكانت هـــذه الواجهة ، شأنها على حدودها البرية ، في حالة دفاع ، وكانت تحمي تجارتها ضد القرصان من يابانيين وماليزيين . ولم يسمح لأي صيني مبدئياً بالقيـام بأي سفر طويل المدى . حتى ان التجار ، الذين يشاهدون على الشواطيء الهندية – الصينية وسيام وماليزيا ، كانوا في نظر القانون مهربين . أما الأجانب فقد نفذوا بالتدريج من بعض أبواب الصين شريطة أن يخضعوا لكل أنواع التقييد . ومـا من

شيء يعارض مجيء الأوربيين عندما ظهروا في بحار الشرق الأقصى ولكن الجشع والطمع والفظاعة التي أرتكبها القادمون الأوائل ، البرتغاليون ، بدل حيالهم وضع الصينيين . وأصبح الصينيون ينظرون لهؤلاء « الشياطين الأجانب » و « برابرة الغرب » نظرة سوء وحذر بل وعداء .

كوريا

منذ عهد الملك ماو (١٣٩٢) حتى القرن العشرين خضعت مملكة كوريا لسلالة واحدة تمثلت في (١٤٩٤ – ١٦٠٢) بست ملوك قضوا على اقطاعية الدايميو ، دون أن يمنعوا تشكل الحزبين : تونغ – إن ، وسيو – إن . وقبلوا توسع الكونفوشيوسية ، واضطروا في عهد هون يوياؤزينغ قبول سيادة اليابان في ١٦٠٧ . ولم يعترفوا بقوة المانشوريين الآخذة بالنمو .

اليابان

اقطاعية الدولة . — لقد كانت سلطة الامبراطور في اليابان منذ زمن بعيد سلطة اسمية ، كما هي حال أمرات كوج التسع الكبرى . وكان يعيش بائساً في غوشو كيوطو وقصوره الخمسة في محيط نسوي . أما السلطة الحقيقية فقد كانت بيد الشوغون وهو في الأصل حاجب القصر . وقد تعاقبت في القرن السادس عشر ثلاث سلالات : آل اشيكاغا (١٣٣٤ – ١٥٧٣) وآل تيرانو (١٥٧٤ – ١٥٨٦) وآل تويو – تومي (١٥٨٦ – ١٦١٥) . وفي الواقع كانت البلاد مقسمة إلى أكثر من مائة امارة تؤلف كل واحد منها وحدة سياسية اقتصادية تحت رئاسة دايميو ، وكان هذا يقيم في حصنه ويحيا حياة البلاط . وكان للدايميوات أتباع

وهم الساموراني ، ولايؤلف هؤلاء طبقة مغلقة . بل كان من بينهم فلاحون انخرطوا في عصابة اقطاعية ، ووجد بين الساموراني من اضطر ليعيش أن يزرع الأرض أو يتعاطى التجارة . والكثير منهم كانوا فرساناً أشقياء قطاع طرق (رونين) وبكلمة مختصرة ان الحروب الاقطاعية كانت حالة عادية في اليابان لاتشفق على المغلوبين ، وكان السكان المسالمون يشكون منها باستمرار .

الكنيسة البوذية . — لقد كانت الكنيسة البوذية غنية جداً بنتيجة الهبات والموارد التي تتمتع بها : وكانت الاديرة تشبه الحصون ويعيش فيها الاكليروس اقطاعياً فاسداً . وكانت الفرق الدينية تتناحر ويحارب بعضها بعضاً . وكانت مدرسة توزا في عهد تاني — ييشو (١٥٩٨ — ١٦٤٩) تهدف نحو التقشف والشدة .

الضرائب والبؤس . — وكان السكان يرزحون تحت ثقل الضرائب أيضاً : الضريبة العقارية ، والرسوم على الدور ، وعلى مخازن الرز وعلى مستودعات الساكيه (مشروب روحي يحضر من الرز) ، ويشكون من إزعاج الموظفين . وكان البؤس والمجاعة منتشرين جداً في اليابان ويوضحان ثورات الفلاحين وعصيانهم ومنازعاتهم . ولكن القنانة بدأت بالزوال منذ منتصف القرن الخامس عشر وذلك لأن الملاكين كانوا بحاجة لاستغلال أرضهم والافادة منها، ومع ذلك فقد ظلت الزراعة قليلة الازدهار.

المدن والتجارة . — كانت المدن مسرحاً لمنازعات لاتنقطع ، ولم يكن حظها بأحسن من الارياف . ومع ذلك فقد أثرى بعض التجار بفضل بذخ النبلاء . وازدهرت مدينة ساكاي (وهي اليوم حي متطرف في أوزاكا) بفضل صنع الأسلحة النارية ، ومنسوجات نيشجين والتجارة

مع الصين وكوريا . وكانت محاطة بأسوار ولها جيش يحميها ويدفع عنها غائلة الأعداء وتبدو كأنها البندقية في اليابان .

التوسع البحري والاستعماري . – كان الأمراء في جزيرة كيوسيو مستقلين عن الملك سانسوما ، وقـــد شجعوا سياسة التوسع البحري والاستعماري في الشرق الأقصى : في الصين ، في فورموزا ، في هاينان وفي الفيليبين ، وأقامت على هذا النحو في جزيرة لوسون جالية يابانية هامة حاولت أن تقاوم الغزاة الاسبانيين . واندفـــع القرصان والمغامرون اليابانيون حتى ماليزيا والهند الصينية ، ووجد أن القراصنة اليابانيين دمروا في العام ١٦٠٥ اسطولاً انكليزياً في مضيق ملقه .

توحيد اليابان في عهد اودا نوبوناغا . – كان اودا نوبوناغا (١٥٣٣ – ١٥٨٢) أميراً كبيراً من آل بيت اودا . الف لنفسه زبائن خاصين ، وعصبة عسكرية منظمة تنظيماً جيداً . وفي العام ١٥٦٥ اغتيل الشوغون الاسمي آشيكاغا يوشيتيرو ، فدعـــم اودا قضية الشاب آشيكاغا يوشياكي وأقامه على العرش ، ولكنه أصبح نفسه نائباً للشوغون وتمتع بسلطة عظيمة حتى انه عام ١٥٧٣ خلع آخر اشيكاغا . ثم تغلب اودا على مختلف البيوت الاقطاعية والأديرة البوذية الغنية والقوية . ولكن اودا هلك في ثورة عسكريه عام ١٥٨٢ .

تأسيس سلالة توكوغاوا . – وبعد أودا ، كانت السيطرة لطاغية كبير يسمى هيديوشي ، وكان ابن فلاح ، ويقابل سفورزا الايطالي . اخرج اليابان من عزلتها المديدة . وبعد أن أنهى توحيد الجزر اليابانية قام بمحاربة الصين وبحملة على كوريا ومات عام ١٥٩٤ .

وكان خلفه ابن حميه لياسو أكثر من ابنه هيديتادا ، فمنذ أصبح

شوغوناً عام ١٦٠٣ وطد السلالة الشوغونية لقرنين بمساعـــدة ٨٠،٠٠٠ هاتاموتو من آل توكوغاوا ، واحتل الحصون المجاورة إلى بيدو وأخضع الدايميو . وستظل اليابان دولة إقطاعية بيد أن هـذه الاقطاعية كانت خاضعة ومنظمة ، وتؤلف طبقة بلاط نبيلة حقيقية دون أن تعيش في قصورها منطوية على نفسها . وكانت اليابان تعتمـد على قوم الشمال في جزيرة هوندو ، وتعدل معارضة قوم جنوبي غربي الجزيرة ، وسيكوك ، وكيوسيو . وسيوجد فيها ديوانية (بورقراطية) وضابطة قوية وجيش ومالية منظمة . ويضم بلاط الشوغون حاشية تتألف من ٣٠٥ سيدات و ٤ مهرجين ، وبلاط الزوجة ٣٠٥ سيدات و ٤ مرافقات . ويساعد الشوغون ٤ وزراء (الشؤون الداخلية والخارجية ، العدل الساموراني ، العبادات) ، و ٣ هيئات من كبار الموظفين (المعابد ، المالية ، بيدا) و ٣ دواوين (الادارة المركزية ، المـدن ، الارياف) و ٣ مجالس (الشيوخ ، المرشحون ، المراقبون) .

العلاقات مع الغرب . العلاقات التجارية . المبشرون . — في العام ١٥٤٥ عقد فلاح برتغالي اسمه فرناؤماندز بنتو علاقات تجاريه مع موانىء اليابان الجنوبية . ثم ظهر المبشرون ، فاستقبلوا بجفاوة على العموم وذلك لأن اليابانيين كانوا متسامحين . فقد نزل القديس فرانسوا كزافية عام ١٥٤٩ وحصل من الملك ساتسوما على السماح بالتبشير ، فصبأ بعضَ الناس . واعتقد الامبراطور ان هذا التبشير يقصد منه فرقة بوذية ، فتنازل لها عن دير . وأرسلت بعثة إلى رومـــا فاستقبلها البابا غريغوار الثالث عشر (١٥٨٢ — ١٥٨٥) . ومع هذا فقد أخذ على المبشرين ، من برتغاليين واسبانيين ، غيرتهم المفرطة وخلطهم التجارة والسياسة بالدين . ولذا طرد هيديوشي المبشرين الأجانب . وفي عام ١٥٩٧ صلب ٩ مبشرين و١٧ صابئاً

من أبناء البلاد . وفي عهد ليازو كثر اضطهاد المسيحين وأغلقت اليابان أبوابها اغلاقاً يكاد يكون تاماً في وجه التجارة الاوربية ، باستثناء الهولانديين المقيمين في جزيرة ديشيا بالقرب من ناغازاكي . ودام هذا الاغلاق طيلة قوة عائلة توكوغاوا .

الحضارة اليابانية . ـ اتخذت الحضارة اليابانية طابعاً أصيلاً بتصويرها الديني أو التاريخي (مدارس كانو ، و توزا) ، ودروعها الحديديه ذات القطعة الواحدة ، وأغمادها ومقابضها . وبفضل السلام الذي ساد في البلاد نعمت هذه الحضارة اليابانية . وبعد أن كان الدرع كثيفاً أصبح غنياً مرصعاً .

وبعد حملة كوريا انتشرت الحروف المتحركة ، ثم طرق النسخ التي ولدت الختم والطبع في العصور التالية .

وبفضل هذه الطرق الجديدة اتجهت الثقافة ، التي ظلت حتى ذلك الحين قاصرة على النخبة الصغيرة ، نحو الجماهير ، ومع فتح أول مسرح في بيدو (١٦٠٧) مثلت الدرامات الغنائية (نو) . ولاقت الأشعار الشعبية (هاكا) نجاحاً أكثر من المجموعات الكلاسيكية الصينية والتاريخية اليابانية التي أيقظت حب الاطلاع على الأقل وأرست قواعد اليابان الحديثة .

* * *

القسم الثالث

البلاد الافريقية

الفصل الأول

وادي النيل

مصر

مصر قبل الفتح العثماني . — مصر بلد عربي إسلامي يتمتع بموقع جغرافي ممتاز . وقد مكنه هـذا الموقع من أن يلعب دوراً فائقاً في حوض البحر المتوسط الشرقي . ولقد نعمت مصر باستقلال ذاتي في عهد الطولونيين والاخشيديين والفاطميين ومن تلاهم من دول الايوبيين والمماليك . وكانت في زمن السلطان صلاح الدين الايوبي (١١٧١ — ١١٩٣) معقلاً من معاقل العروبة والاسلام ، ومركزاً للصراع بين الشرق والغرب . وفي عهد السلطانين بيبرس (١٢٦٠ — ١٢٧٠) وقلاوون (١٢٧٩— ١٢٩٠ استطاعت القوى الاسلامية المتحدة أن ترد غارات المغول على أعقابها خاسرة وتحفظ مصر وسورية من المصير الذي لاقته بغداد ، وما لبث الصليبيون أن أجلوا عن عـكا (١٢٩١) وارتبطت سورية من جديد بمصر .

وكانت مصر قبل الفتح العثماني في عهد المماليك الشراكسة دولة مستقلة ومركزاً لامبراطورية كبرى تضم مصر وبلاد الشام والحجاز واليمن ، وزادها المماليك جمالاً بإنشاء الأوابد العظيمة التي جعلت من القاهرة أجمل

عاصمة في العالم الاسلامي . ولاشك في أن الرفاه ، الذي تمتعت به مصر في ظل المماليك بالرغم من الحروب الأهلية الكثيرة ، يتضح بخصب وادي النيل وواردات التجارة مع الهند التي تصل منتجاتها إلى الاسكندرية وموانيء الشام وتباع في الأسواق الأوربية بأسعار باهظة .

أفول تجارة الهند . — كانت مصر في فاتحة القرن السادس عشر ، منذ ١٥٠١ ، تحت حكم السلطان قانصوه الغوري ، دولة قوية ظاهراً. ويبدو أن اكتشاف البرتغاليين لطريق الهند قد أضر بتجارة مصر والشام والبندقية لصالح المكتشفين الجدد . ومنذ ١٥٠٣ لم تعد سفن البندقية تغادر موانيء مصر وسورية إلا بنصف الشحنة التي كانت تحملها من قبل وأصبحت تكاليفها غالياً .

ولقد تمكن البرتغاليون بأسلحتهم النارية الحديثة أن يستقروا في مسقط وهرمز وعدن ، وأن تنفذ سفنهم إلى البحر الأحمر وتهدد المراكز المصرية . على أن قانصوه الغوري لم يقف مكتوف الأيدي أمام خطر البرتغاليين، بل أفاد من مساندة البنادقة الذين هددت تجارتهم مثله وأرسل اسطولاً إلى المحيط الهندي لقطع الطريق في وجه البرتغاليين . وبعد أن لاقى بعض النجاح قهره البوكرك في شباط ١٥٠٩ بالقرب من ديو . وفي هذه الظروف الصعبة التي ألمت بالسلطان المملوكي من نقص في الموارد وثقل في الضرائب دون التمكن من دفع عطاء الجنود بانتظام ، داهمه خطر الأتراك العثمانيين بقوتهم النامية وهجومهم الكاسح .

النزاع بين السلطان سليم وقانصوه الغوري (١٥١٦). — ظهرت الصعوبات بين الامبراطورية العثمانية ومصر منذ عهد السلطان قيتباي (١٤٦٨ — ١٤٩٢) عندما لجأ جم المطالب بالعرش العثماني ، ضد أخيه

السلطان بايزيد ، إلى مصر واستقبله سلطانها بجفاوة، ثم عاد منها لاستئناف النزاع فغلب على أمره وسجن في رودس ثم في فرنسا وانهى حياته المغامرة في ايطاليا . وقد غضب السلطان بايزيد لهذه المساعدة غير المباشرة التي خولها قيتباي لجم ، وهاجم أمراء آسيا الصغرى الذين تحميهم مصر ، ولكنه غلب على يد الجنرال المصري ازبك .

ويبدو أن العلاقات في عهد قانصوه مع الامبراطورية العثمانية كانت في تحسن ، حتى ان قانصوه شجع العثمانيين في نزاعهم ضد الشاه اسماعيل عندما أعلن هذا الأخير المذهب الشيعي ديناً رسمياً للدولة وأخذ يهدد سورية في منطقة الفرات .

وعندما تولى السلطان سليم العثماني العرش هاجم الشاه إسماعيل وغلبه في واقعة تشالديران عام ١٥١٦ ودخلت ديار بكر والعراق الأعلى والموصل في الامبراطورية العثمانية ، فقلق قانصوه من أطماع سليم وتحالف سراً مع الشاه اسماعيل دون أن يقطع علاقاته مع الأتراك ، وتهيأ للتدخل وغادر القاهرة في أيار ١٥١٦ بجيشه وبصحبته المتوكل الخليفة العباسي ، ولم يصل حلب إلا في تموز بعد إخفاق الفرس ، وأرسل إلى سليم عرضاً يقترح فيه السلام ، غير أن سليماً كان مطلق اليدين من جهة إيران فقرر الاستيلاء على سورية ورد السفير المصري بعد أن جز ناصيته وأركبه على حمار جربان وكان هذا العمل مؤذناً بالحرب . ووقعت الواقعة بين الطرفين في مرج دابق ، شمال حلب ، في ٢٤ آب ١٥١٦ ومكن تفوق المدفعية سليماً من التغلب على خصمه بسهولة ، فضلاً عن أن خير بك حاكم حلب انتقل إلى صف السلطان سليم هو ومن معه من جنود . ولم يشأ قانصوه العجوز ، وهو في الثمانين من عمره ، الفرار فخر صريعاً في المعركة ولم تتحق أمنيته بمواراته في مثواه الأخير في المدفن الجميل الذي شاده في القاهرة . ودخل

سليم حلب الشهباء وانضم إليه الخليفة المتوكل ، فاستقبله خير بك استقبالاً طيباً ، ثم قدم إليه زعماء المماليك ، ومن بينهم خير بك ، خضوعهم ، وباشر سليم فتح بلاد الشام دون مقاومة .

فتح مصر ١٥١٧ . — وعندما علم نبأ وفاة قانصوة في مصر انتخب أمراء المماليك أحد أقربائه طومان باي خلفاً له . وقد سبق لقانصوه قبل مغادرته مصر أن سماه نائباً عنه في غيبته .

ولا يبعد أن يكون السلطان العثماني قد أصغى لايحاءات خير بك في دفعه لمهاجمة مصر ، فأرسل إلى طومان باي كتاباً شديد اللهجة يأمره فيه بالامتثال والخضوع والدعاء له بالصلاة وضرب النقود باسمه . ورأى طومان أن المقاومة لا تجدي نفعاً ولكنه آثر أن يموت شريفاً وقرر القتال ، واشترى مدافع وبنادق من بنادقة قبرص ، وانطلق إلى الصالحية في شرق الدلتا ليسد الطريق في وجه العثمانيين . واندفع سليم من دمشق والتحق بجيشه في غزة في كانون الثاني ١٥١٧ ثم أخذ طريق الصحراء ، وعلى بضعة أميال شمال القاهرة قابله طومان باي في **الريدانية** في ٢٢ كانون الثاني ١٥١٧ ، ولكنه اضطر إلى القتال متراجعاً أمام قوة العثمانيين وتفوقهم بالمدفعية . ثم دخل العثمانيون القاهرة وأعملوا فيها السلب والنهب . ولم يسقط في يد طومان باي ، بل حاول فتح القاهرة من جديد داراً داراً خلال يومين وليلتين . غير أنه غلب على أمره أخيراً ولجأ إلى مصر العليا . ولما رأى سليم شجاعته وشدة بأسه عرض عليه أن يبقى على رأس البلاد إذا اعترف بسيادة السلطان العثماني ، فأجاب طومان بقتل رسله ، فما وسع سليماً إلا أن أعمل السيف في مماليك القاهرة ، وحاول طومان باي استئناف القتال واسترداد القاهرة واشتبك مع العثمانيين في معركة فاصلة اضطرته إلى الهزيمة والفرار ، ولجأ عند أحد زعماء البدو في مديرية البحيرة فسلمه إلى

السلطان سليم في ٣٠ آذار فاستقبله استقبالاً ودياً وظل معه عدة أيام يسأله عن أحوال مصر وإداراتها ومواردها ، وعندما أخذ مايكفيه من معلومات اعدم طومان باي شنقاً في باب زويلة في ٢٤ نيسان ١٥١٧ وظل جسده ثمانية أيام معلقاً أمام أعين الشعب . وبهذا الحادث ينتهي حكم المماليك الشراكسة في مصر بعد عهد دام منذ آخر القرن الرابع عشر ، وينتهي استقلال مصر وتصبح ولاية عثمانية .

سليم الأول في مصر . — ظل السلطان سليم في مصر حتى ايلول ١٥١٧ وأقام في جزيرة الروضة حيث أمر ببناء جناح خاص له . وفي غضون ذلك أرسل إليه شريف مكة وفداً بزعامة ابنه ليقدم خضوعه بين يديه .

وعهد السلطان سليم إلى خير بك ، حاكم حلب السابق ، بحكم مصر وترك للماليك الذين أعلنوا ولاءهم بعض امتيازاتهم . ولم يدخر وسعاً في سلب مصر وابتزاز ثرواتها ونفائسها . وعند مغادرتها أخذ معه ألف جمل محملة بالذهب والفضة ، دون ذكر باقي الغنائم والهدايا الثمينة التي قدمت اليه واصطحب معه أيضاً مهرة الصناع ليشغلهم في تزيين القسطنطينية .

ويزعم بان الخليفة العباسي الأخير قلد السلطان سليماً الخلافة الاسلامية . وهذا التقليد خوله تفوقاً روحياً وجعله خليفة المسلمين . ومهما يكن فقد حمل السلاطين العثمانيون ابتداءاً من سليم لقب خليفة . وبعد أن أقام الخليفة العباسي مدة في القسطنطينية سمح له بالعودة إلى القاهرة حيث مات ميتة غامضة حوالي العام ١٥٤٣ .

التنظيم السياسي والاداري . — لم يكن لدى السلطان سليم متسع من الوقت لتنظيم فتحه . وظل خير بك حاكما في مصر حتى وفاته عام ١٥٢١ . وبدأت الاضطرابات بعده . فقد ثار خلفه أحمد باشا ، يدعمه امراء المماليك ، وأخذ يقتل الانكشارية وأعلن نفسه سلطاناً . غير أن هذه الثورة قمعت بالقوة وسيق الباشا الى القسطنطينية وأعدم عام ١٥٢٤ .

وعلى أثر هذه الاضطرابات نظم حكم مصر عهد السلطان سليمان الثاني الملقب بسليمان العظيم (١٥٢٠ – ١٥٦٦) . فقد أرسل الى مصر عام ١٥٢٥ وزيره الاكبر ابراهيم للقيام بتحقيق عام . فأخذ هذا على عاتقه مهمة تنظيم الحكم في مصر . ويقوم هذا التنظيم الجديد على الحذر وسوء الظن ، لأن السلطان كان يخشى من أن يفيد الباشا من بعد مصر عن مركز الامبراطورية فيحاول الاستقلال ، كما حدث في محاولة أحمد باشا . ولتخفيض سلطة الباشا في مصر أقام ابراهيم في البلاد ثلاث سلطات قائمة على التوازن فيما بينها : سلطات الباشا ، والحاميات ، والبكوات .

الباشا . يسمى الباشا من قبل السلطان ، ويقوم على رأس الادارة المدنية والمالية في البلاد ، ولا يختاره السلطان من مصر ، بل ينتقيه من تركيا بعد أن يتمرس على الوظائف العليا ، بما فيها وظيفة الوزير ، ويعين لفترة قصيرة جداً و سنة أوسنتين . ومن الممكن أن يبقيه السلطان عدة سنوات . وعليه أن يقوم بنقل أوامر السلطان وتنفيذها ، ويعين البكوات وحكام الاقاليم ، ويرسل الى السلطان كل سنة ضريبة مصر ، وينظم قافلة الحج الى مكة ويقدم مساعداته الى مكة المكرمة والمدينة المنورة . ويقيم الباشا في قلعة القاهرة ، ويرأس الاحتفالات الكبرى في العاصمة : عيد الفطر ، سفر الحج ، افتتاح الخليج (قناة تجتاز القاهرة وتغذيها مياه النيل) . غير أن الجنود التركية التي كانت في مصر لم تكن تحت تصرفه بل كان لها قادتها الخاصون . ولا يستطيع الباشا أن يبرم أمراً دون ترخيص الديوان .

الديوان . ـ الديوان مجلس اقامه السلطان سليم الى جانب باشا مصر . ثم قسم السلطان سليمان هذا الديوان الى هيأتين .

الديوان الأكبر . ـ ويكلف بالشؤون العامة ، ويتلقى الأوامر من الباب العالي ، ويتألف من زعماء الحامية العثمانية في البلاد ، ومن الدفتردارين (رؤساء المالية) وأمير الحج ومفتي المذاهب الاربعة وبعض العلماء .

الديوان الاصغر . ـ ويكلف بالشؤون المحلية ويتألف من كيخيا (كتخذا) أو نائب الباشا ويساعده مستشاره ومدير وثائقه وممثل واحد عن فرق الحامية العثمانية .

ويحق للديوان الأكبر تعليق أوامر الباشا والرجوع بها إلى ديوان القسطنطينية ، وعند الحاجة طلب اقالته ويرأسه نائب الباشا ولا يحق لهذا الباشا حضور جلساته الا مستتراً وراء السجف ؛ وعندما يقال الباشا ، إما بأمر من السلطان أو بمبادهة من قوات مصر ، ينوب عنه أقوى الأمراء ويلقب بالقائمقام حتى مجيء الباشا الجديد .

الوجاقات . — كان الجيش العثماني الذي بقي في القاهرة بعد الفتح يضم في البدء ست فرق عسكرية تدعى « وجاقات » ، ثم أضاف اليها السلطان سليمان فرقة سابعة — تتألف من مماليك مصر ، وهي الفرقة الشركسية . والفرق الخمسة الاولى ، مع فرقة الشركس تؤلف جيش الفرسان . والسادسة والسابعة ، فرقتا العزب والانكشارية جيش المشاة . وتضم هذه الفرق جميعاً من ١٢ إلى ٢٠ الف رجل . وكان لكل وجاق ضباطه : الآغا (الكولونيل) ، الكيخيا (النائب) ، والضباط الملحقون . ومع الزمن أصبح آغا الانكشارية الذي يقيم في القلعة قائداً للفرق السبع ، ووجاق الانكشارية في الدرجة الأولى من حيث الاهمية . وهذه الفرق العسكرية مكلفة في آن واحد بالدفاع عن مصر وحمايتها وبالشرطة واقتطاع الضرائب .

البكوات والمماليك – وإلى جانب الباشا والوجاقات وجد ١٢ ثم ١٤ بك يسمون من قبل الباشا ويتوزعون حكم مصر . وكانوا في البدء ينتخبون بخاصة من بين ضباط الوجاقات، ثم من بين المماليك فيما بعد . وفي الحقيقة، ان النزاع، الذي قام بين الأتراك العثمانيين والمماليك عند بداية الفتح ، لم يدم طويلا لأن الجنود الأتراك والموظفين ، الذين دخلوا مصر أثناء السيطرة العثمانية ، اختلطوا مع الزمن بطبقة المماليك ، وهي أكثر عدداً ولا يستغنى عن مساعدتها في حكم البلاد . ويدل تاريخ مصر في القرون الثلاثة ، السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر ، على أن النزاع الذي قام بين أحزاب المماليك لم يكن مطبوعاً بطابع مناصر اعثمانيين أو ضدهم ، وليس له سوى صفة شخصية .

وكان هؤلا المماليك ، الذين يقبضون على السلطة في مصر منذ قرون ، أرقاء ، كما يدل عليهم اسمهم ، يشرون من منطقة القوقاز أو سهول بحر الأسود ، ومن النادر أن تكون لهم أعقاب ولو تزوجوا . ولذا كان الرق مصدراً مغذياً للمماليك في مصر . وكان النخاسون يشترونهم من آبائهم عندما تكون سنهم ثماني أو عشر سنوات ويبيعونهم إلى بك كبير في القاهرة ، ويربون تربية اسلامية وعسكرية ويسمون باسماء إسلامية ويقفون حياتهم لخدمة سيدهم . وكانوا فرساناً عظاماً يحبون الخيول الجميلة والأسلحة الفاخرة . ومن امتازوا منهم أعتقهم سيدهم وحق لهم إطالة لحاهم وأصبحوا أمراء ويستطيعون أن يسموا « كشافاً » . وبهذه الصفة كان يعينهم البكوات في « السنجقيات » ، وأخيراً حصل بعضهم على لقب بكوات وأصبحوا موظفي السلطان ، ويعينون في وظائفهم من قبل الباشا .

وكان أهم البكوات : **الكيخيا** (كتخدا) : نائب الباشا ؛

الدفتردار : رئيس المالية ، **أمير الحج** ؛ ووظيفته قيادة الحج إلى مكة كل عام وتقديم الهدايا والصدقات إلى أشرافها وفقرائها ، وهؤلاء البكوات الثلاثة أعضاء في الديوان الأكبر ، كما رأينـــا ؛ **وشيخ البلد** : حاكم القاهرة وسيلعب في القرن الثامن عشر دوراً أساسياً ويحل محل الباشا . والآخرون قادة أسلحة في الاسكندرية ودمياط والسويس ، أو حكام أقاليم كبرى في مصر . ولم يتغير عدد هذه الأقاليم إلا قليلاً . ففي العام ١٣١٥ عرفت مصلحة التحديد والتحرير (المساحة) في عهد السلطان قلاوون ١٥ اقليماً ، منها ٩ أقاليم في مصر العليا . وفي فاتحة القرن التاسع عشر كان عددها ١٦ اقليماً .

وكان حكم الاقاليم من الناحيتين الادارية والماليـــة . بيـد هؤلاء الأمراء وكانت مصر مقسمة إلى مديريات تسمى كل منها « **سنجقية** » ويملكها أمير يعرف بالسنجق . وكل مديرية مقسمة إلى عدد من الأقسام، الكاشفيات ، ويحـكم كل واحد منها أمير يـدعى « **الكاشف** » وهو نائب السنجق .

الكشاف والضرائب . — لقد كانت الادارة الحقيقية في الاقاليم بيد « الكشاف » فعليهم تقع العناية بالسدود والطرق وكري القنوات وحفظ الامن في القرى والدفاع ضـد هجوم البـدو ، غير أن واجبهم الاصلي كان في رقابة الضرائب وجمعها . وقد أعلن السلطان سليمان أن أرض مصر ملكه واحتفظ بنظام الضريبة السائد في عهد المماليك . ويتم تملك الارض بالتنازل إلى **الملتزمين** ، وكان هؤلاء يشترون تكليفهم بدفع مبلغ من المال إلى خزينة السلطان ، ويمكنهم أن ينقلوه بالوراثة ، ولكن الارجاع اجباري في حال الوفاة دون وارث . وكان هؤلاء الملتزمون في الغالب عرضة لنهب البكوات أو الكشاف ، ووسيلتهم الوحيدة للخلاص

منهم كانت في تحويل أموالهم إلى أوقاف لصالح الجوامع والمؤسسات الخيريه مع الاحتفاظ بقسم من واردات أموالهم إلى ورثتهم .

وبالمقابل كان هؤلاء الملتزمون يثقلون كاهل الفلاح لسد نفقاتهم وللحصول على الغنى والثراء . حتى ان حالة الفلاح المصري آنذاك تشبه حالة القن في اوربة . لقد كان يتمتع بالارض ولايحق له بيعها ومغادرتها . وفي حال الوفاة دون وارث تعود أراضيه إلى الملتزم الذي يعطيها لفلاح آخر ليفلحها ، وكانت الضريبة العقارية أو « الميري » تدفع نقداً أو عيناً . ولاقامة هذه الضريبة أمر سليمان باجراء تحقيق عام واحصاء في الاقاليم والمدن والقرى ، ولم ينته عمل التحديد والتحرير وظل فرض الضريبة تعسفياً ، وكان يتم بواسطة وجهاء القرية وجهاز من الموظفين الملحقين ويسمون المباشرين أي جباة الضرائب وهم من الاقباط في الغالب .

وكانت العلاقة وشيجة بين إدارة البلاد وملكية الاطيان . وأخيراً كان المماليك أنفسهم يشترون التزام الضريبة حتى أن بعض الكشاف أصبحوا في الوقت نفسه ملتزمين : ومنهم من أثروا ثراء فاحشاً وأصبحوا من ذوي النفوذ لارتباطهم بالحاميات العثمانية ، وكان ذلك في جملة الاسباب التي أدت إلى ضعف سلطات الباشوات في مصر .

وكان من أهم الضرائب عيناً ضريبة القمح . ووجدت في القاهرة القديمة مخازن للدولة يسميها الرحالة أحياناً « أنبار السيد الاعظم » وعلى ضفاف النيل تفرغ سفن مصر العليا حمولها . وكان من واجبات مصر أن تجهز القسطنطينية والحجاز بالحنطة .

وإلى جانب هذه الضرائب ، كانت الموارد الاخرى تتأمن بالجزية

المفروضة على المسيحيين واليهود ، وبالتزام بعض السلع كالسنة والنطرون (فحمات الصوديوم الطبيعية) والملح ، وبالرسوم التي تفرض على الاسواق والمخازن والحياك والموسيقيين والمغنين ، وبالقروض الاجبارية المفروضة على التجار الاجانب من يهود واغريق وأوربيين .

الجمارك . — وكانت تؤلف مورداً هاماً للدولة . فقد فرض على البضائع أن تدفع الرسوم في الدخول إلى مصر والخروج منها . وكانت هذه الجمارك في الاسكندرية ورشيد وأبو قير ودمياط وبولس وبولاق ، وعلى طريق السويس على مسافة ميل من القاهرة . وفيها تدفع الرسوم على التوابل والعقاقير والبضائع الآتية من مكة ومخا والهند « وكانت هذه البضائع تفرغ في **الوكالة الكبرى** وهي بمثابة **خان** . وكانت واردات كل من هذه الجمارك تعين لجهة خاصة : مدفوعات الباشا وأغوات الحامية ، وحقوق مكة وضريبة السلطان . وكان كل جمرك منها يخول إلى ملتزم ، وكان الجمركي الحقيقي من كانت أعمال الاوربيين منوطة به ، وقد جرت العادة أن يكون يهودياً ويسمى « المعلم » . أما في القرن الثامن عشر فقد انتزع علي بك الجمرك من اليهود وأعطاه لمسيحيي سورية ، ثم أخذه مراد من السوريين وقرر أن يجبي الضرائب بنفسه .

النفقات . — وكانت هذه الواردات المختلفة تجمع في القاهرة وتدفع منها رواتب الباشا وحامية القاهرة ، والاشغال ذات النفع العام كالري وبناء الجسور والسدود واصلاحها ، والباقي للمدن المقدسة في الحجاز ، وضريبة السلطان وتقدر هذه الضريبة في البدء ٨٠٠,٠٠٠ دوقا . ثم خفضت إلى ٦٠٠,٠٠٠ ثم ٤٠٠,٠٠٠ وفي القرن الثامن عشر لم تدفع غالباً .

وهكذا كان للباشا وظائف كبرى . وكان على كل من يوشح نفسه لهذا المنصب أن يشتريه من القسطنطينية بطريق أو بآخر ويبذل في سبيله مالاً كثيراً . وعندما يصبح باشا يحاول أن يسترد الاموال التي بذلها بشتى الطرق المشروعة وغيرها . وقد جرت العادة ، اعتباراً من آخر القرن السادس عشر ، أن يعمل تحقيق بشأن الباشا التي انتهت مدة باشويته ، وكثير منهم يعاقبون بشدة عند عودتهم إلى تركيا ، ولكن دون كبير نتيجة .

وبالاجمال ، إن هذا النظام ، في كثير من النقاط ، لم يكن سوى تكملة واستمرار لنظام السلاطين المماليك . وهذا يعني أن الشعب المصري ظلت تتحكم بمقدراته أقلية من الاجانب الطفيليين الذين لايفكرون إلا بالثراء على حسابه ولم يكن ليوجد أي تضامن بين هذا الحكم الاجنبي وسكان وادي النيل .

حكم الباشوات . — وهذا النظام الذي أتينا على ذكره سار بانتظام تقريباً في القرن السادس عشر ، وفي القرن السابع عشر زادت الفتن ، وفي القرن الثامن عشر سادت الفوضى في مصر . وكان هذا التطور وثيق الصلة بضعف قوة الأتراك في أوربة . وبالتالي أخذت سلطة الباشوات تتضاءل في مصر ، وهذا ماجعلهم يقيمون قليلاً على وظائفهم . فقد وجد ١٣٨ باشا في فترة ٢٨١ عاماً بين ١٥١٧ و١٧٩٨ .

ولا شك في أن حكم السلطان سليمان يسجل نقطة الاوج التي وصلت اليها قوة الاتراك ، ولكن مصر لم تفد من هذه العظمة ، بل على العكس ان فتح سليمان لشاطىء افريقية الشمالية ، من طرابلس إلى وهران ، أتم إدخالها في الامبراطورية العثمانية

ويبدو أن حكم العثمانيين قد استقر في مصر منذ العام ١٥٢٥ دون صعوبة كبيرة في القرن السادس عشر ، حتى أن كثيراً من الباشوات حافظوا على حكم مصر خلال سنوات طويلة وكان بينهم إداريون صالحون . فمن ذلك أن سليمان باشا احتفظ بوظيفته من ١٤٢٥ إلى ١٥٣٨ وشاد في هذه الفترة جامع القلعة الذي يحمل اسمه . وفي العام ١٥٣٤ كان على رأس حملة ضد إيران والهند ، ثم عاد إلى مصر بعد عام وعشرة أشهر وظل حاكماً قرابة عام ونصف . ثم خلفه داود باشا فحكم مصر اثني عشر عاماً تقريباً من ١٥٣٨ إلى ١٥٤٩ ، وقد عرف بحبه العلماء واحترامهم وحمايتهم ومطالعة الكتب العربية . واستخدم كثيراً من الكتاب لنسخ الكتب التي لايستطيع الحصول عليها ، وأنشأ مكتبة هامة وحكم مصر بفطنة ودراية ومات في القاهرة عام ١٥٤٩ . وكان أحد خلفائه محمد باشا ، على العكس ، إدارياً سيئاً لا هم له إلا الثراء وجمع المال بشتى الوسائل . ولكن السلطان دعاه إلى القسطنطينية بعد ثلاثة أعوام وأعدمه عام ١٥٥٥ .

وكان آخر باشا في عهد سليمان القانوني يسمى محمود باشا (١٥٩٥ — ١٥٦٨) وقد اشتهر بطمعه وجشعه وفظاعته . أهلك أغنياء المماليك واستولى على ثرواتهم وقتل في القاهرة .

وفي عهد السلطان سليم الثاني عرفت مصر حاكماً صالحاً وهو سنان باشا ، فقد بنى في بولاق عام ١٥٧١ جامعاً على الطراز العثماني البيزنطي مازال موجود للآن ، وأسواقاً ، وخانات ، وأصلح قناة الاسكندرية . وفي العام ١٥٦٩ كلفه السلطان بحملة إلى اليمن وعاد ظافراً إلى مصر بعد عامين وأربعة أشهر .

ومن الولاة الصالحين مسيح باشا (١٥٧٤ — ١٥٨٠) . فقد

وطد الأمن ونشر العدل ، وضرب على أيدي المفسدين ، وبنى مدرسة وتربة له ووقف عليها أوقافاً .

وفي أواخر القرن السادس عشر ضعف نفوذ الولاة وقوي نفوذ الجند فأخذوا يتدخلون في شؤون البلاد ويقومون بأعمال الشغب . وقد أراد الوالي أويس باشا (١٥٨٧ – ١٥٩١) على ماعرف عليه من حزم ، أن يوطد النظام ويدخل المصريين في الجيش فثارت ثائرة الجنود وأخذوا أولاده رهائن وهاجموه حتى رضخ وعدل عن مشروعه . واشتد تسلط الجند على الولاة ودامت الحال على هذا النحو حتى الربع الأول من القرن السابع عشر عندما ولي مصر قره مصطفى باشا في العام ١٦٢٢ وضرب على أيدي الجند فهابوه وأحبه الناس لسماع ظلاماتهم واهتمامه بنشر الأمن .

الشعب المصري . –يتألف الشعب المصري من عده طوائف اجتماعية . ويظهر التباين جلياً بين سكان المدن وسكان الريف في مختلف النواحي . وسكان المدن موزعون مابين علماء وتجـــار وأرباب حرف . وسكان الريف فلاحون .

يتمتع العلماء من بين سكان المدن بالجاه والثراء والمركز الاجتماعي الممتاز . وهم في الأصل من أبناء الفلاحين الذين التحقوا بالجامع الأزهر وتعلموا وتولوا مناصب دينية كالقضاء والتدريس والنظاره على الأوقاف الخيرية . وقد أكسبهم وضعهم الثقافي والاجتماعي مكانة خاصة في المجتمع، واستطاعوا أن يثروا ويعيشوا عيش الأمراء . وكان الحكام يخشونهم لما لهم من نفوذ في قلوب الشعب وصلة وثيقة به ، فاليهم يرجع في أوقات الملمات ويصغى لنصحهم ويسترشد برأيهم ، حتى أن كثيراً من الحركات الشعبية كانت تقوم بتحريض منهم ضد الحكام الظالمين .

ويتصل بهؤلاء العلماء رجال الطرق الصوفية ، ولم يكونوا على شيء من العلم إلا قليلا ، فضلا عن أن أعمال كثير منهم يشوبها التدجيل والشعوذة ولكن هذا لايمنع من أن لهم مكانة إجتماعية خاصة بين أفراد الشعب ولا سيا طبقة الدهماء منه .

التجار . — يؤلف التجار في المدن الطبقة الغنية . ومنهم من استطاع أن يكون ثروه ضخمة . وكان هؤلاء التجار يعقدون الصلات التجارية بين المدن المصرية في الداخل . وبين مصر والبلاد الأجنبية في الخارج . ويظهر نشاطهم خاصة بالتجارة مع السودان حيث يأتي العاج وريش النعام والصمغ والتمر الهندي ؛ ومع بلاد المغرب العربي ومنها يؤتى بالطرابيش والحرامات الصوفية وزيت الزيتون ؛ ومع الهند حيث يؤتى بأنواع التوابل المختلفة ؛ ومع بلاد الشام ويؤتى منها بالفواكة المجففة ؛ ومع إيطاليا حيث يستورد القماش والحلي والرخام والزجاج ويبادل هؤلاء التجار هذه المستوردات المختلفة بمنتجات مصر من غلال مختلفة وأرز ومنسوجات .

الحرف اليدوية . — وعدا عن التجار وصغار الموظفين كانت المدن تضم أرباب الحرف اليدوية المختلفة كالحداد والنجار والنحاس وغيرهم ويكون أرباب كل حرفة من هذه الحرف طائفة خاصة أو صنفاً مهنياً مهمته تعيين شروط العمل ومدته ومنح الرخص لمن يريد العمل بصنف من الأصناف ، لأن حرية العمل لم تكن مطلقة . ولا بد للصانع من قضاء وقت معين عند معلمه حتى يتخرج على يديه معلماً . ولقد كان نظام الصناعة اليدوية في مصر يشبه من عدة وجوه نظام الأصناف الحرفية المتعارف عليه في العصر الوسيط في أوربة .

الفلاحون . — لقد كانت غالبية الشعب المصري من الفلاحين ولم يكن هؤلاء مالكين للاراضي التي يزرعونها ، بل كانت الارض ملكاً

السلطان . وعليهم أن يؤدوا ما عليهم من ضرائب إلى الملتزمين . وكانت هذه الضرائب اعتباطية يفرضها الملتزم حسب هواه ويطالب بها الفلاح كلما احتاج إلى المال ، وليس لهذا الطلب حد أو قيد . وكثيراً ما يتعرض الفلاح لضروب الاهانات والتعذيب . ولا تنتقل الأرض منه لورثته دون دفع أتاوة للملتزم والقيام بما عليهم من التزامات وسخرة للعمل في أرضة .

السودان

السودان قبل الفتح العثماني . — عندما فتح العرب المسلمون مصر على يد عمرو بن العاص بين ٦٣٩ و ٦٤١ م كانت الاراضي الواقعة في جنوب الشلال الأول تؤلف مملكتين مسيحيتين :

١ — المملكة الشمالية وهي معروفة باسم مملكة مقورة وعاصمتها دنقلة القديمة ، وتمتد حتى النيل الأصلي جنوب نهر عطبرة .

٢ — المملكة الجنوبية وهي مملكة علوه وتمتد جنوباً إلى النيل الأزرق والنيل الأبيض حتى مسافة غير محدودة تماماً وعاصمتها سوبا على الضفة اليمنى لنهر النيل الأزرق على مسافة بضعة أميال من التقائه بالنيل الاصلي .

وقد أعتنق سكان هاتين المملكتين المذهب اليعقوبي وارتبطوا بالكنيسة القبطية .

وتسللت العنـــاصر العربية إلى السودان عن طرق مختلفـة : عن طريق البحر الأحمر ، ولم يكن هذا البحر في يوم من الأيام فاصلاً بين سكان شاطئيه الشرقي والغربي ؛ وعن طريق مصر لأن كثيراً من القبائل العربية التي هاجرت الى مصر كانت تعبر برزخ السويس ثم تصعد نحو الجنوب ؛ وعن الطريق ؛ الليبيه التي تصل السودان الشمالي الغربي بصحراء ليبيا الواقعة غربي النيل .

وعندما انتشر الاسلام في مصر قاد عبد الله بن أبي سرح حاكم مصر جيشه وحاصر دنقله ، واكتفى أخيراً بفرض معاهدات أقرت لمدة ستمائة عام العلاقات التجارية وتسوية بين مصر الاسلامية والنوبة المسيحية ، وأنهت وضع النوبيين في الاراضي الاسلامية ، ووضع المسلمين في النوبة ، كما نصت على بقاء جامع في دنقله ، وفرضت ضريبة سنوية قدرها ٣٦٠ رقيقاً تدفع إلى حاكم أسوان المسلم . وتم اتفاق شفوي لم ينص عليه ، وهو ان يحصل النوبيون على هدايا من الحبوب والسلع الأخرى من السلطات المصرية بما يزيد ثمنها على قيمة الضريبة من الرقيق .

ثم أخذت القبائل العربية تتقاطر في هذه الفترة على السودان من ربيعة وجهينة ، ويكثر اقبالها بين حين وآخر افراداً وجماعات . وبدأ التعريب في انحاء السودان يعمل عمله عن طريق التزاوج والاختلاط . ولم تكن الحروب بين السودانيين والعرب في مصر كثيرة في أغلب الأحيان ، كما لم يكن النصر حاسماً رغم ما فرض المسلمون من جزية على السودانيين ، وإذا قبل هؤلاء الرضوخ فذلك ليستعدوا للقتال مرة أخرى .

وفي عهد الظاهر بيبرس قضي على مملكة مقره في عام ١٢٧٦ ، بعد أن هزم الملك السوداني المسيحي داود ، وتدفق العرب جنوباً حتى جاءوا مملكة علوه . وهذا الجوار مهد لدخول المسلمين ، عندما ظهر الاعياء على السكان الأصليين وأخذ العرب يطبقون عليها من كل جانب ، واتحد العرب النازحون من الجزيرة العربية بالفونج ، وهم جماعة سود البشرة يتكلمون اللغة العربية ، ويرجع نسبهم إلى الامويين الذين نزحوا إلى السودان واختلطوا بسكانه الأصليين حتى اسودت بشرتهم ، ثم اتحدوا مع عرب القواسمة المهاجرين من الجزيرة العربية وتم على أيديهم تأسيس مملكة

الفونج ١٥٠٤ ، وأحياناً أخرى سلطنة سنار . ومن المهم أن نذكر ان دولة الفونج منذ بدء تأسيسها كانت دولة اسلامية ، لغتها العربية ، وليس لها أي لغة أخرى . وقد تحالف هؤلاء جميعاً وزحفوا من مملكة علوه وحاصروا سوبا وخربوها .

السلطنة الزرقاء او مملكة الفونج (١٥٠٤) . — وبهذا النصر الذي حققه الفونج وحلفاؤهم العرب تشكلت في السودان سلطنة اسلامية عربية اتخذت من سنار قصبة ملكها وكان سلطانها الأول عماره دونقس ، ووزيره ، زعيم القبائل العربية ، عبد الله جماع . وتم الاتفاق بين الاثنين على أن يكون السلاطين من الفونج والوزراء من العرب .

لقد أدخل العرب إلى السودان الحياة القبلية والدين الاسلامي واللغة العربية واتسعت رقعة سلطنة الفونج وامتدت من حدود الحبشة حالياً شرقاً إلى بلاد الشايقية شمالاً . ولولا وجود الحكام الاتراك في شمال السودان لأصبح هذا الاقليم خاضعاً لسلطة الفونج . وبقيت هنالك أجزاء خارجة عن إرادة السلطنة وهي : دارفور ، النوبة الشمالية ، كردفان ، خلال فترة من الزمن .

وحاولت سلطنة الفونج خلق إدارة موحدة في البلاد ، ولكن الطابع القبلي كان غالباً عليها . فقد كانت حكومة إقطاعية ، للسلطان الأرض وللزعماء الحكم على قبائلهم . ونظراً لاتساع البلاد وصعوبة المواصلات كان سلاطين الفونج يكتفون من زعماء القبائل بالجزية والخضوع الاسمي . وعندما وصل الحكم إلى السلطان دكين عرف عنه أنه إداري حازم ومشرع ، فقد عدل نظام الحكم وخفف من الحكم الفردي المطلق ، وعين مجلساً من الأعيان مؤلفاً من كبار رجال العائلة المالكة وعظماء السلطنة ، وكان

هذا المجلس ينعقد أربعة أيام في الاسبوع ، ويتمتع بسلطات استثنائية ويستطيع بذلك عزل السلطان .

وكانت الأقاليم شبه مستقلة ذاتياً وتخضع لسيطرة زعمـــاء القبائل ، وبالمقابل كان هؤلاء يدفعون الجزية ويقدمون الهدايا لسلطان الفونج .

علاقة سلطنة الفونج بالعثمانيين - عندما فتح السلطان سليم الأول مصر وألحقها بالامبراطورية العثمانية عام ١٥١٧ لم يحاول فتح البلاد البعيدة في مصر العليا ، بل وظلت تحكم من زعماء القبائل الذين قبلوا سيادة السلطان

وفي عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ - ١٥٦٦) امتد العثمانيون إلى أراضي النوبة على يد **ازدمر باشا** . ويرجع هذا بنسبه إلى السلطان قانصوه الغوري ، خدم العثمانيين ، وعين حاكماً عاماً لليمن . ثم تخلى عن هذا المنصب حوالي العـام ١٥٥٠ وعـاد إلى مصر عن طريق سواكن ، وذهب إلى القسطنطينية وقابل السلطان واقترح عليه القيـام بحملة لفتح الحبشة . فوافق السلطان على الاقتراح وسمح لازدمر بتجهيز جيشه .

انطلقت الحملة عن طريق مصر العليا براً حتى سواكن ، وكانت الطريق شاقة ، بيد أنها كانت فرصة للتدخل في قضايا النوبة السفلى وقيام الحرب بين قبيلتي **الجوابرة والغربية** . وكان الجوابرة حلفاء الفونج ، ويبدو أنهم كانوا أتباع ملك دنقـلة . واستطاعوا السيطرة على الأراضي العليا ، بينما اعتمد الغربية على دعم العثمانيين .

وتمكن ازدمـر من الاستيلاء على حصون ابريم ، وأقام فيها حاميـة بشناقية وفي اسوان وهي التي تقوم بين الشلال الثاني والثالث . وعهد بادارة هذه المنطقة وجمع وارداتها إلى **كاشف** أقام في الدر وأصبحت وظيفتـه وراثيـة في اسرته ، وألفت ذريته قبيلة عرفت باسم **الغز** .

وتم التزاوج بين البشناق وأبناء البلاد وشكلت أنسالهم طبقة ممتازة عرفت باسم « القلعجي » أي « رجال الحامية » أو « العثماني » . وكان يحكمهم آغا خاص منهم مستقلاً عن الكاشف .

انطلق ازدمر من النوبة إلى شاطىء البحر الأحمر وأنشأ قاعدة عثمانية ضد البرتغاليين والأحباش . وأصبحت سواكن بيده ، وتمكن من الاستيلاء على مصوع عام ١٥٥٧ ، وأصبحت له مركزاً إدارياً ، وعلى زيلع التي خلصها من أيدي البرتغاليين ، ثم تواطأ مع أحد الثائرين على ملك الحبشة وفتح بعض البلاد وأخذ ديبادووا . وتوفي هناك ودفن في ١٥٥٩ - ٦٠ ثم نقل فيا بعد إلى مصوع . وعلى اثر ذلك أفل نجم العثمانيين في الحبشة بسرعة .

سلطنات السودان . ـ لقــــد كان السودان الشمالي يضم ثلاث سلطنات إسلامية وهي : سلطنة الفونج (١٥٠٥ - ١٨٢١) ، وسلطنة دارفور (١٥٩٦ - ١٩١٦) ومملكة تقلي (١٥٧٠ - ١٨٨٠) في الشمال الشرقي من البلاد . وكانت سلطنة الفونج في نزاع دائم مع سلطنة دارفور على كردفان الواقعة بينهما .

وقد ساعد سادة هذه الدول على نشر الاسلام والتعليم على أيدي الفقهاء الذين وفدوا إلى البلاد من الأندلس والحجاز وكانوا موضوع احترام منهم . كما انتشرت في السودان الطرق الصوفية الاسلامية .

ونشطت تجارة الفونج مع الخارج بطريقين : طريق سواكن الخاضعة للعثمانيين وهي الميناء الوحيد للسودان على البحر الأحمر ، وطريق مصر . ولم يكن لها عملة خاصة مستقلة بل كانت تتداول الريال النمساوي .

الفصل الثاني

المغرب العربي الكبير

لقد ساد حكم سلالة الموحدين على المغرب العربي وعلى نصف أسبانيا من ١١٤٧ إلى ١٢٦٩ ، ثم قامت على أنقاض هذه الدولة دول صغيرة أهمها الدولة المرينية في مراكش ، والدولة الحفصية في تونس ، والدولة الزيانية في جزء من الجزائر . وكان النزاع بين هذه الدول دائماً لا ينقطع ، حتى أن تفتت المغرب ، في آخر القرن الخامس عشر ، شجع الغزو الأجنبي وأثار أطماع الدول : اسبانيا والبرتغال والدول الايطالية .

وكانت الدولة العثمانية آنذاك في أوج قوتها وتوسعها . وقد قامت تفتح بلاد الحوض الغربي للبحر المتوسط الجنوبي . وساعدت العرب والمسلمين في بلاد المغرب في نضالهم ضد الغزاة الأوربيين . ولذا كان تاريخ المغرب العربي في هذه الفترة مطبوعاً بالتوسع العثماني من جهة والعدوان الاسباني خاصة على تلك البلاد من جهة أخرى . غير أن الحكم العثماني لم يكن مستقراً . فكان يمتد حيناً وينحسر حيناً آخر ، وفي أغلب الأحيان كان حكماً اسمياً . أما مراكش في المغرب الأقصى ، فقد ظلت مستقلة عن العثمانيين وتمتعت باستقلالها حتى الحماية الفرنسية عليها عام ١٩١٢ .

مراكش

الدولة الوطاسية (١٤٧١ – ١٥٥٤) . – يتفق عصر النهضة الذي ندرسه مع حكم الدولتين الوطاسية والسعدية في مراكش . وتنتسب

الدولة الوطاسية إلى بني وطاس وهم فرع من بني مرين . وكان منهم وزراء وأصحاب شأن في الدولة المرينية ، وكانوا ينافسون المرينيين سلطانهم وقد قتل عبد الحق آخر سلاطين المرينية كثيراً منهم ونكل بهم كما فعل الرشيد بالبرامكة . وافلت منه محمد الشيخ أخو الوزير يحيى وأسس الدولة الوطاسية واحتل آصيلا في الريف وأيده أعيان فاس بعد أن خلعوا السلطان عبد الحق وقتلوه ، ثم استولى على فاس في ١٤٧١ ، وخرج منها أبو عبد الله الحفيد .

وكانت الفتن قائمة في المغرب عندما تولى محمد الشيخ الحكم ، فضلاً عن نزول البرتغاليين واستيلائهم على الموانئ مثل سبتة وطنجة وآصيلا ، وبعوثهم ومراياهم التي كانت مبثوثة في اطراف البلاد المجاورة . وقد سقطت في عهد هذا السلطان مدينة غرناطة في يد الاسبان (١٤٩٢) وقدوم اهلها من بني الأحمر إلى المغرب . وقام جماعة من سكان مراكش فأوقفوا الاعداء عند حدهم . ومن هذه الجماعة الاندلسيون الذين عمروا تطوان بعد خرابها ، وأخذوا يشنون الغارات على المسيحيين في سبتة .

وتوفي محمد الشيخ في ١٥٠٤ ثم خلفه ابنه محمد البرتغالي ، وقد عرف بهذا اللقب لأنه بقي أسيراً في البرتغال مدة سبع سنوات . واستولى البرتغاليون في عهده على ميناء العرائش ، ولكنه هاجمهم وأخذ آصيلا في ١٥٠٨ ، ثم اتتهم النجدات من جبل طارق وطنجه فعاد المسلمون واخلوها . وهكذا شغل هذا السلطان بالدفاع ضد البرتغاليين الذين نزلوا في السواحل المراكشية لتأمين مواصلاتهم في المحيط الاطلسي .

ولما مات محمد البرتغالي خلفه أخوه أبو حسون ، ولكن ابن اخيه أبو العباس أحمد بن محمد خلعه واستولى على العرش . وفي عهده اشتد

ساعد امراء مراكش السعديين ، وقامت بين الوطاسيين والسعديين حروب ابادت الكثيرين من الطرفين ، ثم تصالح الفريقان على اقتسام البلاد ولكن هذا الصلح كان قصير الأمد . فقد تمكن السعديون أخيراً من القبض على الوطاسيين ، إلا أن ابا حسون المخلوع فر إلى الجزائر واستنجد بالاتراك فانجدوه بجيش دخل به فاس ، وفر السعديون إلى عاصمتهم ، ثم عاود أميرهم محمد السعدي الكرة على فاس ، وكانت بينه وبين ابي حسون حروب كان النصر فيها حليف السعديين ، ودخلوا فاس ثانيـة وألقوا القبض على أبي حسون وقتلوه ، وبموته انقرضت امرة بني وطاس وسيطر السعديون على مراكش كلها في ١٣ ايلول ١٥٥٤ .

وفي الحقيقة ، ان السلالة الوطاسية ليست بذات اهمية عظيمة ، لأن سادتها لم يعملوا سوى أن سلكوا سياسة المرينيين ولم يغيروا فيها شيئاً . ولقد حاولوا في البدء أن يناضلوا ضد الغزاة البرتغاليين ، ولكنهم تعاهدوا معهم أخيراً . لقد وضعوا ايديهم على بلاد في حالة انحلال واقتصرت على القسم الشمالي من مراكش من أم الربيعة إلى طنجة .

غير أن السلالة الوطاسية لم تكن وحدها في الميدان في النصف الثاني من القرن الخامس عشر والنصف الأول من القرن السادس عشر ، فقد ظهرت قوة السعديين كما رأينا ، وأخذت تعمل ضدها . وإذا بـدت الحكومة غير أهل لمقاومة السيطرة البرتغالية فإن جماهير الشعب المراكشي لم تقبل بذلك ، وكانت تحركها عاطفة دينية جريحة مع ما يمازجها من كره للأجنبي . وحاولت ان تقاوم أي آت من جديد حيثما ظهر : في البدء في الشمال في جوار سبته وطنجـة ، ثم في سهل السوس وحتى واحات درع عندما أسس البرتغاليون سانتا كروز — آغادير .

وأخيراً استطاع الشرفاء السعديون أن يجمعوا مراكش حولهم ويؤسسوا السلالة السعدية .

الدولة السعدية (١٥٠٩ – ١٦٥٩) . —من المؤكد أن أصل هذه السلالة عربي ، ولكن وصولهم إلى الشرفية كان موضع نقاش وجدل ، وعلى الأقل في عهد انحطاطهم . ولقد حامت حولهم ضجة تقول بأنهم لم يتحدروا من اولاد علي بن ابي طالب بن عم النبي ، بل من حليمة السعدية التي يرجع أصلها إلى بني سعد ، ولذلك سموا بالسعديين منذ بداية القرن السابع عشر . وقد جاءوا من شبه جزيرة العرب في القرن الثاني عشر قبل بني عمومتهم العلويين بقليل ، واقاموا في واحات درع الأوسط وعاشوا فيها حياة بسيطة متواضعة ، حياة اناس من صغار المثقفين ، وهيأ لهم أصلهم بعض الاعتبار . وفي النصف الثاني من القرن الخامس عشر اقاموا في وادي السوس في تادمي في الجنوب الغربي حيث بنوا زاوية خاصة بهم .

وعندما شغل الوطاسيون بمحاربة البرتغاليين في الشمال ظلت المناطق الجنوبية معرضة للخطر . فاجتمع الناس حول ابي عبد الله محمد القائم بأمر الله ، وترأس حركة الجهاد في السوس وحكم من ١٥٠٩ إلى ١٥١٧ . وخلفه ابنه أبو العباس أحمد الأعرج (١٥١٧ – ١٥٣٠) ، وتابع مقاومة البرتغاليين ، وطهر سواحل السوس ، ودخلت مدينة مراكش في طاعته عام ١٥٢٣ ، وأخلى البرتغال آصيلا في الشمال على ساحل المحيط الأطلسي . ثم استولى اخوه محمد (١٥٣٩ – ١٥٥٧) على العرش وسجنه مع اولاده في مراكش ، وحارب البرتغاليين وفتح حصن فونتي ١٥٤١ . وقد أسسه البرتغاليون عام ١٥٠٥ على ساحل المحيط الأطلسي لتأمين مواصلاتهم التجارية وبنوا بقربه حصن أغادير ، ثم استولى على مكناس

وفاس ١٥٤٩ . وكان الوطاسيون مازالون يحكمون في هذه المنطقة فقبض على آخر ملوكهم ، وصار اليه حكم المغرب الأقصى في ١٥٥٤ وانتهت الدولة الوطاسية .

وكان محمد المهدي على خلاف دائم مع الأتراك الذين خلفوا دولة بني زيان في الجزائر لاعتقاده أنه أولى منهم بالاشراف عليها ، ولذا سار إلى تلمسان واستولى عليها حتى وادي الشليف في عام ١٥٥٠ ، غير انه لم يحتفظ بها طويلاً ، لأن الاتراك كروا عليه وهزموه واستولوا على فاس مع ابي حسون الوطاسي ، ثم اجلاهم السعديون عنها كما رأينا .

وكان محمد المهدي شديد البطش ، قتل ثلاثـــة علماء بتهمة ممالاة الوطاسيين ، وبطش بارباب الزوايا ، بعد أن خشي قيامهم عليه ، وربما كان على حق بعد أن توسط بعضهم للأتراك في الجزائر .

وطد المهدي حكم السعديين في مراكش ، ويقال بأن السلطان سليمان القانوني طلب إلى المهدي أن يقرأ له الخطبة في المساجد وان يضرب النقد باسمه فأبى . فبعث اليه من قطع رأسه وحمله إلى استانبول .

وخلف محمد المهدي ابنه عبد الله الغالب بالله (١٥٥٧ — ١٥٧٤) ، وكان صالحاً عـادلاً . ومن مآثره جامع الاشراف بحومة المواسين في مراكش والسقاية المتصلة به والمارستان الذي أوقف عليه اوقافاً كثيرة .

وفي العام ١٥٦٢ حاصر محمد المهدي مدينة الجديدة التي بناها البرتغاليون وكاد يفتحها لولا خوفه من هجوم الاتراك واسطولهم القريب ، فهادن البرتغال ، ولم يعارض نزول الاسبان في مرمى باديس على البحر المتوسط ، وكان بيد العثمانيين ، لئلا يجدوا سبيلاً الى المغرب ، وتم الاتفاق بينـه وبين الاسبان والبرتغاليين على الا يتجاوز العثمانيون الجزائر غرباً ، بعد

ان زحفوا من تلمسان في أوائل حكم الغالب بقيادة حسن بن خير الدين باربروس ، فهزمهم الغالب وتشردوا في الجبال حتى بلغوا باديس .

وقد ندد العلماء واثنان من أخوة الغالب وهما عبد الملك وأحمد بسياسته ، وعندما توفي في ١٥٧٣ كان الاخوان لاجئين في الجزائر .

وخلف المهدي ابنه محمد المتوكل (١٥٧٣ – ١٥٧٥) ويعرف بالمسلوخ . ولم تمض على حكمه سنتان حتى قام عليه عماه عبد الملك وأحمد وكانا خارج البلاد ، فقد ذهب عبد الملك الى استانبول يطلب مساعدة السلطان سليم الثاني وكان هذا مشغولا بأمر تونس التي استولى عليها الاسبان بدعوة من الحفصيين ، وعندما جهزت الدولة العثمانية حملة سنان باشا ضد تونس رافقها عبد الملك واسهم فيها وابلغ خبر استيلاء العثمانيين عليها في ١٥٧٤ إلى السلطان فكافأه بأن أمر جيش الجزائر أن يساعده . وهكذا تقدم الجيش إلى فاس وانضم إليه جيش ابن اخيه السلطان محمد المتوكل فدخل فاس في ١٥٧٥ . وفر المتوكل إلى الجنوب واختفى عن الاعين ، وتولى السلطة عبد الملك وتلقب بلقب المعتصم بالله (١٥٧٥ – ١٥٧٨) واتخذ مراكش مقراً له ، وعين أخاه أحمد على فاس . وظن ان الامر قد استتب له ، ولكن المتوكل جمع جموعه وزحف على مراكش واستولى عليها . واستنجد المعتصم بأخيه أحمد فانجده وحاصروا مراكش حتى استوليا عليها وفر المتوكل إلى السوس فتبعه أحمد ، وجرت بينهما معارك دامية كتب فيها النصر لاحمد ، وفر المتوكل الى طنجة واستنجد بالبرتغاليين فانجدوه على ان يتنازل لهم عن الشواطىء المغربية . وفي سنة ١٥٧٨ سار المتوكل مع حلفائه البرتغاليين لقتال المعتصم بالله فدارت الدوائر عليه وعلى البرتغاليين في معركة تعرف بمعركة وادي المخازن في شمال غربي مراكش . ومات المتوكل غريقاً في النهر وتوفي المعتصم أثناء المعركة . وكان مريضاً ومحمولاً

على محفة وكتم خبر وفاته حتى انتهاء المعركة التي اعتبرت حاسمة لأن البرتغاليين ايقنوا أن لا سبيل لهم الى اجتياح المغرب .

وبعد المعتصم حكم أخوه أبو العباس أحمد وتلقب بلقب المنصور بالله (١٥٧٨ — ١٦٠٣) ويعتبر من أعظم السلاطين السعديين . وكان حكيماً شجاعاً ، بلغ المغرب الاقصى في عهده درجة عالية من الرقي ، ونعم بالاستقرار بعد زوال خطر البرتغال ، وكانت علاقاته ودية مع الامبراطورية العثمانية التي كان يحكمها مراد الثالث (١٥٧٤ — ١٥٩٥) الذي اعترف باستقلال مراكش . ولم يتمكن المنصور من التوسع شرقاً بسبب هذه العلاقات الحسنة مع العثمانيين لأن الجزائر كانت ولاية عثمانية .

أصلح الجيش وأحسن تدريبه ، وأخذ يوسع المغرب ، ففتح المناطق الصحراوية ١٥٨٢ ، وذاع صيته في مناطق السودان ، وتم له فتحها عام ١٥٩١ ، وصار يأتيه الذهب منها بكثرة . وعظم شأن المنصور وأخذت الدول ترسل اليه الوفود والهدايا للحصول منه على قروض وصار يلقب بـ « الذهبي » .

انشأ المنصور مجلساً شورياً سماه الديوان وكان يجتمع بـه كل يوم اربعاء بأعيان الدولة لتبادل الرأي والمشورة في أمور البلاد . وكان بحق رجل دولة ، ومثقفاً ثقافة واسعة ، ولم تمنعه شؤون الامبراطورية عن المطالعة ، حتى لقب « عالم الخلفاء وخليفة العلماء » .

ورأت البلاد المراكشية في عهده الأمن والرفاه والخصب ، فقد اهتم بالتجارة ؛ واستغل حصر الصناعات ، ولزم اليهود أو المسيحيين طواحين السكر ، ووجه تهريب الحرب ، وأثرى من ارباح المشتريات ، وزاد نسبة الضرائب ، وقضى على الثورات الداخلية ، واخطرها ثورة البرانس التي قادها المدعي بالعرش ، الناصر ، واخفقت لعدم دعم اسبانيا (١٥٩٥ — ١٥٩٦) لها .

وحكم المنصور البلاد بحزم وعزم ، وكان يساعده أمناء نخص بالذكر منهم مؤرخه الفشتالي ويهودي . وكان للمنصور فلسفة سياسية خاصة استوحى منها طريقة حكمه للقبائل . ونظم حكومة مراكش ، المخزن ، حسب قواعد وأصول دامت حتى انشاء الحماية الفرنسية بالرغم من التغيرات التي ادخلت فيما بعد .

ألفت البلاد المراكشية اتحاد قبائل يدار من قبل هيئة مركزية ، المخزن ، مع قبائلها العسكرية المعفاة من الضرائب ووزرائها وضباطها وحكامها ورجال القصر . وهذا التنظيم يجعل من مراكش مراكشين : مراكش الرسمية (بلاد المخزن) وتضم بلاد الطائفة الاسلامية ؛ الخاضعة لضريبة الدولة ، وتحتلها القبائل العربية ويديرها المخزن مباشرة ؛ ومراكش المستقلة (بلاد السيبا) ، وهي خارجة عن سلطة السلطان الفعلية ، وعلى استعداد للطغيان على بلاد المخزن . وكان التنافس بين هذين القسمين في زمن المنصور عتيداً ، ولم يكن مكشوفاً كما جرى ذلك في المستقبل ، وذلك بفضل حكمة المنصور وجاهه وقوة جيشه .

وزين السلطان المنصور ، كأخيه الغالب ، مدينة مراكش ، واستدعى العمال اليها من جميع البلاد ، ومن اوروبه أيضاً ، وعهد بذلك الى أشخاص مهرة ، واشترى بوزن السكر رخام ايطاليا ، وبعد انتصاره في وادي المخازن قام ببناء قصر البديع ، ودام هذا البناء خمسة عشر عاماً . ويرتفع هذا القصر في إطار القصبة السعدية ، وقد حفرت فيه عدة أحواض وبلطت بالخزف وزينت بالفسقيات ، وأحيطت بها حدائق الورد والاجنحة الفخمة .

وكان للسلطان المنصور بلاط فخم يستقبل فيه الاجانب بأبهة

وفخامة . وكانت تختلف اليه الشخصيات من أصحاب النفوذ واليهود والتجار المسيحيين والسفراء الأجانب ورجال ثقة الشريف والمندوبين السياسيين ورجال الأعمال والوسطاء والسماسرة ، وتلبس فيه الأعياد الدينية أبهى الحلل والزينات .

وقد جعل فتح السودان لمراكش في عهد المنصور شهرة اسطورية وخول سلطانها جاهاً عظيماً . وقد أقلقت قوته سلاطين القسطنطينية فأرادوا أن يفرضوا عليه تفوقهم الديني ، حتى ان البيلربكوات المقيمين في الجزائر كانوا يحلمون بتسليم مواني الأطلسي إلى قرصانهم . واستنجد المنصور ضد خصومه الشرقيين بمساعدة أوربية . ومع هذا فقد تجنب تدخل البيلربك علج علي باغداق الهدايا إلى الباب العالي (١٥٨١) ، وبفضل وفاة علج علي (١٥٨٧) وزوال البيلربكوات (١٥٨٨) نجا من خطر دائم ، وأصبح بامكانه أن يقوم بدور الهجوم لولا أن تنافس أولاده شغل باله فصرفه عن ذلك .

ولم ترفض الدول المسيحية عروضه . كان الانكليز والاسبان يتنازعون التحالف معه . وقد صاقب الانكليز مراكش عام ١٥٥١ ، وأفادوا من إخفاق البرتغال لينموا مبادلة أقمشتهم بالذهب والسكر والجلد وملح البارود (نترات البوتاسيوم) ، وتنظيم التهريب . ولكن المنافسات بين التجار المستقلين وعمال تجار مدينة لندن من جهة ، ونفوذ كبار الشخصيات اللندنية من جهة أخرى ، أجهضت محاولة تجميع المصالح والجهود في هيئة واحدة « الشركة البربرية » (١٥٨٥) . ومنذ ذلك الحين لم تتقدم التجارة الانكليزية . ومع ذلك فان علاقات المصالح والأعمال أسهمت في توجيه انتباه الملكة اليزابيث نحو أهمية مراكش الاقتصادية

والسياسية . فقد حاولت أن تشكل حلفاً ضد فيليب الثاني يدخل فيه سلطان القسطنطينية وسلطان مراكش ، ولكن المنصور كان يعتبر الترك أعداء يخشى خطرهم . وبالرغم من الكره التقليدي ، الذي تشعر به مراكش حيال اسبانيا ، والذي عبر عن نفسه بحماس شعبي لدى سماع خبر تدمير أسطول الأرمادا (١٥٨٨) ، فما كان ليجهل بأن فيليب الثاني كان يتعهد في بلاطه أخا المتوكل ، وهو على استعداد دوماً ليتزعم ثورة . وكان ملك اسبانيا من جانبه يخشى أن يقبض القرصان المراكشيون على قوافل الهند ، وينتهوا بالإطاحة بالحصون البائسة المحاصرة ، فحاول أن يشتري حياد السلطان بالتخلي له عن أرزيلا عام ١٥٨٩ .

وقد لعب المنصور بين الاسبان والانكليز بمهارة فائقة بالخوف الذي أوحاه بتدخله ، وساوم بمساعدته ولكنه لم يعط شيئاً . بيد أن خطة فيليب الثاني لاحتلال جزيرة آرغوين والشاطىء الصحراوي ، في سبيل الحصول على ذهب السودان ، ، رجح كفة الميزان لصالح انكلترا ، حتى ان المنصور تصور فتح اسبانيا واقتسامها مع انكلترا . ولكن الملكة اليزابيث فضلت أن توجه جهدها إلى الهند . وقد أنهى موت الملكة العجوز وموت المنصور بالطاعون تحقيق مشروعات هذه السياسة الكبرى (١٦٠٣) .

ولم يعقد المنصور مع فرنسا سوى علاقات مصالح واستقبال القناصل الفرنسيين . كما أن البلاد المنخفضة في عهده أخذت تهتم بالتجارة مع مراكش .

الجزائر

لقد شجع تفتت المغرب في آخر القرن الخامس عشر اطماع الدول الأوروبية في بلاده . وكما استقر البرتغاليون على تخوم الاطلسي ، استقر الاسبان

في حصون الشاطىء الجزائري والتونسي ، ولكن محاولاتهم تحطمت أمام مشاريع الاتراك العثمانيين .

لقد كان المغرب الشرقي والاوسط ، بسبب التفكك والتجزئة وفوضى الحكم ، فسيفساء سياسية والفت الموانى القائمة على الشاطىء الافريقي الشمالي من جزيرة جربه إلى مراكش نوعاً من جمهوريات منظمة للقرصنة : تونس ، بنزرت بجايه ، الجزائر ، وهران وغيرها ، وجهز كل واحد منها لحسابه الخاص اساطيل تجوب البحر المتوسط . وكان القراصنة في القرن الرابع عشر والخامس عشر قطاع طرق وجنود حروب مقدسة ضد الغزاة الاوربيين الذين اتخذوا الصليب شعاراً وقاموا بغزو البلاد بحجة الخلاص من أعمال القرصنة وفرض الأمن والسلام في ربوعها . ولقد بولغ ولا شك بأهمية العوامل الدينية التي كانت في أصل هذا الغزو الأجنبي « الصليبي الجديد » . ولا نزاع في أن للغيرة الدينية التي كانت تتملك فرديناند آراغون الكاثوليكي وتظهر في مراسلاته الرسمية ، وان لاسهام الاكليروس في تنظيم الحملة الاولى أثراً واضحاً في هـذا التوسع الاستعماري ، ولكن الفوائد المادية التي أريد الحصول عليها كانت تتخطى العوامل الدينية ، لأن ملك اسبانيا الحق ظفر الايمان باعتبارات السياسة الداخلية وخاصة الخارجية التي لاصلة لها به ، وكان الجنود المسيحيون يعملون جنوداً ويهتمون بسلام أرواحهم أقل بكثير من اهتمامهم بالتمتع بالسلب والنهب والقتل .

وفي الوقت الذي كان الاسلام يتراجع فيه من اسبانيا كان يتقدم في اوربه على يد الاتراك العثمانيين . لقد فتح هؤلاء القسطنطينية وأفادوا من انحطاط الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية وغمروا بموجاتهم المتتالية آسيا الصغرى . وأقاموا على شواطىء الدردنيل ، ومنه نفذوا إلى البلقان وأخذوا يهددون المسيحية الأوربية في عقر ديارها ، ويفتحون البلاد العربية

الواحد بعد الآخر ، ويحاولون من وراء ذلك السيطرة على البحر المتوسط وهذا التدخل من قبل العثمانيين جعل الحصون التي استولى عليها الاسبانيون في الشمال الافريقي في حالة خطر ، واكثر من ذلك أدى إلى اخفاق سياسة اسبانيا الافريقية .

وقد حز في نفوس الجزائريين ماحل بهم من خطر الاسبان وهجومهم فراحوا إلى التركي عروج الذي استقر في جيـلي منذ ١٥١٤ يطلبون منه النجدة . وعروج هذا كان بكر أربعة أولاد : عروج ، خير الدين الياس ، إسحاق ؛ وكان أبوهم جندياً من جزيرة ميتيلين (لسبوس القديمة) ثم تخلى عن مهنة السلاح واشتغل صانعاً للأواني . وقد أظهر هؤلاء الاخوة منذ حداثة سنهم استعداداً فريداً للقرصنة ، وفي احدى مغامراتهم هلك الياس واضطر عروج ان يجدف على سفن لفرسان طريقة القديس يوحنا ، ولا يعلم كيف نجا ، ولا لأي سبب غادر الأرخبيل اليوناني مع اخوته ونقل مسرح عملياته إلى المتوسط الغربي ، وقد تمتع من ١٥٠٤ إلى ١٥١٠ بجاه عظيم في نفوس المسلمين لما اشتهر به من قرصنة السفن المسيحية ، وخاصة الاسبانية ، وتأمين هجرة المسلمين النازحين من الاندلس إلى شمالي افريقية . ومنذ ذلك الحين كثر المغامرون الباحثون عن الغنائم بالمئات تحت أمره . وكان السلطان الحفصي يهتم بالربح فخوله اجازة التموين من موانيه . وحكم عروج جزيرة جربه التي أصبحت قاعدة لاسطوله .

وفي ١٥١٢ أراد عروج أن ينتزع بجايه من الحصار بعد أن ناداه الحاكم الحفصي المطرود ، ولكنه لم يستطع قيادة الهجوم لأن قنبلة أصابته فبترت ذراعه .

على أن نبأ موت فرديناند الكاثوليكي أثار موانئ المغرب التي يحتلها الاسبان ، واعتبر الجزائريون أن هذا الموت يجعلهم في حل من يمين الطاعة الشخصي حيال هذا الملك ، ولكنهم كانوا يشعرون بضعفهم ولا يستطيعون تحرير أنفسهم فطلبوا من شيخهم سالم التومي أن يستدعي عروج ، فانبرى القرصان للمغامرة واحتل في البدء شرشال التي يحكمها مغامر تركي آخر ، ثم دخل الجزائر دخول الظافرين ، وانقذت الجزائر المدينة على يده (١٥١٦) .

غير أن المؤامرات بدأت تحاك على عروج بمعونة الاسبان ، وقتل في إحدى حملاته (١٥١٨) . وكان عمل عروج مهدداً بالدمار لولا أن عاوده ووجهه إلى غايته اخوه خير الدين المعروف بلقب بارباروسا . فلقد رأى أمارات المغرب لايمكنها أن تقاوم اسبانيا ، وان على الدولة العثمانية أن تقوم بهذا العمل ، وعرض خدماته على السلطان العثماني سليم الأول الذي منحه لقب باشا وجعله حاكماً عاماً على الجزائر في ١٥١٩ وسماه أمير الامراء (بيلربك) . ثم أصبح في عهد السلطان سليمان القانوني قائداً للاسطول العثماني ليوجه العمليات ضد الامبراطور شارلكان وحلفائـه .

وفي العام ١٥٣٤ استولى على تونس وأرسل اليه السلطان قوة كبيرة ولكن الحسن الحفصي لجأ إلى الاسبان فساعدوه وعاد إلى عرشه في السنة التالية واتسع نفوذ اسبانيا ، بيد انها انشغلت في الوقت نفسه بالحروب الاوربية وفشلت في الاستيلاء على الجزائر عام ١٥٤١ .

الدولة الجزائرية ، الوجاق . — لقد نظم خير الدين بارباروسا الجزائر ، بعد أن أصبحت ولاية عثمانية ، تنظيماً عسكرياً لم يطرأ عليه

تبدل عميق حتى الفتح الفرنسي في القرن التاسع عشر . وكانت مليشا الانكشارية تمثل الجيوش الممتازة ، وتساق من الطبقات الفقيرة في الاناضول ، ولكنها تنقلب في الجزائر إلى امراء عظام وتؤلف طبقة ارستقراطية . وكانت هذه المليشا تضم عدة أورطات وتقيم في الثكنات مجموعة في (اوضات) تتألف من ١٢ إلى ٢٠ رجلاً . وكانت هذه الاورطات تسهر على القدر البرونزي الكبير وتتجمع حوله للأكل والنقاش . وفي حال الثورة يقلب الانكشاريون هذا القدر ويرفعون أصوات الحرب (ايستيايز) .

وكان اللباس الرسمي يحتوي على طاقية بقرنين (طرطوره) من قماش ملون مطوي ينزل إلى نقرة الرقبة ، وينسب ابداعها إلى حركة درويش تركي ، ويعلوها غمد من الخشب وقرن مذهب أو رياش مختلف ألوانها ؛ وعلى جاكيت مفتوح له أكمامه ؛ وسروال يمسك به بشال ملفوف حول الخصر . وفي عهد حكم البيلربكوات كان الوجاق يستعمل البندقية القديمة والسهام مع الاسلحة النارية والسيوف المستقيمة والسيوف المنحنية والخناجر .

وكان الانكشاريون يتمتعون براتب مربح ويقبضون الخبز واللحم والزيت وجزءاً من غنائم القرصنة وعطاء ، ويفيدون من استثناء الضريبة . وكانت أعراف الوجاق تحدد كل شيء حتى العقوبات ، والانكشارية بنجاة من المحاكم العادية ويتبعون في ذلك ضباطهم الذين يستطيعون أن يفرضوا عليهم السم والجلد بالعصا أو الموت . وكان الاعدام سرياً .

وتتألف المليشا من المشاة فقط ، لان الفرسان (السباهية) كانوا يؤخذون من بين قدامى الاغوات أو أبناء البلاد الاصليين ، وكانت شجاعة

وتسودها روح التضامن والجماعة ، ولكنها كانت فظة وغير منظمة . وكان مجلسها (الديوان) مكلفاً بحماية منافعها . ولايتوانى عن خلطها بمنافع الدولة ، ولايكتفي بأن يندب بعض أعضائه إلى ديوان الباشا حيث تناقش قضايا الحكومة والعدل ، ولكنه يحاول مراراً الاستيلاء على السلطة . وكان يوجه ضرباته ضد البيلربكوات وضد طبقة من الرؤساء المتلفسة التي تساندهم .

حكم البيلربكوات . ـ لقد كان السلطان يعين البيلربكوات الذين يحكمون النيابة مباشرة أو عن طريق من يقوم مقامهم (خليفة) ، ولم يكونوا مقيدين برأي الديوان ، ويمارسون سيادتهم على باشوات تونس وطرابلس ويتصرفون « ملوكاً » في الجزائر . وكانوا موالين للباب العالي وينفذون أوامر السلطان العثماني .

وكان البيلربكوات يعيشون ، في الجزائر ، في الجنينة التي تحتل مركز عدة أبنية تعرف تحت اسم « دار السلطان » ، وتضم هذه فناءين ، ويضم اصغرهما بركة مربعة ونافورة وسلماً خشبياً في إحدى الزوايا ينتهي الى بهو مبلط بالخزف ومحاط باعمدة الرخام . وفي منتصفه ترتفع نافورة فوق بركة مثمنة . وفي الصدر كرسي واطىء يجلس الباشا عليه .

ولم يكتف الباشوات باغناء عاصمتهم بالقرصنة ، بل استغلوا الجزائر مع الفتح ، وسهلت الفوضى المستحكمة ووحدة الدين وتأثير الطرق الصوفية تقدمهم في البلاد . ولم يقتصروا على احتلال الساحل ، بل وضعوا الحاميات في المدن ذات المواقع الستراتيجية . وكان تنظيمهم يميل إلى الضغط على أبناء البلاد وارهاقهم بالضرائب .

وادرك البيلر بكوات بأن الانكشارية خطر عليهم فحاولوا انشاء جيش القبائل وخاصة الزواوا . وقد عهد إلى هذا الجيش بمهمة الحفاظ على الأمن الداخلي في الأقاليم . وظل الوجاق مرتبطاً بطائفة الانكشارية ورجال البحر . ويبدو ان الانكشارية تغاضت عن انشاء هذا الجيش لان غنائم الحروب البحرية كانت توفر لهم مرتبات كافية . وعندما أخذت أهمية الباشوات تتضاءل تمكن الوجاق في سنة ١٦٥٩ من تنصيب أحد اعضائه دايا أو حاكماً فعلياً للولاية على نمط النظام المتبع في تونس منذ الانقلاب الذي قام به الانكشارية عام ١٥٩٠

وقسمت الجزائر في العهد العثماني إلى ثلاثة أقسام رئيسية : اقليم قسنطينة في الشرق ، واقليم وهران في الغرب وعاصمته معسكر ؛ اقليم بتطري وعاصمته مدية في الوسط .

وكان منصب حاكم الاقليم قاصراً على الاتراك . أما القادة فيختارون من الترك أو السكان الأصليين . وكما هي عادة الادارة العثمانية لم يتدخل العثمانيون في حياة السكان الاجتماعية بل تركوهم وشأنهم ، ولذلك حافظ النظام القبلي على مقوماته في الجزائر ، حتى ان بعض القيادات كانت تتمشى مع توزيع القبائل .

وازدهرت مدينة الجزائر في العهد العثماني ، وخاصة في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وقدر عدد سكانها في ذلك العصر بنحو مائة الف نسمة من اجناس مختلفة : من الترك والأوربيين الذين اعتنقوا الاسلام ويؤلفون نصف المدينة ، والنصف الآخر يتألف من المهاجرين الاندلسيين الذين سموا البلدي وابناء القبائل العربية أو البربرية القريبة .

واثرت الهجرة الاندلسية في الجزائر ، وانتشرت فيها القصور المشيدة

على الطراز الاندلسي ، وكان يجلب اليها الرخام من ايطاليا . وعجت هذه القصور بالتحف الفنية التي كان يسلبها القراصنة من السفن الأوربية.

تونس

تتمتع تونس بموقــع جغرافي واستراتيجي ممتاز على شاطىء البحر المتوسط ، وقد لعبت دوراً هاماً في النزاع بين الدولتين العثمانية والاسبانية في هذا البحر ، وتبادل الجانبان المتنازعان احتلالها أكثر من مرة. وكانت الدولة الحفصية عاجزة عن دفع الخطر الاسباني الذي يتهددها . ولذلك فكر خير الدين بارباروسا بضم تونس ، ولاسيما بعد أن ساءت علاقاته مع الحفصيين الذين تآمروا مع الثائرين عليه في الجزائر . وسنحت له الفرصة عندما لجأ الرشيد الحفصي اليه بعد أن استولى أخوه الحسن على السلطة وأراد القضاء على أبناء أخيه ليثبت عرشه ، فاصطحب خير الدين الأمير الحفصي معه إلى الآستانة عام ١٥٣٣ واستطاع أن يقنع السلطان سليمان بضم تونس إلى ولاية الجزائر ، وأن يزوده باسطول كبير لهذا الغرض ، وتم له ذلك وأعلن ضم تونس مباشرة ، وأصبحت من بعد ولاية عثمانية .

وقد اعتبر الامبراطور شارلكان ضم تونس تهديداً لممتلكاته الايطالية ، وأعد حملة كبرى لذلك ، ومما شجعه على هذه الحملة لجوء الحسن الحفصي اليه واستنجاده به . وكان السلطان العثماني منشغلاً في نزاعه مع الصفويين في فارس ، واضطر خير الدين إلى الاعتماد على قواه الخاصة . ونزلت حملة شارلكان في تونس ، وانضم اليها الأسرى ، وأخذوا يرتكبون الفظائع . وبعد هذه الهزيمة تابـع خير الدين نشاطه الحربي في البحر ، فغزا جزيرة مينورقة وهاجم السواحل الاسبانية ، ثم استدعته حكومة الآستانة لقيادة الاسطول العثماني في حربها مع البندقية .

وأعاد شارلكان الحسن الحفصي إلى حكم تونس وفرض عليه معاهدة قاسية وغير مشرفة . ورفضت معظم الأقاليم التونسية الخضوع للحسن الحفصي ، وتمكن أحد أفراد الأسرة الحاكمة ويدعى حميدة من خلعه والاستيلاء على السلطة عام ١٥٤٢ ، ولكنه لم يستطع أن يعيد للأسرة اعتبارها .

وأصبحت السواحل التونسية في حالة فوضى ومحور نزاع بين آندريا دوريا أمير الماء الجنوي الذي يعمل لحساب الامبراطور شارلكان ودراغوت خلف خير الدين في قيادة الاسطول .

ثم أخذت كفة العثمانيين ترجح بعد استيلائهم على ميناء طرابلس الغرب في عام ١٥٥١ ، واستولى دراغوث باشا على قفصة وأوغل في داخل تونس وتوصل إلى القيروان واحتلها عام ١٥٥٨ وأقام فيها حامية عثمانية ، وأصبحت تونس تخضع لنفوذين : النفوذ الحفصي في الشمال ، والنفوذ العثماني في الجنوب . وثبت انتصار دراغوت عام ١٥٦٠ على حملة جربه مركز العثمانيين في تونس .

وبعد مقتل دراغوت في حصار مالطة عام ١٥٦٥ أخذ بيلر بك الجزائر الجديد ويدعى علي باشا علوج (علج علي في بعض المصادر) على عاتقه مهمة توطيد الحكم العثماني في تونس .

واستولى العثمانيون على تونس في عام ١٥٦٩ ، وعاد الحفصيون مرة أخرى واستنجدوا بالاسبان وأخرج العثمانيون .

وهكذا تعاقب العثمانيون والاسبان على تونس إلى أن أتى سنان باشا فاتح اليمن واستولى على تونس وقضى على الدولة الحفصية في العام ١٥٧٤ وتم للدولة العثمانية حكم طرابلس وتونس والجزائر في آخر القرن السادس عشر .

حكم تونس . — لقد أبقى سنان باشا على الكثير من أنظمة الحفصيين بعد فتح تونس ، وهذا يرجع إلى أن الحكم العثماني ورث دولة عريقة في تونس بخلاف ما كان في الجزائر التي جعل منها العثمانيون دولة قائمة بذاتها . وتبعت تونس حاكم الجزائر في عهد البيلربكوات ، حتى إذا سقط هذا النظام صارت تونس ولاية عادية يرأسها الباشا ، ويساعده في إدارة البلاد الباي المشرف على الشؤون المالية ، ثم الديوان ، مجلس الجند الأعلى .

ليبيا

بعد زوال دولة الموحدين في افريقية عام ١٢٦٩ ، أصبحت ليبيا تابعة للحفصيين في تونس ، ومنذ أوائل القرن السادس عشر تعرضت هذه البلاد للاحتلال الاسباني (١٥١٠ – ١٥٣٠) .

طرابلس الغرب . — وكانت طرابلس أقوى مدينة في الشمال الافريقي ، وامتازت بثروتها وغناها ، ولكن أحوالها كانت مضطربة ، فضلاً عن أن أحمد الحفصي التجأ إلى فرديناند ملك اسبانيا يستنجده ضد والده ، وكانت الأخبار قد أفادت أن حالة طرابلس من الغنى والانحلال والضعف تستوجب فتحها . وفي ١٥ تموز ١٥١٠ رسا الاسطول الاسباني في ميناء طرابلس وفتح نيران مدافعه على المدينة ، ثم تمكن من انزال الجنود ودخول الجامع الكبير وقتل أكثر من ألفي شخص ومهاجمة القصر وأسر الوالي وعائلته مع بعض الزعماء .

وقد شجع هذا الفتح الاسبان وحرك أطماعهم في أفريقية ، ولكن المسلمين استاءوا لهذا الاحتلال ، وقابله الطرابلسيون المقيمون في الاسكندرية وأحرقوا فيها فندقاً اسبانياً . ولما استقر الأمر للاسبانيين جعلوا من

طرابلس قاعدة لعملياتهم البحرية ولغزو الشمال الافريقي ، فمن ذلك أنهم حاولوا مرتين فتح جزيرة جربة ، مركز القرصان . ولكنهم عجزوا عن ذلك لا .اتة أهلها في الدفاع .

وفي سنة ١٥١٣ الحقت مدينة طرابلس بصقلية بعد أن تنازل ملك اسبانيا عنها لنائبه في هذه الجزيرة ، وهاجرت على أثر ذلك عائلات صقلية للاستيطان بها بعد أن شجع نائب الملك المهاجرين ومنحهم المنازل والاراضي الزراعية واعفاهم من الضرائب .

فرسان القديس يوحنا (١٥٣٠ — ١٥٥١) . — ينتسب فرسان القديس يوحنا إلى طريقة دينية تأسست في القدس لمساعـــدة الحجاج المسيحيين ثم تحولت أثناء الحروب الصليبية إلى منظمة عسكرية وأخذت تعنى بمعالجة الجرحى في الحرب . وعندما انتصر صلاح الدين الايوبي على الصليبين طرد هؤلاء الفرسان من القدس فذهبوا منها إلى عكا ثم طردوا من هـذه عام ١٥٢١ وانتقلوا إلى جزيرة رودس وألفوا دولة مسيحية تحت رعاية البابا واستولوا على جزر الدوديكانيز ، ثم أخذوا يعرقلون تحركات الاسطول العثماني في حوض البحر المتوسط الشرقي ، فجهز السلطان سليم الاول اسطولاً وحاصر رودس ، واستسلمت الجزيرة أخيراً سنة ١٥٢٢ . وسمح السلطان سليمان القانوني للفرسان بمغادرة الجزيرة فرحلوا إلى إيطاليا بدعوة البابا كليمان السابع ، ثم طلبوا من الامبراطور شارلكان أن يمنحهم جزيرتي مالطة وقوزو لتكونا مركزاً لهم فأجاب الامبراطور طلبهم واشترط عليهم الدفاع عن مدينة طرابلس فقبلوا هذا الشرط ورحل وفد منهم إلى طرابلس ليستلم المدينة من واليها الاسباني . وانتهى حكم الاسبان المباشر على طرابلس بعد أن دام عشرين عاماً .

طرابلس الغرب وفرسان القديس يوحنا . — لاقى الفرسان في طرابلس صعوبات كثيرة ، ونخص بالذكر منها عداء أهالي البلاد والاتراك الذين يعرقلون مواصلاتهم بين جنوب اوربه وشمال أفريقية .

وفي سنة ١٥٣١ توفي مولاي محمد ملك تونس وتولى ابنه الحسن الحكم من بعده ، فأرسل إلى والي طرابلس يطلب معاهـدة حسن الجوار بين البلدين ، غير أن أخاه رشيد هرب إلى الجزائر واستغاث بخير الدين الذي أعلن الحـرب على المسيحيين براً وبحراً واستولى على السفينتين التـين يملكها الفرسان .

ثم خلف دراغوت خير الدين في قيادة الاسطول . وتجمع الاسطول التركي في شرق البحر المتوسط بقيادة سنان باشا ومعه دراغوت . وتمكن الاثنان من طرد الفرسان من طرابلس بعد أن وهبهم أرواحهم . وفي ١٦ آب ١٥٥١ احتفل سنان باشا بفتح طرابلس وسمح للفرسان بمغادرة البلاد بعد يومين على هذا الاحتفال ، وهكذا انتهت فترة حكم الفرسان في طرابلس بعد أن أقاموا فيها ٢١ سنة ضربوا فيها المثـل في التعصب والفظاعة والانتقام .

برقة وفزان قبيل الفتح العثماني . — كانت برقة تابعة لحكم سلاطين المماليك في مصر كما كان الحال في زمن الايوبيين والفاطميين ، ولكن هذه التبعية كانت اسمية لأن المماليك لم يباشروا الحكم في برقة بأنفسهم . ثم ساءت الأحوال في هذا الاقليم بعد أن تدهور وضع المماليك وتحولت طرق التجارة عن طريق رأس الرجاء الصالح ، وأخذت القبائل تستقل حيث هي ، واحتفظ الافراد بالولاء القبلي دون الاعتراف بأي سلطة ، كما تحالفت القبائل للذود عن كيانها أمام أي طارىء . وظلت حـالة

البلاد على هذا النحو حتى زوال المماليك على يد السلطان سليم الأول العثماني عام ١٥١٧ .

أما فزان فكانت تابعة اسمياً لبني حفص إلى أن ضعفوا . ثم تمكن بعض الزعماء الاقوياء من أن يتحكموا بمصير البلاد ، وظهرت امرة آل خطاب وحكمت في فزان فترة طويلة . ومنذ احتلال الاسبان لطرابلس حتى مجيء العثمانيين أسس منتصر بن محمد ، أحد أشراف مراكش ، أمرة حاكمة في فزان عرفت باسم امرة بني محمد ، واتخذت مدينة مرزق عاصمة لها . وبعد الفتح العثماني أعلنت هـــذه الامرة ولاءها للعثمانيين فاقروها في حكم فزان . وظلت تحكم هذا الاقليم حتى قتل يوسف باشا القره مانلي آخر حكام هذه الاسرة سنة ١٧١١ م .

ليبيا ولاية عثمانية ؛ العهد العثماني الأول (١٥٥١ – ١٧١١) . — قبل أن يغادر سنان باشا طرابلس ، ولى عليها مراد آغا (١٥٥١ – ١٥٥٣) مدة حياته وترك فيها حامية صغيرة ، وقام هذا الوالي باعمال مجيدة في تعمير مدينة طرابلس وقلاعها وتشجيع الناس على الزراعة والصناعة ونضال فرسان القديس يوحنا ، وبنى في تاجوراء جامعه العظيم والحق به مدرسة لتعليم الاولاد .

دراغوت باشا (١٥٥٣ – ١٥٦٥) . — لقد كافأت الدولة العثمانية دراغوت بتوليته نيابة طرابلس . وقد اتاح له هذا المنصب أن يلعب دوراً هاماً في السياسة الدولية شبيهاً بالدور الذي لعبه خير الدين من قبل عندما كان والياً على الجزائر .

حاول دراغوت تثبيت الحكم العثماني في ليبيا كلها ، وقدم له زعماء البلاد الليبية ولاءهم للحكم العثماني ، وجعل من مدينة طرابلس قاعدة بحرية

عثمانية ، واهم بالنشاط العمراني وتشجيع الزراعة والتجارة ، ونشر الامن وبنى في طرابلس المسجد المعروف باسمه جامع دراغوت .

وعندما طلب ملك فرنسا ، هنري الثاني ، متابعة التعاون العسكري مع العثمانيين عهد السلطان العثماني إلى دراغوت بالقيام بهذه المهمة واشترك باساطيله العثمانية المغربية في سنة ١٥٥٢ مع الفرنسيين في حملة موجهة ضد جزيرة كورسيكا ، وكانت في ذلك الحين تابعة لجنوة ، ولكنه استاء من حلفائه بعد أن منعوا جنوده من الافادة من الغنائم .

وحول دراغوت طرابلس إلى قاعدة بحرية لمواجهة الأطماع الأروبية عامة وفرسان مالطة خاصة .

ثم تمكن في سنة ١٥٥٩ و١٥٦٠ من رد الاعتداءات المتكررة في المغرب . فبعد أن وقعت اسبانيا الصلح مع فرنسا جددت حربها الصليبية بتدبير حملة بالاشتراك مع جنوة والبابا ضد طرابلس . وعندما وصلت الاساطيل إلى الميناء وجدت فيها قوات كبيرة ، فاتجهت صوب جربة واستولت عليها بعد أن وجدتها خالية . ولكن دراغوت تمكن بعد بضعة أشهر على هذه الحادث من طرد الاسبان متعاوناً مع قبطان الاسطول العثماني بيالي باشا . ثم وجه جهوده إلى التخلص من قاعدة مالطة .

وفي سنة ١٥٦٥ وجه السلطان سليمان القانوني حملة بحرية كبرى للنزول في الجزيرة ، ولكن حاكمها لافاليت استمات في الدفاع وكبد العثمانيين خسائر فادحة . وكان دراغوت على رأس الضحايا . وقد أطلق اسم لافاليت على عاصمة مالطة تخليداً لصموده أمام العثمانيين في حصارهم للجزيرة .

ولا تختلف طرابلس من حيث انظمتها الداخلية عن بقية نيابات

المغرب إلا بالتفاصيل . ويتم تعيين الوالي بموجب صدور فرمان سلطاني ، وكان الوالي (الباشا) يستعين في إدارة الولاية بمجلس الديوان ويرأسه الداي ، زعيم البحرية ، وبالحامية الانكشارية ويرأسها الباي . وكثيراً ما كان الداي والباي يستأثران بالحكم الفعلي في البلاد في حالة ضعف الباشا . وكثيراً ما كانا يختلفان ويجر خلافهما على البلاد الدمار والخراب . وكانت طائفة الانكشارية بعد وفاة دراغوت سبباً في اضطراب الأمن وقيام الثورات في طرابلس وبرقة وفزان ، وذلك بسبب تمردهم وتدخلهم في شؤون الحكم . وظلت حالة البلاد مضطربة حتى حكم الامرة القره مانلية سنة ١٧١١ . وكانت الحكومة العثمانية تحرص على تقصير ولاية الولاة لئلا يفكروا بالاستقلال في ولايتهم . وقد بلغ عدد من تولى ليبيا من الولاة في هذه الفترة (١٥٥١ — ١٧١١) ثلاثة وأربعين والياً . وكان جل اهتمام الواحد منهم جمع المال وامتصاص الدماء . وهذا لم يمنع من وجود ولاة اشتهروا بالشجاعة والامانة والأعمال الجيدة .

الخاتمة

لقد كان القرن السادس عشر عصر النهضة الأوربية وعصر الحداثة والتجديد ، ولكن مازالت فيه بقايا وآثار من مجتمع العصر الوسيط وحضارته .

وإذا نظرنا إلى هذا العصر من جهة النظر الاقتصادية لرأيناه ، من عدة وجوه ، ثورة حقيقية سبقت بقرون مديدة من التطور . فقد وجدت ، منذ العصر الوسيط ، في ايطاليا والبلاد المنخفضة خاصة ، رأسمالية بشكل تجاري . وفي القرن الخامس عشر ، وخاصة بعد حرب المائة عام ، يرى في اوربة عموماً توسع اقتصادي عظيم .

والحادث الهام حقاً هو أن الاقتصاد الاوربي اندفع اندفاعاً عظيماً بتأثير الاكتشافات الجغرافية الكبرى والفتوحات فيما وراء البحار التي قام بها البرتغاليون والاسبان . فقد وجدت طرق تجارية جديدة ، وأخذ التجار ، الاوربيون يبحثون مباشرة في الشرق الاقصى عن التوابل والسلع الثمينة بعد أن كانت تأتيهم بطريق التجار العرب والايطاليين . ولا يعني هذا أن البحر المتوسط فقد قيمته مباشرة ، بل ان انحطاط الجمهوريات البحرية القديمة في ايطاليا بدأ من قبل وورثت مواني الأطلسي والمانش وبحر الشمال رخاءها ، وبدأت حركة الأعمال التجارية تتركز في مدن مثل آنفرس ومن بعدها امستردام .

ثم أن تدفق الذهب والفضة الاميركيين على أوربة أثر في حياتها

الاقتصادية والاجتماعية ، ورفع الاسعار بشكل لم يعرف من قبل ، ولعبت الرأسمالية ابتداء من ذلك الحين دوراً عظيماً ظهر بنمو المصارف الخاصة والعامة وانشاء الاسواق المالية والمضاربات وانشاء الشركات المساهمة وتوسع المبادلات والاستثمار . وكان أصحاب المصارف بأعمالهم الكبرى يلعبون دوراً سياسياً كبيراً ، مثل آل فوغر أثناء الانتخابات الامبرطورية عام ١٥١٩ . وبدأت الرأسمالية الصناعية تظهر بدورها ، كما أخذت الاوساط الريفية والمنزلية تنمو وتفتح الطريق أمام ظفرها في المستقبل .

ويلفت النظر في الحياة الاقتصادية ، في القرن السادس عشر ، طابع الشدة والكثافة والقوة ، وكما قال وليم اشلي : « إن الثورة الاقتصادية في القرن السادس عشر هي هذه الظاهرة الاقتصادية لما نسميه « فردية النهضة » .

ووجدت في القرن السادس عشر ثورة فكرية حقيقية ، ولكنها لم تنقطع عن الماضي بشكل مفاجيء ، لان بعض عادات العصر الوسيط مازالت موجودة لدى كتاب عصر النهضة وترجع إلى الفلسفة المدرسية . ولكن رجال القرن السادس عشر وخاصة النخبة المختارة منهم ، كانوا يرون ويشعرون بالحياة الجديدة تتدفق في أفكارهم وعقولهم ومفهومهم الجديد للطبيعة والعلم واعتمادهم على التجربة التي لاترى في الكتب ؛ هذا فضلاً عن أن بعضهم دل على مفهوم جديد وأصيل لامور الحياة والروح أكثر من فلاسفة العصر .

وظهر تأثير القديم أيضاً في الفنون التشكيلية ، ولاسيما البناء والنحت ، ولكنه لم ينقطع انقطاعاً تاماً وفجائياً عن فن العصر الوسيط ، لان الفن القديم تكيف مع الفنون القومية المختلفة ، كما ولدت الملاحظة المباشرة للطبيعة أشكالاً جديدة خصبة بالمعاني .

وكانت الثورة الدينية في أساسها عودة إلى الانجيل والمسيحية البدائية ، ولكنها ، من جهة أخرى ، ولدت مفهوماً جديداً للعقيدة والايمان مطبوعاً بطابع الاستقلال الذاتي للوجدان . ولقد رأينا أن اللوثرية لم تكن الظاهرة الوحيدة للاصلاح الديني ، بل وجدت أيضاً الزونغلية والكالفنية وغيرهما من الفرق الاخرى . ولم يكن هذا دليلاً على أن المصلحين كانوا أنصاراً لحرية الوجدان ، بل ان التنوعات الحتمية للكنائس البروتستانتية مهدت السبيل ، مع الزمن ، إلى حرية الفكر ، حتى أن بعضهم ، وكانوا متقدمين على عصرهم ، كانوا يفكرون بعدم وجوب معاقبة الهراطقة .

أما في الناحية العملية فـكان على الرعايا أن يتبعوا دين أميرهم . ومع هذا فقد ساد التسامح في بولونيا واضطرت الحروب الدينية السياسية في فرنسا إلى قبول الحل الوسط والتسوية في مرسوم نانت الشهير رغم ما كان عليه من ضعف .

واختلطت القضايا الدينية بالقضايا السياسية في هذا القرن ، وأوجدت الكنائس المصلحة منازعات أثرت على المفاهيم السياسية نفسها ، وتوصلت في كثير من الحالات إلى زعزعة سلطة الدولة دون أن تؤكد بأن الاصلاح الديني كان مشرباً بالديموقراطية .

ولم ينشأ تشكيل الدولة في مفهومها الحديث دفعة واحدة في القرن السادس عشر ، ولكنه نما في هذا العصر بشكل فريد ، وخاصة في فرنسا ، واسبانيا ، وانكلترا ، حيث كانت الملكيات مجهزة بهيئاتها الاساسية التي تكاملت مع الزمن وتراخى بتقدمها النظام الاقطاعي .

ونزع تقدم الدولة صاحبة السيادة إلى تشكيل أمم لها أصالتها الخاصة ورجالها الكبار من دبلوماسيين وسياسيين وفنانين ورجال فكر ودين وغيرهم .

وبشر سليمان العظيم في تركيا ، والشاه عباس في إيران ، واكبر في الهند بحضارة اسلامية أصيلة . وعرفت الصين في آل منغ واليابان في الشوغون ايازو تقدماً عظيماً ورقياً كبيراً . ولعبت كل وحدة سياسية دورها الخاص في حضارة القرن السادس عشر .

ولم تكن العاطفة القومية قوية بعد ، ومفهوم الحدود مازال غامضاً . ولكن اللغة الرسمية والادارية والادبية تقدمت تقدماً ملحوظاً واسهمت في تقوية الوجدان القومي دون القول بعد بوطنية لغوية ، وربما أمكن القول بحق الشعوب في تقرير مصيرها ، هذا الحق الذي يعتبر جوهر القومية ، ولكن القول في ذلك مازال سابقاً لاوانه . ولاول مرة يرى تشكل أمة جديدة وهي « الاقاليم المتحدة » اثر قيام الرعايا على سيدها .

ونشأت في السياسة الخارجية عادات وتعاملات جديدة بتأثير ايطاليا ، وأصبح لسادة اوربه دبلوماسيون نظاميون ودائمون مع تقارير منظمة واستعمال للأرقام السرية ، وكان ذلك نتيجة من نتائج حروب إيطاليا . وأدى التنافس بين الدول إلى تعصير السياسة الخارجية ، وقد ضرب ملوك فرنسا في ذلك المثل بعد أن تحالفوا مع الامراء البروتستانتيين في ألمانيا والسلطان العثماني . كما نشأت فكرة التوازن بين الدول الاوربية الكبرى وأفادت بلاط فرنسا في نزاعه ضد محاولات السيطرة العامة للبيت النمساوي . وأخيراً يمكن القول بأن فكرة تنظيم السلام نشأت بعد الحروب العديدة

كما كان عصر النهضة عصر اتصال الشعوب في خارج اوربه وعصر التضخم النقدي والثقافة الجديدة والمنازعات العقائدية ، بما حمل بعض المفكرين على اعتباره صورة مسبقة للتاريخ المعاصر .

المصادر الأساسية

المنشورات العربية

الدكتور أحمد عزت عبد الكريم وزملاؤه
مصر في العصر الحديث . دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٤ .
احسان حقي
١ - تونس العربية . دار الثقافة ، بيروت دون تاريخ
٢ - الجزائر العربية أرض الكفاح ، منشورات المكتب التجاري، بيروت ١٩٦١
٣ - المغرب العربي ، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر ، بيروت دون تاريخ
أحمد حسين شرف الدين
اليمن عبر التاريخ ، القاهرة ١٩٦٣
الدكتور جلال يحيى
المدخل الى تاريخ العالم العربي ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٦
حسن حسني عبد الوهاب
خلاصة تاريخ تونس ، تونس ، الطبعة الثالثة ١٣٧٢ ه
الدكتور حسن سليمان محمود
ليبيا بين الماضي والحاضر . مؤسسة سجل العرب ، الالف كتاب (٤٢٦) القاهرة ١٩٦٢
الدكتور زكي صالح
مجمل تاريخ العراق الدولي في العهد العثماني ، معهد الدراسات العربية العالية القاهرة ١٩٦٦

الدكتورة زينب عصمة راشد والدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى
مراجعة الدكتور أحمد عزت عبد الكريم
أصول التاريخ الاوربي الحديث من النهضة الأوروبية الى الثورة الفرنسية ، كتاب مترجم ، دار المعارف القاهرة ١٩٦٢

سيتون لويد
الرافدان ، موجز تاريخ العراق من أقدم العصور حتى الآن ، نقله الى العربية طه باقر و بشير فرنسيس ، بغداد ١٩٤٣

الدكتور صلاح العقاد
١ - الاستعمار في الخليج الفارسي ، الألف كتاب (١٢١) ، القاهرة ١٩٥٦
٢ - المغرب في بداية العصور الحديثة ، القاهرة ، معهد الدراسات العربية العالية ، محاضرات القاها عام ١٩٦٢ - ١٩٦٣
٣ - التيارات السياسية في الخليج العربي ، القاهرة ١٩٦٥
٤ - المغرب العربي ، القاهرة ١٩٦٦

ضرار صالح ضرار
تاريخ السودان الحديث ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٦٥

الدكتور عبد الرحمن زكي
حضارة عصر النهضة ، مؤلف مترجم ، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦١

عبد الرزاق الحسني

تاريخ العراق السياسي الحديث ، الجزء الاول ، مطبعة العرفان ، صيدا ، لبنان ١٩٤٨

الدكتور عبد الكريم رافق

بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني الى حملة نابليون بونابرت (١٥١٦ — ١٧٩٨) دمشق ١٩٦٧

الدكتور عبد الكريم غرايبة

١ ـ تاريخ العرب الحديث ، مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٠

٢ ـ افريقية العربية ، مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٠

٣ ـ العرب والاتراك ، مطبعة جامعة دمشق ١٩٦١

الدكتور فيليب حتي

١ ـ تاريخ سورية ، الجزء الثاني ، ترجمة الدكتور كمال اليازجي ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٥٩

٢ ـ لبنان في التاريخ ، ترجمة الدكتور أنيس فريحة مراجعة الدكتور نقولا زيادة ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٥٩

ليلى الصباغ

الفتح العثماني لسورية ومطلع العهد العثماني فيها ، رسالة ماجستير قدمت لجامعة القاهرة ١٩٦٠

محمد بدران
النهضة الأوربية ، أثر مترجم تأليف سدني دارك ، القاهرة ١٩٤١

الدكتور محمد خير فارس
تاريخ المغرب الحديث ، مذكرات لم تنشر بعد ، منسوخة على الآلة الكاتبة
جامعة دمشق ١٩٦٦ - ١٩٦٧

الدكتور نادر العطار
تاريخ سورية في العصور الحديثة ، الجزء الاول ، دمشق ١٩٦٢

المؤلفات الاجنبية

A. J. Arkell
A history of the Sudan, from the Earliest to 1821, London 1955.

Cornevin (Robert)
Histoire de l' Afrique des origines à nos jours, Payot Paris 1956

Dupuis (Jacques)
Histoire de l' Inde, Payot, Paris 1963,

Furon (Raymond)
l' Iran, Perse et Afganistan. Payot Paris 1951.

Gerald de Gaury
Arabian Journey, London 1951

HAUSER (Henri) et Augustin Renaudet
Les débuts de l' Age Moderne, t : VIII de la collection Halphenet Sagnac, Paris 1938

P. M. Holt
1 - *A Modern History of the Sudan,* Loudon 1961
2 - *Egypt and the Fertile Crescent* (1516—1922) , Longmans, London 1966

Julien (Ch. André)
Histoire de l' Afrique du Nord, Payot Paris , 1961

Jean - Jacques Schellens et Jacqueline Mayer
Histoire Universelle, t 5 de la collection Marabout Université, Verviers (Belgique) 1964
Histoire Universeile t : 6 Verviers (Belgique) 1964

Jean - Paul Roux
l' ls lam au Proche - Orient, Payot, Paris 1960

H, Lammens, S. J.
La Syrie , précis historique , Beyrouth 1921

Mousnier (Roland)
Les XVI et XVII Siècles t : IV de la collection Histoire Générale des Civilisations , P. U, F , Paris 1954
ترجم هذا الكتاب الى العربية دار عويدات في بيروت

NANET (Jacques)
Histoire du Liban, Paris 1963

Brigadier - Général Sir Percy Sykes
A History of Persia, London 1951

SÊE (Henri) et Armand Relbillon aves la collaboration d'Edmond Préclin
Le XVI e Siècle, P. U. F. éditeur , PARIS 1942

Zeller (Gaston)
les Temps modernes t : II lere partie de la collection : Histoire des Relations internationales , Hachette, Paris 1953

بعض الاعلام الاجنبية

الواردة في فصول الكتاب

A

Agnadel	آنيادبل
Aiguesmortes	ايغموورت
Albret (Charlotte)	شارلوت البريت
Amboise	آمبواز
Angoulême	آنغوليم
Ardres	آردر
Augsbourg	اوغسبورغ

B

Beaulieu	بوليو
Bentivoglio	آل بانتيفوليو
Blois	بلوا
Bodin (jean)	جان بودن
Boulogne	بولون
Bresse	بريس
BRUEGEL	بروغيل
Budé (guillaume)	غليوم بوديه
Bugey	بوجي
Bullant (jean)	جان بولان

C

Calais	كاليه
Calvin (jean)	جان كالفن
Cambrai	كامبريه
Cateau-Cambrésis	كاتو-كامبريزي
Charles Quint	شارلكان
Chinon	شينون
Ciceron	شيشرون
Colet (john)	جون كوليت
Colonna	آل كولونا
Coutras	كوترا
Crespy	كريبي

D

Doullens	دوللان
Dreux	دور
Duprat (Antoine)	انطوان دوبرا
Dürer	دورير

E

Estramadure	استرامادور
Etaple (Lefèvred')	لوفيفر ديتابل

P

Pantagruel — بانتا غرويل
PARÉ (Ambroise) — امبرواز باريه
la Paulette — ضريبة البوليت
Paulet — نسبة الى بوليه
PAVIE — بافيـــا
Périgord — بيريغور
Pilon (Germain) — جرمن بيلون
Pizzighettone — حصن بيزيغتون
Poissy — بوامّي
Pomestia — بوميستيا
Pomietchik — بوميتشيك
Pomponazzi — بومبوناز"ي
Pouzzoles — ميناء بوزول (بوزولي بالايطالية)
Pri Kaz — بريكاز

R

Rabelais — رابليـــه
Razrjad — الرازرجاد
Richet (Ligier) — ليجيه ريشيه
Romagne — رومانيو
Ronsard — رونسار
Rouvière (Julien de La) — جوليان دولاروفيير

S

le Saint - Barthélemy — سان بارتلمي
Saluces — ماركيزية سالوس
Savoie — سافـــوا
Savonarole — سافونا رولا
Schiner — ماتياس شينر
Senlis — سانليس
Servet (Michel) — ميشيل سيرفيه
Sforza — سفورزا
Smal Kalde — شمالكلد
Sully — سوللي

T

Taro — نهر تارو
Trente — ترانت
Tycho - Brahé — تيكو – براهيه

V

Valois (les) — آل فالوا
Vasa (Gustave) — غوستاف فازا
Vassy — فامّي
Vaucelles — فوسيل
Vervins — فيرفن
Vésale — فـــيزال
Visconti (Valentine) — فالانتين فيسكونتي

فولوستيلي	Volosteli
فولغاطة	Valgate

W

فارتبورغ	Wartburg
آل فيلزر	Welser
ولزي	Wolsey

Z

زمتشينا	Zemtchina
اولريخ زونغلي	Zwingle (Ulrich)

* * *

الفهرس

المقدمة

عصر النهضة

القسم الاول

النهضة الاوربية

الفصل الأول

اوربة والعالم في آخر العصر الوسيط

الفصل الثاني

حروب إيطاليا

من ١٤٩٤ الى ١٥٥٩

الفصل الثالث

النهضة

الفصل الرابع

النهضة الاقتصادية

الفصل الخامس

النهضة الدينية

الملكيات الأوربية المماثلة للملكية الفرنسية

الملكية الاسبانية

نموذج الملكية المعتدلة

انكلترا في عهد الاسرة التيوذورية

(١٤٨٥ — ١٦٠٣)

نموذج الجمهورية البورجوازية

البلاد المنخفضة

البلاد الاسكاندينافية

الدانـــيارك

السويد

الفصل السابع

ملكيات العصر الوسيط

بولونيا ، روسيا

الفصل الثامن

خطر الأتراك العثمانيين على اوربة

الفصل التاسع

نهضة السياسة الخارجية

الامبراطوريات والامبرياليات

مكايد الحرب

الفصل العاشر

العلاقات الثقافية

القسم الثاني

البلاد الآسيوية

الفصل الأول

المشرق العربي

الفصل الثاني

بلاد آسيا الوسطى والشرق الأقصى

ايران

الهند

أسماء الأشهر في البلاد العربية

١ - كانون الثاني	=	ينـاير
٢ - شباط	=	فبراير
٣ - آذار	=	مارس
٤ - نيسان	=	ابريل
٥ - أيار	=	مايو
٦ - حزيران	=	يونيـو
٧ - تمـوز	=	يوليو
٨ - آب	=	أغسطوس
٩ - ايلول	=	سبتمبر
١٠- تشرين الأول	=	اكتوبر
١١- تشرين الثاني	=	نوفمبر
١٢- كانون الأول	=	دسمبر

كلمة شكر

وافر الشكر لكل من أسهم
في نشر هذا الكتاب

[redacted]

ــوعة التاريخية الحديثة  الموسوعة التاريخية الحديثة

[redacted]

تاريخ العصر الوسيط

من أواخر العصر الروماني إلى القرن الثاني عشر

تاريخ العصر الوسيط

من القرن الثاني عشر إلى عصر النهضة

تاريخ عصر النهضة

تاريخ القرن السابع عشر

تاريخ القرن الثامن عشر

تاريخ النصف الأول من القرن التاسع عشر

تاريخ النصف الثاني من القرن التاسع عشر

تاريخ القرن العشرين

١٩٠٠ ـ ١٩٤٥

التاريخ الدبلوماسي

١٩٤٠ ـ ١٩٥٨.

تاريخ عصرنا

منذ ١٩٤٥

قضايا عصرنا

منذ ١٩٤٥

[redacted]

تاريخ الحركات القوميه (يقظة القوميات الأوربية)

أربعة أجزاء